الجامعة الأزهرية
كلية أصول الدين

مناهل العرفان
في
علوم القرآن

طبق ما قرره مجلس الأزهر الأعلى فى دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ
محمد عبد العظيم الزرقاني
مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد
بكلية أصول الدين سابقاً

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . آمِينَ .

تصدير الطبعة الثالثة وفهرسها

١ – التصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

« اَلْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » . أما بعد ، فهاهى الطبعة الثالثة من كتاب « مناهل العرفان فى علوم القرآن » أُقدِّمها لقرّائى الأكرمين بعد أن أَعَدْتُ النظر فيه ، رجاءَ أن أُدرك الكمال أو أُقارب ، فزدتُ وحذفت ، وقدّمتُ وأخّرتُ ، وصححت واستدركت ، ثم هيَّأ الله – تبارك آلاؤه – مطبعةً عاونتنى على حسن إخراجه ، فضبطته وشكلته ، ونظّمته وصقلته . ولولا أزمة الورق الحادة للبس الكتاب حلّةً أبهى من هذه الحلّة . ولكنَّ إذا سلم لك الجوهر واللباب ، فلا عليك من القشر والإهاب .

« خُذْ بِنَصْلِ السيفِ واترك غِمْدَهُ واعتبر فضلَ الفتى دونَ الحُلَلْ »

على أن الذنب فى ذلك هو ذنب هذه الحرب الضَّروس الطاحنة ، التى طغت وبغت ، وطمّتْ وعمّتْ ، حتى لم ينجُ من شرها شرق ولا غرب ، ولا ضيِّق ولا رحب ، بل قعدت للناس بكل صراط ، وأثَّرت فى جميع المرافق حتى أدوات الطبع (بالطبع) .

لطف الله بالبلاد والعباد ، وأخرج الإسلام من هذه المحنة قوىّ السِّناد ، رفيع العماد ، عالى الكلمة ، مسموع الصوت ، حتى يفىء الجميع إلى بُحبوحته ، ويتفيَّئُوا وارفَ ظلاله وسلامه ، وأمنه وإيمانه ، وعدله ورحمته ، ويسره وسماحته ، وحتى يعلموا أن نهضة العلم جناية على الإنسانية جائحة ، إن لم تسايرها نهضة روحية صالحة ، توفِّق بين مطالب الروح والجسد ،

وتؤاخي بين إنسان الشرق والغرب ، وتستأصل النعرات الجنسية والطائفية ، وتنظم من الكل جبهة متحدة على صراط الحق والخير ، « حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ » .

وهل توجد هذه المزايا مجتمعة إلا فى الإسلام؟ وهل يوجد الإسلام بغير القرآن؟ وهل يفهم القرآن إلا « بعلوم القرآن » ؟ وهو موضوع كتابنا الآن ! « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * » .

محاولاتى :

ولقد حاولت فى هذا التأليف أموراً خمسة :

أولها ـ أن تكون كتابتى من النسق الأزهرى الجديد فى تفكيره وفى تعبيره ، بحيث يتيسر فهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل، سواء منهم المحقق الأزهرى والمثقف المدنى ، فإن لكل زمان لغة ولساناً ، ومنطقاً وبرهاناً . « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

على أننى فى هذه المحاولة لا أدعى أننى أنشأت وابتكرت، ولا أحدثت وابتدعت. بل قصاراى أننى فهمت وأحسنت العرض إذا كنت قد وُفِّقْتُ . أما المادة نفسها فالفضل فيها لعلماء هذه الأمة الذين أبلَوْا فى جمعها بلاء حسناً ، ولم يخرجوا من الدنيا إلا بعد أن شقُّوا لنا الطريق ، وقرَّبوا البعيد ، وجمعوا الشتيت ، وتركوا من خلفهم ثروة علمية هائلة ، وكنوزاً ثقافية زاخرة ، لا يوجد مثلها ولا قريبٌ منها فى أيّة أمة من أمم الأرض إلى يوم الناس هذا ! وأعتقد أننا لو أحسنّا القيام على هذه التركة لكان لنا شأن غير هذا الشأن ، ومكانة وسلطان لا يدانيهما مكانة ولا سلطان !

ولكن ما قضى كان . ولعل المستقبل القريب يكون أسعد من هذا الحاضر الحزين الأسوان ! .

ثانيها — أن أعالج شبهات عصرنا الراهن علاجاً ينحي الأذى عن طريق عشاق الحق، وطلاب الحقيقة ، ورواد البحث ، ومريدي الإسلام .

ولقد التزمت في علاج هذه الشبهات أدب الباحث وواجب المناظر . ورأيت لمثل هذا الاعتبار أن أرخي الستر على أسماء أصحاب هذه الشبه خصوصاً المعاصرين منهم . وتعمدت هذه السياسة محاسنةً لهم عسى أن يرعوُوا ، وحبًّا في سلام البحث وهدوئه عسى أن يسلموا ويهدءوا ، وغضًّا من شأنهم إن كان لهم شأن كيلا يقلَّدُوا ، فإننا أصبحنا في زمان افتتن كثير من الناس فيه بالأسماء والرتب ، والأموال والنسب . وباتوا لا يعرفون الرجال بالحق إنما يعرفون الحق بالرجال ، فالباطل إن صدر من فلان النابه فهو عندهم حقٌّ وزين ، والحقُّ إن جاء به فلان الخامل فهو عندهم باطل وشين ! وهكذا اختلت الضوابط وانقلبت الموازين ! .

ثالثها — أن أُظهر عند كل مناسبة جلال التآخي بين الإسلام والعلم ، لتنكشف تلك الدسيسة الرخيصة المفضوحة التي خيَّلت إلى المخدوعين أنَّ بين الدين والعلم خصومةً قائمة ، وحرباً طاحنة ، وعداوة متأصلة ، كأن الدين رديف الجهل ، وكأن العلم حليف الكفر ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » .

رابعها — أن أُجَلِّيَ أسرار التشريع وحكمه كلما دعاني المقام ، ليعلم من لم يكن يعلم أن هذا الدين هو حاجة الإنسانية، ودواء البشرية ، وكمال الفرد، وصلاح الجماعة ، ولتنقطع أنفاس تلك الدعاية الضالة دعاية فصل الدين عن السياسة، والثقافة الدينية عن الثقافة المدنية،

وقوانين العدل ودساتير الحكم عن مقررات العقيدة وشعائر العبادة! وهى أخبث الدعوات وأفسقها فيما نعلم!.

ولئن صح أن يقال هذا فى أديانٍ قاصرة عن الوفاء بحاجات الإنسانية فى مناحى الإصلاح البشرى، فما كان يصح أن يقال هذا فى دين الإسلام بحال من الأحوال، لأنه دين عقيدة وعمل، وعبادة وقيادة، وعلم وخلق، وحكم وعدل، ورحمة وحق، ومصحف، وسيف، ودنيا وآخرة!

ومن كان فى ريب فليسأل التاريخ عن جليل الآثار التى تركها الحكم الإسلامى الصالح فى أتباعه ومن انضوى تحت لوائهم من الأقليات الأجنبية، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الطائفية.

بل ليسألوا العالم وأحداثه، والدهر وتصاريفه: أىُّ الحكمين كان أنجح فى تربية الأفراد، وأنجع فى إصلاحات الجماعات، وأهدى سبيلاً فى الاعتدال والاستدلال؟ أحكم السماء أم حكم الأرض؟ وقانون الخالق أم قوانين الخلق؟ وتشريع العليم الحكيم المنزه عن الغرض والهوى، أم تشاريع الإنسان القاصر النظر والاطلاع، المتأثر بطغيان الغرائز وجموح القوى؟ « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ. وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ »

وإن لم يكفهم هذا فليسألوا المنصفين من مشاهير الغرب، كغوستاف لوبون الفرنسى، وبرناردشو الإنجليزى، وأمثالهما من الذين درسوا الإسلام وبحثوه، ثم حكموا له وأنصفوه، وأطروه وامتدحوه. « والفضل ما شهدت به الأعداء »!.

ولنمسك القلم عن الجولان فى هذا الميدان ، فالكلمة هنا للتصدير والتنوير ، لا للمقارنة والتنظير . وحسبنا أن نردِّد قول الشاعر العربى :

« ملكنا فكانَ العفوُ منا سجيةً فلمَّا ملكتم سالَ بالدمِ أبطَحُ »
« فحسبكمو هـذا التفاوتُ بيننا وكلُّ إناءٍ بالذى فيهِ ينضحُ »

خامسها : أن أنفخ الروح من بوق هذا الكتاب فى الكرام القارئين ، لا سيما طلابى الأعزاء الذين هم على وشك النزول إلى ميادين الدعوة والإرشاد، فأوقظ هِمماً أخاف أن تكون قد نامت ، وأحيي عزائم معاذ الله أن تكون قد ماتت . والروح هى كل شىء ! هى القوة الدافعة ، وهى الحياة الرائعة ! والروح الصحيحة لا توجد إلا فى القرآن ، بل الروح الصحيحة هى القرآن ! « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا » !

إن الإسلام لا يريد من المسلم ولا يرضى له أن يكون هيكلاً جامداً ، ولا أن يكون تمثالاً هامداً ، فإن الإسلام عدوُّ الهياكل والجمود ، خصيم التماثيل والهمود .

إنما يريد الإسلام أن يكون المسلم روحاً يبعث الروح ، وحياةً يملأُ الدنيا حياة ، ورسولاً من رسل السلام والرحمة والنجاة ! أجلْ . ويريد الإسلام أن يكون أهل العلم من أتباعه أصحاب هممٍ علية ، ونفوسٍ أبية ، لا يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً ، ولا يريدون بعلمهم عرض هذا الأدنى . إنما همهم وراثة الأنبياء فى إصلاح العالم ؛ وتبليغ دعوة الإسلام على وجهها لطبقات الخلق ، وتنفيذ أحكام الله فى الأقضية وسائر شئون الحكم . « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » !

وهنا فى هذه الآية الحكيمة تتجلى رسالة العالم والطالب . ويالها رسالة ! ثم يالها أمانة ! نسأل الله السلامة والإعانة .

رجائى

تلك محاولاتى وأهدافى ، فإذا كنت قد أصبتها فذلك الفضل من الله ، « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ » . وإن كانت الثانية فإنما هى نفسى ، وأستغفر الله .

ورجائى من كل ناظر يطّلع على عيبٍ أن يدلّنى عليه ، ويرشدنى إليه . فالدين النصيحة ، والمسلمون بخيرٍ ما تعاونوا . وما نجح سلفنا الصالح وكانوا خير أُمة أُخرجت للناس إلا بهذه الفضيلة . وإنه ليحلو لى أن أقول هنا ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « رحمَ اللهُ رجلاً أهدَى إلىَّ عيوبَ نفسى » .

شكرى

وإنى لمدينٌ ببالغ الشكر ، وسابغ الحمد ، لأولئك السادة الأماجد الذين طوّقوا عنقى بجليل معاونتهم وتشجيعهم ، وجميل تقريظهم وتقديرهم .

ولا أزال أحفظ بالإجلال والإكبار ، ما لقيته فى هذه المناسبة السعيدة من بعض رجالات الدولة ، وكبار العلماء ، ورؤساء الجماعات الإسلامية ، وأصحاب المجلات والصحف اليومية ، وإخوانى أبناء الأقطار الشقيقة ، خصوصاً الذين عملوا منهم على ترجمة هذا الكتاب ونقله فى دقّة وأمانة إلى بعض اللغات الشرقية .

وأعتذر عن عدم نشر تقاريظهم والتنويه بفضلهم فى هذه المرة ، لخجل فى طبعى ، وضيقٍ فى طبع الكتاب .

عجل الله الفرجَ للأنام ، وأعاد عهد الرخاء واليسر والسلام ، وجعل العاقبة للإسلام وبلاد الإسلام « إِنَّ ٱللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ . قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً » ؟

المؤلف

٢ ـ الفهرس

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع

الموضوع	الصفحة

الصفحة | الموضوع

صفحة الموضوع

صفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٣١ ـ ٣٥٤	المبحث التاسع فى ترتيب آيات القرآن وسوره
٣٣١	معنى الآية
٣٣٣	طريق معرفة الآية
٣٣٦	عدد آيات القرآن
٣٣٧	سبب الاختلاف فى عدد الآيات
»	فوائد معرفة الآيات
٣٣٩	ترتيب آيات القرآن
٣٤١	ملاحظة فى عدد كلمات القرآن وحروفه
٣٤٢	شبهة تتصل بالموضوع وتفنيدها
٣٤٣	معنى السورة
٣٤٤	حكمة تسوير السور
٣٤٥	أقسام السور
٣٤٦	المذاهب فى ترتيب السور
٣٥١	احترام هذا الترتيب
٣٥٣	شبهتان خفيفتان وجوابهما
٣٥٤ ـ ٤٠٥	المبحث العاشر فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه
٣٥٤	الكتابة
٣٥٦	شأن الكتابة فى الإسلام
٣٥٧	هل كان النبى ﷺ يقرأ ويكتب ؟
٣٦٠	كتابة القرآن
٣٦٢	رسم المصحف وقواعد هذا الرسم
»	قاعدة الحذف
٣٦٣	قاعدة الزيادة
٣٦٤	قاعدة الهمز وقاعدة البدل

الصفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع

صفحة　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع

الجامعة الأزهرية
كلية أصول الدين

مناهل العرفان

في

علوم القرآن

طبق ما قرره مجلس الأزهر الأعلى فى دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ
محمد عبد العظيم الزرقاني
مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد
بكلية أصول الدين سابقاً

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا » ، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالقرآن رحمة للعالمين وفرجاً ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحابته ، وأتباعه ومحبيه وأمته .

أما بعد ، فهذا كتاب « مناهل العرفان فى علوم القرآن » . كتبته تحقيقاً لرغبة طلابي المتخصصين فى الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية . مستمداً معارفه ـ بعد فتوح الله وتوفيقه ـ مما كتب علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، فى القرآن الكريم وعلومه ، والتفسير ومقدماته ، وعلم تاريخ التشريع ، وعلمى الكلام والأصول ، وعلوم اللغة العربية ومعاجمها ، وعلمى الفلسفة والاجتماع ، وعلمى النفس والأخلاق ، وبعض البحوث المنشورة هنا وهناك ، فى غضون الرسائل والمجلات ، من عربية صميمة ، ومترجمة منقولة .

وإلى الله تعالى أضرع ، أن يكتب لى فيه النجاح والتوفيق والقبول ، وأن يحقق به النفع المرجوّ والأثر المأمول . « إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » .

مقدّمة

فى القرآن وعلومه ومنهجى فى التأليف

القرآن الكريم : كتاب ختم الله به الكتب ، وأنزله على نبى ختم به الأنبياء ، بدين عام خالد ختم به الأديان .

فهو دستورُ الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض ، أنهى إليه مُنزِلُه كلّ تشريع ، وأودعه كلّ نهضة ، وناط به كلّ سعادة .

وهو حجة الرسول وآيته الكبرى : يقوم فى فم الدنيا شاهداً برسالته ، ناطقاً بنبوته ، دليلا على صدقه وأمانته .

وهو ملاذُ الدين الأعلى : يستند الاسلامُ إليه فى عقائده وعباداته ، وحِكَمه وأحكامه ، وآدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواعظه ، وعلومه ومعارفه . !

وهو عماد لغة العرب الأسمى : تدين له اللغة فى بقائها وسلامتها ، وتستمدُّ علومَها منه على تنوعها وكثرتها ، وتفوق سائر اللغات العالمية به فى أساليبها ومادّتها .

وهو - أولاً وآخراً - القوّة المحوِّلة التى غيَّرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، وحوّلت مجرى التاريخ ، وأنقذت الانسانية العاثرة ، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً . !

لذلك كله ، كان القرآنُ الكريم موضعَ العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته ، ومن سلفِ الأمة وخلفها جميعاً إلى يوم الناس هذا .

وقد اتخذت هذه العناية أشكالا مختلفة ، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك .

ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحى بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودوّنوا الكتب ، وتباروا فى هذا الميدان الواسع أشواطاً بعيدة ، حتى زَخَرت المكتبةُ الإسلامية بتُراث مجيد من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام . وكانت هذه الثروة ولا تزال مفخرة نتحدّى بها أمم الأرض ، ونُفحم بها أهل المِلل والنِّحَل فى كل عصرٍ ومِصرٍ !

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة ، ومَوْسوعات قيِّمة ، فيما نسميه علم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثمانى ، وعلم التفسير ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم غريب القرآن ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وما شا كل ذلك من العلوم الدينية والعربية ، مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدِّقة لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

ولقد أنجبت تلك العلومُ الآنفة وليداً جديداً ، هو مزيج منها جميعاً ، وسليل لها جميعاً ، فيه مقاصدها وأغراضها ، وخصائصها وأسرارها ، « والولد سرٌّ أبيه » .

وقد أسموْه (علوم القرآن) وهو موضوع دراستنا فى هذا الكتاب إن شاء الله .

وسأحاول فيما أكتبه أن أمزُج بين حاجة الأزهريين إلى البحث والتحليل ، وبين رغبات جماهير القراء المعاصرين فى تقريب الأسلوب وتعبيد السبيل ، ماوسعنى الإمكان . وسأضطر بسبب ذلك إلى شىء من الإسهاب والتطويل ، ولكنها تضحية ضئيلة بجانب تأدية رسالتنا فى وجوب الاتصال الدينى بالجماهير .

وسأعرِض — بعون الله وتأييده — لعلاج الشبهات التى أطلق بخورَها أعداء الإسلام ، وسددوا سهامها الطائشة إلى القرآن ، ولكن عند المناسبة وسنوح الفرصة .

وسأجتزئ في كل مبحث ببعض أمثلة من القرآن الكريم ، دون أن أحاول ما حاوله سلف الكاتبين من استيعاب كل فرد لكل نوع ؛ فإن حبل ذلك طويل وثقيل ، على حين أن الناظر يكفيه الإيضاح بقليل من التمثيل .

وسأجعل نقاط المنهج المقرر عناوين بارزة بين المباحث التي يقوم عليها هذا الكتاب مقتفياً في الغالب أثر تلك النقط في التسمية وفي الترتيب . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

المبحث الأول

في معنى علوم القرآن

يقتضينا منهجُ البحث التحليلي لهذا المركب الإضافي ، أن نتحدث عن طرفيه ، وعن الإضافة بينهما ، ثم عن المراد بهذا المركب بعد نقله وتسمية هذا الفن المدوّن به .

(١) أما العلوم : فجمع علم ، والعلم في اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ، ويرادف الجزم أيضاً في رأي . ثم تداولت هذا اللفظَ اصطلاحاتٌ مختلفة :

فالحكماء : يريدون به صورة الشيء الحاصلة في العقل ، أو حصول الصورة في العقل ، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه . والتحقيق عندهم هو الاطلاق الأول .

والمتكلمون : يعرّفون العلم : بأنه صفة يتجلّى بها الأمر لمن قامت به ، وهو مراد من قال منهم : « إنه صفة توجب لمحلها تمييزاً لا يحتمل النقيض » ولو كان هذا التمييز بوساطة الحواس كما هو رأي الأشعري .

ويطلق العلم في لسان الشرع العام : على معرفة الله تعالى وآياته ، وأفعاله في عباده وخلقه . قال الإمام الغزالي في الإحياء : « قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى وآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر في المناظرة مع الخصوم

فى المسائل الفقهية وغيرها . ولكن ماورد فى فضل العلم والعلماء أكثره فى المعنى الأول » اه وهو يفيد أن العلم الشرعى الخاص يطلق على أخص من هذا الذى ذكره الغزالى فى لسان الشرع العام ، ولكن بحسب ما يقتضيه المقام . بل لقد نص الغزالى نفسه فى الإحياء أيضاً على أن الناس اختلفوا فى العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ، وقال : إنهم تفرّقوا فيه إلى عشرين فرقة . ثم ذهب إلى أن المراد به علم المعاملة الشامل لما يصلح الظاهر من عبادات وعادات إسلامية ، ولما يُصلح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه .

والماديون : يزعمون أن العلم ليس إلا خصوص اليقينيات التى تستند إلى الحسّ وحده وسنناقش مذهبهم فى مبحث نزول القرآن .

واسفا بسبيل بيان تلك الاصطلاحات الآنفة الذكر ، فلها علومها وكتبها ومباحثُها ، إنما هو عرْض عام ، يعرف منه كيف أن لفظاً واحداً ــ هو العلم ــ أنهكته الاصطلاحات المتعددة ، وتداولته النقول المتنوعة ، فلاتقعنّ فى لبس إذا وُرد عليك فى صور شبه متعارضة .

العلم فى عرف التدوين العام :

والذى يعنينا كثيراً هو العلم فى اصطلاح آخر ، هو اصطلاح علماء التدوين ، لأننا بصدد الكلام فى علوم القرآن كفنّ مدوّن .

قالوا : يطلق العلم على المسائل المضبوطة بجهة واحدة . والغالب أن تكون تلك المسائل نظريةً كلية ، وقد تكون ضروريةً ، وقد تكون جزئيةً . أقول : وقد تكون شخصية أيضاً كمسائل علم الحديث رواية ، فإنها فى الواقع قضايا شخصية موضوعها ذات النبى ﷺ .

وقال السعد فى « المقاصد » وعبد الحكيم على المطول : ما يفيد أن العلم المدون قد يطلق على طائفة من التصورات ، أى المفردات التى يتصورها العقلُ مضبوطة بجهة واحدة .

وأقول : يمكن أن نستخلص من ذلك كله أن العلم فى عرف التدوين العام يقال على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية ؛ وسواء

أ كانت تلك المعلومات تصورات كعلم البديع ، أم تصديقات . وسواء أ كانت تلك التصديقات قضايا كلية - وهو الغالب - أم جزئية أم شخصية كعلم الحديث رواية .

هذا كله إطلاق واحد من إطلاقات ثلاثة لعلماء التدوين . والإطلاق الثانى عندهم : هو الإدراك أى إدراك تلك المعارف السابقة . والإطلاق الثالث : هو على ما يسمونه ملكة الاستحصال أى التى تستحصل بها تلك المعارف . أو ملكة الاستحضار أى التى تستحضر بها المعارف بعد حصولها . وأول هذه الإطلاقات هو أولاها بالقبول لأنه المتبادر من نحو قولهم : « تعلمتُ علماً من العلوم ، وموضوع العلم كذا » والتبادر - كما يقولون - أمارة الحقيقة . ذلك ما أردنا بسطه فى الكلام على لفظ « علوم » من قولنا « علوم القرآن » .

٢ - أما لفظ القرآن : فهو فى اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبى ﷺ ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله . ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة ، وقوانين الاشتقاق ، وإليه ذهب اللحيانى وجماعة . أما القول بأنه وصف من القرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن . أو أنه مشتق من قرنت الشىء بالشىء ، أو أنه مرتجل أى موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل ، غير مهموز ولا مجرد من أل ، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه ، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلْفة ، ولا من بعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة .

وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز ؛ وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته « ال » بعد التسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف .

ويقال للقرآن : فرقان أيضاً ، وأصله مصدر كذلك ثم سمى به النظم الكريم ، تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر ، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق

بعضه عن بعض فى النزول ، أو فى السور والآيات . قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً » ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء النظم الكريم . بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه ، كما ترجع صفات الله على كثرتها إلى معنى الجلال والجمال . ويلى هذين الاسمين فى الشهرة : هذه الأسماء الثلاثة : الكتاب ، والذكر والتنزيل . وقد تجاوز صاحب البرهان حدود التسمية ، فبلغ بعدتها خمسة وخمسين ، وأسرف غيره فى ذلك حتى بلغ بها نيفاً وتسعين ، كما ذكره صاحب التبيان . واعتمد هذا وذاك على إطلاقات واردة فى كثير من الآيات والسور ، وفاتهما أن يفرقا بين ما جاء من تلك الألفاظ على أنه اسم ، وما ورد على أنه وصف ، ويتّضح ذلك لك على سبيل التمثيل ، فى عدهما من الأسماء ، لفظ « قرآن » ولفظ « كريم » أخذا من قوله تعالى « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » كما عدّا من الأسماء لفظ « ذكر » ولفظ « مبارك » اعتماداً على قوله تعالى : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » على حين أن لفظ قرآن وذكر فى الآيتين ، مقبول كونهما اسمين . أما لفظ كريم ومبارك ؛ فلا شك أنهما وصفان كما ترى . والخطب فى ذلك سهل يسير ، بيد أنه مسهب طويل ، حتى لقد أفرده بعضهم بالتأليف . وفيما ذكرناه كفاية « وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

القرآن فى الاصطلاح

معلوم أن القرآن كلام الله ، وأن كلام الله غير كلام البشر ، ما فى ذلك ريب . ومعلوم أيضاً أن الإنسان له كلام ، قد يراد به المعنى المصدرى ، أى التكلم ، وقد يراد به المعنى الحاصل بالمصدر ، أى المتكلَّم به . وكل من هذين المعنيين : لفظى ونفسى . فالكلام البشرى اللفظى بالمعنى المصدرى : هو تحريك الإنسان للسانه وما يساعده فى إخراج الحروف من المخارج . والكلام اللفظى بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات

المنطوقة ، التى هى كيفية فى الصوت الحسى ، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج إلى توضيح . أما الكلام النفسى بالمعنى المصدرى ، فهو تحضير الإنسان فى نفسه بقوته المتكلمة الباطنة ، للكلمات التى لم تبرز إلى الجوارح ؛ فيتكلم بكلمات متخيَّلة يرتِّبها فى الذهن بحيث إذا تلفظ بها بصوت حسى كانت طبق كلماته اللفظية . والكلام النفسى بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتُّب الخارجى .

ومن الكلام البشرى النفسى بنوعيه قوله تعالى : « فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » . ومنه الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى عن أمِّ سلمة أنها سمعت رسول الله ﷺ وقد سأله رجل فقال : « إنِّى لأُحدِّثُ نَفْسِي بالشيء لَوْ تَكَلَّمْتُ بِهِ لأَحبطتُ أجرى » فقال عليه السلام : « لَا يَلقى ذَلِكَ الكَلَامَ إلّا مُؤمنٌ » فأنت ترى أن النبى ﷺ سمَّى ذلك الشىء الذى تحدثت به النفس كلاماً ، مع أنه كلمات ذهنية لم ينطق بها الرجل مخافة أن يحبط بها أجره . وهذا الإطلاق من الرسول يحمل على الحقيقة لأنها الأصل ولا صارف عنها .

كذلكم القرآن كلام الله — ولله المثل الأعلى — قد يطلق ويراد به الكلام النفسى ، وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظى . والذين يطلقونه إطلاق الكلام النفسى هم المتكلمون فحسب ، لأنهم المتحدثون عن صفات الله تعالى النفسيةِ من ناحية ، والمقررون لحقيقة أن القرآن كلام الله غير مخلوق من ناحيةٍ أخرى . أمَّا الذين يطلقونه إطلاق الكلام اللفظى ، فالأصوليون والفقهاءُ وعلماءُ العربية ، وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضاً ، بإطلاق ثالث عندهم كما يتبين لك بعد . وإنما عُنِيَ الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن على الكلام اللفظى ، لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ . وكذلك علماء العربية يعنيهم أمر الإعجاز ، فلا جرم كانت وجهتهم الألفاظ .

والمتكلمون يُعْنَوْنَ أيضاً بتقرير وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة ومنها القرآن ، وبإثبات نبوّة الرسول ﷺ بمعجزة القرآن . وبدهى أن ذلك كله مناطه الألفاظ ، فلا بدع أن ساهموا فى هذا الإطلاق الثالث .

القرآن عند المتكلمين

ثم إن المتكلمين حين يطلقونه على الكلام النفسى يلاحظون أمرين :

أحدهما : أن القرآن عَلَم أى كلام ممتاز عن كل ما عداه من الكلام الإلٰهى .

ثانيهما : أنه كلام الله ، وكلام الله قديم غير مخلوق ، فيجب تنزهه عن الحوادث وأعراض الحوادث .

وقد علمت أن الكلام النفسى البشرى يطلق بإطلاقين أحدهما : على المعنى المصدرى وثانيهما على المعنى الحاصل بالمصدر . فكذلك كلام الله النفسى . يطلق بإطلاقين أحدهما : على نظير المعنى المصدرى للبشر . وثانيهما : على نظير المعني الحاصل بالمصدر للبشر . وإنما قلنا (على نظير) لما هو مقرر من وجوب تنزه الكلام الإلٰهى النفسى عن الخلق وأشباه الخلق . فعرفوه بالمعنى الأول الشبيه بالمعنى المصدرى البشرى . وقالوا : « إنه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكمية . من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » .

وهذه الكلمات أزلية مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهى مترتبة غير متعاقبة . كالصورة تنطبع فى المرآة مترتبةً غير متعاقبة . وقالوا فى تعريفهم هذا : إنها حكمية لأنها ليست ألفاظاً حقيقية مصوّرة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا : إنها أزلية ، ليثبتوا لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية لينفوا عنها أنها مخلوقة . وكذلك قالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم الزمان ، والزمان حادث . وأثبتوا لها الترتب ، ضرورة أن القرآن حقيقة مترتبة بل ممتازة بكمال ترتبها وانسجامها .

إذا عرفت هذا الإطلاقَ الأول عند المتكلمين ، سهُـل عليك أن تعرف إطلاقهم الثانى للقرآن الـكريم : وهو أنه تلك الـكلمات الحـكمية الأزلية المترتبة فى غير تعاقب ، المجردةُ عن الحروف اللفظية والذهنية والروحيـة . وهو تعريف للقرآن كلام الله بما يشبه المعنى الحاصل بالمصدر لـكلام البشر النفسى. ذانك إطلاقان اختص بهما المتكلمون كما رأيت .

وهناك إطلاق ثالث للقرآن يقول به المتـكلمون أيضاً لـكن يشاركهم فيـه الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية . ذلك أنه هو :

« اللفظ المنزّل على النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » الممتازُ بخصائصه التى سنذكرها بعد قليل .

فهو مظاهر وصور لتلك الـكلمات الحـكميّة الأزلية ، التى أشرنا إليها آنفاً .

ويطلق القرآن إطلاقاً رابعاً على النقوش المرقومة بين دفَّتى المصحف ، باعتبار أن النقوش دالة على الصفة القديمة، والـكلمات الغيبية ، واللفظ المنزل. وهذا إطلاق شرعى عام . ولنضرب لك مثلاً يوضح ذلك المقام الذى ضلَّتْ فيـه الأفهام ، وزلَّتْ فيـه الأقدام .

رجل شاعر ، كشرف الدين البوصِيرى ـ رحمه الله ـ لا ريب أنه كانَ يحمل فى نفسه قوّة شاعرةً ، يستطيع أن يصوغ بهـا ماشاء من غُرر القصائد ، وعندما اتجهت شاعريّتُه فعلاً ، أن يمتدح أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليـه بقصيدته المعروفة بالهمزيّة ، لا شك أنه عالج النظم فى نفسه ، واستحضر المعانى والألفاظ والأوزان ، حتى تمثل له ذلك القصيـدُ فى نفسه وتأثرت نفسه به ، على وجـه إذا تـكلم به بصوت حسى كانـ عين نظمه المقفَّى الموزون . ثم لا شك أنه نطق بقصيده بعد ، ثم كتبه بعد أن أنشده. فهذا الاسم الشهير بالهمزية فى مدح خير البرية ، يمكن أن نقرب

به الاطلاقات الأربعة التى أطلقنا بها القرآن الكريم : يصح أن نطلق الهمزية على القوة الشاعرة لذلك الرجل باعتبار اتجاهها إلى هذا النظم الخاص ، الذى تمثَّل فى نفسه من قبل أن يأخذ صورة اللفظ والنقش. ويصح أن نطلقها على هذا النظم الخاص، الذى تمثل فى نفسه من قبل أن يظهر بمظهر الألفاظ والنقوش كذلك . ويصح أن نطلقها على هذا النظم بعد أن تمثَّل أصواتاً ملفوظة وحروفاً موزونة . ويصح أن نطلقها على هذا النظم متمثلاً فى صورته المرسومة ، ونقوشه المكتوبة .

القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية

أظننى قد أطلت عليك ولكن المقام دقيق وخطير ، فلا تضق ذرعا بهذا التطويل والتمثيل ، ثم استمع لما وعدتك إياه من بيان معنى القرآن على أنه اللفظ المنزل على النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

— هذا الاطلاق كما علمت — ينسب إلى علماء الأصول والفقه واللغة العربية . ويوافقهم عليه المتكلمون أيضاً. غير أن هؤلاء الذين أطلقوه على اللفظ المنزل الخ اختلفوا فى تعريفه : فمنهم من أطال فى التعريف وأطنب ، بذكر جميع خصائص القرآن الممتازة . ومنهم من اختصر فيه وأوجز . ومنهم من اقتصد وتوسط . فالذين أطنبوا عرفوه (بأنه الكلام المعجزُ المنزلُ على النبى ﷺ ، المكتوبُ فى المصاحف ، المنقولُ بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإعجاز ، والتنزيل على النبى ﷺ ، والكتابة فى المصاحف ، والنقل بالتواتر ، والتعبد بالتلاوة . وهى الخصائص العظمى التى امتاز بها القرآن الكريم . وإن كان قد امتاز بكثير سواها . ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفى فيه ذكر بعض تلك الأوصاف ويكون جامعاً مانعاً ، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان ، فيناسبه الاطناب لغرض زيادة ذلك والبيان . لذلك استباحوا لأنفسهم أن يزيدوا فيه ويسهبوا .

والذين اختصروا وأوجزوا فى التعريف : منهم من اقتصر على ذكر وصف

واحد هو الإعجاز . ووجهة نظرهم فى هذا الاقتصار أن الإعجاز هو الوصف الذاتى للقرآن. وأنه الآية الكبرى على صدق النبى ﷺ ، والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله .

ومنهم من اقتصر على وصفين : هما الإنزال والإعجاز وحجتهم أن ماعدا هذين الوصفين ليس من الصفات اللازمة للقرآن . بدليل أن القرآن قد تحقق فعلاً بهما دون سواهما على عهد النُّبُوَّة .

ومنهم من اقتصر على وصفى النقل فى المصاحف والتواتر ، لأنهما يكفيان فى تحصيل الغرض ، وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ماعداه .

والذين توسطوا : منهم من عرض لإنزال الألفاظ ، وللكتابة فى المصاحف وللنقل بالتواتر فحسب ، موجِّهاً رأيه بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة ، وأن ماذكره من الأوصاف هو من اللوازم البينة لأولئك الذين لم يدركوها، بخلاف الإعجاز فإنه غير بيِّن بالنسبة لهم ، وليس وصفاً لازماً لما كان أقل من سورة من القرآن .

ومن أولئك الذين تواسطوا مَنْ عرض للإنزال والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة فقط، مستنداً إلى أن ذلك هو الذى يناسب غرض الأصوليين. وعرّفوه بأنه : (اللفظ المنزل على النبى ﷺ ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته) فاللفظ جنس فى التعريف، يشمل المفرد والمركب . ولاشك أن الاستدلال على الأحكام كما يكون بالمركبات يكون بالمفردات ، كالعامّ والخاص والمطلق والمقيد . وخرج بالمنزل على النبى ﷺ مالم ينزل أصلاً مثل كلامنا ، ومثل الحديث النبوى ،وما نزل على غير النبى ﷺ كالتوراة والإنجيل. وخرج بالمنقول تواتراً جميعُ ماسوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة، سواء أكانت مشهورة نحو قراءة ابن مسعود « متتابعات » عقيب قوله تعالى « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » أم كانت آحادية كقراءة ابن مسعود أيضاً لفظ « مُتَتَابِعَاتٍ »عقيب قوله سبحانه « وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فإن شيئاً

من ذلك لا يسمى قرآناً ، ولا يأخذ حكمه . وخرجت الأحاديث القدسية إذا تواترت بقولهم « المتعبد بتلاوته » .

هل القرآن عَلَمُ شخص ؟

أسلفنا أن القرآن يطلق على الصفة القديمة ، ويطلق على الكلمات الحكمية الأزلية ، وهذان الإطلاقان لا تعدد فيهما ألبتة ، لا حقيقة ولا اعتباراً . بل هما منزهان عنه ، لأن التعدد من أمارات الحدوث . كيف وهما قديمان ؟ !

وإذاً فلفظ القرآن علم شخص بهذين الإطلاقين لا محالة . أما إذا أُريد بالقرآن « اللفظ المنزل » فهنا يكون الخلاف . فالرأى السائد أنه علم شخص ، مدلوله تلك الآيات المنزلة الممتازة بخصائصها العليا من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وهذه الألفاظ المعيَّنة لا يقدح فى تشخصها اختلاف المتلفظين ولا تعدد القارئين ، كما لا يقدح فى تشخص محمود مثلا أن يكون فى مكة أو فى المدينة، ولا أن يتقلب فى أطوار مختلفة من طفولة إلى شيخوخة، ومن صحة إلى مرض ، ومن حياة إلى موت ، ونحو ذلك . وبعضهم يجعله علمَ جنس، نظراً إلى تعدد هذه الألفاظ المنزلة بتعدد قارئيها وكاتبيها . وهذا مردود من وجهين ،

أحدهما : أن علم الجنس ضرورة نحوية اقتضتها أحكام لفظية ، كامتناع إضافته، ودخول أل عليه . ولا ضرورة هنا لفظية .

ثانيهما : أن علم الجنس نكرة فى المعنى. وأفراده منتشرة متعددة حقيقة لا اعتباراً. والتعدد الملحوظ هنا اعتبارى لا حقيقى . للقطع بأن ما يقرؤه أو يكتبه كل منا فهو القرآن عينه لا فرد من أفراده .

هل يُصاغ للأعلام تعاريف

بقى علينا أن نتساءل : إذا كان القرآن علماً فكيف ساغ أن يُصاغ له تعريف

بل تعاريف على نحو ماسبق ؟ مع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات ، والعَلَم جزئى مركب من الماهية ومشخصاتها . والمشخصات لا يمكن معرفتها إلا بالاطلاع عليها بالحواس كالإشارة مثلا ، أو بالتعبير عنها باسم عَلَم ؟

ولنا على ذلك أجوبة ثلاثة :

أولها : أنا نمنع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لم لا يجوز أن تعرف الجزئيات بأمور كلية لا يتحقق مجموعها فى الخارج إلا فى هذا الشخص بخصوصه . وهذا الجواب قريب مما ذكره صاحب التلويح إذ قال : « الحق أن الشخص يمكن أن يُحَدَّ بما يفيد امتيازه عن جميع ماعداه بحسب الوجود ، لا بما يفيد تعينَه وتشخُّصَه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل . فإن ذلك إنما يحصل بالإشارة لا غير » اهـ .

ثانيها : أنا نسلم أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لكن ماذكروه ليس بتعريف حقيقى إنما هو ضابط مميِّز ، وليس بمعرِّف .

ثالثها : أن هذا تعريف على رأى الأصوليين الذين لا يشترطون فى التعاريف أجناساً ولا فصولا . بل الحد عندهم هو الجامع المانع مطلقاً . وعليه فيصح أن يحد الشخص عند الأصوليين دون المناطقة .

إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه

لا شك أن القرآن يطلق على الكل وعلى أبعاضه . فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : إنه قرأ قرآناً . وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه : إنه قرأ قرآناً . لكنهم اختلفوا : فقيل إن لفظ قرآن حقيقة فى كل منهما ، وإذاً يكون مشتركاً لفظيًّا . وقيل هو موضوع للقدر المشترك بينهما ، وإذاً يكون مشتركاً معنوياً ، ويكون مدلوله حينئذ كليًّا .

وقد يقال : إن إطلاقه على الكل حقيقة وعلى البعض مجاز . والتحقيق أنه مشترك لفظى ، بدليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما ، والتبادر أمارة الحقيقة . والقول بعلمية الشخص فيه كما حققنا آنفاً يمنع أنه مشترك معنوى ، فتعين أن يكون مشتركا لفظيًّا . وهو مايفهم من كلام الفقهاء إذ قالوا مثلاً : (يحرم قراءة القرآن على الجنب) فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء .

٣ — معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافى

الآن وقد انتهينا من الكلام على المتضايفين فى لفظ « علوم القرآن » ننتقل بك إلى أن الإضافة بينهما تشير إلى طوائف المعارف المتصلة بالقرآن سواء أكانت تصورات أم تصديقات ، على ماعرفت وجه اختياره فى مدلول لفظ العلم فى عرف التدوين العام .

وإنما جمعت هذه العلوم ولم تفرد لأنه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن . إنما أريد شمول كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه . وينتظم ذلك علم التفسير ، وعلمَ القراءات ، وعلمَ الرسم العثمانى ، وعلمَ إعجاز القرآن ، وعلمَ أسباب النزول ، وعلمَ الناسخ والمنسوخ ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم غريب القرآن ، وعلوم الدين واللغة إلى غير ذلك . وتلك أشتات من العلوم توسَّع السيوطى فيها حتى اعتبر منها علم الهيئة والهندسة والطب ونحوها . ثم نقل عن أبى بكر بن العربى فى قانونه التأويل أنه قال : « علوم القرآن ٧٧٤٥٠ خمسون وأربعمائة وسبعة آلاف وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبةً فى أربعة . إذ أن لكل كلمة ظهراً وبطناً ، وحداً ومطلعا . هذا فى المفردات فحسب . أما إذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان مالا يحصى ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى » اه بتصرف قليل .

وأحب أن تعرف أن هذا الكلام من السيوطى وابن العربى ، محمول على ضرب

كبير من التأويل والتوسع ، بأن يراد من العلوم كل مايدل عليه القرآن من المعارف ، سواء أكانت علوماً مدوّنة أم غير مدوّنة ، وسواء أكانت تلك الدلالةُ تصريحية أم تلميحيةً ، عن قرب أم عن بعد . فأمّا أن تُراد العلوم المدوّنةُ صراحة فدون ذلك خرط القتاد وصعود السماء .

القرآن كتاب هداية وإعجاز

وتحقيق القول فى هذا الموضوع : أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين المطمحين نزل ، وفيهما تحدّث ، وعليهما دلّ . فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته ، أو يتّصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من علوم القرآن . وهذا ظاهر فى العلوم الدينية والعربية .

أما العلوم الكونية ، وأما المعارف والصنائع ، وما جدّ أو يجدُّ فى العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب ، وعلم الهيئة والفلك ، وعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحيوان والنبات ، فإن شيئا من ذلك لا يَجْمُل عَدُّه من علوم القرآن ؛ لأن القرآن لم ينزل ليُدَلِّلَ على نظريّةٍ من نظريات الهندسة مثلا ، ولا ليقرِّرَ قانوناً من قوانينها . وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدُم القرآن فى شرح آياته ، أو بيان أسراره . وهكذا القول فى سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية . وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحِذقها والتمهُّر فيها خصوصاً عند الحاجة إليها . وإنما قلنا : إنه لا يجمل اعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها ؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشىء يحثُّ القرآن على تعلُّمه فى عموماته أو خصوصاته ، وبين العلم يدلُّ القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه ، أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته . فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثانى . وهو ما نريد أن نرشدك إليه ، وأن تحرص أنت بدورك عليه .

القرآن يحضّ على الانتفاع بالكون

أجَلْ : إن القرآن حضّ على معرفة علوم الكون وصنائع العالم ، وحثّ على الانتفاع بكل مايقع تحت نظرنا فى الوجود . قال سبحانه وتعالى « قلِ انْظُرُوا ماذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » وقال جلّت حكمته « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّافِى السَّمٰوَاتِ وَمَافِى الأرض جميعاً مِنْهُ إنَّ فى ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطَبون بهذا أن يفرُّوا من وجه هذه المنافع العامّة ، ولا أن يزهدوا فى علوم الكون ، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتُّع بثمرات هذه القوى العظيمة التى أودعها الله لخلقه ، فى خزائن سمٰواته وأرضه . ولهذا نصّ علماؤنا على أنّ تعلُّمَ تلك العلوم الكونية ، وحذقَ هذه الصناعات الفنية ، فرضٌ من فروض الكفايات ، ماداموا فى حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع .

وذلك لأن البقاء فى هذه الحياة للأصلح ، والحياة فى هذا الوجود للسلام المسلَّح ، والأسلحة فى كل عصر عامّةً وفى هذا العصر خاصّةً إنما تقوم على التمهُّر فى العلوم وعلى السبق فى حَلبة الصناعات والفنون . والويل فينا للضعيف ، والحظ كلُّ الحظ للقوى ، والله تعالى يقول : « وأعِدُّوا لهمْ مَّا استطعتم مِنْ قُوَّةٍ » : والنبى ﷺ يقول فيما رواه مسلم عن أبى هريرة : « المؤمِنُ القوىُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف ، وفى كل خيرٌ . احرصْ على ماينفعُك ، واستَعِن بالله ولا تَعجِزْ . وإن أصابك شىء فلا تقُلْ : لَوْ أنِّى فعلتُ كذا كان كذا وكذا . ولكن قل : قدَّرَ اللهُ ، وما شاء فعل . فإنَّ لَوْ تفتَحُ عَمَل الشيطان » .

إعجازٌ علمىٌّ للقرآن

وأحبُّ ألّا أنتهى من هذا الموضوع حتى أنبهك إلى شىء آخر جدير بالنظر والتقدير : وهو أن القرآن الكريم فى طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ومافى الكون من سماء وأرض ،

وبر وبحر ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ؛ ونواميس وسُنن . وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق ، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز ؛ لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين أن هذا الذى جاء بالقرآن رَجُلٌ أُمِّيٌّ ، نشأ فى أمة أمّيّة جاهلة ، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمامَ لها بكتبها ومباحثها . بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحى بقرون وأجيال . فأنّى يكون لرجل أمى كمحمد ذلك السجلُّ الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقّاه من لدن حكيم عليم ؟ قال سبحانه مقرراً لهذا الإعجاز العلمى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ » ولعل من الحكمة أن نسوق لك نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل ؛ أولهما فى سورة النور إذ يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » قل لى — بربك — ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النصَّ الكريم الذى يتفق وأحدث النظريات العلمية فى الظواهر الطبيعية : من سحاب ، ومطر ، وبرق ؟ ! .

النموذج الثانى : يقول الله تعالى فى سورة القيامة مبيناً ومقرراً كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ » . أرجو أن تقف قليلا عند تخصيصه « البنان » بالتسوية فى هذا المقام . ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد (علم تحقيق الشخصية) فى عصرنا الأخير ، وهو يقرر أن أدق شىء وأبدعه فى بناء جسم الإنسان ، هو تسوية البنان ، حتى إنه لا يمكن أن تجد بناناً لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال . وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكّموا البنان فى كثير من القضايا والحوادث

« فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ » ! ولا أريد أن أطيل عليك فى هـذا ؛ فمعجزات القرآن العلمية لها ميدان آخر . إنما هى نظرة خاطفة نوضح بها المراد بعلوم القرآن، ونوجِّه بها كلام السيوطى فى الإتقان ، ونعتذر فيها عن ابن العربى فى التأويل .

والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه . ولا يزال الـكون وما يحدُثُ فى الـكون من علوم وفنون وشؤون : لا يزال كل أولئك يشرح القرآنَ ويفسره ، ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسراره وإعجازه ، مصداقاً لقوله جلّ ذكره « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ » . « وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

٤ — معنى علوم القرآن كفن مدون ، وموضوعه ، وفائدته

أما بعـد ، فقد تبيَّنَ لك فيما سبق ، أن لفظ علوم القرآن يراد بمعناه الإضافى ما يشمل العلوم الدينية والعربية ، ونفيدك هنا أن هـذا اللفظ نقل من ذلك المعنى الإضافى ، ثم جُعل عَلَماً على الفن المدوَّن ، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علَم ، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إضافى ، ضرورةَ أن هذا الفن ليس هو مجموعةَ العلوم الدينية والعربية ، بل هو غيرُها ، وإن كان مستمَدًّا منها ، ومأخوذاً عنها ، ويمكن أن نُعَرِّفَهُ : بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الـكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه، وكتابته، وقراءاته وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك .

وموضوعه القرآن الـكريم من أية ناحية من النواحى المذكورة فى التعريف . بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافى ، فإن موضوعه هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنضوية تحت لوائه . وموضوع كل واحد منها هو القرآن الـكريم من ناحية واحدة من تلك النواحى . فعلم القراءات مثلا موضوعه القرآن الـكريم من ناحية لفظه وأدائه ، وعلم التفسير موضوعه القرآن الـكريم من ناحية شرحه ومعناه ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وفائدة هذا العلم : ترجع إلى الثقافة العالية العامة فى القرآن الـكريم ، وإلى التسلح بالمعارف القيِّمة فيه ، استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الـكتاب العزيز ، ثم إلى سهولة

خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين ، فمثله من هذه الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

وقد صرح السيوطى بذلك فى خطبة كتابه الإتقان إذ قال : « ولقد كنت فى زمان الطلب أتعجب من المتقدمين ، إذ لم يدونوا كتاباً فى أنواع علوم القرآن ، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث » اه .

ثم رأيت صاحب كتاب التبيان فى علوم القرآن ، يشير إلى ذلك المعنى إذ وضع على طُرَّةِ كتابه الكلمة الآتية :

« وهذا هو المقدِّمة الصغرى من مقدمَتَى التفسير » .

هذا — وإنما سمى هذا العلم علوم القرآن (بالجمع دون الإفراد) . للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة ، باعتبار أن مباحثه المدوَّنةَ تتَّصل اتصالا وثيقاً — كما علمت — بالعلوم الدينية والعلوم العربية ، حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُسْلك فى عِداد مسائل علم من تلك العلوم .

فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أُصوله ، أو الدليل إلى مدلوله . وما أشبهه بباقة منسَّقة من الورود والياسمين ، إزاء بستان حافل بألوان الزهور والرياحين . « والحمدُ للهِ رب العالمين » .

المبحث الثانى

فى تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه

عهد ماقبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ، ماعرف العلماء وفوق ماعرف العلماء من بعد . ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدوَّنة ، ولم تجمع فى كتب مؤلفة ، لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف .

أما الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلأنه كان يتلقَّى الوحى عن الله وحده. والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنَّه له فى صدره ، وليطلقنَّ لسانه بقراءته وترتيله ، وليميطنَّ له اللثام عن معانيه وأسراره . اقرأ إن شئت قوله سبحانه : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

ثم بلَّغَ الرسول ماأنزل عليه لأصحابه ، وقرأه على الناس على مُكْثٍ أى على مَهَل وتُؤَدة ، ليحسنوا أخذه ، ويحفظوا لفظه ، ويفهموا سرّه . ثم شرح الرسول لهم القرآن بقوله ، وبعمله ، وبتقريره ، وبخُلقه ، أى بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله ، وتقريراته ، وصفاته ، مصداقاً لقوله سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خُلَّصاً ، متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوّة فى الحافظة ، وذكاء فى القريحة ، وتذوُّق للبيان ؛ وتقدير للأساليب ، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير ، حتى أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم ، مالا نستطيع نحن أن ندركه مع زحْمة العلوم ، وكثرة الفنون .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أميين ، وأدواتُ الكتابة لم تكن ميسورة لديهم ، والرسول نهاهم أن يكتبوا عنه شيئا غير القرآن وقال لهم أولَ العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « لَاتكتبُوا عنِّى . ومن كتبَ عنى غيرَ القرآن فليمحُهُ . وَحَدِّثُوا عنِّى فلا حرج . ومن كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار » . وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره ، أو يختلط بالقرآن ماليس منه ؛ مادام الوحى نازلاً بالقرآن . فلتلك الأسباب المتضافرة لم تكتب علوم القرآن ، كما لم يكتب الحديث الشريف . ومضى الرعيل الأول على ذلك فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر . ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال فى نشر الإسلام

وتعاليمه ، والقرآن وعلومه ، والسنة وتحريرها ، تلقيناً لا تدويناً ، ومشافهةً لا كتابة .

عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد اتّسعت رُقعة الإسلام ، واختلط العرب الفاتحون بالأمم التى لا تعرف العربية ، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاط ، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمامٍ ، فتكون فتنة فى الأرض وفساد كبير . لهذا أمر رضى الله عنه أن يجمع القرآن فى مصحف إمامٍ ، وأن تُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام ، وأن يحرق الناس كل ماعداها ولا يعتمدوا سواها . كما يأتيك تفصيله فى مبحث جمع القرآن وكتابته .

وبهذا العمل وضع عثمان رضى الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثمانى .

ثم جاء علىٌّ رضى الله عنه فلاحظ العجمة تَحيف على اللغة العربية ؛ وسمع ما أوجس منه خيفةً على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل ، وخطّ له الخطط وشرع له المنهج . وبذلك يمكننا أن نعتبر أن عليًّا رضى الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ، ويتبعه علم إعراب القرآن . (على الخلاف فى هذه الرواية) .

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة ، وجاء عهد بنى أُمية ، وهِمَّةُ مشاهير الصحابة والتابعين متجهةٌ إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين ، لا بالكتابة والتدوين . ولكن هذه الهمة فى هذا النشر يصحُّ أن نعتبرها تمهيداً لتدوينها . وعلى رأس من ضرب بسهم وفير فى هذه الرواية : الأربعةُ الخلفاء ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبدالله بن الزبير . وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم .

وعلى رأس التابعين فى تلك الرواية : مجاهد ، وعطاء ، وعِكرِمة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم بالمدينة ، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن ومالك بن أنس من تابعى التابعين ، رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء جميعاً يعتبرون أنهم واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم غريب القرآن ، ونحو ذلك . وستجد بسطاً لهذا الإجمال فى بحث طبقات المفسرين .

عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافى

ثم جاء عصر التدوين ، فألفت كتب فى أنواع علوم القرآن ، واتجهت الهمم قبل كل شىء إلى التفسير ، باعتباره أمّ العلوم القرآنية لما فيه من التعرُّض لها ، فى كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز . ومن أوائل الكاتبين فى التفسير : شعبة بن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، وتفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين . وهم من علماء القرن الثانى . ثم تلاهم ابن جَرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ؛ لأنه أولُ من عرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، كما عرض للإعراب والاستنباط . وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا هذا حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب ، والموجز والمطوّل والمتوسط ، ومنها التفسير بالمعقول والتفسير بالمأثور ، ومنها تفسير القرآن كله ، وتفسير جزء ، وتفسير سورة ، وتفسير آية ، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك .

أما علوم القرآن الأخرى ، ففى مقدمة المؤلفين فيها : علىّ بن المدينى شيخ البخارى إذ ألّف فى أسباب النزول ، وأبو عبيد القاسمُ بن سلام ؛ إذ كتب فى الناسخ والمنسوخ ؛ وكلاهما من علماء القرن الثالث . وفى مقدمة من ألّف فى غريب القرآن : أبو بكر السجستانى ، وهو من علماء القرن الرابع . وفى طليعة من صنف فى إعراب القرآن : علىُّ بن سعيد الحوفى ، وهو من علماء القرن الخامس . ومن أوائل من كتب فى

بالسهيلي

مبهمات القرآن : أبو القاسم عبدُ الرحمن المعروف بالسبيلي، وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدَّر للتأليف فى مجاز القرآن: ابن عبد السلام، وفى القراءات: عَلَمُ الدين السخاوى، وهما من علماء القرن السابع .

وهكذا قويت العزائم ، وتبارت الهمم ، ونشأت علوم جديدة للقرآن .

وظهرت مؤلفات فى كل نوع منها ، سواء فى ذلك أقسام القرآن ، وأمثال القرآن ، وحجج القرآن ، وبدائع القرآن ، ورسم القرآن ، وما أشبهها مما يروعك تصوُّره بَلْهَ الاطلاع عليه ، ومما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات فى العالم . ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هـذا يزيدون ، وعلوم القرآن ومؤلفاته تَنْمِي وتزدهر وتزيد ، بينما الزمان يفنى والعالم يبيد ! أليس إعجازاً آخر للقرآن ؟ يريك إلى أى حد بلغ علماء الإسلام فى خدمة التنزيل . ويريك أنه كتاب لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضى معارفه ، ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومُنزله !

وإذا أضفت إلى علوم القرآن ما جاء فى الحديث النبوى الشريف وعلومه وكتبه وبحوثه باعتبارها من علوم القرآن ، نظراً إلى أن الحديث شارح للقرآن يبيِّن مبهماته ، ويفصِّل مجملاته ، ويخصِّص عامّه ، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أقول : إذا أضفت الحديث النبوى وعلومَه إلى علوم القرآن ، تراءى لك بحرٌ متلاطم الأمواج . فإذا زدت عليها سائر العلوم الدينية والعربيـة باعتبارها خادمةً للقرآن أو مستمدةً منه ، رأيت نفسك أمام مؤلفات كالجبال ، وموسوعات تكاثر الرمال، ولا يسعك حينئذ إلا أن تردِّد قول الله « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

وتزداد عجباً إذا علمت أن طريقة أولئك المؤلفين فى تآليفهم ، كانت طريقـة استيعاب واستقصاء ، يَعْمِـدُ أصحابهـا أن يحيطوا بجزئيات القرآن من الناحيـة التى كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية . فمن يكتب فى غريب القرآن مثلاً يذكر كل مفرد

من مفردات القرآن التى فيها غرابةٌ وإبهام ، ومن يكتب فى مجاز القرآن يقتفى أثر كل لفظ فيه مجازٌ أيًّا كان نوعُه فى القرآن ، ومن يكتب فى أمثال القرآن يتحدّث عن كل مثل ضربه الله فى القرآن ، وهكذا سائر أنواع علوم القرآن. ولا ريب أن تلك المجهودات الجبارةَ لا يتهيّأ لإنسانٍ أن يحيط بها ولو أفنى عمره ، واستنفد وسعه ! .

لهذا اشرَأبَّتْ أعناقُ العلماء أن يعتصروا من تلك العلوم علماً جديداً يكون كالفهرس لها ، والدليلِ عليها ، والمتحدِّث عنها . فكان هذا العلم هو ما نسميه (علوم القرآن) بالمعنى المدوّن .

ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألَّف أو حاول أن يؤلف فى علوم القرآن بالمعنى المدوَّن ، لأن الدواعى لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف . وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة فى صدور المبرِّزين من العلماء ، على الرغم من أنهم لم يدوِّنوها فى كتاب ، ولم يفردوها باسم .

أجل : كانت علوم القرآن مجموعة فى صدور المبرِّزين من العلماء . فنحن نقرأ فى تاريخ الشافعى رضى الله عنه أنه فى محنته التى اتُّهِم فيها بأنه رئيس حزب العلويين باليمن ؛ وسيق بسبب هذه التهمة إلى الرشيد مُكَبَّلاً بالحديد فى بغداد ؛ سأله الرشيد حين لمح علمه وفضله، فقال : كيف علمك ياشافعى بكتاب الله عز وجل ؟ فإنه أولى الأشياء أن يُبتدأ به . فقال الشافعى : عن أى كتاب من كتب الله تسألنى ياأمير المؤمنين ؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتباً كثيرةً. قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمى محمد ﷺ . فقال الشافعى : إن علوم القرآن كثيرة ؛ فهل تسألنى عن محكمه ومتشابهه ، أو عن تقديمه وتأخيره ، أو عن ناسخه ومنسوخه ، أو عن . . أو عن . . ؟ ؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين .

فأنت ترى من جواب الشافعى هذا ، ومن فلَجه بالصواب فى هذا الموقف الرهيب،

مايدلك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن من قبل أن تُجمع فى كتاب ، أو تدوّن فى علم . وقد نوّه جلالُ الدين البلقينى فى خطبة كتابه بكلمة الشافعى التى ذكرناها إذ قال : « قد اشتهر عن الإمام الشافعى رضى الله عنه مخاطبةٌ لبعض خلفاء بنى العباس ، فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصدنا الاقتباس » .

ونحن لا نستبعد على الشافعى هذا ، فقد كان آية من آيات الله فى علمه وذكائه ، وفى ابتكاره وتجديده ، وفى قوة حجته وتوفيقه . حتى إنه وضع كتابه (الحجة) فى العراق يستدرك به على مذاهب بعض أهل الرأى ، وألف فى مصر كتباً يستدرك بها على مذاهب بعض أهل الحديث . ثم وضع دستوراً للاجتهاد والاستنباط لم يتسنّ لأحد قبله ، إذ كان أول من صنف فى أصول الفقه وهو من علوم القرآن كما علمت . قال ابن خلدون فى مقدمته « كان أول من كتب فيه ــ أى علم أصول الفقه ــ الشافعى رضى الله عنه ، أملى فيه رسالته المشهورة ، تكلم فيها على الأوامر والنواهى ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس » اه .

وقال الزركشى فى كتابه البحر المحيط فى أصول الفقه « الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه . صنف فيه كتابه الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس الذى ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم » اه رضى الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين .

أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ولقد كان المعروف لدى الكاتبين فى تاريخ هذا الفن ، أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصلاح أى اصلاح علوم القرآن ، هو القرن السابع .

لكنى ظفرت فى دار الكتب المصرية بكتاب لعلىّ بن إبراهيم بن سعيد الشهير

بالحوف المتوفى سنة ٣٣٠ هـ « اسمه البرهان فى علوم القرآن »[١]. وهو يقع فى ثلاثين مجلداً ، والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ولا متعاقبة ، من نسخة مخطوطة .

وإذن نستطيع أن نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أى إلى بداية القرن الخامس بدلا من القرن السابع . ولقد كنت مشغوفاً أن أقرأ مقدمة كتابه هذا ، لآخذ اعترافاً صريحاً منه بمحاولته إنشاء هذا العلم الوليد . ولكن ماذا أصنع ، والجزء الأول مفقود ؟ غير أن اسم الكتاب يدلنى على هذه المحاولة . وكذلك استعرضت بعض الأجزاء الموجودة فرأيته يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم عليها من علوم القرآن ، خاصًا كل نوع منها بعنوان ، فيسوق النظم الكريم تحت عنوان: (القول فى قوله عز وجل) . وبعد أن يفرغ منه يضع هذا العنوان : (القول فى الإعراب) ويتحدث عنها من الناحية النحوية واللغوية : ثم يتبع ذلك بهذا العنوان (القول فى المعنى والتفسير) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول . ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان الآتى : (القول فى الوقف والتمام) مبيناً تحته ما يجوز من الوقف وما لا يجوز . وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول (القول فى القراءة) . وقد يتكلم فى الأحكام الشرعية التى تؤخذ من الآية عند عرضها ، ففى آية (وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللهِ) من سورة البقرة يذكر أوقات الصلاة وأدلتها ، وأنصبة الزكاة ومقاديرها. ويتكلم على أسباب النزول ، وعلى النسخ ، وما إلى ذلك عند المناسبة . فأنت ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن ، ولكن لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد ، بل على طريقة النشر والتوزيع تبعاً لانتشار الألفاظ المتشاكلة فى القرآن وتوزعها . حتى كأن هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات .

وأيًّا ما يكن هذا الكتاب فإنه مجهود عظيم ، ومحاولة جديرة بالتقدير فى هذا الباب . جزى الله مؤلفه خير الجزاء .

ثم جاء القرن السادس فألّف فيه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ كتابين : أحدهما اسمه « فنون الأفنان فى علوم القرآن » والثانى اسمه « المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن » . وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية .

وفى القرن السابع ألّف علَمُ الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤١ ﻫ كتاباً سماه « جمال القراء » وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ ﻫ كتاباً أسماه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » وهما — كما قال السيوطى — عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذ قصيرة ، بالنسبة للمؤلفات التى أُلِّفت بعد ذلك فى هذا النوع .

ثم أهلّ القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ ﻫ كتاباً سماه « البرهان فى علوم القرآن » وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية ، فى دار الكتب المصرية ، تقع فى مجلدين ناقصين . ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة ، فدرج فيه وترعرع ، إذ ألف محمد بن سليمان الكافيجى المتوفى سنة ٨٧٣ ﻫ كتاباً يقول السيوطى عنه : « إنه لم يُسبق إليه ، وقد اشتمل على بابين : الأول فى ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية . أما الثانى ففى شروط القول فى القرآن بالرأى . وبعدها خاتمة فى آداب العالم والمتعلم » غير أنه قال أخيراً : « ولكن ذلك لم يشف لى غليلاً ، ولم يهدنى إلى المقصود سبيلاً » اﻫ . وفى هذا القرن أيضاً وضع جلال الدين البلقينى كتاباً سماه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » . وقد رتَّبه على ستة مباحث : الأول فى مواطن النزول وأوقاته ووقائعه ، وفيه اثنا عشر نوعاً[1] . الثانى فى سند القرآن وهو ستة أنواع[2] . الثالث فى أدائه وهو ستة

(١) المكى ، المدنى ، السفرى ، الحضرى ، الليلى النهارى ، الصيفى ، الشتائى ، الفراشى ، أسباب النزول ، أول ما نزل ، آخر ما نزل .

(٢) المتواتر ، الآحاد ، الشاذ ، قراءات النبى صلى الله عليه وسلم ، الرواة ، الحفاظ .

أنواع أيضاً[١] . الرابع فى ألفاظه وهو سبعة أنواع[٢] . الخامس فى معانيه المتعلقة بأحكامه ، وهو أربعة عشرة نوعاً[٣] . السادس فى معانيه المتعلقة بألفاظه وهو خمسة أنواع[٤] . وبذلك يكمل الكتاب كله خمسين نوعاً غير ما فيه من أنواع الأسماء والكنى والألقاب والمبهمات . وهى لا تدخل تحت حصر .

وفى هذا القرن التاسع أيضاً ألّف السيوطى كتاباً سماه « التحبير فى علوم التفسير » ضمنه ما ذكره البلقينى من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب على الاثنين بعد المائة من الأنواع . وفرغ الإمام من تأليف تحبيره هذا سنة ٨٧٢ هـ غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبحُّر والتوسع والترتيب ، فوضع كتابه الثانى « كتاب الإتقان فى علوم القرآن » ، وهو عمدة الباحثين والكاتبين فى هذا الفن . ذكر فيه ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ، ثم قال بعد أن سردها نوعاً نوعاً : « ولو نُوِّعَتْ باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة » اهـ .

وتوفى السيوطى رحمه الله سنة ٩١١ هـ فى مفتتح القرن العاشر ، وكأنَّ نهايته كانت نهاية لنهضة التأليف فى علوم القرآن ، عليه سحائب الرحمة والرضوان ، فلم نر من سار فى هذا المضمار مثله بعده ، كما لم نر من بزّه فيه قبله .

---

(١) الوقف ، الابتداء الإمالة ، المد ، تخفيف الهمزة ، الإدغام .

(٢) الغريب ، المعرب ، المجاز ، المشترك ، المترادف ، الاستعارة ، التشبيه .

(٣) العام الباقى على عمومه ، العام المخصوص ، العام الذى أريد به الخصوص ، ما خص فيه الكتاب السنة ، ما خصت فيه السنة الكتاب ، المجمل ، المبين ، المؤول ، المفهوم ، المطلق ، المقيد ، الناسخ ، المنسوخ ، نوع من الناسخ والمنسوخ وهو ما عمل به مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين .

(٤) الفصل ، الوصل ، الإيجاز ، الإطناب ، القصر .

علوم القرآن فى القرن الأخير

بيد أنه ظهرت فى أيامنا بوادر استئناف لحركة النشاط والتأليف فى هذا العلم . إذ ألف العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى كتاباً جليلاً سماه « التبيان فى علوم القرآن » يقع فى قريب من ثلاثمائة صفحة . وفرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ .

وألف العلامة المرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة مذكرة قيِّمة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين . وقفاه العلامة الشيخ محمد على سلامة فوضع كتاباً حافلا لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد كذلك سماه « منهج الفرقان فى علوم القرآن » .

وتوجد مؤلفات فى بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء والأدباء ، نذكر من بينهم الأعلام المرحومين : الشيخ محمد بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى والشيخ محمد خلف الحسينى ، إذ كتبوا فى نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفى بعض مباحث أخرى . والمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعىّ إذ ألف فى إعجاز القرآن كتاباً جليلا طبعه المغفور له الملك فؤاد الأول على نفقته . ومنهم المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش إذ كتب محاضرات موضوعها : أثر القرآن فى تحرير العقل البشرى وألقاها فى نادى دار العلوم . والمرحوم الشيخ عبدالعزيز الخولى إذ وضع كتابه « القرآن الكريم : وصفه، أثره، هدايته ، وإعجازه » . والمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى إذ وضع رسالة سماها : القرآن والعلوم العصرية .

ثم انبرى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر للقول بجواز ترجمة القرآن ، وكتب فى ذلك رسالة عظيمة الشأن وأيده آخرون ، وَتَصَدَّى العلامة الكبير الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام بتركيا سابقاً للردّ على ذلك فى كتاب دقيق سماه « مسألة ترجمة القرآن » وظاهره آخرون .

وقد اطلعت أخيراً على صدر كتاب اسمه : « النبأ العظيم عن القرآن الكريم ،

والطريقة المثلى فى دراسته » فراعنى دقّة بحثه وتفكيره ، وراقنى رقّة أسلوبه وتعبيره ووددت لو تمّ هذا الكتاب ، وهو لصديقى العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز مبعوث الأزهر إلى فرنسا الآن (ردّه الله سالما غانما وأمتع به الإسلام والمسلمين آمين) .

خلاصة

ويمكنك أن تستخلص مما سبق أن علوم القرآن كفنّ مدوّن استهلت صارخة على يد الحوفى فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، ثم تربّت فى حجر ابن الجوزى والسخاوى وأبى شامة فى القرنين السادس والسابع . ثم ترعرعت فى القرن الثامن برعاية الزركشى . ثم بلغت أشُدّها واستوت فى القرن التاسع بعناية الكافيجى وجلال الدين البلقينى . ثم اهتزّتْ وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج فى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر ، بهمة فارس ذلك الميدان صاحب كتابَى التحبير ، والاتقان فى علوم القرآن : للسيوطى عليه ألف رحمة من الله ورضوان . ثم وقف نموُّها بعد ذلك حتى هذا القرن الأخير . ثم بدأت تنتعش فى هذه السنين من جديد، وعسى أن تعود سيرتها الأولى (ألا إنّ نصرَ اللهِ قريب) .

كلمة لا بد منها

وقبل أن ننتهى من هذا البحث نلفت نظرك إلى أن هذا العلم يسير على سُنَّة غيره من العلوم بين جزر ومدّ . وزيادة ونقص . على مقدار مايستهدف له من مؤثرات خاصة . فلا بدع أن تجد فى منهج دراستك اليوم مباحث جديدة ، ومواضع مبتكرة ، لم تنتظم قبل فى سمط علوم القرآن ؛ ذلك لأن الأفكار متحركة ومتجددة ، ولأن الشبهات التى تحوم فى رءوس بعض الناس فى هذا العصر ، والمطاعن التى يوجهها

أعداء الإسلام فى هـذا الجيل ، قد تكون هى الأخرى جديدة ومبتكرة . ومن الحكمة أن نقاتل الناس بمثل سلاحهم ، وأن ندرس فى علوم القرآن مايحمى حِمَى القرآن الشريف ، من هـذا العدوان الخبيث . أضف إلى ذلك أن العلوم تخبو بالإهمال والترك ، وتزْكو بالدرس والبحث . سُنَّةَ اللهِ فى خَلْقِهِ « وَلَنْ تجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبْدِيلًا » .

المبحث الثالث

فى نزول القرآن

هـذا مبحث مهمٌ فى علوم القرآن بل هو أهم مباحثه جميعاً ، لأن العلم بنزول القرآن أساسٌ للايمان بالقرآن وأنه كلام الله ، وأساسٌ للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق . ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعدُ فى علوم القرآن . فلاجرم أن يتصدَّرها جمعاء ، ليكون من تقريره وتحقيقه ، سبيلٌ إلى تقريرها وتحقيقها . وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودِعام ؟ .

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز ، نتكلم ـ إن شاءالله ـ على معنى نزول القرآن ، ثم على مرات هذا النزول ، ودليل كل نزول ، وكيفيته ، وحكمته ، ثم على الوحى وأدلته العقلية والعلمية ، مع دفع الشبهات الواردة فى ذلك المقام .

١ — معنى نزول القرآن

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرَّف منها فى الكتاب والسنة ، ومن أمثلته قوله سبحانه فى سورة الإسراء : « وَبالْحَقِّ أنْزَلْنَاهُ وبِالْحَقِّ نَزَلَ » . وقوله

ﷺ : « إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » . وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتى .

لكنَّ النزول فى استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول فى مكان والأُوِىُّ به . ومنه قولهم « نزل الأمير المدينة » . والمتعدِّى منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير فى مكان وإيواءه به . ومنه قوله جلَّ ذكره « رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ويطلق النزول إطلاقاً آخر فى اللغة على انحدار الشىء من عُلوٍ إلى سُفْلٍ نحو « نَزَلَ فُلَانٌ مِنَ الْجَبَلِ » . والمتعدِّى منه يكون معناه تحريك الشىء من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ . ومنه قوله سبحانه : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

ولا ريب أن كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا فى إنزال الله للقرآن ، ولا فى نزول القرآن من الله ، لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية . والقرآن ليس جسماً حتى يحلَّ فى مكان أو ينحدر من علو إلى سفل ، سواء أردنا به الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية ، أم أردنا به نفس تلك الكلمات ، أم أردنا به اللفظ المعجز ؛ لما علمت من تنزُّه الصفة القديمة ومتعلَّقها وهو الكلمات الغيبية عن الحوادث وأعراض الحوادث ، ولما تعرفه من أن الألفاظ أعراض سيالة تنقضى بمجرد النطق بها ، كما يقولون .

إذن فنحن بحاجة إلى التجوُّز ، والمجاز بابه واسع وميدانه فسيح . وليكن المعنى المجازى لإنزال القرآن هو الإعلام فى جميع إطلاقاته . أما على أن المراد بالقرآن الصفة القديمة أو متعلقها ، فإنزاله الإعلام به بواسطة مايدل عليه من النقوش بالنسبة لإنزاله فى اللوح المحفوظ وفى بيت العزة من السماء الدنيا ، وبواسطة مايدل عليه من الألفاظ الحقيقية بالنسبة لإنزاله على قلب النبى ﷺ ، والعلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى هو اللزوم ؛ لأن إنزال شىء إلى شىء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشىء به إن كان عاقلاً ، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقاً ، وإذن فالمجاز مرسل .

وأما على أن المراد بالقرآن اللفظ المعجز ، فمعنى إنزاله الإعلام به أيضاً ، ولكن بوساطة إثباته هو أو إثبات دالّه ، فإثباته هو بالنسبة لإنزاله على قلب النبي ﷺ ، وإثبات دالِّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ وبيت العزة ، والعلاقة اللزوم كذلك ، والمجاز مرسل كسابقه .

ويمكن أن يكون هـذا التجوُّز من قبيل الاستعارة التصريحيـة الأصلية ، بأن يُشَبَّهَ إعلام السيد لعبده بإنزال الشيء من علو إلى سفل ، بجامع أن في كل من طرفي التشبيه صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل ، وإن كان العلو والسفل في وجه الشبه حسياً بالنسبة إلى المشبه به ، ومعنوياً بالنسبة إلى المشبه .

وأنت خبير بأن النزول مطاوع الإنزال ، فما يجرى من التجوُّز في أحدهما يجرى نظيره في الآخر . وقل مثل ذلك في التنزيل والتنزل .

وكأن وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرَّف منها أو التقى معها ، هو التنويه بشرف ذلك الكتاب ، نظراً إلى ماتشير إليه هـذه المادة من علوِّ صاحب هـذا الكتاب المنزل علواً كبيراً ، كما قال تعالى في فاتحة سورة الزخرف : « وَالْكِتَابِ المبين ، إنَّا جَعَلْنَاهُ قرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ في أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » .

ثم إن تأويل الإنزال بالإعلام على مارأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام ، وذلك من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإفهام ، ولا ريب أن القرآن كلام ، فتأويل إنزاله بالإعلام ، رجوعٌ إلى ماهو معلوم من تعلقه ، ومفهوم من تحققه .

ثانيها : أن المقصود من ثبوت القرآن في اللوح وفي سماء الدنيا وفي قلب النبي ﷺ ، هو إعلام الخلق في العالَمَين العلوى والسفلى بما شاء الله دلالة البشر عليه من هذا الحق .

ثالثها : أن تفسير الإنزال بالإعلام ، ينسجم مع القرآن بأى إطلاق من إطلاقاته ، وعلى أىّ تنزُّل من تنزلاته .

٢ — تنزلات القرآن

شرّف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزُّلات :

١ ـ التنزُّل الأول إلى اللوح المحفوظ . ودليله قول الله سبحانه : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مجيدٌ فى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لايعلمهما إلا الله تعالى ، ومن أطلعه على غيبه . وكان جملة لامفرقاً ، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ، ولا صارف عنه . ولأن أسرار تنجيم القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم لايعقل تحققها فى هذا التَّنزُّل .

وحكمة هذا النزول ، ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه ، وإقامته سجلاً جامعاً لكل ماقضى الله وقدّر ، وكل ما كان ومايكون من عوالم الإيجاد والتكوين . فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع المظاهر ، الدالة على عظمة الله ، وعلمه ، وإرادته ، وحكمته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا ريب أن الإيمان به يُقَوِّى إيمان العبد بربه من هذه النواحى ، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل مايظهره الله لخلقه ، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه ، وسائر أقضيته وشؤونه فى عباده ، كما يحمل الناس على السكون والرضا ، تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرّائها وسرّائها ، كما قال ـ جلّ شأنه ـ « ماأصابَ مِنْ مُصيبةٍ فى الأرضِ ولا فى أنفُسِكُمْ إلا فى كِتابٍ مِنْ قبلِ أنْ نَبْرَأَهَا ، إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تفرَحُوا بِمَا آتاكُمْ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » اهـ من سورة الحديد . وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه ، أثرٌ صالح فى استقامة المؤمن على الجادّة ، وتفانيه فى طاعة الله ومراضيه ، وبعده عن مساخطه ومعاصيه ، لاعتقاده أنها مسطورة عند الله فى لوحه . مسجّلة لديه فى

كتابه . كما قال — جلَّ ذكره — : « وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستطرٌ » اهـ من سورة القمر .

ب — التنزُّل الثانى للقرآن كان هذا التنزل الثانى إلى بيت العزّة فى السماء الدنيا ، والدليل عليه قوله سبحانه فى سورة الدخان « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » . وفى سورة القدر « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وفى سورة البقرة « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » .

دلَّت هذه الآيات الثلاثة على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة ، توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان ، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر ، وهى من ليالى شهر رمضان أخذاً من آية البقرة . وإنما قلنا ذلك جَمْعاً بين هذه النصوص فى العمل بها ، ودفعاً للتعارض فيما بينها . ومعلوم بالأدلة القاطعة — كما يأتى — أن القرآن أنزل على النبى ﷺ مفرقاً لا فى ليلة واحدة ، بل فى مدى سنين عدداً ، فتعين أن يكون هذا النزول الذى نوّهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبى ﷺ . وقد جاءت الأخبار الصحيحة مُبَيِّنَةً لمكان هذا النزول وأنه فى بيت العزّة من السماء الدنيا ، كما تدل الروايات الآتية :

١ — أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « فُصِلَ القرآن من الذكرِ فوُضِعَ فى بيتِ العزّةِ منَ السماء الدنيا فجعلَ جبريلُ يَنزلُ بهِ على النبى ﷺ » .

٢ — وأخرج النسائى والحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عِكرِمة عن ابن عباس أنه قال : « أُنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ليلةَ القَدْر ، ثم أُنزلَ بعد ذلك فى عشرينَ سنة » ثم قرأ « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وَأَحْسَنَ تفسيراً » . « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً » .

٣ — وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكانَ اللهُ ينزلهُ على رسولهِ ﷺ بعضه فى إثرِ بعضٍ » .

٤ — وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أوقعَ فى قلبي الشكَّ قولُه تعالى : « شَهْرُ رمضانَ الذى أُنْزِلَ فيهِ القرآن » وقولُه : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وهذا أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم ، وصفر ؛ وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رِسْلاً فى الشهور والأيام » . قال أبو شامة رسلاً أى رفقاً . وعلى مواقع النجوم أى على مثل مساقطها . يريد أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقاً ، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق .

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذكرت فى هذا الباب ، وكلها صحيحة كما قال السيوطى ، وهى أحاديث موقوفة على ابن عباس ، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، لما هو مقرَّرٌ من أن قول الصحابى مالا مجال للرأى فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الاسرائيليات ، حكمه حكم المرفوع . ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزَّة من أنباء الغيب التى لا تُعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يُعرف بالأخذ عن الاسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها .

وكان هذا النزول جملةً واحدةً فى ليلة واحدة هى ليلة القدر كما علمت ؛ لأنه المتبادر من نصوص الآيات الثلاث السابقة ، وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى

عرضناها عليك . بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الاجماع على نزول القرآن جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة فى السماء الدنيا .

وهناك قول ثان بنزول القرآن إلى السماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ينزل فى كل ليلة قدرٍ منها مايقدِّر اللهُ إنزالَه فى كل السنة، ثم ينزل بعد ذلك منجَّماً فى جميع السنة على النبى ﷺ .

وَثَمَّةَ قول ثالث : أنه ابتدئ إنزاله فى ليلة القدر ؛ ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبى ﷺ . وكأن صاحب هذا القول ينفى النزول جملة إلى بيت العزّة فى ليلة القدر .

وذكروا قولاً رابعاً أيضاً هو أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة ، وأن الحفظة نجّمته على جبريل فى عشرين ليلة ، وأن جبريل نجّمه على النبى ﷺ فى عشرين سنة .

ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة بمعزل عن التحقيق ، وهى محجوجة بالأدلة التى سُقناها بين يديك تأييداً للقول الأول .

والحكمة فى هذا النزول ، على ماذكره السيوطى نقلاً عن أبى شامة — هى تفخيم أمره (أى القرآن) وأمر من نزل عليه ، بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، وبإنزاله مرتين ، مرة جملة ومرة مفرّقاً. بخلاف الكتب السابقة ، فقد كانت تنزل جملةً مرة واحدة .

وذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهاباً لشوق النبى ﷺ إليه على حدّ قول القائل :

« وأعظم مايكونُ الشوقُ يوماً إذا دنَت الخيامُ من الخيام »

أقول : وفى تعدد النزول وأماكنه ، مرةً فى اللوح ، وأخرى فى بيت العزة ، وثالثة على قلب النبى ﷺ : فى ذلك التعدد مبالغةٌ فى نفى الشك عن القرآن وزيادة

للإيمان به وباعثٌ على الثقة فيه، لأن الكلام إذا سُجِّلَ فى سجِّلات متعددة، وصحّت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفى للريب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، مما لو سجِّل فى سجلٍ واحد، أو كان له وجود واحد.

جـ ـ التنزُّل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التنزلات، لأنه المرحلة الأخيرة التى منها شعّ النور على العالم؛ ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحى جبريل يهبط به على قلب النبى ﷺ. ودليـله قول الله تعالى فى سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: «نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ من المنذِرين. بلسانٍ عربىٍّ مبين».

كيفية أخذ جبريل للقرآن، وعمن أخذ

هذا من أنباء الغيب. فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم، وكل ماعثرنا عليه أقوال منثورة هنا وهناك، نجمعها لك فيما يأتى مع إبداء رأينا فى كل منها:

أولها: قال الطيبى: «لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقّفه تلقُّفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به على النبى ﷺ فيلقيه إليه» اهـ.

وأنت خبير بأن كلمة (لعل) هنا لا تشفى غليلاً، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً.

ثانيها: حكى الماوردى أن الحفظة نجّمت القرآن على جبريل فى عشرين ليلةً؛ وأن جبريل نجّمه على النبى صلى الله عليـه وسلم فى عشرين سنة اهـ ومعنى هذا أن جبريل أخذ

القرآن عن الحفظة نجوماً عشرين . ولكنا لا نعرف لصاحب هذا الرأى دليلاً ولا شبه دليل .

ثالثها : قال البيهقى فى معنى قوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » « يريد ـ والله أعلم ـ إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع » اه . ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً . وذلك فيما أرى أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله لا من ناحية تأويل النزول فى الآية بابتداء النزول . ويؤيده ما أخرجه الطبرانى من حديث النواس بن سَمْعان مرفوعاً إلى النبى ﷺ « إذا تكلَّم اللهُ بالوحى أخذت السماء رجفةٌ شديدةٌ من خوف الله ، فإذا سمع أهلُ السماء صَعِقوا وخرُّوا سجَّداً فيكون أولهم يرفعُ رأسَهُ جبريل ، فيكلمه اللهُ بوحيه بما أراد ، فينتهى به إلى الملائكة فكلما مرَّ بسماء سأله أهلُها ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهى به حيث أُمر » .

وأيًّا ما تكن هذه الأقوال ، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض ، ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده .

ما الذى نزل به جبريل ؟

ولتعلم فى هذا المقام ، أن الذى نزل به جبريل على النبى ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس . وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده ، لا دخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها وترتيبها ، بل الذى رتَّبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تنسب له دون سواه ، وإن نطق بها جبريل ومحمد ، وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد ، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة . وذلك كما ينسب الكلام البشرى إلى من أنشأه ورتَّبه فى نفسه أولاً دون غيره ، ولو نطق به آلاف الخلائق ، فى آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فالله — جلّت حكمته — هو الذى أبرز ألفاظ القرآن وكلماته مرتبة على وَفق ترتيب رواته النفسية لأجل التفهيم والتفهم ، كما نبرز نحن كلامنا اللفظى على وفق كلامنا النفسى لأجل التفهيم والتفهم ، ولا ينسب الكلام بحال إلا إلى من رتّبه فى نفسه أولاً ، دون من اقتصر على حكايته وقراءته ، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمد ، ولا لغير جبريل ومحمد ، كما لا يجوز نسبة كلام أنشأه شخص ورتّبه فى نفسه أولاً إلى شخص آخر حكاه وقرأه حين اطّلع عليه أو سمعه .

وقد أسَفّ بعضُ الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبى ﷺ بمعانى القرآن ، والرسول يعبر عنها بلغة العرب . وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط وكلاهما قول باطل أثيم ، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع ، ولا يساوى قيمة المداد الذى يكتب به . وعقيدتى أنه مدسوسٌ على المسلمين فى كتبهم . وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله ؟ مع أن الله يقول : (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ) ، إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله .

والحق أنه ليس لجبريل فى هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحائه إليه ، وليس للرسول ﷺ فى هذا القرآن سوى وَعْيه وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه . نقرأ فى القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد نحو « وإنكَ لتُلَقَّى القرآنَ مِنْ لدنْ حَكيمٍ عليمٍ » . ونحو « وإذَا لَمْ تأْتِهِمْ بآيةٍ قالُوا لَوْلَا اجْتَبيْتَهَا . قلْ إنما أَتَّبِعُ ما يُوحَى إلىَّ مِنْ رَبِّى » . ونحو « وإذَا تُتلَى عليهِمْ آياتُنَا بيِّنَاتٍ قالَ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هٰذا أو بدِّله . قل ما يكونُ لِى أنْ أُبدِّله من تِلقاءِ نَفسِى إن أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إلىَّ إنى أخافُ إنْ عَصيتُ رَبِّى عذابَ يَوْمٍ عظيمٍ » . ونحو « وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخذنا منهُ باليمين . ثمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الوَتينَ . فما مِنكم مِنْ أحدٍ عَنْهُ حاجِزينَ » .

ثم إن ماذكرناه هو تحقيق ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن ؛ نقل السيوطي عن الجويني أنه قال : « كلام الله المنزل قسمان : (قسم) قال الله لجبريل : قل للنبي الذى أنت مرسل إليه : إن الله يقول افعل كذا وكذا ، وأمر بكذا وكذا ، ففهم جبريل ماقاله ربه ثم نزل على ذلك النبي ، وقال له ماقاله ربه . ولم تكن العبارة تلك العبارة ، كما يقول الملك لمن يثق به : قل لفلان يقول لك الملك : اجتهد فى الخدمة ، واجمع جندك للقتال ، فان قال الرسول : يقول لك الملك : لاتتهاون فى خدمتى ، ولا تترك الجند يتفرق ، وحُثَّهم على المقاتلة ، لاينسب إلى كذب ولا تقصير فى أداء الرسالة . (وقسم آخر) قال الله لجبريل : اقرأ على النبى هذا الكتاب ، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير ، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ، ويقول اقرأه على فلان ، فهو لايغير منه كلمة ولا حرفاً » اه .

قال السيوطى بعد ذلك . قلت : القرآن هو القسم الثانى ، والقسم الأول هو السُّنَّة . كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى لأن جبريل أداها بالمعنى . ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أدَّى القرآن باللفظ ، ولم يُبَحْ له أداؤه بالمعنى . والسرُّ فى ذلك أن المقصود منه التعبُّد بلفظه والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقامه ، وأنَّ تحت كل حرف منه معانى لايُحاط بها كثرةً ، فلا يقدر أحد أن يأتى بدله بما يشتمل عليه . والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين : قسم يروونه بلفظه الموحَى به ، وقسم يروونه بالمعنى . ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشقّ ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف فتأمل اه .

أقول وهذا كلام نفيس ، بيد أنه لادليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف فى الألفاظ الموحاة إليه فى غير القرآن . وما ذكره الجوينى فهو احتمال عقلى لايكفى فى هذا الباب . ثم إن هذا التقسيم خلا من قسيم ثالث للكتاب والسنة ، وهو الحديث القدسى الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى ، فهو كلام الله تعالى أيضاً ،

غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ماسواه . ولله تعالى حكمة فى أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز ، لمثل ماسبق فى حكمة التقسيم الآنف ، من إقامة حجة للرسول ولدين الحق بكلام الله المعجز ، ومن التخفيف على الأمة بغير المعجز ، لأنه تصح روايته بالمعنى ، وقراءة الجنب وحمله له ومسه إياه ، إلى غير ذلك .

وصفوة القول فى هذا المقام أن القرآن أُوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً ، وأن الحديث القدسى أُوحيت ألفاظه من الله على المشهور ، والحديث النبوى أُوحيت معانيه فى غير ما اجتهد فيه الرسول والألفاظ من الرسول صلى الله عليه وسلم. بَيْدَ أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد به ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك ، وليس للحديث القدسى والنبوى شىء من هذه الخصائص . والحكمة فى هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن ، فلو أبيح أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنة للتغيير والتبديل ، واختلاف الناس فى أصل التشريع والتنزيل . أما الحديث القدسى والحديث النبوى فليست ألفاظهما مناط إعجاز ، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى ، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة التي منحها القرآن الكريم ، تخفيفاً على الأمة ، ورعاية لمصالح الخلق فى الحالين من مَنْحٍ وَمَنْعٍ « إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

مدة هذا النزول

وابتدأ هذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة والسلام ، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة ، وتقدَّر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً ، تبعاً للخلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم فى مكة بعد البعثة ، أكانت عشر سنين أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة سنة . أما مدة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتفاقاً. كذلك قال السيوطى.

ولكن بعض محققى تاريخ التشريع الإسلامى يذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من مولده

الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه . أما مدة إقامته فى المدينة بعد الهجرة فهى تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ منه . ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة. وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ فى مكة ثلاث عشرة سنة وفى المدينة عشر سنين ، وأن مدة الوحى بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً .

لكن هذا التحقيق لا يزال فى حاجة إلى تحقيقات ثلاثة ؛ ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحى إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر ، على حين أنها ثابتة فى الصحيح . ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهى ليلة القدر على بعض الآراء ، غير أنه يخالف المشهور الذى يؤيده الصحيح. ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر مانزل من القرآن هو آية « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » وذلك فى تاسع ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، وسترى فى مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح .

دليل تنجيم هذا النزول

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيمه ، قول الله ـ تعالت حكمته ـ فى سورة الإسراء : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ، ونزّلناه تنزيلاً » وقوله فى سورة الفرقان : « وقالَ الذينَ كفرُوا لولا نُزِّل عليهِ القرآنُ جملةً واحدةً . كذلكَ لِنُثبِّتَ به فؤادَكَ ، ورتّلناهُ ترتيلاً . ولا يأتونك بِمثَلٍ إلَّا جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ».روى أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبى ﷺ نزول القرآن مفرقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً ، فأنزل الله هاتين الآيتين رَدّاً عليهم ، وهذا الردُّ يدلُّ على أمرين :

أحدهما : أن القرآن نزل مفرقاً على النبي ﷺ . والثاني : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة ، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً .

ووجه الدلالة على هذين الأمرين . أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة ، بل أجابهم ببيان الحكمة فى نزول القرآن مفرقاً ، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقاً كالقرآن لردَّ عليهم بالتكذيب ، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الانبياء من قبل ، كما ردَّ عليهم بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ) . حين طعنوا على الرسول وقالوا : (مالِهَذَا الرَّسول يأكل الطَّعَامَ ويمشى فى الاسواق) ؟ . اه من سورة الفرقان .

الحكم والأسرار فى تنجيم القرآن

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرارٌ عدَّة وحِكَمٌ كثيرة ، نستطيع أن نُجْمِلها فى أَرْبَع حِكَمٍ رئيسية : —

الحكمة الأولى

تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، وتقوية قلبه ، وذلك من وجوه خمسة :

الوجه الأول : أن فى تجدُّد الوحى ، وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله ﷺ ، سروراً يملأُ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ، وكلاهما يتجدَّدُ عليه بسبب مايشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعهد مولاه إياه فى كل نَوْبَةٍ من نَوْباتِ هذا النزول .

الوجه الثانى : أن فى التنجيم تيسيراً عليه من الله فى حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحِكَمِه ، وذلك مُطْمْئِنٌ له على وَعْى مايُوحَى إليه حفظاً وفهماً ، وأحكاماً وحِكَماً ، كما أن فيه تقويةً لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

الوجه الثالث : أن فى كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجّم معجزةً جديدة غالباً ، حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نُوَب التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت . ولا شك أن المعجزة تشدُّ أَزْرَه وتُرْهِفُ عزمه ، باعتبارها مؤيِّدةً له ولحزبه . خاذلةً لأعدائه ولخصمه .

الوجه الرابع : أن فى تأييد حقه ودحض باطل عدوه ـ المرة بعد الأخرى ـ تكراراً للذة فوزه وفلَجه بالحق والصواب ، وشهوده لضحايا الباطل فى كل مهبطٍ للوحى والكتاب . وإنْ كلُّ ذلك إلّا مشجِّع للنفس مقوٍ للقلب والفؤاد . والفرق بين هذا الوجه والذى قبله ، هو الفرق بين الشىء وأثره ، أو الملزوم ولازمه ، فالمعجزة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطَمْئنة له ومثبتة لفؤاده ، بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها . ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضاً ، أشبه شىء بالسلاح : وجوده فى يد الإنسان مُطمئِن له ولو لم يستعمله فى خصمه ثم انتصار الإنسان وهزيمة خصمه به إذا أعمله فيه مُطَمْئن للفؤاد مريح للقلب مرة أخرى .

الوجه الخامس : تعهُّد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يُهَوِّن عليه هذه الشدائد . ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تَحْدُث فى أوقات متعدِّدة ، فلا جرم كانت التسلية تحدث هى الأخرى فى مرات متكافئة . فكلما أحرجه خصمه ، سلّاه ربه . وتجىء تلك التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ، التى لها فى القرآن عرْضٌ طويل ، وفيها يقول الله : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة هود . وتارة تجىء التسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ ، كما فى قوله سبحانه فى سورة الطور : « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » وقوله فى سورة المائدة : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ونحو ما فى

سورتى الضحى وألم نشرح من الوعود الكريمة ، والعطايا العظيمة . وطوراً تأتيه التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإنذارهم نحو قوله تعالى فى سورة القمر : « سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ » وقوله سبحانه فى سورة فصلت : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وطوراً آخر ترد التسلية فى صورة الأمر الصريح بالصبر نحو قوله جلَّ شأنه فى سورة الأحقاف : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ »أو فى صورة النهى عن التفجُّع عليهم ؛ والحزن منهم . نحو قول الله فى سورة فاطر . « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ونحو قوله سبحانه فى خواتم سورة النحل : « وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوِّفه عواقب حزنه من كفر أعدائه نحو : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » فى فاتحة سورة الشعراء . ومنها أن يؤيسه منهم ليستريح ويتسلَّى عنهم نحو : « وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى ٱلسَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ .وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَٱلْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » من سورة الأنعام .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله فى بيان الحكمة من تنجيم القرآن « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة الفرقان :

الحكمة الثانية

التدرُّج فى تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملا . وينضوى تحت هذا الاجمال أمور خمسة أيضاً :

أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهى كما علمت كانت أُمَّة أُمِّيَّة .

وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم ، وكانت مُشتغلة بمصالحها المعاشية ، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه ، فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقاً ليسُهل عليهم حفظه، ويتهيَّأ لهم استظهاره .

ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ماسبق فى توجيه التيسير فى حفظه .

ثالثها : التمهيد لكمال تخلِّيهم عن عقائدهم الباطلة ، وعباداتهم الفاسدة ، وعاداتهم المرذولة. وذلك بأن يُراضوا على هذا التخلِّى شيئاً فشيئاً ، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً ، فكلما نجح الإسلام معهم فى هدم باطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر ، وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم ، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهَّرهم منها وهم لا يشعرون بعَنَتٍ ولا حرج ، وفطمهم عنها دون أن يَرْتَكِسوا فى سابق فتنة أو عادة . وكانت هذه سياسةً رشيدة ، لابد منها فى تربية هذه الأمة المجيدة ، لاسيما أنها كانت أبيَّة معاندة ، تتحمَّس لموروثاتها ، وتستميت فى الدفاع عما تعتقده من شرفها ؛ وتتهوَّر فى سفك الدماء وشَنِّ الغارات ، لأتفه الأسباب .

رابعها : التمهيد لكمال تحلِّيهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، من جرَّاء مافتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد ، وبراهين البعث بعد الموت ، وحُجَج الحساب والمسئولية والجزاء . ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة ، وثنى بالزكاة وبالصوم فى السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج فى السنة السادسة منها . وكذلك كان الشأن فى العادات : زجرهم عن الكبائر وشدَّد النكير عليهم فيها . ثم نهاهم عن الصغائر فى شيء من الرفق ، وتدرَّج بهم فى تحريم ما كان مستأصلا فيهم

كالخمر .. تدرجاً حكيماً حقق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها فى النهاية . وكان الإسلام فى انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظراً ، وأهدى سبيلاً ، وأنجح تشريعاً ، وأنجع سياسة ، من تلك الأمم المتمدينة المتحضرة التى أفلست فى تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس ، وفشلت أمر فشل . وما عهد أمريكا فى مهزلة تحريمها الخمر ببعيد . !

أليس ذلك إعجازاً للإسلام فى سياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات ، وتربية الأمم ؟ بلى ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين !! .

خامسها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ، بسبب ما كان يقصه القرآن عليهم الفَيْنة بعد الفَينة والحينَ بعد الحين ، من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين ، من النصر والأجر والتأييد والتمكين . والآيات فى ذلك كثيرة حسبك منها قول العلىّ الكبير فى سورة النور : « وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهمْ دِينَهُمُ الذى ارْتَضَى لهمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنى لا يُشْرِكُونَ بى شَيْئاً . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ » . وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده « فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ » .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثانية بما انضوى تحتها فى قول الله تعالى فى سورة الإسراء « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » كما يمكن أن يفسر بها قوله تعالى فى سورة الفرقان فى بيان أسرار التنجيم « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » باعتبار أن التنوين للتعظيم إشارةً إلى المعانى المنطوية تحت هذا الترتيل .

الحكمة الثالثة

مُسايَرَةُ الحوادث والطوارئ فى تجدُّدها وتفرقها ، فكلما جدَّ منهم جديد ، نزل من القرآن مايناسبه ، وفصَّل الله لهم من أحكامه مايوافقه . وتنتظم هذه الحكمة أموراً أربعة :

أولها : إجابة السائلين على أسئلتهم عند مايوجهونها إلى الرسول ﷺ . سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته . كما قال الله تعالى فى جواب سؤال أعدائه إياه . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » فى سورة الإسراء. وقوله « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً » الخ الآيات فى هذا الموضوع من سورة الكهف . أم كانت لغرض التنوُّر ومعرفة حكم الله كقوله تعالى فى سورة البقرة : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ الْعَفْوَ » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ؟ قُلْ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ . وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ».

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبى ﷺ فى أوقات مختلفة ، وعلى نَوْباتٍ متعدِّدة ، حاكيةً أنهم سألوا ولا يزالون يسألون . فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك فى أوقاتها المختلفة ، ونَوْباتها المتعدِّدة .

ثانيها : مُجاراة الأقضية والوقائع فى حينها ببيان حُكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها . ومعلومٌ أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملةً ، بل وقعت تفصيلاً وتدريجاً ، فلا مناص إذن من فَصْل الله فيها بنزول القرآن على طبقها تفصيلاً وتدريجاً . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها قوله سبحانه فى سورة النور : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » إلى قوله سبحانه « أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهُنَّ عشر آيات نزلن فى حادث من أروع الحوادث : هو اتهام السيدة الجليلة

أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالإفك . وفيها دروس اجتماعية لا تزال تُقرأ على الناس ، كما لا تزال تُسَجِّل براءة هذه الحَصَانِ الطاهرة من فوق سبع سموات .

ومن الأمثلة قوله تعالى فى مُفتتح سورة المجادلة : « قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » إلى قوله تعالى « وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وهن ثلاث آيات نزلن عندما رفعت خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ شكواها إلى رسول الله ﷺ من أن زوجها أَوْسَ بنَ الصَّامِت ظَاهَرَ منها ، وجادلت الرسولَ بأن معها صبيةً صغاراً إن ضَمَّتْهُم إلى زوجها ضاعوا ، وإن ضمَّتهم إليها جاعوا .

ثالثها : لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التى يخطئون فيها ، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب فى الوقت نفسه . ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت فى أزمانٍ متفرقة ، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل فى إصلاحها ، متكافئاً معها فى زمانها . اقرأ إن شئت قوله سبحانه فى سورة آل عمران : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى آيات كثيرة بعدها ، وكلها نزلت فى غزوة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم فى هذا الموقف الرهيب والمأزق العصيب . وكذلك اقرأ قوله سبحانه فى سورة التوبة : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهى آياتٌ تردع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاغترار فى يومٍ من أيام الله ، وتلفت نظرهم إلى مقدار تدارُك الله لهم فى شدّتهم ، وإلى وجوب أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم .

رابعها : كشف حال أعداء الله المنافقين ، وَهَتْك أستارهم وسرائرهم للنبى والمسلمين، كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم. وحتى يتوب من شاء منهم . اقرأ — إن شئت — قوله تعالى فى سورة البقرة : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » وهُنَّ ثلاث عشرة آية فضحت المنافقين ، كما فضحتهم سورة التوبة فى كثير من الآيات ، وكما كشف القرآن أستارهم فى كثير من المناسبات . ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثالثة بمضامينها الأربعة فى قول الله تعالى فى تلك الآية من سورة الفرقان : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » .

الحكمة الرابعة

الإرشاد إلى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه .

وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره ، فإذا هو مُحْكَمُ السرد ، دقيق السبْك ، متين الأسلوب ، قوىُّ الاتصال ، آخذٌ بعضُه برقاب بعض فى سوره وآياته وجُمله ، يجرى دَمُ الإعجاز فيه كله من ألِفه إلى يائه كأنَّه سبيكةٌ واحدة ، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفككٌ ولا تخاذلٌ كأنه حَلْقَةٌ مُفْرَغَةٌ ! أو كأنه سِمْطٌ وحيد وعقد فريدٌ يأخذ بالأبصار : نُظِّمَتْ حروفُه وكلماته ، ونسِّقت جملُه وآياته ، وجاء آخره مُساوِقاً لأوله ، وبدا أوّله مُواتياً لآخره ! ! .

وهنا نتساءل : كيف اتّسق للقرآن هذا التآلف المعجز ؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش ؟ على حين أنه يتنزّل جملةً واحدةً ، بل تنزّل آحاداً مفرّقةً تفرُّق الوقائع والحوادث فى أكثر من عشرين عاماً ! ! .

الجواب : أَنَّنا نَلمحُ هنا سِرًّا جديداً من أسرار الإعجاز ، ونشهد سِمَةً فَذَّةً من

سِمات الربوبيَّة ، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن ، وأنه كلام الواحد الديان « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً » .

وإلا فحدثني - بربك - كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النَّسْج والسرْد ، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه فى التأليف لعوامل خارجةٍ عن مقدور البشر ، وهى وقائع الزمن وأحداثه التى يجىء كلُّ جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ، ومتحدثاً عنها : سبباً بعد سبب ، وداعية إثرَ داعية ، مع اختلاف مابين هذه الدواعى ، وتغاير مابين تلك الأسباب ، ومع تراخى زمان هذا التأليف ، وتطاول آماد هذه النجوم ، إلى أكثر من عشرين عاماً .

لا ريب أن هذا الانفصال الزمانى ، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعى، يستلزمان فى مجرى العادة التفكُّكَ والانحلال ، ولا يَدَعان مجالًا للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام .

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة فى هذه الناحية أيضاً : نزل مُفرَّقاً منجماً ، ولكنه تَمَّ مترابِطاً مُحْكَماً . وَتفرَّقَتْ نجومُه تفرُّقَ الأَسباب ، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شَمل الأَحباب. ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً ، ولكن تكامل انسجامُه بدايةً وختاماً ! ! .

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القُوَى والقُدر، ومالك الأسباب والمسبَّبات، ومدبِّر الخلق والكائنات، وقيُّوم الأرض والسموات ، العليم بما كان وماسيكون ، الخبير بالزمان ومايحدث فيه من شئون ؟ ؟ .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات ، قال : « ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا » . وهو بشرٌ لا يدرى (طبعاً) ماستجىء به الأيام ، ولا يعلم ماسيكون فى مستقبل الزمان ، ولا يدرك ماسيحدث

من الدواعى والأحداث فضلا عما سينزل من الله فيها . وهكذا يمضى العمر الطويل والرسول على هـذا العهد ، يأتيه الوحى بالقرآن نجماً بعد نجم ، وإذا القرآن كله بعد هـذا العمر الطويل يـكمل ويتمّ ، وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم ، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذُل ولا تفاوُت ، بل يُعجزُ الخلق طرًّا بما فيه من انسجامٍ ووحدةٍ وترابط : « كِتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خَبِيرٍ » !! .

وإنه ليستبين لك سرُّ هذا الاعجاز ، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتّساق والانسجام ، لن يمـكن أن يأتى على هذا النمط الذى نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط ، لا فى كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء .

خذ مثلاً حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ما هو فى روعته وبلاغته ، وطهره وسموِّه : لقد قاله الرسول ﷺ فى مناسبات مختلفة ، لدواع متباينة ، فى أزمانٍ متطاولة . فهل فى مُـكْنتك ومُـكْنة البشر معك ، أن ينظموا من هذا السرْد الشتيت وحده ، كتاباً واحداً يَصْقله الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيَّدُوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟ ؟ .

ذلك ما لن يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث ، ويَخرج للناس بثوب مرقَّع ، وكلام ملفَّق ينقصه الترابط والانسجام ، وتُعْوِزُه الوحدة والاسترسال ، وتمجُّه الأسماع والأفهام .

إذن : فالقرآن الـكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده . وتلك حكمة جليلة الشأن ، تدلُّ الخلق على الحق فى مصدر القرآن ! . « قُلْ أَنزَلَهُ ٱلذى يَعلَمُ السِّرَّ فى السمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

٣ — المعركة الطاحنة

أو الوحى بين معتقديه ومنكريه

كل ما قدمناه إليك فى نزول القرآن لا يسلِّمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحى وأساليبه ، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى ، واستمداد الانسان لمعارفه عن الله تعالى بوساطة الملك ، على غير الطريقة المعتادة بين البشر . ولكن العقليَّة العصريَّة أصابها مَسٌّ من المادية والإلحاد والإباحة ، فأصبح كثير من المتعلمين تعليماً مدرسيًّا ناقصاً ، لا يهضمون هذه الحقائق العُليا ، ولا يستسيغون فهمها ، بل يُلْقون حِبالاً وعِصياً فى سبيل المؤمنين بها ، ولا شبهة لهم فيما ذهبوا إليه إلا شكوكٌ تلقَّفوها من هنا وهناك ، يروِّجونها باسم العقل مرةً ؛ وباسم العلم مرةً أخرى .

لهذا نرى لزاماً علينا أن نقف هنا بجانب الوحى وقفةً نرفع فيها النقاب عن حقيقته وأنواعه وكيفيَّاته ، ثم نُتْبِع ذلك بالأدلة العلمية على الوحى وإمكانه ، ثم نردفها بالأدلة العقلية على تحقُّقه ووقوعه . ثم نختتم هذا المبحث بعلاج الشبهات التى تعترضهم ويعترضون بها فى هذا الموقف الجلَل . والموضوع الخطير .

تلك نِقاطٌ أربعٌ إذا وُفِّقنا فى بحثها ، قطعنا الطريق على عصابات مجرمة ، اتخذت مبحث الوحى أداةً للفتنة ، وستاراً يقضون من ورائه وَطَراً للغَواية ، ومأرَباً للاباحة ، وسبيلاً إلى هدم الأديان ، وضلال الانسانية والإنسان .

١ — حقيقة الوحى وأنواعه وكيفياته

أما الوحى فمعناه فى لسان الشرع : أن يُعْلِمَ الله تعالى مَنِ اصطفاه من عباده كلَّ ما أراد إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سِرِّيَّةٍ خفية ، غير معتادة للبشر .

ويكون على أنواع شتى : منه مايكون مكالمةً بين العبد وربه ، كما كلَّم الله موسى تكليماً . ومنه مايكون إلهاماً يقذفه الله فى قلب مُصطفاه على وجهٍ من العلم الضرورى لا يستطيع له دفعاً ، ولا يجدُ فيه شكاًّ . ومنه مايكون مناماً صادقاً يجىء فى تحقُّقه ووقوعه ، كما يجىء فلقُ الصبح فى تبلُّجه وسطوعه . ومنه مايكون بوساطة أمين الوحى جبريل عليه السلام : وهو ملكٌ كريم ذو قوّة عند ذى العرش مكين ، مطاعٌ ثمّ أمين . وذلك النوعُ هو أشهر الأنواع وأكثرها . ووحى القرآن كله من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحى الجلىّ . قال الله تعالى فى سورة الشعراء : « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ » .

ثم إن ملك الوحى يهبط هو الآخر على أساليب شتّى : فتارة يظهر للرسول فى صورته الحقيقيّة الملكية . وتارةً يظهر فى صورة إنسانٍ يراه الحاضرون ويستمعون إليه . وتارةً يهبط على الرسول خفيةً فلا يُرى ، ولكن يظهر أثرُ التغيُّر والانفعال على صاحب الرسالة فيغطُّ غطيطَ النائم ، ويغيب غيبةً كأنها غَشْية أو إغماء ، وما هى فى شىء من الغشية والاغماء ، إن هى إلا استغراقٌ فى لقاء الملَك الروحانى ، وانخلاعٌ عن حالته البشرية العادية ، فيؤثّر ذلك على الجسم ، فيغطّ ويثقل ثقلاً شديداً ، قد يتصبّب منه الجبين عرقاً فى اليوم الشديد البرد . وقد يكون وَقْع الوحى على الرسول كوقْعِ ٱلجَرَسِ إذا صَلْصَلَ فى أُذُن سامعه ، وذلك أشدُّ أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دَوِىُّ النحل ، لكنهم لا يفهمون كلاماً ، ولا يفقهون حديثاً . أما هو — صلوات الله وسلامه عليه — فإنه يسمع ويعى مايوحى إليه ، ويعلم علماً ضرورياً أنّ هذا هو وحى الله دون لَبْسٍ ولا خفاء ، ومن غير شك ولا ارتياب ، فإذا انجلى عنه الوحى وجد ماأُوحى إليه حاضراً فى ذاكرته ، منتقشاً فى حافظته ، كأنما كُتب فى قلبه كتابةً .

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرةٌ فى الكتاب والسُّنة ، منها ماقصصنا عليك فى تنزُّلات القرآن ، ومنها قوله تعالى : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ».

ومنها الحديث الذى يرويه البخارىُّ فى صحيحه عن عائشة أمِّ المؤمنين رضى الله عنها: أنَّ الحارثَ بنَ هشامٍ سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسولَ اللهِ كيفَ يأتيكَ الوحىُ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحْيانًا يأتينى مثلَ صَلْصَلَةِ الجرس– وهو أَشَدُّهُ عَلَى–فيَفْصِمُ عَنِّى وقد وَعَيْتُ عنه ماقال . وأحيانًا يتَمَثَّلُ لى المَلَكُ رَجُلاً فيكلِّمنى فَأَعِى مايقول » قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحىُ فى اليوم الشديدِ البَرْدِ فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَهُ ليتفصَّدُ عَرَقًا .

ب — الوحى من ناحية العلم

اعلم أن أعداء الوحى ومنكريه لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع . إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التى يستسيغونها ، وبالعلم الذى تواضعوا عليه فى اصطلاحهم الحديث ، وهو جملة المعارف اليقينية التى أنتجها دستور البحث الجديد فى الوجود وكائناته ، من جعل الشك أساساً للبحث ، والاستناد إلى القاطع الذى يؤيده الحسُّ دون سواه ، فهم يقدِّمون الشكَّ وَيَمْعِنُونَ فيه ، ثم لا يعترفون إلا بالحسيَّات ، ولا يَحْفِلُونَ بمجرد العقليات . ومن هنا سجنوا أنفسهم فى سجن المادَّة ، ومكثوا حيناً من الدهر ينكرون ماوراء المادَّة ، ويسرفون فى الشكوك إلى أبعد الحدود ، ويستخفُّون بأمر الإلٰهيات والنبوَّات والوحى إلى مدًى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية ، لولا أن صدمهم العلم نفسُه صدمةً عنيفةً غَيَّرَتْ رأيهم فى إنكار ماوراء المادة كما يأتى إن شاء الله . وإنما نبدأ هنا بأدلة الوحى العلمية ؛ لأنها فى الواقع أدلة لإمكان الوحى وتقريبه إلى العقول . وإمكان الوحى هو الخطوة الأولى فى الموضوع ،

وهو ملحوظ فى المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلى الآتى ، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكانُ الصدارة والتقديم .

«الدليل الأول» التنويمُ الصناعى، أو التنويم المغناطيسى، وهو من المقرَّرات العلمية الثابتة. كشفه الدكتور « مسمر » الألمانى فى القرن الثامن عشر ، وجاهد هو وأتباعه مدى قرنٍ كاملٍ من الزمان فى سبيل إثباته وحَمْلِ العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا فى ذلك ، فاعترف العلماء به علمياً ؛ بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلَّفة من الخلق واطمأنُّوا إلى تجاربه. وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأتى :

١ ـ أن للإنسان عقلا باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً .

٢ ـ أنه وهو فى حالة التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع ، ويقرأُ من وراء حجب، ويخبر عما سيحدُث ، مما لا يوجد فى عالم الحسِّ أقلُّ علامةٍ لحدوثه .

٣ ـ أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سمواً بتنقله فيها .

٤ ـ أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ؛ وتَمَثَّل إلى جانبه غير مرئية ، بينما يكون الجسم فى حالةٍ تشبه الموت ،لولا علاقةٌ خفية بين الروح والجسم .

٥ ـ أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً .

٦ ـ أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال .

٧ ـ أن الروح لا تنحلُّ بانحلاله .

٨ ـ أنها تتصل بالأرواح التى سبقتها إذا تجرَّدت عن المادَّة ، إلى غير ذلك مما لا نسلِّم جميع تفاصيله تقليداً ، وإن كنا نسلِّم هذا العلم وتجاربه . ومقرراته فى الجملة ، لثبوت الدليل بها فى الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة

والمشاهدات الكثيرة . وله فى الغرب أنصار من علماء وطلاب ؛ وله دورٌ وكتب ، وله مستشفياتٌ يؤمُّها الناس للتداوى به .

وليس من موضوعنا أن نتوسَّع لك فى هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده ، ولكنا نريد أن نتقدَّم إليك بفكرة مجملةٍ عنه ، تريك إلى أيِّ حد أظهر الله فى هذا العصر آياتٍ باهراتٍ ، على أيدى الطبيعيين الذين ينكرون ماوراء المادة ويسرفون فى الإنكار ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل يثبتون ماوراء المادة ويسرفون فى الإثبات . تحقيقاً لقوله سبحانه « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » اه من خاتمة سورة فصلت .

وإننا نضع بين يديك هنا تجربةً واحدة من تجارب التنويم ، تقرِّب إليك الوحى كل التقريب ، وهذه التجربة رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى ، بنادى جمعية الشبان المسلمين ، على مرأى ومسمع من جمهور مثقَّف كبير ، حضر ليشهد محاضرةً مهمة فى التنويم المغناطيسى وإثبات أنه يمكن أن يُتخَذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه ، كما تسفَّل إلى ذلك بعض المبشرين ، إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شابًّا من خيرة الشبان المسلمين حول سنة ١٣٥١ ﻫ فى حادثة مشهورة مروِّعة ، وماهى منكم ببعيد .

قام المحاضر ، وهو أستاذ فى التنويم المغناطيسى ، وأحضر الوسيط وهو فتًى فيه استعداد خاص للتأثُّر بالأستاذ ، والأستاذُ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط ، فالأول ضعيف النفس ، والثانى قويُّها . وللضعف والقوة وجوه ليس هذا موضع بيانها . نظر الأستاذ فى عين الوسيط نظراتٍ عميقةً نافذة ، وأجرى عليه حركاتٍ يسمونها سَحَبات ، فما هى إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغطُّ غطيط النائم ، وقد امتقع لونُه ، وهمد جسمه ، وفقد إحساسه المعتاد ، حتى لقد كان أحدنا يَخِزُهُ بالإبرة وخزات عدة ، ويخزه كذلك ثانٍ وثالث ، فلا يبدى الوسيط حَرَاكاً ، ولا يظهر أىَّ عرضٍ لشعوره وإحساسه بها . وحينئذٍ تأكَّدنا أنه قد نام ذلك النومَ الصناعىَّ أو المغناطيسى .

وهنالك تسلط الأستاذ على الوسيط يسأله : ما اسمك ؟ فأجابه باسمه الحقيقى . فقال الأستاذ : ليس هذا هو اسمك ، إنما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثم أخذ يقرر فى نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب ، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق ، بوساطة أغاليط يلقّنها إياه فى صورة الأدلة ، وبكلام يوجهه إليه فى صيغة الأمر والنهى . وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاء ، وفرضها عليه فرضاً ؛ حتى خضع لها الوسيط وأذعن !.

ثم أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقى المرّة بعد الأخرى فى فترات متقطعة ، وفى أثناء الحديث على حين غفلة ، كل ذلك وهو لا يجيب . ثم نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيب ، دون تردُّد ، ولا تَلَعثُم .

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته. ثم أيقظه وأخذ يتمّ محاضرته ونحن نَفْجأ الوسيط بالاسم الحقيقى فلا يجيب ، ثم نفجؤه باسمه الثانى فيجيب ، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقى !

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوِّم « بكسر الواو » يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه ، مهما كان ثابتاً فى النفس ، كاسم الإنسان عينه ، ومهما كان مقدّساً فيها كعقائد الدين .

وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين : أحدهما أن محو الدين عدوانٌ أثيم ، وإجرام شنيع ، لم تقبله نفسيّة المحاضر ولا الحاضرين . ثانيهما : أن الاسم أثبتُ فى نفس صاحبه من دينه ، فمحوه منها أعجب ، ومنه تعلم أن محو الدين منها أيسر !.

وبهذه التجربة أيضاً ثبت لى أنا من طريق علمى ، ماقرّب إلىّ الوحىَ عملياً ، وماجعلنى أُعَلِّله تعليلاً علمياً : فالوحى « عن طريق الملك » عبارةٌ عن اتصال الملك

بالرسول اتصالًا يؤثِّر به الأول فى الثانى، ويتأثَّر فيه الثانى بالأول، وذلك باستعدادٍ خاص فى كليهما ، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير، لأنه روحانى محض، والثانى فيه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك . وعند تسلُّط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغيير عليه ، ويستغرق فى الأخذ والتلقى عن الملك ، وينطبع ماتلقّاه فى نفسه ، حتى إذا انجلى عنه الوحى وعاد إلى حالته الأولى ، وجدَ ماتلقَّاه ماثلاً فى نفسه ، حاضراً فى قلبه ، كأنما كتب فى صحيفة فؤاده كتاباً .

أتظن — أيها القارئ الكريم — أن المخلوق يستطيع أن يؤثِّر فى نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسى ، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر فى نفس من شاء من عباده بواسطة الوحى ؟ كلا ثم كلا « إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » .

« الدليل العلمى الثانى » . أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب مانعرفه ونشاهده وننتفع به ، مما يسمونه التليفون ، واللاسلكى ، والميكرفون ، والراديو . وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان فى آفاقٍ بعيدة عنه وأن يفهمه ماشاء ويرشده إلى ماأراد . فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر ، عن أن يوحى إلى بعض عباده ماشاء ، عن طريق الملك أو غير الملك ؟ . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا .

« الدليل الثالث » استطاع العلم أيضاً أن يملأ بعض اسطوانات من الجماد الجامد الجاهل ، بأصوات وأنغام ، وبقرآنٍ وأغانٍ وكلامٍ ، على وجه يجعلها حاكيةً له بدقة وإتقان ، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيل إلى إنكاره يسمونه (بالفونغراف) .

أبعدَ هذه المخترعات القائمة ، يُستبعد على القادر تعالى بوساطة ملك ومن غير وساطة ملك ؛ أن يملأ بعض نفوس بشريةً صافية من خواصِّ عباده ، بكلامٍ مقدس

يهدى به خلقه . ويُظهر به حقّه ، على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشاً فى قلب رسوله ، حتى يحكيه بدقة وإتقان كذلك ؟

٤ « الدليل الرابع » أننا نشاهد بعض الحيوانات الدُّنيا تأتى بعجائب الأنظمة والأعمال ، مما نُحيل معه أن يكون ذلك صادراً عن تفكير لها ، أو غريزة ساذجة فيها ، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر فى ذلك إلا عن إرادة عُليا ، توحى إليها وتلهمها تلك العجائب والغرائب ، من الصناعات والأعمال ، والدقّة والاحتيال .

وإذا صحّ هذا فى عالم الحيوان ، فهو أولى أن يصح فى عالم الانسان ، حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى ، وأخذه عنه يكون أتمّ ، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحى .

وإن شئت أمثلةً لتلك الحيوانات التى ضربناها لك مثلاً فى إلهاماته العلوية ، فدونك النمل والنحل ، وما تأتيان من ضروب الأعمال ، ودقّة النظام . وهاك حيواناً غريباً أسموه « اكسيكلوب » . وقال عنه الأستاذ « ميلن إدوار » المدرس بجامعة (السوربون) بفرنسا ما ترجمته : « إن الحيوانات المسماة « اكسيكلوب » تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تبيض مباشرة ، وتخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ، كما لا تستطيع الحصول على غذائها . ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل ، وفى هدوء تام ، وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها ، تعمِد إلى قطعة من الخشب ، فتحفر فيها سِرْداباً طويلا ، فإذا أتمّته أخذت فى جلب ذخيرة إليه ، تكفى صغيرا واحداً مدة سنة ، تلك الذخيرة هى طَلْع الأزهار وبعض الأوراق السُّكَّرية ، فتحشو بها قاع السرداب ، ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتى بنُشارة الخشب ، وتكوِّن منها عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك

السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلمَّ جرّاً حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت » ! ! .

فمن ذا الذى علَّم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة ، تلك الصناعة المحيِّرة للعقل ؟ ومَنْ أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرةً أن صغارها التى ستولد ، فى حاجة إلى البقاء سنةً فى حالة ضعفٍ وعجز ؟ ومَن الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها ، حتى كلَّفتها كلَّ هذه المشقة فى وضع بويضاتها ؟ ! .

لا ريب أن قَيُّوم الوجود يؤتى الكائنات علماً بما يقيمها وبما يصلحها ، من غير طريق الحواسِّ التى لا تستطيع أن تكتسبه بها . ومن العبث وضلال الرأى أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاماً تبعثه القدرة الإلٰهية إلى أحقر الحشرات ، ثم ينفيه عن النوع البشرى وهو أشدُّ ما يكون حاجة إلى هذا الوحى والإلهام فى حياته الفردية والاجتماعية .

« الدليل الخامس » العبقرية ، ويُعَرِّفها أفلاطون بأنها حالٌ إلٰهيةٌ مولدةٌ للإلهامات العلوية للبشر ، ويقرر الفلاسفة أنها حال علوية لا شأن للعقل فيها ويقول الطبيعيون : إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصّلها دراسة ، ولا يوجدها تفكير .

وهاك أمثلةً للعبقرية والعباقرة ، تشعُّ على موضوع الوحى نوراً كشَّافاً يهدى الحيارَى الضالين ، إلى سواء السبيل .

١ ـ قال الأستاذ « ميرس » الانجليزى مدرس علم النفس بجامعة « كامبردج » فى كتاب كبير له أسماه « الشخصية الانسانية » ما ترجمته : كان للمستر بيدلر خاصَّة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فإنه كان يعيّن على البديهة العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عدداً من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلاً : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى الآخر نتج العدد (١٧٨٦١) أجابك على الفور بأنهما

(٣٣٧ر٥٣) . وهو يقول : إنه لايدرى على أية حال يأتى بهذا الجواب ، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية .

(٢) ونقل عن الشاعر الكبير (سوللى برودوم) الفرنسى أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحايين أنى كنت أجد فجأةً برهان نظرية هندسية أُلقيت إلىَّ منذُ سنة ، وذلك بدون أن ألقى إليها أقلَّ التفات » .

(٣) وذكر المسيو (رينه) الشاعر الفرنسى أنه ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتمَّ ، ثم يستيقظ فيجدها تامة .

(٤) وكذلك يقول الشاعر (موسيه) الفرنسى « أنا لا أعمل شيئاً ولكن أسمع مايلقى إلىَّ فأنقله ، فكأنَّ إنساناً مجهولاً يناجينى فى أذنى » .

وهذه الأمثلة التى سقناها تُثبت وجود اتصالات روحانية باطنة فى بعض الأفراد ، تُمِدُّ الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد ؛ وذلك يقرِّب الوحىَ أيَّما تقريب ، فى وقت اشتدَّ شكُّ الناس فيه حتى كذَّبوا بالإلٰهيات والنبوات ، وسخروا بالأديان والشرائع ، مع أنها أعظم عوامل التحوُّل الاجتماعى والفكرى فى الإنسان ؛ وأكبر الأحداث التى غيَّرت العالم. وحوَّلت مجرى التاريخ ، ومن العار الجارح لكرامة البشر، أن تكون تلك العوامل والأحداث العظمى ، قامت على أوهامٍ خاطئة ، أو على أكاذيب متعمدة ! .

٦ « الدليل السادس » قرَّر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية، تعتبر من الخوارق التى لم يكن يحلم بحدوثها العلماء ، على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا فى حالة ذهول ، وقد استحال تعليل ماأتوا تعليلاً مادياً يستند إلى الحس ، وقد اختبروا تلك الظواهر ، واستحضروا لشهودها أكبرَ مُشَعْوِذى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شىء ؛ وإنما هى أحداثٌ روحانية، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد .

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر ، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس فى حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية ، فكيف يُستبعد بجانب هذا الكشف العلمى أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحى ، بينما هم من كملة العقول والأخلاق ؟ لقد أسفر الصبح لذى عينين !

حـ — الوحى من ناحية العقل

عرفت فيما سقناه لك من الأدلّة العلمية أن الوحى ممكن وقريب من الوقوع ، ونقيم لك الدليل العقلى هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً : ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد ﷺ ، وكل ماأخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، وذلك هو المطلوب . أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فما مرّ عليك من أنباء الوحى فى الكتاب والسنة . وأما الدليل على أن كل ماأخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حقٌ ثابت ، فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة . وأما الدليل على أن محمداً ﷺ صادقٌ معصومٌ فإنما هى المعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده فى شأن تصديق رسوله : « صَدقَ عبدِى فى كلِّ مايُبَلِّغُ عنى ، ومن ذلك أنه يوحَى إليهِ منى » .

وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة ، فما هى المعجزة ؟ .

المعجزة

هى أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الاتيان بمثله ، أو هى أمرٌ خارق للعادة ، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلقه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه . فإذا قام إنسانٌ ما ، وادعى أنه مبعوث الله إلى

خلقه ؛ ورسولُه إلى عباده ؛ وقال : إن آية صدق فيما أدعيه ؛ أن يغيِّر الله الذى أرسلنى عادةً من عاداته على يدى ، وأن يَخرج الآن عن سُنَّةٍ من سُننه العامـة فى وجوده ، ثم قال : وسيأتيـكم الله بهذا الأمر العُجاب من بابٍ ترون أنـكم فيه نابغون ، وعليه قادرون ، وإنى أتحدَّاكم زَرافاتٍ وَوُحْداناً أن تأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامـكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون ، وفيـكم النبوغ موفوراً كما تدَّعون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدى . قال ذلك بلغة الواثق ؛ وتحدَّانا هـذا التحدى الظاهر ، فى وقت يثور فيـه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا ، ويسفِّه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا ، ونحن أحرص ما نـكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفرِ به ، دفاعاً عن كرامتنا ، وانتصاراً لأعز شىء لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقمنا ؛ وأجمعَ أمره وأجمعْنا ، وإذا نحن جميعاً بعد مُحاولات ومُصاوَلات ؛ لم نستطع أن نأتى بمثـل ما أتى به ، فضلاً عن أعظم منه . مع أننا أمة وهو فرد . ومع أنه قد دخل علينا من أيسر الطرق فى نظرنا ؛ ومن أشهر فنٍّ فى زماننـا ، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الـكافية لمناظرته ، وأنصفنا كلَّ إنصـافٍ من نفسه ! !

هل يشكُّ ذو مُسْـكة من عقل ، فى أن هذا الانسان المتفوِّق الممتاز ، صادقٌ فى رسالته ، محقٌ فى دعايته ؟ خصوصاً إذا عرفنا فوق ذلك كله ، أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ، من لَدُنْ صباه وطفولته ، إلى يوم مبعثه ورسالته ! .

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه ، لقلنا : رجل حَذَق فنا من الفنون التى لا علم لنا بها ، أو تعلَّم صناعةً من الصناعات التى لم نُحِطْ بخبرها . أمَّا وقد جاءنا من الناحية التى نشهد لأنفسنا فيها بالفَوْق والسبق ، فلا يسعنا إلا الإذعان له ، والايمان بما جاء به ، ما دمنا منصفين .

ولنضرب لك مثلاً : جاء موسى عليه السلام بمعجزته عَصاً من الخشب ، لا روح

فيها ولا حركة ، ولا لين ولا رطوبة ، ثم ألقاها باسم الذى أرسله ؛ فإذا هى حيةٌ تسعى ، بينما الأمة التى تحدَّاها بذلك كانت قد تفوَّقت فى السحر وحذَقته ؛ وضربت فيه بأوفر سهم وأوفى نصيب ، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد . وهم نابغون فى السحر وهو مع نشأته فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر . وهم معتزُّون بعَددهم وعُددهم وسلطانهم ، وهو خِلو من هذه الأسباب والمظاهر ! .

فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه فإذا هى تَلقَفُ ما يأفكون ، ووقع الحق وبطل ما كانوا يَعْمَلون ، وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ! .

الحقُّ أبلَج . ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجه ، وقد رأوا رَأىَ العين أن ذلك الاعجاز ليس من نوع هذا السحر المبنى على مقدمات يستطيع كل إنسان أن يزاولها ، ولها نتائج محدودة لا يمكن أن يتجاوزها . نعم لم يطق السحرة صبراً عن المسارعة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعد ما تبيَّن ، مهما كلَّفهم ذلك أن يُقتلوا أو يُصلبوا ؛ وقالوا لفرعون مليكهم ومعبودهم بالأمس « لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا . فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا » . اقرأ إن شئت الآيات بعدها فى سورة طه إلى قوله سبحانه : « وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

قل مثل ذلك فى معجزة كل رسول أرسله الله : قله فى عيسى عليه السلام وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير باذن الله ؛ أمام قوم نبغوا فى الطب أيَّما نبوغ ومهروا فيه أيَّما مهارة (١) ! .

---

(١) لا تَعبأْ هنا بما يُعزَى إلى المسيو رينان من إنكاره نبوغ قوم عيسى فى الطب . فإنه ناف ، والمثبِتُ مقدَّمٌ على النافى . وعلى فرض صحة هذا النفى فإن هذا لا يضرنا شيئاً لأن المعجزة يكفى فى تحققها عجز البشر عن مثلها . وليس تفوُّق المواجَهين بها شرطاً ، إنما هو أمرٌ زائدٌ غير مشروط .

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك فى خاتم الأنبياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات ، ومعجزات واضحات ! وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً بل براهين ساطعات : كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم فى فم الدنيا إلى يوم الساعة . تتحدّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنباء الغيب وشواهد الحق .

أضف إلى ذلك أن الذين شوفهوا بخطابه عند مهبط الوحى كانوا أئمة الفصاحة ، وفُرسان البلاغة ، بضاعتهم الـكلام والتفنُّن فى إجادته . وصناعتهم التنافس فى النثر وديباجته ، والشعر ورونقه . وكرامتهم مرتبطة بما يُجيدون فى هذا الباب ، لا بمـا يجمعون من الذهب أو يحملون من ألقاب . حتى بلغوا فى هذا الميدان شأواً لا يُبارى ، وغايةً لا تُدرك . وما يـكون لنا أن نطلق العنان هنا للقلم . وإلا ضاق بنا التأليف والزمن . وأنت خبير بإعجاز القرآن ، وما كتب فى إعجاز القرآن . فاكتف بهذه الإشارة الخاطفة . وإن أردت المزيد فعليك بما كتب فى إعجاز القرآن .

د = دفع الشبهات

ولـكننى أعالج بين يديك لهذه المناسبة شبهاتٍ عشراً يردِّدها كثيرٌ من المفتونين .

« الشبهة الأولى » يقولون : إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات . فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو عجب ، فـكذلك آثار العلم ومدهشاته فيما نرى ونسمع.

والجواب : تعرفه مما ذكرناه آنفاً فى بحث المعجزة . مما يتبين به الفرقُ بعيداً والبونُ شاسعاً بين المعجزة وما جدّ أو يجدُّ فى العالم من عجائب العلم ، وروائع الفن ، وبدائع الاختراع . فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تُلتمس ويؤتى بمثلها . أما هذه المخترعات فإن لها أسباباً معروفة عند أصحابها ، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة متى التمسها من طريقها .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما إليهما : إن هى إلا تخييلات وتضليلات .

والجواب : يتبيّن لك مما قصصنا عليك فى المعجزة وفى ضرب المثل لها بعصى موسى.
ويمكن تلخيصه بأن المعجزة نفحةٌ من نفحات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة ، والوسائل المشاهدة ، والغايات المألوفة . أما السحر وما أشبهه ، فإنها فنون خبيثة ، ذات قواعد وأوضاعٍ يعرفها كل من ألَمّ بها ، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كلٌّ من عالجها من بابها . ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح ، والبون الشاسع ، كما تقدم .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التى اشتمل على مثلها القرآن ، ماهى إلا آثارٌ لمواهب بعض النابغين من الناس ، وهذه المواهب وآثارها وُجدت ويمكن أن توجد فى كل أمة .

والجواب : أن مواهب النابغين ، ونبوغ الموهوبين ، وما يكون منهم من آثارٍ وأفكار ، كل ذلك له وسائل وعوامل ، ثم له أشباه معتادة ونظائر ، فى كل أمة وجيل ، وفى كل عصر ومصر ، أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل ، ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر ، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف ، وسَنَن الوجود المألوف .

« الشبهة الرابعة » يقولون : إن خرق الله لعاداته على أيدى رسله كما تقولون ، يعتبر خروجاً عن النظام العامِّ الذى تقتضيه الحكمة ، وتناط به المصلحة .

والجواب : أن المعجزة – وإن كانت خارجةً عن حدود الأنظمة المعتادة لا تُعتبر خروجاً على النظام العامِّ الذى تقضى به الحكمة ، وتُناط به المصلحة ، بل هى من مقتضَيات ذلك النظام العامِّ الذى تمليه الحكمة ، وتوحيه المصلحة . وأىُّ حكمة أجلُّ من تأييد الحقِّ وأهل الحق ؟ وأىُّ مصلحةٍ أعظم من اهتداء الخلق إلى طريق سعادتهم؟ بوساطة تلك المعجزات التى يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله ، ووجوب تصديقهم لهم ، واتباعهم إياهم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : لو كان الوحى ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ، ولم يختصَّ به شِرْذِمَةً قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه .

والجواب : أن عامّة البشر ليس لديهم استعدادٌ لتلقى الوحى عن الله ، لا مباشرة ولا بواسطة الملك ، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر فى صورة إنسان ، وحينئذ يعود اللّبس ويبقى الإشكال . فقضت الحكمة أن يجعل الله من بنى الإنسان طائفةً ممتازةً لهـا استعدادٌ خاص يؤهلها لأن تتلقّى عن الله الوحى ، ثم تؤديه فى أمانة إلى العامّة من إخوانهم فى الإنسانية ، بعد أن وضع الله فى أيديهم شواهد الحق الناطقة التى تدلّ العالم على مراده سبحانه من تصديقهم ، وبعد أن سلّحهم بالآيات التى تطمئن الناس على أنهم رسلٌ لإنقاذهم وإرشادهم من عند ربهم . ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنسانى بالوحى والنبوة ، فيه نوع من الاختبار والابتلاء ، الذى بنى الله عليه هذه الحياة ، وميز به الخبيث من الطيب . « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وتلك الشبهة يقول الله فى مثلها من سورة الأنعام : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

« الشبهة السادسة » يقولون : كيف تدلُّ المعجزة على تصديق الله لرسله ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

والجواب : أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول ، كدلالة الكون على خالقه ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه . ولنضرب لهم المثال ، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر : افرض أنك حضرت مجلساً عاماً فيه ملك من الملوك ، وكان من تقاليد هـذا الملك ألا يكشف رأسه فى مجلس من المجالس العامة ، وبينما القوم جلوس فى حضرة صاحب الجلالة إذ نهض رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقه وأمانته ، وأدبه واستقامته ، وحسبه ونسبه . وإذا هـذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من المليك ورعيته : أيها القوم إن مولاى الملك حمّلنى هذه الرسالة أبلغكم إياها ، وهى أن تفعلوا

كذا ، وتتركوا كذا ، ثم سكت الملك ولم يكذبه ، ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه ، وسكوت مليكه فى ترويج دعوته ، وتأييد رسالته . بل قال إن آية صدقى أن يُغيّر مولاى الملك عادته الآن ، ويخرج عن تقليدٍ من تقاليده المعروفة لكم جميعا ، وذلك بأن يُعَرِّىَ رأسه فى هذا المجلس العام . ثم ما كاد ينتهى حتى عرَّى المليكُ رأسه وخلع تاجه . أفلا يعتبر ذلك دليلا كافياً على صدق هذا الرجل وصدق ماجاء به ؟ ثم ما بالك إذا هو قد عزَّز دليله بالتحدِّى فقال : إنى أتحدَّاكم أن يجيبكم الملك إلى مثل ماأجابنى إليه . فأخذوا يطلبون ويُلحُّون ، فلم يستجب لهم الملك ، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة . أفلا يكون ذلك برهاناً أبلج من الصبح على أن هذا الداعى هو رسول هذا الملك حقاً ؟ ثم ألا يكون المكذب بعد ذلك معانداً ومكابراً ، ويكون بالحيوان الذى لا يفهم ولا يعقل ؛ أشبهَ منه بالإنسان الذى يفهم ويعقل ؟ « أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ؛ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وذلك المثل هو مثل رُسُل الله ، تؤيدهم معجزات الله . « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

« الشبهة السابعة » يقولون : إن هذا الوحى الذى تدَّعونه وتدَّعون تنجيمه، جاءبهذا القرآن غير مرتَّب ولا منظَّم ، فلم يُفرِد كلَّ غرض من أغراضه بفصل أو باب، شأن سائر الكتب المنظمة . بل مُزجت أغراضُه مزجاً غيرمُراعًى فيه نظام التأليف ، فيبعد أن يكون وحياً من الله . وهذه الشبهة واردة كما ترى على تنجيم القرآن وترتيبه أيضاً .

والجواب : أن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيباً فيه ، ولا فى وحيه وموحيه ، بل هى – على العكس – دليلٌ مادىٌّ ، على أنه ليس بكتاب وضعى بشرى؛ يجلس إليه واضعه من الناس ؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلا ، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة باباً ؛ بل هو مجموع إشراقات من الوحى الإلٰهى الأعلى . اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة . على ماهو مفصَّل فى أسرار تنجيم القرآن .

ثم إن هـذا المزيج الطريف الذى نجده فى كل سورة أو طائفة منه ، له أثر بالغ فى التذاذ قارئه ، وتشويق سامعه ، واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه ، فى كل جلسة من جلساته أو درس من دروسه وهـذا هو الأسلوب الحكيم فى التعليم والإرشاد ، خصوصاً لتلك الأمة الأمّية التى نزل عليها . فما أشبه كلّ مجموعة من القرآن بروضة يانعة يَتَنَقَّلُ الإنسان بين أفيائها متمتعا بكل الثمرات ، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يُشبع الجائعُ حاجتَه بما فيها من جميع الألوان .

وهنا دقيقة أحب ألّا تَعزُبَ عن علمك . وهى أن هذا الروْضَ الربانىّ اليانع (القرآن الكريم) يقوم بين جُمَله وآيِهِ وسُوَرِه تناسبٌ بارع ، وارتباطٌ محكم ، وائتلافٌ بديع ، ينتهى إلى حدّ الإعجاز ، خصوصاً إذا لاحظنا نزوله مُنَجَّماً على السنين والشهور والأيام .

قال الشيخ ولىُّ الدين الملّوى : « قد وَهِمَ مَنْ قال : لا يُطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرّقة . وفَصْلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلاً . فالمصحف على وَفْق ما فى اللوح المحفوظ مرتَّبةً سوره ، كلها وآياته بالتوقيف كما أُنزل جملةً إلى بيت العزّة . ومن المعجز البيِّن أسلوبُه ونظمه الباهر ، والذى ينبغى فى كل آية أن يُبحث أولَ كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلّة ، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى ذلك علمٌ جمٌّ . وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له » :

وقال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره لسورة البقرة ما نصُّه :

« ومن تأمّل فى لطائف نظم هـذه السورة وفى بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعلّ الذين قالوا : إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلاّ أنى رأيت

جمهور المفسرين معرضين عن هـذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ   والذنبُ للطرْفِ لا للنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ

« الشبهة الثامنة » يقولون : إن محمـداً كان عصبياً حادَّ المزاج ، وكان مريضاً بما يسمونه (الهستريا) فالوحى الذى كان يزعمـه ماهو إلا أعراض لتلك الحال التى أصيب بهـــا .

والجواب : أن هذه فِرْيَةٌ تدلُّ على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ . فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح ، والأدلّة القاطعة ، أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعاً ، صبوراً حليماً ، بل كان عظيم الصبر ، واسع الحلم ، فسيح الصدر ، حتى إنه وسع الناس جميعاً ببسْطه وخُلُقه . وكان شجاعاً مِقْـداماً سليم الجسم ، صحيح البدن ، حتى إنه صارع رُكَانَةَ المشهور بشجاعته فصرعه . وكان يثبت فى الميدان حين يفرُّ الشجعان ، ويفزع الخلق ويشتدُّ الأمر ، ويقول : « أنَا النبيُّ لاَ كَذِبْ ، أنا ابنُ عبدِ المطلب » ويقول : « إلىَّ عبادَ اللهِ » ولا يزال كذلك حتى يُنقذ الموقف ويكسب المعركة . ولو أفضنا فى هذا الموضوع لطال بنا الـكلام ، ولـكن موضعه كتب السيرة والشمائل المحمدية فارجع إليهـا إن شئت . . . أما مرض (الهسـتريا) الذى يَصِمُونَهُ ﷺ كذباً به فهو داء عصبيٌّ عُضال ، أكثر إصاباته فى النساء . ومن أعراضه شذوذٌ فى الخلق ، وضيقٌ فى التنفس ، واضطرابٌ فى الهضم . وقد يصـل بصاحبه إلى شلل موضعى ، ثم إلى تشنُّج ، ثم إلى إغماء ، ثم إلى هَـذَيَان مصحوب بحركة واضطراب فى اليدين والرجلين ، وقفز من مكان إلى مكان . وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدّده ، وأعداء تحاربه أو أنه يسمع أصواتاً تخاطبه ، على حين أنه لاوجود لشىء من ذلك كله فى الحسّ والواقع .

فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه كان أمّة وحده في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وعقله، ورَباطة جَأشه، وسلامة جسمه، وقوة بنائه ؟

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذى أعيا الأطباء، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوين أمةٍ شموسٍ أبيّةٍ، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية، ودساتير الاجتماع، وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقى ؟!

أضف إلى ذلك أنه نجح فى هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان، هى أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربّة السيف والقلم!!

فهل المريض المتهوِّس الذى لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش ؟!

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طعمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

« الشبهة التاسعة » يقولون: إنكم تستدلون على الوحى بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلّمها، فلا نسلم الوحى المبنى عليها.

والجواب: أن للقرآن نواحىَ أخرى فى الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهّر فى علوم العربية واللسان. منها ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية، والتعاليم العالية، فى العقائد والعبادات، وفى التشريعات المدنية والجنائية، والحربية والمالية، والحقوق الشخصية، والاجتماعية والدولية. وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية، توضّح لك ذلك الإعجاز الباهر، خصوصا إذا لاحظت أن هذا الذى جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلا أُمّيا، نشأ وعاش، وشبّ وشاب، وحىّ ومات، بين أمة أمية، كانت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان!.

كذلك أنباء الغيب التي تحدَّث بها القرآن — وهي كثيرة — يمكن إدراك وجه الإعجاز فيها بيسر وسهولة لكل منصف . إقرأ إن شئت فاتحة سورة الروم ، لتعرف كيف أخبر القرآن صراحةً بأمرٍ كان لا يزال مستتراً في ضمائر الغيب ، بل كانت العوامل والظواهر لا تساعد عليه ، ذلك أنه أخبر في وقت انتصر فيه الفرس على الروم في أدنى الأرض ، بأن الروم سيُدال لهم على الفرس وينصرون في بضع سنين ؛ وكان كما قال .

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه في موقف من مواقف الخصومة والمحاجَّة بينه وبين أعدائه اليهود : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدِّي : إذ كيف يَتَسَنَّى لرجل عظيم في موقفٍ من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه ، أن يجرؤ على تحدِّيهم بشيء هو من شأنهم وحدهم ، وكان في استطاعتهم عادةً ، بل في استطاعة أقلِّ واحدٍ منهم ، أن يقول ولو ظاهراً : « إني أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التمني على محمد ﷺ ، ويبطلوا به دعوته ، ويستريحوا منه على زعمهم . ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت ، بل صرفوا وما زالوا مصروفين عنه أبداً ، ثم سجَّل القرآن عليهم ما هو أبعد من ذلك ، إذ قال عقيب تلك الآية : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » اهـ من سورة البقرة .

أليست تلك أدلةً ماديةً قامت ولا تزال قائمةً ، على أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيداً بالوحي من ربه ، وأنه إنما يتلقى القرآن من لَدُنْ حكيم عليم ؟ .

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار البلاغية فلا يقدح فيه أن جمهرة النـاس اليوم لا يدركونهـا ولا يتذوّقونهـا ، فإن ذلك لا يرجع إلى خُلُوِّ القرآن من أسرار البلاغة والبيان ، إنمـا يرجع إلى جهل النـاس باللغة العربية وأساليبهـا ، وإلى فساد ذوقهم من غلبة العجمة عليهم ، ومعروفٌ أن عدم الإدراك لشيء ، لا ينهض دليلاً على عدم ذلك الشيء . ونظير ذلك أن عدم علمنا بلغة من اللغات الاجنبية مثلا ، لا يلزم منـه أن ننكر أن فلاناً متفوقٌ فى تلك اللغـة بشهادة الإخصائيين فيها والحاذقين لهـا ، بل نحن نؤمن بوجود لغـاتٍ لا نعرف منهـا شيئاً ، كما نؤمن بوجود نابغين فيها لا نعرفهم ولا نعرف من وجوه نبوغهم شيئاً ، اللهم إلا عن طريق سمـاعنا لذلك من مصـادر نثق بها .

كذلـكم القرآن الـكريم ، قد شهد الفنِّيون والإخصائيون من حُذّاق اللغة العربية ، فى أزهى عصور التوفر عليها والتمهُّرفيها ، أنه كتاب فاق الـكتب ، وكلام بزّ سائر ضروب الـكلام ، وبلغ فى سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإفحـام ، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل لها من أسرار ! . ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظلّ فيه للشك والنـكران .

فلماذا لا نقبل هذا الحـكم العادل ، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام ؟ !

أليس ذلك تعصباً وعناداً ، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحاً أمام كل مَن يحذق علوم اللغة العربية وأساليبها ، أن يتذوّق أسرار البلاغة والإعجاز فى هذا القرآن ، وأن يحكم هو نفسه بما حكم به الآلاف المؤلفة فى كل زمان ومكان !

وإذا لم ترَ الهـلالَ فسلِّمْ   لأُناسٍ رَأَوْهُ بالأبصـارِ

على أن لإعجاز القرآن ميداناً آخر فاطلبه إن شئت . « وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ » .

(الشبهـة العاشرة) يقولون : إن إعجـاز القرآن للعرب لا يدلُّ على أن القرآن كلام الله . بل هو كلام محمـد نسبه إلى ربه ليَسْتَمِدَّ قدسيّته من هذه النسبة . وإعجـازه

جاء من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل فى بيانه بين قومه ، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ماجاء به قومه ، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله، شأن الرجل الفذ بين أقرانه فى كل عصر .

ونجيب على هذه الشبهة بأجوبة خمسة :

(أولها) أن كل مَن أُوتى حظًّا من حِسِّ البيان وذَوْقِ البلاغة ، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوىّ فرقاً كبيراً يمثّل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق . وها هما القرآن والحديث النبوىُّ ، لا يزالان قائمين بيننا ، ينادیان الناس بهذا الفارق البعيد ، إن كان لهم إحساسٌ فى البيان وذوق فى الكلام .

ولو كان لهذه الشبهة شىء من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخُلَّص الذين شافَهَهم القرآن ؛ لأنهم كانوا أحرصَ على تعجيز محمد وإسْكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة . لكنهم ما قالوا هذا . بل كانوا أكرمَ على أنفسهم من أن يقولوه ، إيقاناً منهم بظهور المميِّزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوّة ، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر فى شىء . وهكذا « مَنْ ذَاقَ عَرَفَ وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ » .

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً وآفَتُهُ مِنَ الفهمِ السَّقِيم

(الجواب الثانى) أن القرآن لم يأت الناسَ من الخَلْف ، بل جاءهم من أوسع الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء ذوى اللَّسَن والبيان وتحدّاهم من الناحية التى نبغوا فيها وهى صناعة الكلام ، تلك الصناعة البيانيَّة الفائقة التى وَقَفُوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم ، حتى صارت موضعَ تنافسهم وسبْقِهم ، وموضوعَ فخرهم وفوْزِهم . شأنَ سائر معجزات الله تعالى : لم تَأْتِ الناسَ إلا من

الناحية المفهومة لهم كلَّ الفهم ، وذلك ليظهرَ أمرُ الله واضحاً جلياً ، لا لَبْسَ فيه ولا غموض ، ولا شبهة ولا شكوك « لِئَلاَّ يكونَ للناسِ على اللهِ حجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ ، وكانَ اللهُ عزيزاً حَكيماً » .

ومن هنا نعلم ، والتاريخ يشهد ، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد — كما يقول أولئكَ الملاحدة — لأمكن هؤلاء العرب البارزين فى البيان أن يعرفوا أنه كلامُه ، بما أوتوا من ملكةَ النقد ، وما وُهبوا من نباهة الحسِّ والذوْق ، ثم لأمكنهم أن يُجاروه ولو شوْطاً قريباً ، إن لم يمكنهم مجاراتُه شوطاً بعيداً . لا سيَّما أن القرآن قد اكتفى منهم فى مَعرِض التحدِّى بأن يأتوا بسورةٍ من مثل أقصر سُورَة ، أى بمثل ثلاث آياتٍ قِصار من بين تلك الآلاف المؤلَّفة التى اشتمل عليها الكتاب العزيز . وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لِتُعْيِيَهُمْ تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان ، وأئمة الفصاحة والبيان ، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإنشائه كما يزعم أولئك الخرّاصون . فما بالك وقد خَرِسَتْ أَلْسِنَتُهُمْ ، وخَشَعَتْ أصواتُ الأجيال كلها من بعدهم .

ومعلومٌ أن النابغة الفذَّ فى أىِّ عصر من العصور ، يستطيع أقرانُه بيُسرٍ وسهولة ، أن يُحاكوه مجتمعين ومنفردين فى الشىء القليل ، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته فى الجميع أو الشىء الكثير .

(الجواب الثالث) أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه . ولأمكن أن يدَّعىَ به الألوهية فضلاً عن النبوَّة . ولكان مقدَّساً فى نظر الناس وهو إله ، أكثر من قداسته فى نظرهم وهو نبىٌّ . ولما كان فى حاجةٍ إذًا إلى أن يلتمس هذه القدسيَّة الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره « فمَا لِهَؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكادُونَ يَفقَهُونَ حَدِيثاً » ؟؟!

(الجواب الرابع) أن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنّهم يتحدّثون عن أكرم شخصيّة عرفها التاريخ طُهْراً وَنُبْلاً، وذهلوا عن أنهم يمسُّون أسمى مقامٍ اشتهر أمانةً وصدقاً. فكان ﷺ إذا مرّ بقومه يشيرون إليه بالبنان ويقولون: هذا هو الصادق الأمين. ثم صدروا عن رأيه، ورضوا بحكمه. والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذا الأمينُ الصدوقُ لِيَذَرَ الكذبَ على الناس ثم يكذبَ على الله «وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

(الجواب الخامس) أن هذه الشبهة وليدة الغَفلة عن مضامين القرآن العلميّة، وأنبائه الغيبيّة، وهداياته الخارجة عن أفق العادة فى كافّة النواحى البشرية، فردية كانت أو اجتماعيّة. لا سيّما أن الآتى بهذا القرآن رجل أُمّىٌّ فى أمّة أميّة، كانت فى أظلم عهود الجاهلية. أضف إلى ذلك ماسجّل القرآن على النبى ﷺ من أخطاء فى بعض اجتهاداته، ومن عتاب يحسُّ تارةً بلطفه، وأخرى بعُنْفه. ولو كان هذا التنزيل كلامه ماسمح أن يسجِّل على نفسه ذلك كله. ولكن الملاحدة سَفِهُوا أنفسهم؛ وزعموا رَغْمَ هذه البراهين اللائحة أن محمداً افترى القرآن على ربه. كذبوا وضلُّوا. «مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى. وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

(ذَيْلٌ لهذه الشبهة) ويتّصل بهذه الشُّبهة شبهةٌ أخرى قد تعرض لبعض المأفونين. وهى أن هذا البُعْد الشاسع بين القرآن والحديث لم يجئ من ناحية أنّ القرآن كلام الله والحديث كلام محمد. إنما جاء من ناحية أن محمداً كان له ضربان من الكلام: أحدهما يحتفل به كلّ احتفال، ويُعْنَى مزيدَ العناية بتهذيبه وتنميقه وتحضيره، وذلك هو ماسمّاه بالقرآن ونسبه إلى الله. وثانيهما يُرْسِلُهُ إرسالاً غير مَعْنِىٍّ بتحبيره وتحريره، وهو المسمّى بالحديث النبوى. ثم يقولون لترويج شبهتهم هذه:

إن ذلك ليس بِدْعاً فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء ، بل نحن نلاحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية ، عُلُوًّا كبيراً عن كلامه المرسل على البديهة ، حتى كأنهما لكاتبين اثنين ، بينهما بُعْدُ ما بين المشرقين .

(والجواب الأول) أن هذه الشبهة الجديدة مبنيّةٌ على قياسٍ فاسد ، وهو تشبيه أدباء ذلك العصر الزاهر الذى نزل فيه القرآن وسلمت فيه السليقة العربية ، بأدباء هذا العصر المولّدين الذين فسدت لغتهم ، وَتَبَلْبَلَتْ ألسنتُهم . وشتّان ما بين الطبقتين ، ويا بعدَ ما بين العصرين ! !

« أَيُّها الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيانِ ؟
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا ما اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمانِ »

فالتفاوُت البعيدُ بين الكلام المرسَل والكلام المحبَّر ، لم يظهر إلا منذُ فسد اللّسان العربى ، وتطرّقت العجمة إلى المولّدين من العرب وأشباههم . أما أولئك العرب الخُلّص الذين كانوا يتكلمون العربية بالسليقة ، فلم يك منهج أحدهم البيانىُّ مختلفاً هذا الاختلاف الكبير ، تبعاً للإرسال والتحبير . بل العربىُّ القحُّ نَهْجُه فى الكلام نهجٌ واحد ، هو نهج السليقة الصافية والطبيعة السليمة . ولم يكن التحبير ليذهب به مذهب الذبذبة التى تجعل له أسلوبين متباينين فى كلامه ، بل قصاراه فى تحبيره أن يُحيط بأطراف موضوعه دون أن يَنِدَّ عنه مقصدٌ من مقاصده ، ودون أن يخرج عن أسلوبه الذى يَنْبَعُ من نفسه وتفيض به سَجِيَّتُهُ العَرْباء ، ذلك الأسلوب الذى يُتْعِبُ أهلَ الفنّ منا أنفسهم فى محاكاته وهيهات أن يبلغوا إلاّ بعد طول عناء .

على أن مُعاناةَ ذلك العربى القُح إذا عانَى التنميق والتزويق ، لم تكن لتزيد كلامه روعةً وحسناً . بل كانت تنزل به بمقدار ما يظن أحدنا أنها تصعد فيه . ولهذا كان العرب يعافون من الكلام ما ظهرت فيه آثار الصنعة والتكلّف ويعدون ذلك من التفاصُح النازل إلى مَهواة العِيِّ والتنطع ، كما كانوا مأخوذين بالجيِّد السَّلِس ، وبالسهل الممتنع

ولقد كان النبي ﷺ أبعدَ العرب عن هذا التعمُّل والتصنُّع والتحبير ، حتى لقد نهى عن ذلك وناط به الهلاك والخسران . تدبّر مايرويه مسلمٌ وأبو داود من أن النبي ﷺ قال : « هَلَكَ المتنطِّعُون » والتنطُّع فى الكلام : التعمُّق فيه والتفاصُح . وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من هذيل يخاصمُ فى دية الجنين ، فقال : يارسولَ الله كَيْفَ أَغْرَمُ دِيةَ مَن لاَ شرِب وَلا أكلَ . ولا نَطَقَ ولا استهلّ . فمثلُ ذَلكَ يُطل . فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا هَذا مِنْ إخوانِ الكُهّانِ مِن أَجْلِ سَجْعِهِ الذى سَجَع » . وفى رواية أنه قال : « أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأعراب » . وفى رواية أخرى أنه قال : « أسَجْعِ الجاهلية وكهانتها » . فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم ذمّ هذا السجعَ المصنوع ، وجعل صاحبه من إخوان الكُهّان ومن جَهَلة الجاهلية وما ينبغى له صلى الله عليه وسلم أن يذُمّ شيئاً ثم يقع فيه ! . وحاشاه وحاشا بيانه الشريف ،من هذا الإسفاف والتعمل الخسيس . ودونك السُّنة النبوية فاقرأ منها ماشئت ، فلن تجد إلا جيّداً مطبوعاً ، ومعاذ الله أن تجد فيها متكلّفاً مصنوعاً . والقرآن أعلى فى هذا الباب وأجلّ . « ولَقَدَ يَسّرْنَا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُدّكِر » .

(الجواب الثانى) أن هذه الشبهة تخالف فى أساسها ماهو واقعٌ معروف : ذلك أن القرآن الكريم منه مانزل مُفاجأةً على غير انتظار وتفكير ، وبدون تلبُّث وتدبير ، وهو أكثره . ومنه مانزل بعد تشوُّفٍ واستشراف وطول انتظار ، وهو أقلُّه . ومع هذا فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى ؛ ونظامه المُعجز هو نظمه المُعجز ؛ فى الحالين على سواء .

تأمّل ماجاء فى سبب نزول قوله سبحانه : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْء إنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً إلّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ » وهو أن اليهود قالت لقريش سَلُوا محمداً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فسألوه ، فقال : « ائتونى غداً أخبركم » ولم يستثنِ ، فأبطأ عليه الوحى حتى شقّ عليه ، ثم نزلت الآيات جواباً لتلك الأسئلة ، بعد تلك المدّة الطويلة

التى قدَّرها بعضهم بأربعين يوماً ، وأنت إذا قرأتها لن تجد فرقاً بين أسلوبها وأسلوب كثرة القرآن الغامرة التى نزلت مُباغِتةً مُفاجِئه .

وهذا الذى يقال فى القرآن ؛ يقال مثله فى الحديث النبوى . فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة ، كحديثه ﷺ فى شئون الحرب والصلح، ومنه ما كان وَحْىَ الساعة وإرسالَ البديهة ، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين . ومنه ما كان وحْىَ الله إليه يهبط به الأمين جبريل ، كحديث المعتَمِر المتضَمِّخ بالطيب ؛ وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن طيبه فى عمرته هذه . فسكت النبىُّ صلى الله عليه وسلم ساعةً حتى جاءهُ الوحى ، ولمَّا سُرِّىَ عنه قال : أيْنَ ٱلسَّائِلُ عن العُمْرَة فجىء به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أَمَّا الطِّيبُ الذى بكَ فَاغْسِلْهُ ثلاثَ مراتٍ . وأَمَّا ٱلْجُبَّةُ فَانْزِعْهَا وَٱصْنَعْ فى عُمْرَتِكَ مَا تَصْنَعُ فِى حَجِّكَ » . رواه الشيخان .

نعرف هذه الظروف المختلفة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنها مع اختلافها لم يختلف فيها الأسلوب النبوى ، بل هو طرازٌ واحدٌ من أرقى الأساليب البشرية إن لم يكن أرقاها ، وقلَّما تلحظ فيه تفاوتاً كثيراً . لا فرق فى ذلك بين ما أرسله على البديهة ، وما أجال فيه الرأى والاستشارة ، وما نزل به وَحْىُ السُّنَّةِ ، وما احتفل به احتفالاً ممتازاً ، بالمواقف المشهودة ، والمجامع المحشودة .

إذنْ هما نمطان متمايزان لا يشتبهان : نمط القرآن كله ونَمَط الحديث كله لكلٍّ منهما مَسْحَةٌ وبيانٌ ودرجةٌ فى الفوْق والسبْق ، بينها وبين الأخرى بُعْد ما بين شأنى الخالق والخلْق ، وفرْقُ ما بين مَكانَتِي السيِّد والعبد ، فالقرآن يمتاز بمسْحة بلاغية خاصَّة ، وطابَعٍ بيانيٍّ فريد ، لا يترك باباً لأن يلْتبس بغيره أو يشتبه بسواه ، ولا يُعطى الفرصة لأحدٍ أن يعارضه أو يحوم حَوْل حِماه ، بل مَنْ خاصَمه خُصِم ، ومن عارضه قُصِم ، ومن حاربه هُزِم . أمَّا الحديث الشريف فهو وإن حلَّق فى جوِّ الفصاحة ، وسما فى جملته

عن أساليب العرب ، فإنَّه لا يزال فى أرض العبودية لم يصل إلى سماء الإعجاز ، وتُشبهه أساليب بعض خواصٍّ أصحابه ، وبينه وبين حِكَم العرب المأثورة قرابةٌ ماسَّةٌ وَشَبَهٌ قريب . بخلاف القرآن فإنه ليس كمثله بيان ، لأنه كلام من ليس كمثله شيء . « وكلامُ الملوكِ ملوكُ الكلام » .

خاتمة المبحث

نحسب أننا أفضنا فى هذا المبحث ، ولكننا نعتقد أن هذه الإفاضة واجبٌ لا بد منه ، ما دمنا بصَدَد تسليح طلاَّبنا متخصِّصى الدعوة والإرشاد ، وهم على أُهْبَة النزول إلى ميادين الوعظ العامة ، وفيها المؤمن والجاحد ، والمتديِّن والملحد ، والإلٰهيون والطبيعيون ، وفيها ضحايا الطوائف المعادية للإسلام ، وصَرْعَى المذاهب المتطرفة فى العالم .

ونلفت نظرك إلى أن بعض ما ذكرناه فى أدلة الوحى العلمية ، قد اعتمدنا فيه على أدلة جدلية يؤمن بها المنكرون أكثر مما يؤمنون بآيات الله .

وإن أردتَ التوسُّع فى هذا فارجع إلى ما كتبه العلامة « محمد فريد وجدى » فى المجلد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ ﻫ ، وما كتبناه من قبلُ فى المجلد الخامس من مجلة الهداية الإسلامية سنة ١٣٥١ ﻫ ، وما كتبه العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه : « النبأ العظيم » . وبالله تعالى التوفيق .

المبحث الرابع

فى أول مانزل ، وآخر مانزل من القرآن

مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف. ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها.

ومن فوائد الإلمام بأول مانزل وآخره، تمييزُ الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، وكان الحكم فى إحدى هذه الآيات يغاير الحكم فى الأخرى.

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع الإسلامى ، ومراقبة سيره التدريجى ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته فى أخذه الناس بالهوادة والرفق، والبعد بهم عن غوائل الطفْرَة والعُنف ، سواء فى ذلك هدم مامَرَدُوا عليه من باطل ، وبناء مالم يحيطوا بعلمه من حق .

يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة: هى إظهار مَدَى العناية التى أُحيط بها القرآن الكريم ، حتى عُرف فيه أول مانزل وآخر مانزل ، كما عُرف مكّيُّه ومدنيُّه ، وسفريُّه وحضريُّه، إلى غير ذلك . ولاريب أن هذا مظهر من مظاهر الثِّقة به ، ودليلٌ على سلامته من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

وليس من غرضنا فى هذا الباب أن نتحدَّث عن أول مانزل وآخر مانزل فى كل تعليم من تعاليم الإسلام ، فتلك غاية بعيدة المدى ، ومجهود طويل جدير أن يُفرَدَ بالتأليف، وله مواضع أخرى يمكن طلبه منها . إنما الميسور لنا أن نحدِّثك عن أمرين :

أحدهما : أول مانزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر مانزل منه على الإطلاق، وهذا هو المقصود المهمّ .

الثانى : نماذج من أول مانزل فى بعض الأحكام التشريعية وآخر مانزل منها ، أى أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومقيَّدة ببعض الأحكام .

أول مانزل على الإطلاق

ورد فى ذلك أقوال أربعة :

« القول الأول » وهو أصحها : أنه صَدْرُ سورة « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » إلى قوله سبحانه : « عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » ودليله مايأتى :

١ — روى البخارى ومسلم (واللفظ للبخارى) عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت « أَوَّلُ مَابُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ . ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ « وَهُوَ التَّعَبُّدُ » اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ . قلتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ . ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » وفى بعض الروايات « حتى بَلَغَ مَالَمْ يَعْلَمْ » . فَرَجَعَ بها إلى خَدِيجَةَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ » إلى آخر الحديث وهو طويل. وفلق الصبح : ضياؤه. والتحنُّث المراد به التعبُّد وأصله ترك الحنث ؛ لأن هذه الصيغة تدلُّ على التجنُّب والتنحِّى عن مصادرها ونظيره التهجُّد والتأثم ، والتحرُّج . وغطَّنى بفتح الغين وتشديد الطاء المفتوحة أى ضمَّنى ضماً شديداً حتى كان لى غطيط، وهو صوت مَن حُبست أنفاسه بما يشبه الخنق . والجهد بفتح الجيم يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة ، وبضم الجيم يطلق على الوسع والطاقة لاغير، وهما روايتان .

٢ ـ وصحح الحاكم فى مستدركه، والبيهقى فى دلائله عن عائشة أيضاً رضى الله عنها أنها قالت: أَوَّلُ سورةٍ نزلَتْ منَ القرْآن « اقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ».

٣ ـ وصححَ الطبرانىُّ فى الكبير بسنده عن أبى رجاء العطاردىّ قال: « كان أبو موسى يقرِئُنا فيُجلِسُنا حِلقاً وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة « اقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » قال: هذه أولُ سورةٍ نزلتْ على محمدٍ ﷺ.

٤ ـ وردت آثار فى هذا المعنى أيضاً فى بعضها زيادة نعرفها من رواية الزهرى وهى: أن النبى ﷺ كان بحراء إذ أتى الملَكُ بنمطٍ منْ ديباج مكتوبٍ فيه « اقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » إلى « مالَمْ يَعلَمْ » اهـ والنمط بفتح النون والميم هو الثياب، والديباجُ هو الحرير.

« القول الثانى » أن أول مانزل إطلاقاً: « يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ». واستدلَّ أصحابُ هذا الرأى بما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سألتُ جابرَ بنَ عبد الله: أىُّ القرآنِ أُنزلَ قبلُ؟ . فقال: « يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّر » فقلت: أو « اقرأْ بِاسْمِ رَبِّك » وفى رواية نبئت أنه « اقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ». فقال: أُحَدِّثُكُم ماحَدَّثَنَا بِهِ رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: « إنِّي جاوَرْتُ بحِراءٍ، فلمَّا قضَيْتُ جِوارى نزَلْتُ، فاستَبْطَنْتُ الوَادِيَ « زادَ فى رِوايةٍ » فنُودِيتُ فنظرت أمامى وَخلفى وَعنْ يمينى وَعن شمالى، ثمَّ نظَرْتُ إلى السماء فإذا هوَ (يعنى جبريل) زاد فى رواية جالسٌ عَلَى عَرْش بين السماء والأرض » فأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ فأَتَيْتُ خديجة، فأمرْتُهُمْ فَدَثَّرُونى، فأنزَلَ الله: « يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ».

لكن هذه الرواية ليستْ نصاً فيما نحن بسبيله من إثبات أول مانزل من القرآن إطلاقاً، بل تحتمل أن تكون حديثاً عما نزل بعد فترة الوحى، وذلك هو الظاهر من رواية أخرى رواها الشيخان أيضاً، عن أبى سلمة عن جابر أيضاً « فبينَا أنا أمشِى

إذ سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعتُ بصرى قِبَلَ السماء ، فإذا المَلَكُ الذى جاءنى بحراء قاعدٌ على كرسىٍّ بينَ السماءِ والأرضِ فجئثتُ حتى هويتُ إلى الأرض ، فجئتُ أهلى ، فقلتُ : زمّلونى فزمّلونى . فأنزلَ الله تعالى « يأيُّها المدَّثر . قُمْ فأنذِرْ . وربَّكَ فكبِّرْ . وثيابَكَ فطهِّرْ . والرُّجْزَ فاهجُرْ » قال أبو سلمة والرجزُ : الأوثان اﻫ

قلت : وجئثتُ على وزن فرحت معناه ثقلَ جسمى عن القيام ، وسببه فزع الرسول وخوفه عليه الصلاة والسلام .

فظاهر هذه الرواية يدلُّ على أن جابراً استند فى كلامه على أن أول مانزل من القرآن هو المدثر ، إلى ماسمعه من رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى ، وكأنه لم يسمع بما حدّث به رسول الله ﷺ عن الوحى قبل فترته ، من نزول الملك على الرسول فى حراء بصدر سورة اقرأ « كما روت عائشة » فاقتصر فى إخباره على ماسمع ظاناً أنه ليس هناك غيره ، اجتهاداً منه ، غير أنه أخطأ فى اجتهاده بشهادة الأدلة السابقة فى القول الأول ، ومعلوم أن النص يقدّم على الاجتهاد ، وأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال ، فبطل إذاً القول الثانى وثبت الأول .

القول الثالث :

أن أول مانزل هو سورة الفاتحة . وقد استدلّ أصحاب هذا الرأى بما رواه البيهقى فى الدلائل بسنده عن أبى ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة « إنى إذا خلوتُ وحدِى سمعْتُ نِداءً ، فقدْ واللهِ خشيتُ على نفسى أن يكونَ هذا أمراً » . قالتْ : معاذَ الله ، ما كانَ اللهُ ليفعلَ بكَ ، إنكَ لتؤدى الأمانةَ ، وتصلُ الرحمَ ، وتصدق الحديثَ . فلما دخلَ أبو بكر ذكرتْ خديجةُ حديثه له وقالت : اذهبْ مع محمد إلى ورقة . فانطلقا فقصّا عليه فقال : « إذا خلوْت وحدِى سمعت نِداءً خلفى يامحمدُ يامحمدُ ، فأنطلقُ هارباً فى الأفقِ » . فقال : لا تفعلْ إذا أتاكَ فاثبتْ حتى تسمعَ مايقولُ . ثم ائتنى فأخبرْنى . فلمّا خلا ناداهُ

يا محمدُ قل : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمَنِ ٱلرَّحِيمِ . ٱلحمدُ للهِ رب العالمين » . حتى بلغ « ولاَ الضالين »
ولـكن هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقاً ، وذلك من وجهين :
أحدهما : أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في فجر النبوة أوَّلَ عهده بالوحي ٱلجليِّ وهو في غار حراء ، بل يفهم منها أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد ، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة ، وبعد أن سمع النداء من خلفه غير مرة ، وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع ما يلقى إليه . وليس كلامنا في هذا ، إنما هو فيما نزل أول مرة . الثاني : أن هذا الحديث مرسل سقط من سنده الصحابي ، فلا يقوى على معارضـة حديث عائشة السابق في بدء الوحي ، وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسـلم . فبطل إذاً هـذا الرأى الثالث وثبت الأول أيضاً .

بيد أن صاحب الـكشاف عزَا هذا القول الثالث إلى أكثر المفسرين ، ولـكن ابن حجر فنده فيما ذهب إليه من هذا العزْو ، وصرح بأن هذا القول لم يقل به إلا عددٌ أقل من القليل .

القول الرابع : ـ أن أول ما نزل هو « بسم الله الرحمن الرحيم » واستدل قائلوه بما أخرجه الواحديُّ بسنده عن عكرمة والحسن قالا : أَوَّلُ ما نَزَلَ مِنَ القرآن « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمنِ ٱلرَّحِيمِ وأولُ سُورَةٍ اُقرأْ » . وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضاً : إحداهما : أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع . الثانية : أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدراً لـكل سورة إلا ما استثنى . إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ ، فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه .

آخر ما نزل على الاطلاق

اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق ، واستند كل

منهم إلى آثار ليس فيها حديثٌ مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا من دواعي الاشتباه ، وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

الأول : أن آخرَ ما نزل ، قولُ الله تعالى فى سورة البقرة « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . أخرجه النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك أخرج ابن أبى حاتم قال : « آخرُ ما نزلَ منَ القرآنِ كلِّه « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ » الآية . وعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسعَ ليالٍ ، ثم مات لليلتين خلتَا من ربيعٍ الأوَّل .

الثانى : أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى فى سورة البقرة أيضاً « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . أخرجه البخارى عن ابن عباس والبيهقى عن ابن عمر .

الثالث : أن آخر ما نزل آية الدين فى سورة البقرة أيضاً وهى قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى قوله سبحانه : « وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » وهى أطول آية فى القرآن . أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب : « أنهُ بلغهُ أنَّ أحدثَ القرآنِ عهداً بالعرشِ آيةُ الدَّين » .

أخرج أبو عبيد فى الفضائل عن ابن شهاب قال : « آخرُ القرآنِ عهداً بالعرشِ آيةُ الرِّبَا وآيةُ الدَّين » .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطى رضى الله عنه من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف لأنها فى قصة واحدة ، فأخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخرٌ ، وذلك صحيح .

أقول : ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولاً هو قول الله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . وذلك لأمرين أحدهما : ما تحمله هذه الآية فى طياتها من الإشارة

إلى ختام الوحي والدين ، بسبب ماتحثُّ عليه من الاستعداد ليوم المعاد ،وماتُنَوِّه به من الرجوع إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل من غير غَبْنٍ ولا ظُلْمٍ ،وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها . ثانيهما.التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليال فقط،ولم تظفر الآيات الأخرى بنصٍّ مثله .

الرابع : أن آخرَ القرآن نزولاً قول الله تعالى في سورة آل عمران : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » الآية . ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مَرْدويه من طريق مُجاهدٍ عن أم سَلَمة أنها قالت : آخِر آية نزلت هذه الآية : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ » إلى آخرها . وذلك أنها قالت : يارَسُولَ اللهِ . أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت «(١) ولا تَتَمَنَّوْا مافَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ »،ونزلت « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ(٢) » ونزلت هذه الآية ، فهي آخر الثلاثة نزولا ، وآخر مانزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصّة .

ومن السهل ردُّ الاستدلال بهذا الخبر على آخر مانزل مطلقاً،وذلك لما يُصَرِّح به الخبر نفسه من أن الآية المذكورة آخر الثلاثة نزولا وآخر مانزل بالإضافة إلى ماذكر فيه النساء أي فهي آخر مقيد لا مطلق ، وليس كلامنا فيه .

الخامس : أنه آية (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) واستدلوا بما أخرجه البخاري وغيره

---

(١) من سورة النساء وتمامها: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) .

(٢) أي من أولها إلى آخرها وهي في سورة الأحزاب

عن ابن عباس. قال : هذه الآية « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ » هي آخر مانزل ، وما نسخها شيء . ولا يخفى عليك أن كلمة « وما نسخها شيء » تشير إلى أن المراد من كونها آخر مانزل ، أنها آخر مانزل فى حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر مانزل مطلقاً .

السادس : أن آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ » وهى خاتمة سورة النساء وأن آخرَ سورةٍ نزلت سورةُ « براءة » . واستند صاحب هذا الرأى إلى مايرويه البخارى ومسلم عن البَراء بن عازبٍ أنه قال : آخرُ آيةٍ نزلتْ « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت « براءة » . ويمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر مانزل فى المواريث وأن السورة آخر مانزل فى شأن تشريع القتال والجهاد ، فكلاهما آخر إضافى لا حقيقى .

السابع : أن آخر مانزل سورة المائدة . واحتجَّ صاحب هذا القول برواية للترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة رضى الله عنها . ويمكن رَدُّهُ بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام ، فلم تُنسخ فيها أحكام . وعليه فهى آخر مقيد كذلك .

الثامن : أن آخر مانزل هو خاتمة سورة براءة : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ » إلى آخر السورة . رواه الحاكم وابن مردويه عن أُبَىٍّ بن كعب . ويمكن نقضه بأنها آخر مانزل من سورة براءة لا آخر مطلق ، ويؤيده ماقيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة . ولعل قوله سبحانه : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ » الخ يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولى الأعداء وإعراضهم .

التاسع : أن آخر مانزل هو آخر سورة الكهف : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) أخرجه ابن جرير

عن معاوية بن أبى سفيان . قال ابن كثير : « هذا أثرٌ مشكل ، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيِّر حكمها بل هى مثبتة محكمة » اهـ وهو يفيد أنها آخر مقيد لا مطلق .

العاشر : أن آخر ما نزل هو سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ » رواه مسلمٌ عن ابن عباس . ولكنك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشْعِراً بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم . ويؤيده ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت : « نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » وكذلك فهم بعض كبار الصحابة . كما ورد أن عمر رضى الله عنه بكى حين سمعها وقال : « الكمالُ دليلُ الزوال » ويحتمل أيضا أنها آخر ما نزل من السور فقط ، ويدل عليه رواية ابن عباس : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ » .

تلك أقوال عشرة ، عرفتها وعرفت توجيهها ، ورأيت أن الذى تستريح إليه النفس منها هو أن آخر القرآن نزولاً على الإطلاق قولُ الله فى سورة البقرة : « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وأن ما سواها أواخر إضافية أو مقيدة بما علمت ، لكن القاضى أبا بكر فى الانتصار يذهب مذهباً آخر إذ يقول : « هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلٌّ قال بضربٍ من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيرُه سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو » اهـ وكأنه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعبة بأنها أواخر مقيدة بما سمع كل منهم من النبى ﷺ وهى طريقة مريحة ، غير أنها لا تلقى ضوءاً على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم .

مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة

نضع بين يديك هنا مثلين من أوائل وأواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشرعية لتلحظ فيهما سَيْرَ التشريع الإسلامى وتدرُّجه الحكيم

١ — ما نزل فى الخمر

روى الطيالسى فى مسنده عن ابن عمر قال : نزل فى الخمر ثلاث آيات ، فأول شىء : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » الآية(١) فقيل : حرمت الخمر فقالوا : يارسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية (٢) « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فقيل حرمت الخمر قالوا : يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة فسكت عنهم . ثم نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ » (٣) فقال رسول الله ﷺ : « حُرِّمَتْ الخمرُ » .

٢ — ما نزل فى أمر الجهاد والدفاع

لم يشرع الجهاد دفاعاً فى صدر الإسلام على الرغم من أن الأذى كان يُصَبُّ على المسلمين من أعدائهم صبًّا . بل كان الله يأمر بالعفو والصفح ، ومن ذلك قوله

---

(١) وهى فى سورة البقرة وتتمتها: « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » .

(٢) وهى من سورة النساء وكمالها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » .

(٣) والآية وما يليها : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » وهى من سورة المائدة .

سبحانه فى سورة البقرة : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فكانت أمراً صريحاً لهم بالعفو والصفح حتى يأتى الله بأمره فيهم من القتال ، ويتضمّن ذلك النهى عن القتال حتى يأتى أمر الله . ثم شُرع القتال دفاعاً فى السنة الثانية من الهجرة ، بقوله تعالى فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ » .

ثم حضّ الله عليه حضًّا شديداً فى آخر الأمر ، فنزلت سورة براءة وهى من آخر مانزل من القرآن . وفيها قوله سبحانه : « وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » وقوله : « ٱنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . وقوله : « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

شبهة فى هـــذا المقام

بقى أن نُدْحضَ شبهةً أُثيرت حول تعيينِ آخر مانزل من القرآن . قالوا : لماذا لا تكون آية المائدة آخر مانزل من القرآن ؟ وهى قوله سبحانه « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا » . مع أنها صريحةٌ فى أنها إعلام بإكمال الله لدينه فى ذلك اليوم المشهود الذى نزلت فيه ، وهو يوم عرفه فى حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة .

والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن، وإتمام جميع الفرائض والأحكام.

والجواب: أن هناك قرآناً نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين، ولعلك لم تنس أن آية: «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط. وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين فى آية المائدة المذكورة. والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجاحه وإقراره، وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون. ولا ريب أن الإسلام فى حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته، وأديل له على الشرك وحزبه، والكفر وجنده، والنفاق وحشراته، حتى لقد أُجْلِيَ المشركون عن البلد الحرام؛ ولم يخالطوا المسلمين فى الحج والإحرام. قال ابن جرير فى تفسير الآية المذكورة: «الأولى أن يتأوّل على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام، وإجلاء المشركين عنه، حتى حجَّه المسلمون لا يخالطهم المشركون» وأيّد هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال: «كان المشركون والمسلمون يحجُّون جميعاً، فلما نزلت سورة براءة نُفِيَ المشركون عن البيت، وحَجَ المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة «وأتممتُ عليكم نِعْمَتِي»».

نسأل الله أن يتم علينا نعمته آمين.

ملاحظة

لعلك بعد تحقيق أول مانزل وآخره ، تستطيع أن تستدرك على ماأسلفناه فى المبحث الثالث ، تقديراً لمدة نزول القرآن على النبى ﷺ ناقلين إياه عن بعض محقق تاريخ التشريع الإسلامى . ذلك أنه اعتبر يوم التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة هو آخر أيام النزول ، وكأنه اعتمد على مافهمه فى قوله سبحانه : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » الآية ، من أنه إكمالٌ للدين بإكمال نزول القرآن . لكنك قد علمت مافيه .

فلتضف أنت إلى تلك المدة التى ذكرها اثنين وسبعين يوماً ، هى عدّة الفرق بين التسعة والواحد والثمانين يوماً ، إذ أن آية « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » عاش النبى ﷺ بعدها أحداً وثمانين يوماً كما رُوى ، وآية « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ » عاش ﷺ بعدها تسعةً فقط كما عرفت .

أما مبدأ نزول الوحى بالقرآن فمعلوم أنه كان فى اليوم الذى هبط فيه جبريل على النبى ﷺ بغار حراء بصدر سورة اقرأ . وقدقالوا : إنه يوافق السابع عشر من رمضان ، واعتمدوا فى ذلك على قوله سبحانه فى سورة الأنفال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِٱللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ » . فجعل يوم الفرقان هو يوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر . وكان يوافق السابع عشر من رمضان على ماذكره بعض أصحاب المغازى والسير .

ولا ريب أن هذا احتمالٌ فى الآية مقبول ، ولكن هذا الاحتمال لايكفى فى مثل هذا المقام ، لأنه احتمالٌ مرجوحٌ ، وظاهر الأدلة على خلافه . ذلك لأن السُّنة الصحيحة جاء فيها مايفيد صراحةً أن أرجى ماتكون ليلة القدر التى نزل فيها القرآن ، فى الوتر فى العشر الأخير من رمضان . وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء . بل ثبت من طريق

صحيح يرويه البخارى أيضاً أنه ﷺ قال : « الْتَمِسُوهَا فى سابعةٍ تَبْقَى ، فى تاسِعَة تَبْقَى » أى اطلبوا ليلة القدر ليلة الحادى والعشرين أو ليلة الثالث والعشرين من ذلك الشهر . وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه . ولا جدال فى أن هذه نصوصٌ تُنافى أن تكون ليلة القدر ليلة السابع عشر من رمضان ...

ثم إن هذه الآية التى استدلَّ بها هؤلاء ليست نصاً صريحاً فى أن المراد بما أنزله الله على عبده يوم الفرقان هو ماأنزله على نبيه ليلة القدر من القرآن . بل الظاهر أن قوله سبحانه: « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » معناه .وما أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من الوحى والملائكة والفتح فى ذاك اليوم المشهود الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، فى أول موقعة تاريخيَّة انتصف فيها الإسلام من أعدائه ، وقام للمسلمين بسببها شوكةٌ ودولةٌ وسلطان . « وهى غزوة بدر الكبرى » . وإلى هذا الرأى جنح أكثر المفسرين . ويؤيده سياق النظم القرآنى الكريم ؛ فإن الآية نزلت لتروض قلوب المسلمين على الرضا بما شرع الله فى قسمة الغنائم ، وليقطعوا أطماعهم من الخُمُس الذى قضى الله أن يكون له لالهم ، وليقنعوا بعد ذلك بالأربعة الأخماس الباقية ، فإن الفضل فى هذه الغنائم إنما هو لله قبلهم ، هو الذى أنزل فى هذا اليوم ماأنزل من هدايات وبشائر ثَبَّتَتْ قلوبهم . وهو الذى أنزل مَدَداً من لدنه ملائكةً مقربين كثيرين. وهو الذى سخَّر سائر أسباب الانتصار ، المعروفة فى هذه المعركة العظيمة .. وإذا كان الفضل يرجع إلى الله فى هذا الانتصار ، فأطيعوا أيها المسلمون أمره فى قسمة الغنائم المتخلِّفة عنه . « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

المبحث الخامس

فى أسباب النزول

القرآن الكريم قسمان : قسمٌ نزل من الله ابتداء غيرَ مرتبطٍ بسبب من الأسباب الخاصة ، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق . وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان . وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة . وهو موضوع بحثنا الآن . غير أنَّا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التى جاءت على أسباب ، فذلك شأْوٌ بعيد . وقد انتدب له جماعة أفردوه بالتأليف ، منهم على بن المدينى شيخ البخارى ، ومنهم الواحدى والجعبرى وابن حجر ، ومنهم السيوطى الذى وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً أسماه (لُباب النُّقول فى أسباب النزول) .

إنما غرضنا فى هذا المبحث أن نحيطك علماً بأسباب النزول من أطرافه الأحد عشر وهى معنى سبب النزول ، وفوائد معرفة أسباب النزول ، وطريق هذه المعرفة ، والتعبيرات عن سبب النزول ، وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد ، وتعدد النازل والسبب واحد ، والعموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه ، وتحقيق الخلاف فى عموم اللفظ وخصوص سببه ، وأَدلَّة الجمهور فى ذلك ، وشبهات المخالفين وتفنيدها ، وشبيهٌ بالسبب الخاص مع اللفظ العام .

١ — معنى سبب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدِّثةً عنه أومُبَيِّنَةً لحكمه أيامَ وقوعه . والمعنى أنه حادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ ، أو سؤال وُجِّه إليه ، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يَتَّصِل بتلك الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال .

سواء أكانت تلك الحادثة خصومةً دبَّت ، كالخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج ، بدسيسةٍ من أعداء الله اليهود حتى تنادوْا : السلاحَ السلاحَ ، ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله سبحانه: « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » إلى آياتٍ أخرى بعدها هى من أروع ما ينفِّر من الانقسام والشقاق ويرغب فى المحبة والوحدة والاتفاق. أم كانت تلك الحادثة خطأً فاحشاً ارتُكب، كذلك السكران الذى أمَّ الناس فى صلاته وهو فى نشوته ، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال : « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » وحذف لفظ (لا) من « لا أعبدُ » فنزلت الآية : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » فى سورة النساء .

أم كانت تلك الحادثة تمنياً من التمنيات ، ورغبةً من الرغبات ، كموافقات عمر رضى الله عنه التى أفردها بعضهم بالتأليف . ومن أمثلتها ما أخرجه البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال:قال عمر : (وافقتُ ربى فى ثلاثٍ : قلت يارسولَ اللهِ لو اتخذنا من مقامِ إبراهيمَ مصلى فنزلت : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يارسول الله: إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ ، فلوْ أمرتهنَّ أنْ يحتجبنَ ، فنزلت آية الحجاب[1] . واجتمعَ على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرَة فقلتُ لهن : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك) اهـ وهذه فى سورة التحريم .

---

(١) وهى قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ. وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » من سورة الأحزاب

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبى ﷺ يتصل بأمر مضى نحو قوله سبحانه فى سورة الكهف : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ » الخ . أم يتصل بحاضر نحو قوله تعالى فى سورة الإسراء: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » أم يتصل بمستقبل نحو قوله جل ذكره فى سورة النازعات: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » الخ .

والمراد بقولنا (أيام وقوعه) الظروفُ التى ينزل القرآن فيها متحدثاً عن ذلك السبب، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة، أم تأخر عنه مدةً لحكمة من الحكم ، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين . فقال ﷺ (غداً أُخبرُكُمْ) ولم يستثنِ (أى لم يقل إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوماً على مارواه ابن إسحاق ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعين يوماً، حتى شقَّ عليه ذلك . ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات ، وفى طَيِّها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة ويقول له فى سورة الكهف: « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً » .

ثم إن كلمة « أيام وقوعه » فى تعريف سبب النزول، قيدٌ لا بدَّ منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التى تنزل ابتداءً من غير سبب، بينما هى تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة ، كبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم وكالحديث عن الساعة ومايتصل بها، وهو كثير فى القرآن الكريم .

٢ — فوائد معرفة أسباب النزول

زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخاً للنزول أو جارية مجرى التاريخ، وقد أخطأ فيما زعم؛ فإن لأسباب النزول فوائد متعددة، لا فائدة واحدة: (الأولى) معرفة حكمة الله تعالى على التعيين، فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام، ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفاً، حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والطغيان، خصوصاً إذا لاحظ سيرَ ذلك التشريع وتدرُّجه في موضوع واحد. وحسبك شاهداً على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه، وقد مرَّ بك في البحث السابق، فلا نعيده، ولا تغفل.

(الفائدة الثانية) الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها. حتى لقد قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها. وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب اهـ.

ولنبين لك ذلك بأمثلة ثلاثة: (الأول) قال الله تعالى في سورة البقرة: « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » فهذا اللفظ الكريم يدلُّ بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أيةِ جهة شاء، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفر ولا حضر. لكن إذا علم أن هذه الآية نازلةٌ في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه، تبين له أن الظاهر غير مراد، إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة،

أو على المجتهد فى القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه . عن ابن عمر رضى الله عنهما أن هذه الآية نزلت فى صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت . وقيل : عميت القبلةُ على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعُذروا . وقيل فى الآية غير ذلك ، ولكن ماذكرناه يكفيك .

(المثال الثانى) روى فى الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » من سورة آل عمران .

وقال : لئن كانَ كلُّ امرئ فرحَ بما أوتىَ وأحبَّ أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبنَّ أجمعونَ . وبقى فى إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، وأروْهُ أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه أى طلبوا منه أن يحمدهم على مافعلوا . وهنالك زال الإشكال عنه ، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده .

(المثال الثالث) أشكلَ على عروة بن الزبير رضى الله عنه أن يفهم فرضيَّةَ السعى بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه : « إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

وإشكاله نشأ من أنّ الآية الكريمة نفتْ الجناح ، ونفى الجناح لا يتفق والفرضية فى رأيه ، وبقى فى إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فأفهمتهُ أن نفىَ الجناح هنا ليس نفياً للفرضيةِ ، إنما هو نفىٌ لما وقرَ فى أذهان المسلمين يومئذ من أن السعى بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية نظراً إلى أن الصفا كان عليه صنمٌ يقال له (إساف) وكان على المروة صنم يقال له (نائلة) . وكان المشركون إذا سعوْا بينهما تمسحوا بهما . فلما ظهر الإسلام وكسّر

الأصنام ، تحرجَ المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ، فنزلت الآية . كذلك جاءت بعض الروايات .

لكن جاء فى رواية صحيح البخارى مانصه : فقال (أى عروة) لها (أى لعائشة) أرأيت قولَ اللهِ تعالى « إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ ، فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » : فوالله ماعلى أحدٍ جناحٌ ألا يطَّوَّف بالصفا والمروة . قالت : بئسما قلت ياابن أختى ، إن هذه لو كانت كما أوّلتها عليه ، كانت « لاجُناحَ عليه ألاّ يطّوّفَ بهما » ولكنها أنزلتْ فى الأنصارِ ، كانوا قبلَ أنْ يُسْلِمُوا يهلُّون لمناةَ الطاغيةِ التى كانوا يعبدونها عند المشلّل ، فكانَ منْ أهلَّ يتحرَّجُ أن يطوفَ بالصفا والمروة : فلما أسلمُوا سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلك ، قالوا : يارسول الله إنا كنَّا نتحرَّجُ أنْ نطوفَ بينَ الصفاَ والمرْوَة ، فأنزل الله « إن الصفاَ والمرْوَةَ من شعائرِ الله » الآية . قالت عائشة « وقدْ سنَّ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ الطوافَ بينهماَ ، فليسَ لأحدٍ أنْ يترُكَ الطوَّافَ بينهماَ » انتهى ماأردنا نقله . ومعنى يهلُّون : يحجُّون . ومناة الطاغية : اسم صنم ، وكان صخرة نصبها عمرو بن لَحْىٍ بجهة البحر فكانوا يعبدونها . والمشلَّل بضم الميم، واللام الأولى مشدَّدة مفتوحة : اسم موضع قريب من قُديدٍ من جهة البحر . وقديد بضم القاف قرية بين مكة والمدينة . وكلمة « سَنَّ » معناها فى هذا الحديث شرَعَ ، أو فرَضَ بدليلٍ من السنةِ لا من الكتاب .

وهذه الرواية — كما ترى — تدلُّ على أنَّ عروة فهم من جملة « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » أنَّ الجناح منفىٌّ أيضاً عن عدم الطواف بهما ، وعلى ذلك تنتفى الفرضية ، وكأنه اعتمد فى فهمه هذا على أن نفىَ الجناح ، أكثر ما يستعمل فى الأمر المباح . أما عائشة رضى الله عنها فقد فهمت . أن فرضية السعى بين الصفا والمروة مستفادةٌ من السنة ، وأن جملة « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

لا تُنافى تلك الفرضيّة كما فهم عروة إنّما الذى ينفيها أن يُقال : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلاَّ يَطوفَ بِهِمَا » وإنما توجّه نفىُ الحرَج فى الآية عن الطواف بين الصفا والمروة ، لأن هذا الحرج هو الذى كان واقراً فى أذهان الأنصار ، كما يدلّ عليه سبب نزول الآية الذى ذكرته السيدة عائشة فتدبر .

(الفائدة الثالثة) دفع توهُّم الحصر ، عمّا يفيد بظاهره الحصر : نحو قوله سبحانه فى سورة الأنعام : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » . ذهب الشافعى إلى أن الحصر فى هذه الآية غير مقصود ، واستعان على دفع توهّمه ، بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرّموا ما أحل الله ويحلّوا ما حرّم الله ، عناداً منهم ومحادة لله ورسوله ، فنزلت الآية بهذا الحصر الصورى مشادّة لهم ومحادة من الله ورسوله ، لا قصداً إلى حقيقة الحصر .

نقل السبكى عن الشافعى أنه قال ما معناه : « إن الكفار لما حرّموا ما أحلّ الله ، وأحلّوا ما حرّم الله ، وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضةً لغرضهم . فكأنه قال : لا حلالَ إلّا ما حرّمتموه ، ولا حرامَ إلا ما أحْللتمُوهُ . نازلًا منزلة من يقول لك : لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل اليوم إلا حلاوة ، والغرض المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة . فكأنه تعالى قال : « لا حرام إلّا ما أحْللتمُوهُ مِنَ الميتةِ ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهِلّ لِغير اللهِ بهِ » ولم يقصد حِل ما وراءه ، إذ القصد إثبات التحريم ، لا إثبات الحلّ اه .

قال إمام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية اه .

(الفائدة الرابعة) تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ . فآيات الظهار فى مُفْتَتَحِ سورة المجادلة — وقد تقدمت —

سببها أن أوس بن الصامت ظَاهَرَ من زوجته خَوْلَة بنت حكيم بن ثَعلَبة ، والحكم الذى تضمَّنته هذه الآيات خاصٌ بهما وحدهما (على هذا الرأى) ، أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه . وبَدَهِى أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا علم السبب . وبدون معرفة السبب تصير الآية مُعَطَّلَةً خالية من الفائدة .

(الفائدة الخامسة) معرفة أن سبب النزل غير خارج عن حكم الآية إذا وَرَدَ مُخَصِّصٌ لها . وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باقٍ قطعاً . فيكون التخصيص قاصراً على ماسواه . فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز إخراجه قطعاً للإجماع المذكور . ولهذا يقول الغزالى فى المستصفى : (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد) غلط أبو حنيفة رحمه الله فى إخراج الأمة المستفرَشَة من قوله ﷺ (الولد للفراش) . والخبر إنما ورد فى وليدة زَمْعَةَ إذ قال عَبْدُ بنُ زَمْعَة: هو أخى وابن وُليدةِ أبى ، وَلِدَ على فراشه . فقال عليه الصلاة والسلام ، (الولدُ للفراش وَللعاهِرِ الحجرُ) فأثبت للأَمة فراشاً وأبو حنيفة لم يبلغه السبب ؛ فأخرج الأمة من العموم » اه .

(الفائدة السادسة) معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين ؛ حتى لا يشتبه بغيره ، فيتهمَ البرىء ويبرَّأ المريب (مثلاً) . ولهذا ردّت عائشة على مروان حين اتَّهم أخاها عبد الرحمن ابن أبى بكر بأنه الذى نزلت فيه آية « وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا » الخ من سورة الأحقاف . وقالت : (وَاللهِ مَاهُوَ بِهِ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَه لَسَمَّيْتُهُ » إلى آخر تلك القصة .

(الفائدة السابعة) تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحى ، فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها . وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة . كل أُولئك من دواعى

تقرُّر الأشياء وانتقاشِها في الذهن ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر ، وذلك هو قانون تداعي المعاني ، المقرَّر في علم النفس .

٣ — طريق معرفة سبب النزول

لاطريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، روى الواحدي بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « اتَّقُوا الحديثَ إلَّا ما عَلِمْتُمْ فإنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ . وَمَنْ كَذَبَ عَلَى الْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ فَلْيتبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . ومن هنا لا يحلُّ القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها اه .

وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابيٍّ فهو مقبول ، وإن لم يَعْتَضِدْ أي لم يُعَزَّزْ برواية أخرى تُقَوِّيه . وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه ، حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه ، على حين أنه خبرٌ لا مَرَدَّ له إلا السماع والنقل ، أو المشاهدة والرؤية .

أما إذا رُوِي سبب النزول بحديثٍ مرسل ، أي سقط من سنده الصحابيُّ وانتهى إلى التابعي ، فحكمه أنه لايقبل إلا إذا صحَّ واعتَضَدَ بمرسلٍ آخر وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة ، كمجاهدٍ وعِكْرِمَةَ وسعيد بن جبير .

٤ — التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول . فتارةً يُصرِّح فيها بلفظ السبب فيقال : (سبب نزول الآية كذا) وهذه العبارة نصٌّ في السببية لا تحتمل

غيرها . وتارةً لايُصرِّحُ بلفظ السبب ولكن يؤتَى بفاء داخلةٍ على مادَّة نزول الآية عقب سَرْد حادثة ، وهذه العبارة مثل تلك فى الدلالة على السببية أيضاً . ومثاله رواية جابر الآتية قريباً ومرةً يُسأل الرسول ، فيُوحَى إليه ويُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيرٌ بلفظ سبب النزول ، ولا تعبيرٌ بتلك الفاء ، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام ، كرواية ابن مسعود الآتية عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح . وحكم هذه أيضاً حكم ماهو نصٌّ فى السببية . ومرةً أخرى لايُصَرِّحُ بلفظ السبب ولا يؤتَى بتلك الفاء ، ولابذلك الجواب المبنى على السؤال ، بل يقال : نزلت هذه الآية فى كذا (مثلاً) . وهذه العبارة ليست نَصًّا فى السببية ، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر ، هو بيان ماتضمنّته الآيةُ من الأحكام . والقرائنُ وحدها هى التى تُعيِّن أحد هذين الاحتمالين أو تُرجِّحه .

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد : إحداهما نصٌّ فى السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصاً فى السببية لنزول تلك الآية أو الآيات هنالك نأخذ فى السببية بما هو نصٌّ ، ونحمل الأخرى على أنها بيانٌ لمدلول الآية ، لأن النص أقوى فى الدلالة من المحتمل .

مثال ذلك : ماأخرجه مسلم عن جابر قال: كانت اليهود تقول « من أتى امرأةً من دُبُرِها (فى قُبُلِها) جاء الولدُ أحْوَلَ » ، فأنزل الله : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » من سورة البقرة ... وما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال: (أُنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » فى إتيانِ النساء فى أدبارِهنَّ) .

فالمعول عليه فى بيان السبب هى رواية جابر الأولى ، لأنها صريحة فى الدلالة على السبب وأما رواية ابن عمر فتحمل على أنها بيانٌ لحكم إتيان النساء فى أدبارهن وهو التحريم . استنبـاطاً منه .

أما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصًّا ، كأن يقول بعض المفسرين : نزلت هـذه الآية فى كذا . ويقول الآخر : نزلت فى كذا « ثم يذكر شيئاً آخر غير ماذكره الأول » ، وكان اللفظ يتناولها ، ولا قرينة تصرف إحداها إلى السببية، فإن الروايتين كلتيهما تحملان على بيان مايتناوله اللفظ من المدلولات. ولا وجه لحملهما على السبب .

وأما إذا كان الاختلافُ دائراً بين عبارتين أو عبارات كلها نصٌّ فى السببية ، فهنا يتشعَّب الـكلام . ولنفرده بعنوان :

٥ — تعدُّد الأسبابِ والنازلُ واحدٌ

إذا جاءتْ روايتان فى نازلٍ واحـدٍ من القرآن ، وذكرَتْ كلٌّ من الروايتين سبباً صريحاً غيرَ ما تذكره الأخرى ، نُظر فيهما . فإما أن تـكون إحداهما صحيحةً ، والأخرى غير صحيحة . وإما أن تـكون كلتاهما صحيحة ولـكن لإحداهما مُرَجِّحٌ دون الأخرى . وإما أن تـكون كلتاهما صحيحة ، ولا مُرَجِّحَ لإحداهما على الأخرى، ولـكنْ يمكن الأخذ بهما معاً . وإما أن تـكون كلتاهما صحيحة ، ولا مرجِّح ، ولا يمكن الأخذ بهما معاً . فتلك صورٌ أربعٌ ، لـكلٍّ منها حكمٌ خاصٌّ نسوقه إليك :

« أما الصورة الأولى » ـ وهى ماصحَّت فيه إحدَى الروايتين دون الأخرى ـ فحـكمها الاعتماد على الصحيحة فى بيان السبب . وَرَدُّ الأخرى غير الصحيحة . مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرُهما عن جُندَبٍ قال : « اشْتَـكى النبىُّ ﷺ فلمْ يقمْ لَيلةً أوْ لَيلَتَين ، فأتتهُ امرأةٌ فقالت : يامحمدُ ، ما أرى شيطانكَ إلَّا قدْ تركَكَ » فأنزل اللهُ : « وَٱلضُّحَىٰ ، وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » .

وأخرج الطبرانىُّ وابن أبى شيبـة ، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت

خادمَ رسول الله ﷺ : « أنَّ جَرْواً دخلَ بيتَ النبيِّ ﷺ ، فدخلَ تحتَ السريرِ فماتَ ، فمكثَ النبيُّ ﷺ أربعةَ أيامٍ لا ينزلُ عليهِ الوحيُ فقال : ياخَوْلَةُ ماحدثَ في بيتِ رسولِ الله ﷺ ؟ جبريلُ لا يأتيني . فقلتُ في نفسي : لو هيأتِ البيتَ وَكنَسْتِهِ ، فأهْوَيْتُ بالمِكْنَسَةِ تحت السرير ، فأخرجتُ الجَرْوَ ، فجاء النبيُّ ﷺ ترْعدُ(١) لحيتهُ ، وكان إذا نزلَ عليه أخذته الرِّعْدَةُ » فأنزلَ الله : « وَالضُّحَى » إلى قوله « فَتَرْضَىٰ » . فنحن بين هاتين الروايتين نقدِّم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها ، دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرَف . قال ابن حجر : قصَّة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريبٌ ، وفي إسناده من لا يُعرف ، فالمعتمد مافي الصحيح اهـ .

« وأما الصورة الثانيـة » ـ وهي صحَّة الروايتين كلتيهما ولإحداهما مرجِّح ـ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة . والمرجِّح أن تكون إحداهما أصحَّ من الأخرى ، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى . مثال ذلك : ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : « كنتُ أمشي مع النبي ﷺ بالمدينـةِ . وهو يتوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ . فمرَّ بنفرٍ من اليهود ، فقالَ بعضهم : لو سَأَلْتُمُوهُ . فقالوا : حَدِّثْنَا عن الروحِ . فقامَ ساعةً ورفع رَأْسَهُ فعَرَفْتُ أنه يوحى إليهِ ، حتى صعِد الوحي، ثم قال : « قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » . وما أخرجه الترمذي وصحَّحه عن ابن عباس قال : « قالتْ قريشٌ لليهود ، أعطونا شيئاً نسأل هذا الرَّجلَ. فقالوا اسألوه ، عن الرُّوح فسألوه ، فأنزل الله : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ » الآية .

---

(١) قال في القاموس : « وقد رعدَ كنصر ومنع وقال هامش القاموس : وقد استعمل رعد ثلاثياً أيضاً مجهولاً دائماً ، كجنَّ . قالوا : رُعدَ أي أصابته رعدة . قاله الخفاجيُّ في شرح الشفاء » اهـ .

فهذا الخبر الثانى يدلُّ على أنها بمكة ، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه . أما الأول فصريحٌ فى أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه ، وهو أرجح من وجهين : أحدهما أنه روايةُ البخارى ، أما الثانى فإنه رواية الترمذى ، ومن المقرَّر أن ما رواه البخارىُّ أصحُّ مما رواه غيره . ثانيهما أن راوى الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدلُّ على ذلك الروايةُ الأولى ، بخلاف الخبر الثانى فإن راويَهُ ابن عباس لا تدلُّ الرواية على أنه كان حاضر القصة ، ولا ريب أن للمشاهدة قوةً فى التحمل وفى الأداء ، وفى الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ، ومن هنا أَعْمَلْنَا الرواية الأولى ، وأَهْمَلْنَا الثانية .

« وأما الصورة الثالثة » ـ وهى ما استوت فيه الروايتان فى الصحَّة ، ولا مرجِّح لإحداهما ، لكن يمكن الجمع بينهما ، بأنَّ كلاًّ من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معاً ، لتقارب زمنيهما ـ فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدُّد السبب لأنه الظاهر ، ولا مانع يمنعه . قال ابن حجر : « لا مانع من تعدُّد الأسباب » .

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس أنَّ هلال بنَ أمية قذفَ امرأتهُ عند النبى ﷺ بشريكِ بن سحماء . فقال النبى ﷺ : « البيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِى ظَهْرِكَ » . فقال يا رسول اللهِ ، إذا وجدَ أحدُنا معَ امرأتهِ رُجلاً ينطلقُ يلتمسُ البينةَ . وفى رواية أنه قال : وَالذى بعثكَ بِالحقِّ إنى لصادِقٌ ، وليُنْزِلنَّ اللهُ تعالى ما يُبرِّئُ ظهرِى منَ الحدِّ . فنزل جبريل عليه السلام وأنزلَ عليهِ : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » حتى بلغ « إِنْ كانَ مِنَ الصادِقِينَ » اهـ وهذه الآيات من سورة النور .

وأخرج الشيخان « واللفظ للبخارى » عن سهل بن سعد « أنَّ عُوَيمِراً أتى عاصمَ بنَ عدِيّ ، وكانَ سيدَ بنى عجلان ، فقال : كيفَ تقولونَ فى رَجلٍ

وَجدَ مع امرأته رجلاً أيقتُلُه فتقتلونه ، أمْ كيفَ يصنعُ ؟ سلْ لى رَسول الله صلى الله عليه وسلم عنْ ذلكَ ، فأتى عاصمٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله « وفى رواية مسلم » فسألَ عاصمٌ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فكرِهَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائلَ وَعابَها . فقال عُوَيْمرٌ وَالله لا أنتهى حتى أسألَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنْ ذلك فجاءهُ عُوَيْمرٌ فقال يارسول الله رَجلٌ وَجد معَ امرأتهِ رَجلاً ، أيقتُلُهُ فتقتلونَهُ ، أمْ كيفَ يَصنعُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزَلَ اللهُ القرآنَ فِيكَ وفى صَاحبتك . فأمرَهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بِمَا سَمّى اللهُ فى كِتَابِهِ فلاَ عنها » اهـ فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجِّحَ لإحدَاهما على الأخرى ، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما ، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال ابن أمية ، ثم قفاه عُوَيْمر قبل إجابته ، فسأل بواسطة عاصم مرةً وبنفسه مرةً أُخرى ، فأنزل الله الآية إجابةً للحادثين معاً . ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع ، أولى من إعمال احداهما وإهمال الأُخرى ، إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه . ثم لا جائز أن نردَّهما معاً ، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما . ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدةٍ ونردَّ الأُخرى ، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح . فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً . وإليه جنح النوَوِىُّ وسبقه إليه الخطيب فقال : « لعلّهما اتّفق لهما ذلك فى وقتٍ واحد » اهـ .

ويمكن أن يفُهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت فى هلالٍ أولاً ، ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التى نزلت فى هلال . قال ابن الصباغ : قصة هلالٍ تُبيّن أن الآية نزلت فيه أولاً . وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر « إن الله أنزل فيك وفى صاحبتك » فمعناه ما نزل فى قصة هلال ؛ لأن ذلك حكم عامٌ لجميع الناس .

« وأما الصورة الرابعة » — وهى استواء الروايتين فى الصحة ، دون مرجِّح

لإحداها ، ودون إمكان للأخذ بهما معاً لِبُعْدِ الزمان بين الأسباب — فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التى تحدثت عنها هاتان الروايتان ، أو تلك الروايات — لأنه إعمال لكل رواية ، ولا مانع منه . قال الزركشى فى البرهان : « وقد ينزلُ الشيء تعظيما لشأنه ، وتذكيراً عند حدوث سببه خوفَ نسيانه » اهـ .

(مثال ذلك) ماأخرجه البيهقى والبزّار عن أبى هريرة أن النبى ﷺ وقفَ على حمزةَ حينَ استُشهد وقد مُثِّلَ به ، فقالَ : « لأُمَثِّلَنَّ بسبعينَ منهمْ مكانكَ » فنزلَ جبريلَ — والنبيُّ ﷺ واقفٌ — بخواتيمِ سورةِ النَّحل « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ » إلى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات .

وأخرج الترمذى والحاكم عن أُبَىٍّ بن كعبٍ قال : (لمَّا كانَ يومُ أُحدٍ أُصيبَ مِنَ الأَنصارِ أربعةٌ وستونَ ، ومن المهاجرينَ ستةٌ ، منهم حمزةُ ، فمَثَّلوا بهِ ، فقالتِ الأنصار : لئنْ أصبنَا منهم يوماً مثل هٰذَا لَنُرْبِيَنَّ (أى لنزيدنَّ) عليهمْ . فلمَّا كانَ يومُ فتح مكةَ أنزل الله « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » الآية .

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت فى غزوة أُحد ، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة ، على حين أن بين غزوة أُحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين ، فبعُدَ أن يكون نزول الآية كان مرةً واحدةً عقيبهما معاً . وإذن لامناص لنا من القول بتعدُّد نزولها ، مرةً فى أُحد ومرةً يوم الفتح . وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية . وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين اللتين فى المدينة ، وتكون عدّة مرات نزولها ثلاثاً . وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ماعدا خواتيمها تلك فإنها مدنية ، وعليه فعدّة مرات نزولها ثنتان فقط .

شبهة وجوابها

وإذا استُشكل على تكرار النزول بأنه عبث مادامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد، وحفظها الرسول ﷺ واستظهرها الحفاظ من الصحابة، ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرةً أخرى.

(فالجواب) أن هناك حكمةً عاليةً في هذا التكرار، وهي تنبيه الله لعباده، ولفت نظرهم إلى مافي طيِّ تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة، والفوائد الجمة، التي هم في أشدِّ الحاجة إليها. فخواتيم سورة النحل التي معنا مثلا، نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هي تنبيه الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحرِّي العدالة، وضبط النفس عند الغضب، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق، والتدرُّع بالصبر والثبات. والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره، لكل من اتقاه وأحسن في عمله، جعلنا الله منهم أجمعين آمين.

أضف إلى هذه الحكمة ماذكره الزركشي آنفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر، وتذكير به خوف نسيانه.

٦ — تعددُ النازل والسببُ واحدٌ

قد يكون أمرٌ واحدٌ سبباً لنزول آيتين أو آياتٍ متعددةٍ «على عكس ماسبق» ولامانع من ذلك، لأنه لاينافي الحكمة في إقناع الناس، وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان، ماأخرجه ابن جرير الطبريُّ والطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانَ رسول الله ﷺ جالساً في ظلِّ شجرةٍ فقال: «إنهُ سيأتيكمْ إنسانٌ ينظرُ إليكُمْ بعيْنَيْ شيْطانٍ، فإذا جاء فَلَا تُكَلِّمُوهُ. فلَمْ يلْبثُوا أنْ طَلَعَ رَجُلٌ أزْرَقُ العيْنيْنِ، فَدَعَاهُ رسول الله ﷺ فقال: علامَ

تشتمني أنتَ وأصحابك ؟ فانطلق الرَّجلُ فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ماقالوا حتى تجاوز عنهم . فأنزلَ اللهُ : « يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ . فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » من سورة التوبة .

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا : فأنزل اللهُ : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ . اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ . أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ . أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » اه من سورة المجادلة .

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذى عن أمّ سلمةَ أنها قالت : يارسولَ الله ، لا أسمعُ اللهَ ذكرَ النساء فى الهجرة بشىء فأنزل الله : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ . وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » اه من سورة آل عمران .

وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت : قلت يارسول : تذكرُ الرجالَ ولا تذكرُ النساء فأنزلت : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ (١) » وأنزلت « أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى (٢) » .

---

(١) من سورة الأحزاب وتمامها : « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » .

(٢) وهى من آية آل عمران السابقة .

وأخرج الحاكم أيضا أنها قالت تغزُو الرجال ولا تغزُو النساء، وإنما لنا نصفُ الميراث. فأنزل الله « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ » (١) وأنزل : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » (٢).

٧ — العموم والخصوص

بين لفظ الشارع وسببه

هذا مبحثٌ أفرده الأُصوليون بالكلام لأن مهمَّتهم الاستدلال بألفاظ الشارع على الأحكام ، ونحن نلخص لك هنا ما يسمح به المقام لمناسبة أسباب النزول وما ينزل فيها مما يوافقها أو لا يوافقها فى العموم والخصوص فنقول : اعلم أن لفظ الشارع الوارد جواباً لسؤال أو سببٍ قد يكون مستقلاً أو مفيداً وحده بقطع النظر عن السبب أو السؤال الوارد فيه . وقد يكون غير مستقل ، بمعنى أنه لا يفيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو السؤال .

ولكل من هذين النوعين حكمة :

فأما الجواب الذى ليس بمستقل: فحكمه أنه يساوى السؤال فى عمومه باتفاق الأصوليين ويساويه أيضاً فى خصوصه على الرأى السائد عندهم .

فلو قال سائل : هل يجوز الوضوء بماء البحر، فأجيب بلفظ (نعم) ، أو لفظ (يجوز)، كان المعنى : يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس لا لخصوص هذا السائل، وذلك لأن السؤال استفهام عن الجواز مطلقاً من غير اعتبار خصوص المتكلم ، فكذلك جوابه ، لأنه غير مستقل :

ولو قال السائل : توضأتُ بماء البحر ، فأجيب بلفظ (يُجزِئُكَ) ، كان معناه :

---

(١) من سورة النساء وتمامها قد تقدم .

(٢) من سورة الأحزاب ، وتمامها قد تقدم أيضاً قريباً

أن الوضوء بماء البحر يجزئ السائلَ وحده ، لأن السؤال خاصٌ بالمتكلم ، فكذلك جوابهُ غيرُ المستقل . أما غير المتكلم فلا يُعلم حكمه من هذا الجواب ، بل يُعلم من دليل آخر كالقياس ، أو كقوله ﷺ : « حكمي عَلَى الواحدِ حكمي عَلَى الجماعةِ » . ذلك كله فى الجواب غير المستقل .

وأما الجواب المستقل : فتارةً يكون مثل السبب ، فى أنَّ كلاً منهما عامٌ أو خاصٌ . وحكمه إذنْ أنه يساويه . فاللفظ العامُّ يتناول كلَّ أفراد سببه العام فى الحكم ، واللفظُ الخاصُّ مقصورٌ على شخص سببه الخاصِّ فى الحكم . وهذا محل اتفاق بين العلماء ، لمكان التكافؤ والتساوى بين السبب وما نزل فيه . وأمثلة الأول — وهو العامُّ فيهما — كثيرة . منها الآيات النازلة فى غزوة بدر ، والآيات النازلة فى غزوة أحد من سورة آل عمران . ومثال الثانى — وهو الخاص فيهما — قوله سبحانه فى سورة الليل : « وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

قال الجلالُ المحلى : هذا نزل فى الصديق رضى الله عنه ، لما اشترى بلالا المعذَّبَ على إيمانه وأعتقه . فقال الكفار : إنما فعل ذلك ليدٍ كانتْ له عنده فنزلت : « وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

واعلم أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أن أل فى لفظ « الأتقى » للعهد ، والمعهود هو الصدِّيق رضى الله عنه .

وتارة يأتى الجواب المستقلُّ غيرَ متكافئ مع السبب فى عمومه وخصوصه . وتحت ذلك صورتان : (إحداهما) عقليةٌ محضة غير واقعة ، وهى أن يكون السبب عاما واللفظ خاصًّا . وإنما كانت عقليةً محضةً وفرضيَّةً غيرَ واقعة ، لأن حكمة الشارع تجلُّ عن أن تأتى بجوابٍ قاصرٍ ، لا يتناول جميع أفراد السبب . أضف إلى ذلك أنه يخلُّ ببلاغة القرآن ، القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال . وهل يعقل أن يسأل

سائلٌ فيقول مثلاً ؟ هل يجوز لجماعة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا من قاتلهم، فيأتى الجواب قائلاً : لك أنت أن تدافع عن نفسك وتقاتل من قاتلك .

(الصورة الثانية » هى عموم اللفظ وخصوص سببه .

٨ — عموم اللفظ وخصوص سببه

ومعناه أن يأتى الجواب أعمّ من السبب ،ويكون السبب أخصّ من لفظ الجواب. وذلك جائز عقلا، وواقعٌ فعلاً، لأنه لامحظور فيه ولاقصور ، بل إن عمومه مع خصوص سببه موفٍ بالغاية ، مؤدٍّ للمقصود وزيادة .

بيد أن العلماء اختلفوا فى حكمه : أعمومُ اللفظ هو المعتبر أم خصوصُ السبب ؟ . ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كلّ أفراد اللفظ ، سواء منها أفراد السبب ، وغير أفراد السبب ولنضرب لك مثلاً : حادثة قذْف هلال بن أُمية لزوجته ، وقد نزل فيها قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » الخ ، نلاحظ فيها أن السبب خاصٌ ، وهوقذف هلال هذا، لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عامٍ — كما ترى — وهو لفظ « الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . وهو اسم موصول ، والموصول من صِيَغِ العموم وقد جاء الحكم بالملاعنة فى الآية محمولاً عليه من غير تخصيص . فيتناول بعمومه أفراد القاذفين فى أزواجهم ، ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أُمية صاحب السبب وغيره ، ولا نحتاج فى سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل آخر من قياس أو سواه بل هو ثابت بعموم هذا النص . ومعلومٌ أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النّص. ذلك مذهب الجمهور .

وقال غير الجمهور : إن العبرة بخصوص السبب . ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصوراً على الحادثة التى نزل هو لأجلها ، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نَصِّ الآية ، إنما يعلم بدليل مستأنف آخر ، هو القياس إذا استوفى شروطه ، أو قوله ﷺ :

« حُكْمِى عَلَى الواحدِ حُكْمِى على الجماعةِ » . فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصةٌ بهذه الحادثة وحدها ، « على هذا الرأى » . أما حكم غيرها مما يشبهها ، فإنما يُعرف قياساً عليها أو عملاً بالحديث المذكور .

ويجب أن نلاحظ ، أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم ، محلُّه إذا لم تقمْ قرينة على تخصيص لفظ الآية العامّ بسبب نزوله ، أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة ، بإجماع العلماء .

كما يجب أن نلاحظ أيضاً أن حكم النَّص العامّ الوارد على سبب يتعدّى عند هؤلاء وهؤلاء إلى أفراد غير السبب . بيد أن الجمهور يقولون إنه يتناولهم بهذا النصِّ نفسه ، وغير الجمهور يقولون إنه لا يتناولهم إلا قياساً أو بنص آخر كالحديث المعروف : « حُكْمِى على الواحدِ حُكْمِى عَلَى الجماعةِ » .

وإلى هذا المعنى يشير ابن تيمية بقوله : « قد يجىء كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت فى كذا ، لا سيما إن كان المذكور شخصاً ، كقولهم : إن آية الظهار نزلت فى امرأة قيس بن ثابت ، وإن آية الكلالة نزلة فى جابر بن عبد الله ، وإن آية قوله « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ » نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود والنصارى ، أو فى قوم من المؤمنين . فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق . والناسُ وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختصُّ بسببه ؟ لم يقل أحد إن عمومات الكتاب وَالسنَّة تختصُّ بالشخص المعين . وإنما غاية مايقال إنها تختصُّ بنوع ذلك الشخص ، فتعمُّ مايشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ . والآية التى لها سبب معينٌ إن كانت أمراً أو نهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته » اهـ .

ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرين : « أحدهما » أن الحكم على أفراد غير السبب مدلولٌ عليه بالنصِّ النازل فيه عند الجمهور . وذلك النص قطعيُّ المتن اتفاقاً ، وقد يكون مع ذلك قطعى الدلالة . أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مُدَلَّلاً عليه بذلك النص ، بل بالقياس أو الحديث المعروف ، وكلاهما غير قطعى .

« الثانى » أن أفراد غير السبب كلَّها يتناولها الحكم عند الجمهور ، مادام اللفظ قد تناولها . أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس .

د — أدلة الجمهور

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلةٍ ثلاثة : « الأول » أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتفَّ به من سؤال أو سبب ؛ فلا وجه إذن لأن نخصِّص اللفظ بالسبب . وكيف يسوغ أن نجعل ماليس حجةً فى الشرع متحكِّماً بالتخصيص على ماهو الحجة فى الشرع ؟

والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال ، ويعدل بالجواب عن سنن السؤال لحكمةٍ ، نحو قوله تعالى فى سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » فإن ظاهر هذه الآية أن النبى ﷺ سئل عن بيان ماينفقونه ؛ فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم . وذلك من أسلوب الحكيم ؛ لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيهما ، فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان ، على أساس توجيههما إلى المستحقين دون سواهم . وهذا وجهٌ فى الآية نراه وجيهاً ،

وإن كانت الآية قد أشارت إشارةً خفيفة إلى بيان ما ينفقونه بقوله سبحانه : «من خير» غير أنها إشارةٌ إجمالية لا تشبع حاجة السؤال .

ويمكن أن تنظم من هذا دليلاً منطقياً من باب القياس الاقترانى ، تقريره هكذا : اللفظ العام الوارد على سبب خاصٍ هو الحجة وحده عند الشارع ، وكل ما كان كذلك يعتبر عمومه ، فاللفظ العامُّ الوارد على سبب خاص يُعتبر عمومه . وهو المطلوب .

كما يمكن أن تنظم منه قياساً استثنائياً تقريره :

لو لم يكن اللفظ العامُّ الوارد على سبب خاص مُعتبراً عمومه لما كان لفظ الشارع وحده هو الحجة ، لكن التالى باطل ، فبطل ما أدى إليه وهو المقدم ، وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه ، وهذا هو المطلوب .

« الدليل الثانى » أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق أى عند عدم وجود صارفٍ يصرف عن ذلك المتبادر ، ولا صارف للفظ هنا عن إرادة العموم ، فلا جرم يبقى على عمومه . أما ما يتوهَّمه المخالفون من أن خصوص السبب صارفٌ عن إرادة العموم ، فمدفوعٌ بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه . فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ما وضع له اللفظ العام . وهو العموم الشامل لجميع الأفراد .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترانياً هكذا : اللفظ العام الوارد على سبب خاص يتبادر منه العموم عند الإطلاق ، وكل ما كان كذلك يبقى على عمومه . فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يبقى على عمومه وهو المطلوب .

ويمكن أن تنظم من ذلك الدليل قياساً استثنائياً أيضاً يقول : لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاصٍ باقياً على عمومه عند الإطلاق للزم استعمال اللفظ فى غير ما وضع له بلا قرينة ، لكن التالى باطل ، فبطل المقدَّم وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام

الوارد على سبب خاص باقٍ على عمومه عند الإطلاق . وذلك هو المطلوب .

« الدليل الثالث » احتجاج الصحابة والمجتهدين فى سائر الأعصار والأمصار بعموم تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة فى وقائع وحوادث كثيرة من غير حاجة إلى قياس أو استدلالٍ بدليل آخر . وكيف ينكر هذا ؟ وأكثر أصول الشرع خرجت على أسباب خاصّة ، وبرغم خصوص تلك الأسباب قد فهموا من الألفاظ النازلة فيها حقيقة العموم ، ثم صاغوا من عموماتها كثيراً من الأصول . فاستدلوا بآية السرقة على وجوب قطع كل يدٍ مع أنها نازلةٌ فى خصوص سرقة المجَنِّ أو رداء صفوان . واحتجوا بآيات الظهار على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهر ، مع أنها نازلةٌ فى خصوص من عرفتَ قبل . وكذلك برهنوا بآيات اللعان على شمول حكمه لكل من قذف زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة فى خصوص من ذكرنا سابقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترانياً نصه : عموم اللفظ الوارد على سبب خاص قد اعتبره الصحابة والمجتهدون ، وكل ما كان كذلك فهو المعتبر . فعموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر .

ويمكن أن تنظم منه دليلاً استثنائياً نصه : لو لم يكن عموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر ، لما اعتبره الصحابة والمجتهدون ، لكن التالى باطل فبطل المقدم ، وثبت نقيضه ، وهو المطلوب .

ملاحظة :

لا يبعد عليك أن تستدل للمقدِّمات الصغرى والكبرى فى الأقيسة الاقترانية التى ذكرناها ، خصوصاً بعد أن تنظر فيما نثرناه قبلها من عرض الأدلة بالأسلوب المألوف الخالى من القيود الشكلية ، فى الاصطلاحات المنطقية .

وبمثل ذلك تستطيع أن تستدلّ للملازَمات وبطلان التوالى ، فيما نظمناه بين يديك من الأقيسة الاستثنائية . فتأمل .

١٠ — شبهات المخالفين وتفنيدها

استند مخالفو الجمهور إلى شبهاتٍ خمسٍ لتأييد مذهبهم — وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ — ولكنك سترى مصرع هذه الشبهات بين يديك :

« الشبهة الأولى » يقولون : إن الإجماع قد انعقد على عدم جواز إخراج السبب من حكم العام الوارد على سبب خاصّ ، إذا ورد مخصِّص . وذلك يستلزم أن العامّ مقصور على أفراد السبب لا يتناول غيرها ، لأنه لو لم يكن مقصوراً عليها لتساوت هى وغيرها فى جواز الإخراج عند المخصِّص . وذلك ممنوع ، للإجماع المذكور.

والجواب : أن الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على أفراد الخاص كما يقولون ، بل هو واقفٌ عند حدود معناه من أن أفراد السبب لا تخرج بالمخصِّص ، وذلك المعنى مُحَقَّقٌ لعدم التساوى بين أفراد السبب وغيرها فى حالة الإخراج بالمخصص، لكنه لا يمنع دخول غير أفراد السبب فى حكم العام إذا تناوله اللفظ ، وذلك لأَدِلَّة الجمهور السابقة .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لجاز إخراج أفراد السبب إذا ورد مُخصِّص لكن إخراج أفراد السبب عند وجود المخصص ممنوع ، لانعقاد الإجماع على امتناعه . فبطل ماأدى إليه وهو المقدم ، وثبت نقيضه ، وهو أن العبرة بخصوص السبب . دليل التلازم أن العامّ تستوى أفراده ، فإذا أخذنا بعموم اللفظ ولم نخصصه بالسبب

تساوت أفراد السبب وغيرها مما اندرج تحت ذلك العامّ ، فإذا جاء مخصص جاز أن يُخرج أفراد السبب .

ويُجاب بإبطالِ الملازمة ، ومنع أن أفراد العام متساوية . وسند المنع أن الإجماع منعقد على أن أفراد السبب تمتاز عن غيرها بأنها لا تخرج بالتخصيص . فإن تساوت هي وأفراد غير السبب دخولاً ، فلن يتساوى الجميع خروجاً . وإذن يبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، للأدلة السابقة .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن الرواة نقلوا أسباب النزول واهتموا بها وبتدوينها . ولا فائدة لذلك إلا ما نذهب إليه من وجوب قصر العام على أفراد سببه الخاص . وهذا معنى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

والجواب : أنه لا وجه لـكم في أن تجعلوا فائدة نقل الأسباب هي قصر العامّ على أفراد سببه ، فإن لأسباب النزول والإحاطة بها علماً عن طريق نقل الرواة فوائدَ عِدّةً ، ومزايا جمّةً ، وذكرناها في مطالع هذا المبحث . وهي غير ما ذكرتم ، فارجعوا إليها إن شئتم .

ويمكن أن ننظم من ذلك قياساً استثنائياً أيضاً هكذا : لو لم تـكن العبرة بخصوص السبب لما نقله الرواة واهتموا ببيانه وتدوينه لـكن التالي باطل بالحس والمشاهدة ، فثبت نقيض المقدم وهو أن العبرة بخصوص السبب دليل الملازمة أنه لا يفهم لنقل الرواة وعنايتهم ببيان الأسباب فائدة غير التخصيص .

والجواب أننا نمنع دليل الملازمة ، كيف ؟ ولأسباب النزول فوائد متعددة قد قصصناها عليك أول هذا المبحث . فحَذارِ أن تنسى .

«الشبهة الثالثة» يقولون : إن تأخير البيان عن وقوع الواقعة وتوجيه السؤال في العام الوارد على سبب يدلّ على أن العبرة بخصوص السبب ، لأن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد حدوث سببه ، يُفهم منه أن السبب هو الملحوظ وحده للشارع في الحكم عليه بهذا اللفظ العام النازل فيه ، وإلاّ لما ربطه بالسبب ، بل لأنزله قبله ، أو أخّره عنه .

والجواب أنه يكفى فى حكمة تأخير البيان إلى مابعد السبب أن يكون اللفظ العامّ بياناً له ولو مع مايشابهه من كل مايندرج تحت اللفظ العام ، ولا يستلزم أن يكون بياناً له وحده كما ذكرتم .

ويمكن أن تصوغ من هذا قياساً هكذا : لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لما أُخِّرَ البيان إلى وقوع الواقعة أو توجيه السؤال . لكن التالى باطل ، فثبت نقيض المقدم وهو المطلوب . دليل الملازمة أن تأخير لفظ الشارع إلى مابعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال لايفهم منه إلا أنه بيان لهذا السبب وحده ، وذلك معنى أن العبرة بخصوصه .

والجواب : أننا نمنع دليل الملازمة ، أى نمنع أنه لايفهم من تأخير البيان إلى مابعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال إلا أن يكون اللفظ العام النازل بسببهما بياناً لهذا السبب وحده . كيف ؟ والتأخير يفهم منه أن اللفظ العامّ جاء بياناً له مع أشباهه من كل ماينتظم وإياه فى سلك العامّ للأدلة السابقة .

« الشبهة الرابعة » يقولون : قد اتفقت كلمة الفقهاء على أنه إذا دعا رجل رجلاً آخر إلى طعام الغداء وقال له : (تَغَدَّ عندى) فرفض وقال : (والله لا أتغدّى) ، ولم يقل « عندك » ، ثم تناول الغداء عند غير هذا الداعى ، فإنه لايحنث . وماذاك إلا لأن هذا اللفظ العامّ قد تخصّص بسببه وهو كلمة (تغدّ عندى) التى خصّ بها الداعى نفسه ، فكان الحالف قال : (لا أتغدى عندك وحدك) ولذلك لايحنث بغدائه عند غيره

والجواب : أن حكم الفقهاء فى هذا المثال ليس مبنياً على أن كل عام يتخصّص بسببه كما فهمتم ، بل هو مبنىٌّ على أن هذا المثال وأشباهه تخصّص بقرينة خارجة وهى حكم العرف هنا بأن الحالف إنما يريد ترك الغداء عند داعيه فقط . وليس كلامنا فيما تخصّص بقرينة خارجة ، سواء أكانت العرفَ أمْ سواه ، فذلك محلُّ وِفاق .

ونظيره أن يقال لك (كلِّمْ فلاناً فى واقعة معينة) فتقول (والله لا أُكلِّمُهُ أبداً) فإنك لاتحنث إذا كلمته فى غير تلك الواقعة ، لأن العرف يحكم أيضاً بأنك تريد عدم تكليمه فى خصوص تلك الواقعة لامطلقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول :

لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لكان من قال (واللهِ لاأتغدَّى) ولم يقل (عندكَ) ، فى إجابته من قال له (تغدَّ عندى) حانثا إذا تغدَّى عند غيره . لكن التالى باطل ، لنص الفقهاء على عدم حنثه حينئذ ، فبطل المقدم ، وثبت نقيضه ، وهو المطلوب .

دليل الملازمة أن كلمة (لاأتغدى) شاملة للتغدى عند المخاطب وعند غيره ، لأنَّ حذف المعمول يُؤذِن بالعموم . وقد جاءت هذه الكلمة على سبب وهو دعوة المخاطب إياه للغداء فلو أخذنا بعموم هذا اللفظ ، وأهملنا خصوص هذا السبب ، لكان يحنث بغدائه عند غيره ، لأنه فرد من أفراد ذلك العام .

والجواب : أن التخصيص بالسبب هنا لم يجئ من نفس السبب ، إنما جاء من قرينة خارجة هى حكم العرف بأنَّ حالف مثل هذه اليمين إنما يقصد عدم التغدِّى عند من دعاه وحده . ولا كلام لنا فى ذلك ، لأن التخصيص بالقرينة الخارجة محلُّ وفاق كما تقدم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : إن التطابق بين السؤال وجوابه واجب ، فى نظر الحكمة ، وبحكم قانون البلاغة . وهذا التطابق لا يستقيم إلا بالتساوى بين لفظ العام وسببه الخاص . والتساوى لايكون إلا إذا خصصنا اللفظ العام بسببه الخاص . لاسيما إذا وقع ذلك فى كلام الشارع الحكيم ، وجاء فى أرقى نصوص البلاغة وواحدها إعجازاً ، وهو القرآن الكريم .

والجواب : أن طرْدَ العامِّ على عمومه لا يُخِلُّ بمطابقته لسببه الخاص ؛ لأن هذه المطابقة تحصل بكون اللفظ أعمَّ من سببه ، كما تحصل بمساواته إياه ، فإن المقصود من المطابقة أن يكون اللفظ مبيناً لحكم السبب وغير قاصر عن الوفاء به ، وهو إذا جاء أعمَّ يكون قد وفَّى بالمرادِ وزاد .

ويمكن أن تسبك من هذا قياساً استثنائياً صيغته هكذا : لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لكان اللفظ غير مطابق للسبب . لكن التالى باطل ، فثبت نقيض المقدم . دليل الملازمة : أن الكلام هنا مفروض فى سبب خاص ولفظ عام ، ولا شك أن العام لا يطابق الخاص . ودليل بطلان التالى : أن عدم المطابقة مناف للحكمة ، ومخلٌّ بالبلاغة .

والجواب : أننا نبطل تلك الملازمة ، ونمنع دليلها وهو أن العام لا يطابق الخاص . كيف ؟ والمطابقة كما تحصل بمساواة اللفظ للسبب عموماً وخصوصاً ، تحصل بكون اللفظ أعم من السبب ، لأن المراد من الجواب أن يتحدَّث عن السبب ويبين حكمه ، وذلك حاصل مع كونه أعم منه ، ولا يتوقف على مساواته إياه .

ملاحظة : يمكنك بعد هذا البيان ، أن تحولَ تلك الأقيسة الاستثنائيةَ إلى أقيسة اقترانية ، ثم تستدل على مقدماتها بسهولة ويسر ، على نمط ما فعلنا بأدلة الجمهور . فأمامك المجال ، ولا داعى لإطالة المقال .

كما أرجو أن يعذرنى القارئُ الكريم ، إذا شقَّ عليه بعض الشىء أن يهضم تلك الصناعة الفنيَّة فى صياغة الأدلة بعضَ الأحيان ؛ فإن للوسط قضاء لا يردّ ، وللصناعة حكماً لا ينقض . ومن واجبى أن أشبع حاجة هؤلاء وهؤلاء ، لذلك ترانى طوراً هنا وطوراً هناك . والله هو الفتاح العليم ؛ وهو الموفق والمعين .

١١ — شبيه بالسبب الخاص مع اللفظ العام

نوّهَ السيوطىُّ فى الإتقان ، وابنُ السُّبكىِّ والمحلىُّ فى جمع الجوامع وشرحه ، بأنّ القرآن الكريم قد يردُ فيه ما يشبه السبب الخاص مع اللفظ العام النازل فيه ، فيكون لهذا الشبيه أثرٌ صالحٌ فى تناول الآية العامة للمضمون الخاص فى الآية التى معها ، تناولاً ممتازاً يجعله أسبقَ إلى الذهن من غيره ، وأبعد عن خروجه بالتخصيص إذا ورد مخصص لتلك الآية العامة . فكأنه قطعىُّ الدخول . وكأنه مجمعٌ على عدم خروجه بالمخصِّص كما أجمعوا على عدم خروج السبب الخاص من لفظ العام النازل فيه .

وهاك مثلاً يوضح لك المقام : قال الله تعالى فى سورة النساء : « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً » إلى آخر الآيات الواردة فى هذا الموضوع .

فأنت ترى أن هذه الآيات شنّعتْ على الخيانة والخائنين من اليهود ، وتوعّدتهم أفظع الوعيد ، ووبختهم أشدَّ التوبيخ . وذلك فى معنى النهى البالغ عن تلك الخيانة أى خيانتهم للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حيث جعلوا المشركين أهدَى سبيلاً منهم . ومن المقرَّر أن النهى عن شىء أمرٌ بضدِّه ، فلا جرم تضمّنت هذه الآيات أيضاً أمرَ اليهود بالأمانة فى الحكم على النبى ﷺ وأصحابه ، ووصفهم بالصفات الحقيقية . خصوصاً أنهم قد مدحوا فى كتابهم التوراة كما قال الله تعالى فى سورة الأعراف : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ » الخ والضميرُ للنبى ﷺ ، وكما قال فى سورة الفتح بعد أن وصف النبى وأصحابه : « ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فى ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ » الخ .

ثم جاء عقيب تلك الآيات فى الترتيب الوضعىِّ قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ

يأمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » فكان التناسب بينهما رائعاً ، والصلةُ وثيقةً، والانسجامُ جميلاً ، لأن هذه الآية تأمر بالأمانة فى عمومها كما ترى ، وتلك الآيات تأمر بأمانة خاصة كما علمت ، وما أحكمَ الصلةَ بين العام والخاص . فكان ذلك شبيهاً بالسبب الخاص ينزل فيه لفظٌ عامٌّ ، فإذا كان تناول العام لأفراد الخاصِّ مجمعاً عليه ولا يصحُّ خروجه بمخصِّص ، فكذلك الأمانة الخاصة التى معنا تنتظم فى سلك الأمانة العامة انتظاماً ممتازاً ، وتدخل فيها دخولاً أوّليًّا ، حتى لو قيل إنه لا يجمل إخراجها منها بمخصص لم يبعد ، وذلك ما حدا بابن السبكى أن يجعلها مرتبةً دونَ السبب وفوقَ التجرُّدِ . وإنما لم تجعل فى مرتبة السبب ، لأن الأولى ليست سبباً فى الثانية ، ولأن المقارنة بينهما ليست إلا فى ترتيب آيات القرآن ووضع بعضها بإزاء بعض ، وليست مقارنةً زمانية فى النزول ، بل إن بينهما مدًى بعيداً ، فالثانية تأخَّرت عن الأولى بنحو ست سنين ، ولا يضر ذلك ، لأن تقارُبَ الزمان ليس شرطًا فى وضع آية لصقَ آية تناسبها ، إنما هو شرط فى أسباب النزول مع ماينزل فيها فحسب .

ولعل من تمام الفائدة أن نسوق إليك ماجاء فى جمع الجوامع للإمام ابن السبكى وشارحه جلال الدين المَحَلِّى فى هذه المناسبة ، ونصُّه : ـ (ويقرب منها) أى من صورة السبب حتى يكون قطعىُّ الدخول أو ظنيَّه (خاصٌّ فى القرآن تلاه فى الرسم) أى رسم القرآن بمعنى وضعه مواضعه ، وإن لم يتلُه فى النزول (عامٌّ للمناسبة) بين التالى والمتلوِّ ، كما فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » الخ فإنه ـ كما قال أهل التفسير ـ إشارةٌ إلى كعب ابن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر ، حرَّضوا المشركين على الأخذ بثأرهم ، ومحاربة النبى صلى الله عليه وسلم ، فسألوهم : مَنْ أهدَى سبيلا ، محمدٌ وأصحابه أم نحن ؟ فقالوا : أنتم ، مع علمهم بما فى كتابهم من نعتِ النبى صلى الله عليه وسلم المنطبق عليه ، وأخذ المواثيق عليهم ألاَّ يكتموه ، فكان ذلك أمانةً لازمةً لهم ولم

يؤدُّوها ، حيث قالوا للكفار : أنتم أهدَى سبيلا حسداً للنبي ﷺ . وقد تضمَّنت الآيةُ مع هذا القول التوعُّد عليه المفيدَ للأمر بمقابله المشتمل على أداء الأمانة التي هي بيان صفة النبي ﷺ ، بإفادة أنه الموصوف في كتابهم ، وذلك مناسبٌ لقوله تعالى : « إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أَنْ تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » فهذا عامٌّ في كل أمانة ، وذلك خاصٌّ بأمانةٍ هي بيان صفة النبي صلى الله عليه وسلم بالطريق السابق ، والعامُّ تالٍ للخاصِّ في الرسم متراخٍ عنه في النزول بست سنين ، مدة ما بين بدْر في رمضان من السنة الثانية ، والفتح في رمضان من السنة الثامنة ، وإنما قال : ويقرب منها كذا ؛ لأنه لم يرد العامُّ بسببه بخلافها » اه والحمد لله أولا وآخراً .

المبحث السادس

في نزول القرآن على سبعة أحرف

هذا مبحثٌ طريفٌ وشائق ، غير أنه مخيفٌ وشائك ! . أما طرافته وشوقه ، فلأنه يرينا مظهراً من مظاهر رحمة الله وتخفيفه على عباده ، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية ، بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية ، من كل جيل وقبيل ، حتى ينطقوا به ليِّنةً ألسنتهم ، سهلةً لهجاتهم ، برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات ، وتنوعٍ في الخصائص والميزات .

ومن طرافة هذا المبحث أيضاً أنك تشاهد فيه عرضاً عاما لمنتجات أفكار كثيرة ، وتشهد جيشاً جراراً من مذاهب وآراء . كلها تحاول العمل لخدمة العلم ، وإظهار الحق ، والدفاع عن عرين القرآن والإسلام .

وأما مخافة هذا المبحث وشوكه ، فلأنه كثر فيه القيل والقال ، إلى حدٍّ كاد يطمس أنوار الحقيقة ، حتى استعصى فهمه على بعض العلماء ولاذ بالفرار منه وقال : إنه

مشكل . وحتى اضطرَّ جماعةٌ من كبار المحققين أن يُفردوه بالتأليف قديمًا وحديثًا ، ما بين العلاّمة المعروف بأبى شامة فى القرن السابع الهجرى ، والعلاّمة الشيخ محمد بخيت فى القرن الرابع عشر .

أضف إلى ذلك أن الخطأ فى هذا الباب قد يتّخذ منه أعداء الإسلام سبيلاً عوَجًا إلى توجيه المطاعن الخبيثة إلى القرآن ، كما وقعتُ أو وقعَ عَلَيَّ كتابٌ لمن يدعون أنفسهم مبشرين ، أسموه « مباحث قرآنية » وجعلوا موضوع الجزء الأول منه « هل من تحريف فى الكتاب الشريف » ؟ وتصيدوا فيه من الآراء المزيفة ما الحقُّ منه برىء ، « وهمّوا بِمَا لَمْ ينالوا » .

ونحن نستعين الله ونستهديه ، أن يُخلِّصَ لنا الورد من الشوك فى هذا الموضوع الشائق الشائك ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً :

وسنجول فى هذا الميدان — إن شاء الله — جولاتٍ عدة ، نتحدث فيها عن أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ، وعن شواهدَ بارزة فى هذه الأحاديث الواردة ، بينها فوائد كثيرة لاختلاف الحروف والقراءات ، وعن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف وعن الوجوه السبعة فى المذهب المختار ، وعن تحقيق النسبة بين المذهب المختار وأشباهه ، وعن وجوه اختيار هذا المذهب ، وعن دفع الاعتراضات الواردة عليه ، وعن بقاء هذه الأحرف السبعة فى المصاحف ، وعن الأقوال الأخرى وتفنيدها ، وعن دفع إجمالى للأقوال الأخيرة منها ، ثم نختتم المبحث بعلاج الشبهات الواردة على هذا الموضوع : واللهُ الْمُسْتَعَانُ .

١ — أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف

لا سبيل إلى الاستدلال على هذا إلا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وا لمجاء هذا النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة، ورُوىَ حديثُ نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمعٍ كبير من الصحابة. منهم عمر، وعثمان، وابن مسعود وابن عباس، وأبو هريرة، وأبو بكر، وأبو جهم، وأبو سعيد الخدرى، وابن طلحة الأنصارى، وأُبىٌّ بن كعب، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسلمان بن صُرد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن أبى سلمة، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأنس، وحذيفة، وأم أيوب امرأة أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنهم أجمعين. فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً، ما منهم إلا رواه وحكاه.

وروى الحافظ أبو يَعْلَى فى مسنده الكبير أن عثمان رضى الله عنه قال يوما وهو على المنبر: «أذكر الله رجلاً سمع النبى صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ القرْآنَ أُنزلَ عَلَى سبعةِ أحرُفٍ كلها شَافٍ كافٍ» لما قامَ. فقاموا حتى لم يُحصوْا، فشهدوا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُنزِلَ القرْآنُ عَلَى سبعةِ حروُفٍ كلهَا شَافٍ كافٍ». فقال عثمان رضى الله عنه: «وأنا أشهدُ معهمْ».

وكأن هذه الجموع التى يؤمن تواطؤها على الكذب هى التى جعلت الإمام أبا عبيد ابن سلاَّم يقول بتواتر هذا الحديث. لكنك خبير بأن من شروط التواتر، توافرَ جمعٍ يُؤْمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الرواية. وهذا الشرط إذا كان موفوراً هنا فى طبقة الصحابة كما رأيت، فليس بموفور لدينا فى الطبقات المتأخرة وهاك طائفة من تلك الأحاديث نسوقها إليك استدلالاً من ناحية، وتنويراً فى بيان المعنى وإقامةً لمعالم الحق فيه من ناحية ثانية:

(١) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقرأنى جبريلُ على حرفٍ فراجعتهُ ، فلم أزلْ أستزيدهُ ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعةِ أحرفٍ » زاد مسلم : « قال ابن شهاب : بلغنى أنّ تلكَ السبعةَ فى الأمرِ الذى يكونُ واحداً لا يختلفُ فى حلالٍ ولا حرامٍ » .

(٢) وروى البخارى ومسلم أيضاً ـ (واللفظ للبخارى) أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأُ سورة الفرقانِ فى حياةِ رسول الله ﷺ ، فاستمعتُ لقراءتهِ فإذا هوَ يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ ، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدتُ أساورهُ فى الصلاةِ ، فانتظرتهُ حتى سلم ، ثمّ لببتهُ بردائه أوْ بردائى ، فقلت : منْ أقرأكَ هذهِ السورةَ ؟ قال : أقرأنيهَا رسولُ اللهِ ﷺ . قلت له : كذبتَ ، فو الله إنّ رسول الله ﷺ أقرأنى هذهِ السورةَ التى سمعتكَ تقرؤها ، فانطلقتُ أقودهُ إلى رسول الله ﷺ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ إنى سمعتُ هذا يقرأُ بسورةِ الفرقانِ عَلَى حروفٍ لم تقرئنيهَا ، وأنتَ أقرأتنى سورةَ الفرقانِ . فقال رسولُ الله ﷺ : أرسلهُ يا عمرُ : اقرأْ يا هشامُ ، فقرأ هذه القراءةَ التى سمعتهُ يقرؤها . قال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت . ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ هذا القرآنَ أنزلَ على سبعة أحرفٍ ، فاقرأوا ما تيسرَ منهُ » » .

(٣) وروى مسلمٌ بسنده عن أبيِّ بن كعب قال : « كنتُ فى المسجدِ ، فدخلَ رجلٌ يصلى ، فقرأ قراءةً أنكرتهَا عليهِ ، ثمّ دخلَ آخرُ ، فقرأ قراءةً سوى قراءةِ صاحبهِ ، فلمّا قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : إنّ هذا قرأ قراءةَ أنكرتها عليهِ ، ودخلَ آخرُ فقرأ سوى قراءةِ صاحبه . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ ، فحسّنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقطَ فى نفسى منَ التكذيبِ ولا إذْ كنتُ فى الجاهلية . فلمّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما قد

غشينى ضربَ فى صدْرى ، ففضتُ عرقاً ، وكأنما أنظرُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فرَقاً فقال لى : يا أبىُّ ، أُرسلَ إلىَّ أن أقرأ القرآنَ على حرفٍ فرددتُ إليهِ : أنْ هوِّنْ على أُمتى ، فردَّ إلىَّ الثانيةَ : اقرأهُ على حرفينِ ، فرددتُ إليهِ : أنْ هونْ على أمتى ، فردَّ إلىَّ الثَّالثةَ : اقرأهُ على سبعةِ أحرفٍ ، ولكَ بكلِّ ردةٍ رددتها مسألةٌ تسألُنيها . فقلتُ : « اللهمَّ اغفرْ لأمتى اللهم اغفر لأمتى . وأخرتُ الثالثةَ ليومٍ يرغبُ إلىَّ الخلقُ كلهمْ حتى إبراهيمُ صلى الله عليهِ وسلم » . اه

واعلم أن معنى قول أبىٍّ بن كعب رضى الله عنه « فسقط فى نفسى من التكذيب الخ » أن الشيطان ألقى إليه من وساوس التكذيب ما شوَّشَ عليه حاله ، حين رأى النبى ﷺ قد حسَّنَ القراءتين وصوَّبهما على ما بينهما من اختلاف ، وكانتا فى سورة واحدة هى سورة النحل على ما رواه الطبرى . وكأنَّ الذى مرَّ بخاطره وقتئذ أنَّ هذا الاختلاف فى القراءة ينافى أنه من عند الله . لكنه كان خاطراً من الخواطر الرديئة التى لا تنال من نفس صاحبها منالاً ، ولا تفتنها عن عقيدة ، ولا يكون لها أثرٌ باقٍ ولا عملٌ دائم .

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤاخذهم بهواجس النفوس وخلجات الضمائر العابرة . ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم ، حين يفتح الانسان للشبهة صدره ، ويوجه إليها اختياره وكسبه ، ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه .

قال القرطبى « فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط فى نفس أبىّ) من قبيل ما قال فيه النبى ﷺ حين سألوه : إنَّا نجدُ فى أنفسنا ما يتعاظمُ أحدنا أنْ يتكلمَ بهِ . قال : أوَقدْ وجدتموهُ ؟ قالوا : نعمْ . قال : ذلكَ صريحُ الإيمان » . رواه مسلم اه .

ومن هذا تعلم أن ما خطر لسيدنا أبى بن كعب رضى الله عنه ، لا يمسُّ مقامه

ولا يصادم إيمانه، مادام قد دفعه بإرشاد رسول الله ﷺ سريعاً كما في الحديث الشريف.

وأيُّ إنسان يستطيع أن يحمىَ نفسه خواطرَ السوء المؤجاء، ورياحَ الهواجس الشنعاء؟ إنما الواجب على المؤمن أن يحارب تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة، ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها. وعلينا أن نتعاون في هذا الميدان كما فعل الرسول ﷺ بأُبَيٍّ إذ ضَرَبَ في صدره، ليصرفه بشدة عن الاشتغال بهذا الخاطر، وليلفته بقوّةٍ إلى ماقصه عليه علاجاً لشبهته، من أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، تهويناً على أمته وتيسيراً لها. ولقد نجح الرسول ﷺ في هذا العلاج أيّما نجاح حتى قال أُبَيٌّ نفسه: « فَفِضْتُ عرَقاً، وَكَأَنِّى أنظرُ إلى اللهِ عزَّ وَجلَّ فرَقاً ».

ذلك ماتراه مُخَلَّصًا في هذا المقام الذى زلّت فيه بعض الأقدام، وللعلامة الشيخ محمد عبدالله دراز كلامٌ جيدٌ في مثل هذا الموضوع من كتابه المختار، فارجع إليه إن أردت التوسّع ومزيد البيان.

أضف إلى ماذكرنا أن خصومة أُبى بن كعب في أمر اختلاف القراءة على هذا النحو، إنما كانت من قبل أن يعلم أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فهو وقتئذ كان معذوراً، بدليل أنه لما علم بذلك، واطْمَأَنَّتْ إليه نفسه، عمل بما علم، وكان مرجعاً مُهما من مراجع القرآن على اختلاف رواياته، وكان من رُواة هذا العلم للناس كما تلاحظه في الحديثين المسندين إليه بعدُ.

(٤) روى مسلم بسنده عن أُبى بن كعب أن النبى ﷺ كانَ عندَ أَضاةِ بَنى غِفارٍ. قال: « فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تَقرأَ أُمتُكَ القرآنَ عَلَى حرْفٍ. فقال: أَسأَلُ اللهَ مُعافاتَهُ ومغفرتهُ؛ وَإنَّ أمتى لا تُطيقُ

ذلكَ . ثم أتاهُ الثـانيةَ فقال إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تقرأ أُمتكَ القرآنَ عَلَى حرْفين فقال : أسألُ اللهَ مُعـافَاته وَمَغفرَتهُ ؛ وإنَّ أُمتى لا تُطيقُ ذلكَ ثم جاءَه الثـالثـة فقال : إنَّ اللهَ يأْمُركَ أنْ تقرَأ أُمتكَ القرآن عَلَى ثلاثَةِ أحرفٍ ، فقـال . أسألُ اللهَ مُعـافاتهُ وَمَغفرَتهُ ، وَإن أمتى لا تُطيق ذلكَ ثم جاءَه الرابعةَ فقال : إنَّ اللهَ يأْمُركَ أنْ تَقرأ أُمتكَ القرآن عَلَى سَبعةَ أَحرفٍ . فَأَيُّمـا حَرفٍ . قرَءوا عليهِ فقدْ أصَابوا » اه .

(وَأضَاةُ بنى غِفَارَ) بفتح الهمزة فى أضاة وبكسر الغين فى غفـار : مُسْتنقَـع الماءِ كالغدير ؛ وكان بموضع من المدينة المنوَّرة ينسب إلى بنى غفار ؛ لأَنهم نزلوا عنده .

(٥) وروى الترمذى عن أُبى بن كعب أيضاً قال : لَقِىَ رسول اللهِ ﷺ جبريلَ عندَ أَحْجَارِ المروَة قال : فقال رسول الله ﷺ لجبريلَ : إنِّى بعثتُ إلى أمةٍ أميِّينَ ؛ فيهم الشَّيخُ الْفانى ، والعجوزُ الـكبيرَةُ ، وَالغلامُ . قال : « فَمرْهُمْ فَلْيقرءوا القرْآنَ عَلَى سَبعةِ أحرفٍ » قال الترمذى : حسن صحيح . وفى لفظ : « فَمَنْ قَرَأ بحرف منها فهوَ كما قَرَأ » ، وفى لفظ حذيفة « فقلت ياجبريل إنى أُرسلتُ إلى أمَّة أمّيةٍ فيهم الرجلُ ، والمرأةُ ؛ والغلامُ ؛ والجارية ؛ والشيخُ الفانى الذى لَمْ يقرَأْ كتاباً قطُّ قال : « إن القرآنَ أنزلَ عَلَى سبعةِ أحرفٍ » .

(٦) أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى قيسٍ مولى عمرو بن العاص عن عمرو أنَّ رَجلاً قرأَ آيةً من القرآن ، فقال له عمْرو : إنما هىَ كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « إنَّ هٰذَا القرآنَ أنزلَ عَلَى سبعةِ أحرفٍ ، فأىَّ ذلك قرأتمْ أصبتمْ ، فَلا تُمارُوا » اه .

قال فى القاموس : ماراه مُماراة ومراءً ، وامترىَ فيهوتمارى : شكَّ . والمريةُ بالـكسر والضم : الشكُّ والجدلُ اه .

(٧) روى الحاكم وابن حبان بسندهما عن ابن مسعود قال: أقرأني رسولُ اللهِ ﷺ سورةً من آلِ حم، فرُحتُ إلى المسجدِ، فقلتُ لرجلٍ اقرأْها. فإذا هو يقرَؤها حرُوفاً ما أقرَؤها. فقال أقرأنيها رسول الله ﷺ فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرْناهُ فتغيرَ وجههُ وقال: «إنما أهلكَ من قبلكُم الاختلافُ» ثمَّ أسرَّ إلى عليٍّ شيئاً. فقال عليٌّ: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرُكم أن يقرأَ كلُّ رجل منكُم كما علِمَ. قال فانطلقنا وكلُّ رجلٍ يقرأُ حروفاً لا يقرَؤها صاحبهُ» اهـ.

(٨) وأخرج البخاريُّ عن عبدالله بن مسعود أيضاً أنهُ سمعَ رجلاً يقرأُ آيةً سمع النبي ﷺ يقرأُ خلافها. قال: فأخذتُ بيدِه فانطلقتُ بهِ إلى النبي ﷺ فقال: «كلا كما محسنٌ، فاقرأْ» قال شعبةُ أحد رواة هذا الحديث: أكبرُ علمى أن النبي ﷺ قال: «فإن من كانَ قبلكم اختلفوا فأهلكوا».

(٩) روى الطبريُّ والطبرانيُّ عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرأني ابنُ مسعودٍ سورةً أقرأنيها زيدبن ثابتٍ، وأقرأنيها أُبيُّ بن كعبٍ، فاختلفتْ قراءتهم، فبقراءةِ أيِّهمْ آخذ؟ فسكتَ رسول الله ﷺ وعليٌّ إلى جنبهِ، فقال عليٌّ: «ليقرأ كلُّ إنسانٍ منكمْ كما علِّم، فإنه حسنٌ جميلٌ».

(١٠) وأخرج ابن جرير الطبرى عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن هذا القرآنَ أُنزِلَ عَلَى سبعةِ أحرُفٍ، فاقرءوا ولا حرَجَ ولكن لا تختموا ذكرَ رَحمةٍ بعذابٍ، ولا ذكرَ عذابٍ برَحمةٍ».

٢ — شواهد بارزة فى هذه الأحاديث الواردة

إن الناظر فى هذه الأحاديث الشريفة وما ماثلها ، يستطيع أن يقيم منها شواهد بارزةً ، تكون منارات هدى ، ومصادر إشعاع ونور ، ترشده إلى ما عسى أن يكون هو الحقّ والصواب فى بيان معنى الأحرف السبعة ، كما يستطيع أن يأخذ منها موازين ومقاييس يحاكم إليها كلّ ما شجر من هذا الخلاف البعيد ، فى هذا الموضوع الدقيق .

(الشاهد الأول) أن الحكمة فى نزول القرآن على الأحرف السبعة هو التيسير على الأمة الإسلامية كلها ، خصوصاً الأمّة العربية التى شوفهت بالقرآن ، فإنها كانت قبائل كثيرة ، وكان بينها اختلاف فى اللهجات وَنبرَات الأصوات ، وطريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ فى بعض المدلولات على رغم أنها كانت تجمعها العروبة ، ويوحد بينها اللسان العربىُّ العام . فلو أخذتْ كلها بقراءة القرآن على حرفٍ واحد ، لشق ذلك عليها كما يشقُّ على القاهرى منا أن يتكلم بلهجة الأسيوطىّ مثلاً ، وإن جمع بيننا اللسان المصرىُّ العامُّ ، وألفت بيننا الوطنية المصرية فى القطر الواحد . وهذا الشاهد تجده ماثلاً بوضوح بين الأحاديث السالفة فى قوله ﷺ فى كل مرّةٍ من مرّات الاستزادة « فرددتُ إليهِ أنْ هوِّنْ على أُمتى » وقوله : « أسألُ اللّهَ معافاتهُ وَمغفرتَه ، وَإنَّ أُمتى لاَ تطيقُ ذلكَ » ومن أنه ﷺ لقىَ جبريلَ فقال : « ياجبريلُ إنى أُرْسلتُ إلى أُمَّةٍ أُمِّيَّة فيهم الرجلُ والمرأة ، والغلام والجارية ، والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتاباً قط » الخ .

قال المحقق ابن الجزرى : « وأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة ، وإرادة اليسر بها ، والتهوين عليها شرفاً لها ، وتوسعةً ورحمةً وخصوصيةً لفضلها ، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق ، حيث أتاه جبريل فقال :

« إنَّ الله يأمرُكَ أنْ تقرأَ أُمتكَ القرآنَ عَلَى حرفٍ ، فقال ﷺ : أسألُ اللهَ معافاته ومعونته فإنَّ أمتى لا تطيقُ ذلك ، ولمْ يزلْ يردِّدُ المسألةَ حتى بلغَ سبعة أحرف » ثم قال : « وكما ثبتَ أنَّ القرآنَ نزلَ من سبعةِ أبوابٍ عَلَى سبعة أحرفٍ ، وأنَّ الكتابَ قبلهُ كان ينزلُ من بابٍ واحد على حرفٍ واحدٍ ، وذلك أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يبعثونَ إلى قومهم الخاصين ، والنبى ﷺ بُعثَ إلى جميع الخلق أحمرِهم وأسودِهم ، عربيهمْ وعجميهمْ ، وكان العرب الذى نزل القرآن بلغتهم . لغاتهم مختلفةٌ وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغةٍ إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر . بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج ، لاسيما الشيخ ، والمرأة ، ومن لم يقرأ كتابا كما أشار إليه ﷺ ، فلو كُلِّفُوا العدولَ عن لغتهم، والانتقالَ عن ألسنتهم ، لكان من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يتكلفَ المتكلفُ وتأبى الطباع » اه .

فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعددِ الحروف

كلُّ مامرَّ عليك فى الشاهد الأول تقريرٌ لحكمةٍ واحدة ، وفائدة واحدة من فوائد اختلاف القراءات وتعدُّد الحروف التى نزل عليها القرآن الكريم وهى أبرز الفوائد وأشهرها وأقربها إلى الذهن . ونحيطك علماً هنا بأن لهذا الاختلاف والتعدُّد فوائدَ أخرَى :

منها جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسانٍ واحدٍ يوحد بينها ، وهو لسان قريش الذى نزل به القرآن الكريم ، والذى انتظمَ كثيراً من مختارات ألسنة القبائل العربية التى كانت تختلف إلى مكة فى موسم الحج وأسواق العرب المشهورة . فكان القرشيون يستملحون ماشاءوا ، ويصطفون ما راق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوب وحدب ثم يصقلونه ويهذبونه ويدخلونه

فى دائرة لغتهم المرنة ، التى أذعن جميع العرب لهـــا بالزعامة ، وعقدوا لها راية الإمامة .

وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف يصطفى ماشاء من لغات القبائل العربية ، على نمط سياسة القرشيين بل أوْفق . ومن هنا صحّ أن يقال : إنه نزل بلغة قريش ، لأن لغات العرب جمعاء تمثلت فى لسان القرشيين بهذا المعنى . وكانت هذه حكمة إلٰهية سامية؛فإن وحدة اللسان العامّ من أهمِّ العوامل فى وحدة الأمة، خصوصاً أول عهد بالتوثب والنهوض .

ومنها بيان حكم من الأحكام ، كقوله سبحانه: « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » قرأ سعد بن أبى وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمٍّ » بزيادة لفظ « مِنْ أُمٍّ » فتبين بها أن المراد بالإخوة فى هذا الحكم الإخوة للأم دون الأشقاء ومنْ كانوا لأب ، وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه .

ومثل ذلك قوله سبحانه فى كفارة اليمين: « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وجاء فى قراءة : « أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » بزيادة لفظ « مُؤْمِنَةٍ » فتبين بها اشتراطُ الإيمان فى الرقيق الذى يعتق كفارة يمين. وهذا يؤيد مذهب الشافعى ومن نحا نحوه فى وجوب توافر ذلك الشرط .

ومنها الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين ، كقوله تعالى : « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ . وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ » قرئ بالتخفيف والتشديد فى حرف الطاء من كلمة « يطهرنَ » ولا ريب أنّ صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة فى طهر النساء من الحيض لأن زيادة المبنَى تدلُّ على زيادة المعنى . أما قراءة التخفيف فلا

تفيد هذه المبالغة . ومجموع القراءتين يحكم بأمرين : أحدهما أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر . وذلك بانقطاع الحيض . وثانيهما أنها لا يقربها زوجها أيضاً إلا إن بالغتْ في الطهر وذلك بالاغتسال ، فلا بد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء . وهو مذهب الشافعي ومن وافقه أيضاً .

ومنها الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالين مختلفين : كقوله تعالى في بيان الوضوء « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » قرئ بنصب لفظ « أرجلكم » وبجرها ، فالنصب يفيد طلب غسلها لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « وجوهكم » المنصوب ، وهو مغسول . والجرُّ يفيد طلب مسحها لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رءوسكم » المجرور ، وهو ممسوح . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسح يكون للابس الخف وأنَّ الغسل يجب على من لم يلبس الخف .

ومنها دفع توهم ما ليس مراداً كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ » وقرئ « فامضوا إلى ذكرِ الله » . فالقراءة الأولى يتوهمُ منها وجوبُ السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة ، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم لأن المضيَّ ليس من مدلوله السرعة .

ومنها بيان لفظ مبهم على البعض نحو قوله تعالى : « وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ » وقرىء « كالصوفِ المنفوشِ » فبينت القراءةُ الثانيةُ أنَّ العهنَ هو الصوف .

ومنها تجلية عقيدةٍ ضلَّ فيها بعضُ الناسِ : نحو قوله تعالى في وصف الجنة وأهلها : « وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً » جاءت القراءة بضم الميم

وسكون اللام فى لفظ (وملـكا كبيراً » وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام فى هذا اللفظ نفسه فرفعت هذه القراءةُ الثانية نقابَ الخفاء عن وجه الحق فى عقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى فى الآخرة ، لأنه سبحانه هو الملك وحده فى تلك الدار « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » .

والخلاصة : أن تنوُّع القراءات ، يقومُ مقام تعدُّد الآيات . وذلك ضربٌ من ضروب البلاغة ، يبتدئُ من جمال هذا الإيجاز ، وينتهى إلى كمال الإعجاز .

أضفْ إلى ذلك ما فى تنوُّع القراءات من البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ، وعلى صدق منْ جاء به وهو رسول الله ﷺ ، فإن هذه الاختلافات فى القراءة على كثرتها لا تؤدى إلى تناقض فى المقروء وتضاد ، ولا إلى تهافت وتخاذل ، بل القرآن كله على تنوُّع قراءاته ، يصدِّق بعضه بعضاً ، ويبينُ بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، على نمط واحد فى علو الأسلوب والتعبير ، وهدَفٍ واحدٍ من سموِّ الهداية والتعليم . وذلك — من غير شكٍ — يفيدُ تعدُّدَ الإعجاز بتعدُّد القراءات والحروف .

ومعنى هذا أن القرآن يعجزُ إذا قرئَ بهذه القراءة ، ويعجز أيضاً إذا قرئَ بهذه القراءة الثانية ، ويعجز أيضاً إذا قرىء بهذه القراءة الثالثة ، وهلمَّ جرا . ومن هنا تتعدَّد المعجزات بتعدُّد تلك الوجوه والحروف ! .

ولا ريب أن ذلك أدلُّ على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم فى اشتمال القرآن على مناحٍ جمة فى الإعجاز وفى البيان ، على كل حرف ووجه ، وبـكل لهجة ولسان . « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

(الشاهد الثانى) أن مرَّاتِ استزادة الرسول للتيسير على أمته ، كانت ستاً غير الحرف الذى أقرأه أمينُ الوحى عليه أولَ مرة فتلك سبعة كاملة بمنطوقها ومفهومها .

تأملْ حديث ابن عباس السابق وقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : « أقرأنى جبريلُ عَلَى حرف ، فراجعتهُ ، فلم أزلْ أستزيدُه ويزيدُنى حتى بلغَ سبعــةَ أحرف » وكذلك جاء فى حديث لأبى بكرةَ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فنظرتُ إلى ميكائيل فسكتَ فعلمت أنه قدْ أُنتهتِ العدةُ » ، يضاف إلى ذلك المراجعاتُ الثابتةُ فى الأحاديثِ الأخرى ، وإن كانت لم تبلغ ستًّا صراحةً ، غير أن الحديث جاء بلفظ السبعة ، فيعلم من مجموع تلك الروايات ، أنّ المراد بلفظ سبعة حقيقةُ العدد المعروف فى الآحاد بين الستة والثمانية .

(الشاهد الثالث) أن من قرأ حرفًا من هذه الحروف ، فقد أصاب شاكلةَ الصواب أيا كان ذلك الحرف ، كما يدلُّ عليه فيما مضى قوله صلى الله عليه وسلم : (فأَيما حرف قرءوا عليهِ فقدْ أصابوا) وقوله صلى الله عليه وسلم لـكل من المختلفين فى القراءة : (أصبتَ) وقوله صلى الله عليه وسلم لهما فى رواية ابن مسعود : (كلاَ كمَا محسنٌ) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمرو ابن العاص : (فأىّ ذلك قرأتمْ أصبتمْ) . وعدم موافقته صلى الله عليه وسلم لعمر ، وأبىٍّ ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفيهم بالطرق الآنفة فى الأحاديث السالفة . ودفعه فى صدر أُبىٍّ حين استصعب عليه أن يُقرّ هذا الاختلاف فى القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهى البالغ عن منع أى أحد من القراءة بأى حرف من الأحرف السبعة النازلة .

(الشاهد الرابع) : أن القراءات كلها على اختلافها كلام الله ، لا مدخل لبشر فيها . بل كلها نازلةٌ من عنده تعالى ، مأخوذٌ بالتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . يدلُّ على ذلك أن الأحاديث الماضية تفيد أن الصحابة — رضوان الله عليهم — كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، يأخذون عنه ، ويتلقون منه كل حرف يقرءون عليــه . انظر قوله صــلى الله عليه وسلم فى قراءة كل من المختلفين : (هكذَا أنزِلَت) وقول المخالف لصاحبه : « أقرأنيهَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » .

ثم أضف إلى ذلك أنه لو صحّ لأحد أن يغير ماشاء من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه ، لبطلت قرآنيةُ القرآن وأنه كلام الله ، ولذهب الإعجاز ولما تحقق قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ثم إن التبديل والتغيير مردودٌ من أساسه بقوله سبحانه فى سورة يونس : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

فإذا كان أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم قد تحرّج من تبديل القرآن بهذا الأسلوب، فكيف يسوغ لأحد مهما كان أمره أن يبدّل فيه ويغير ، بمرادف أو غير مرادف ؟ « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

(الشاهد الخامس) أنه لا يجوز منع أحد من القراءة بأى حرف من تلك الأحرف السبعة النازلة . يدلُّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ ، فإنّ المِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ » وعدمُ موافقته لعمر ، وأبى ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفيهم بالطرق الآنفة ، فى الأحاديث السالفة . ويدلّ على ذلك أيضاً دَفعُه فى صدر أُبىّ حين استصعبَ عليه أن يقرّ هذا الاختلاف فى القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهى البالغ عن منع أىّ أحد من القراءة بأى حرف من الأحرف السبعة النازلة .

(الشاهد السادس) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مُتحمّسينَ فى الدفاع عن القرآن ، مُستبسِلينَ فى المحافظة على التنزيل ، متيقظين لكل من يُحدِثُ فيه حَدَثاً ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللَّهَجَات ، مبالغين فى هذه اليقظة حتى ليأخذون

فى هذا الباب بالظِّنَّة ، وينافحون عن القرآن بكل عناية وهمة . وحسبك استدلالًا على ذلك مافعل عمر بصاحبه هشام بن حكيم ، على حين أنَّ هشاماً كان فى واقع الأمر على صوابٍ فيما يقرأ ، وأنه قال لعمر تسويغاً لقراءته : أقرأنيها رسول الله ﷺ لكن عمر لم يقتنعْ ، بل لَبَّبهُ وساقه إلى المحاكمة ، ولم يتركه حتى قضى رسول الله ﷺ لهشامٍ بأنه أصاب . قل مثل ذلك فيما فعل أُبَىٌّ بن كعب بصاحبه ، وما كان من ابن مسعود وعمرو بن العاص وصاحبيهما . والأحاديث بين يديك عن كثب ، فارجع إليها إن أردت .

(الشاهد السابع) أنه لا يجوز أن نجعل اختلاف القراءات معركة جدالٍ ونزاعٍ وشقاق ، ولا مثارَ ترددٍ وتشكيك وتكذيب ، ولا سلاحَ عصبيَّة وتنطعٍ وجمود . على حين أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كانت حكمته من الله التيسير والتخفيف والرحمة والتهوين على الأمة ، فما يكون لنا أن نجعل من هذا اليسر عسراً ، ومن هذه الرحمة نقمة ! . يرشد إلى ذلك قوله ﷺ فيما سبق « فلاَ تُمَارُوا فيهِ فإنَّ المراء فيهِ كفرٌ » . وكذلك تغير وجهه الشريف عند اختلافهم مع قوله : « إنمَا أهلكَ منْ قبلكُمْ الاختلاف » وضربهُ فى صدر أُبَىٍّ بن كعب حين جال بخاطره حديثُ السوء فى هذا الموضوع الجليل .

(الشاهد الثامن) أن المراد بالأحرف فى الأحاديث السابقة وجوهٌ فى الألفاظ وحدها لا محالة . بدليل أن الخلاف الذي صوَّرتهُ لنا الروايات المذكورة كان دائراً حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعانى ، مثل قول عمر : « إذا هوَ يقرؤهَا على حروف كثيرة لم يقرئنيهَا رسول الله ﷺ » ثم حكم الرسول أن يقرأ كلٌ منهما ، وقوله ﷺ : « هكذا أُنزلتْ » . وقوله : « أىَّ ذلكَ قرأتمْ فقدْ أصبتمْ » ونحو ذلك ولا ريب أن القراءة أداء الألفاظ ، لا شرح المعانى .

٣ — معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

يهمنا بعد الذى أسلفنا إليك أن نبين لك معنى الجملة الشريفة : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . فإليكَ :

أما لفظ القرآن فقد أشبعناه كلاماً فى المبحث الأول . وأما الإنزال فقد استوفيناه تحقيقاً فى المبحث الثالث . وأما السبعة فقد علمت فى الشاهد الثانى من الشواهد الماضية أن المراد بها حقيقتها وهى العدد المعروف فى الآحاد بين الستة والثمانية . وأما الأحرف فجمع حرف ، والحرف يطلق على معان كثيرة ، أتى عليها صاحب القاموس إذ يقول ما نصه : « الحرف من كل شىء طرفه ، وشفيره ، وحدُّه ، ومن الجبل أعلاه المحدَّد ، وواحد حروف التهجِّى ، والناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة ، ومسيل الماء ، وآرامٌ سودٌ ببلاد سليم . وعند النحاة ماجاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى وجهٍ واحد ، وهو أن يعبده على السراء لاعلى الضراء . ، أو على شكٍّ ، أو على غير طمأنينة من أمره ، أى لايدخل فى الدين متمكِّناً . « ونزلَ القرآنُ على سبعةِ أحرُفٍ : سبع لغاتٍ من لغات العرب . وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر . ولكن معناه أنَّ هذه اللغات السبع متفرِّقةٌ فى القرآن » اه بتصرف قليل . وهذه الإطلاقات الكثير تدلُّ على أنَّ لفظ الحرف من قبيل المشترَك اللفظى ، والمشترَك اللفظىُّ يراد به أحدُ معانيه التى تعينها القرائن وتناسب المقام .

وأنسب المعانى بالمقام هنا فى إطلاقات لفظ الحرف أنهُ الوَجه بالمعنى الذى سنقصه عليك ، لا بالمعنى الذى ذهب إليه صاحب القاموس وغيره من أنه اللغة أو غيرها . فسيأتيك تفنيد هذه الآراء بعد .

ثم إن كلمة (عَلَى) فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أُنزِلَ القرآنُ عَلَى سبعةِ أحرفٍ » تشير إلى أن المسألة على هذا الشرط من التوسعة والتيسير ، أى أنزل القرآن موسعاً فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه ، يقرأ بأىِّ حرف أراد منها على البدل من صاحبه ، كأنه قال : أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة .

وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه ؛ إذاً لقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ هذَا القرآنَ أنزلَ سبعةَ أحرفٍ » بحذف لفظ (على) . بل المراد ماعلمت من أن هذا القرآن أنزل على هــذا الشرط وهذه التوسعة ، بحيث لاتتجاوز وجوه الاختلاف سبعة أوجه ، مهما كثر ذلك التعدُّد والتنوُّع فى أداء اللفظ الواحد ، ومهما تعدَّدت القراءات وطرقها فى الكلمة الواحدة . فكلمة « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » التى ورد أنها تقرأ بطرقٍ تبلغ السبعة أو العشرة ، وكلمة « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » التى ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة ، وكلمة « أُفٍّ » التى أوصل الرمانى لغاتها إلى سبع وثلاثين لغة ، كل أولئك وأشباه أولئك ، لايخرج التغاير فيه على كثرته عن وجوه سبعة .

٤ — الوجوه السبعة فى المذهب المختار

بقى علينا أن نتساءل : ماهى تلك الوجوه السبعة التى لاتخرج القراءاتُ عنها مهما كثرتْ وتنوّعتْ فى الكلمة الواحدة ؟ .

هنا يحتدمُ الجدال والخلاف ، ويكثر القيل والقال .

والذى نختاره — بنور الله وتوفيقه — من بين تلك المذاهب والآراء هو ماذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازى فى اللوائح إذ يقول :

الكلام لايخرج عن سبعة أحرف فى الاختلاف :

(الأول) : اختلاف الأسماء من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

(الثانى) : اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ، ومضارع ، وأمر .

(الثالث) : اختلاف وجوه الإعراب .

(الرابع) . الاختلاف بالنقص والزيادة .

(الخامس) : الاختلاف بالتقديم والتأخير .

(السادس) : الاختلاف بالإبدال

(السابع) : اختلاف اللغات « يريد اللهجات » كالفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم ، والإظهار والإدغام ، ونحو ذلك اه ، غيرَ أن النقل كما ترى لم يشفعْ بتمثيل فيما عثرنا .

ويمكن التمثيل للوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء . بقوله سبحانه : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قرىء هكذا : « لِأَمَانَاتِهِمْ » جمعاً وقرىء « لِأَمَانَتِهِمْ » بالإفراد .

ويمكن التمثيل للوجه الثانى وهو اختلاف تصريف الأفعال بقوله سبحانه : « فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » قرئ هكذا بنصب لفظ « ربنا » على أنه منادى وبلفظ « باعدْ » فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام « فعل دعاء » . وقرئ هكذا : « ربُّنا بَعَّدَ » برفع « رب » على أنه مبتدأ وبلفظ « بعد » فعلًا ماضياً مضعف العين جملته خبر .

ويمكن التمثيل للوجه الثالث ، وهو اختلاف وجوه الإعراب ، بقوله سبحانه : « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » قرئ بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن « لا » ناهية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة فى الراء هى فتحة إدغام المثلين . أما الضمّ فعلى أنّ « لا » نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

ومثل هذا المثال ، قوله سبحانه : ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ » قرئ برفع لفظ « المجيد » وجره . فالرفع على أنه نعت لكلمة « ذو » ، والجرّ على أنه نعت لكلمة « العرش » .

فلا فرق فى هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب فى اسم أوفعل كما رأيت .

ويمكن التمثيل للوجه الرابع : وهو الاختلاف بالنقص والزيادة . بقوله سبحانه . « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » قرئ بهذا اللفظ . وقرئ أيضاً « والذكرِ والأنثى » بنقص كلمة « ما خلقَ » .

ويمكن التمثيل للوجه الخامس — وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير — بقوله سبحانه : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

ويمكن التمثيل للوجه السادس — وهو الاختلاف بالإبدال — بقوله سبحانه : « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا » بالزاى وقرئ « نُنْشِرُهَا » بالراء ، وكذلك قوله سبحانه « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » بالحاء ، وقرئ « وَطَلْعٍ » بالعين . فلا فرق فى هذا الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

ويمكن التمثيل للوجه السابع — وهو اختلاف اللهجات — بقوله سبحانه : « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » تقرأ بالفتح والإمالة فى «أتى» ولفظ « موسى » فلا فرق فى هذا

الوجه أيضاً بين الاسم والفعل . والحرفُ مثلهما نحو « بَلَى قَادِرِين » قرئ بالفتح والإمالة فى لفظ « بلى » .

٥ — لماذا اخترنا هذا المذهب

وإنما اخترنا هذا المذهب لأربعة أمور :

(أحدها) : أنه هو الذى تؤيده الأدلة فى الأحاديث العشرة الماضية وما شابهها .

(ثانيها) : أنه هو الراجح فى تلك الموازين التى أقمناها شواهدَ بارزةً من تلك الأحاديث الواردة . فارجع النظر إليها ، ولا داعى لإعادتها . أما المذاهب الأخرى فسترى أن التوفيق أخطأها فى رعاية تلك الأدلة أو بعضها ، وستطيش بين يديك فى موازين هذه الشواهد قليلا أو كثيراً .

(ثالثها) : أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع إليه من الوجوه السبعة ، بخلاف غيره فإن استقراءه ناقص أو فى حكم الناقص . فكلمة « أُف » التى أوصلها الرمانى إلى سبع وثلاثين لغة يمكن ردُّ لغاتها جميعاً إلى هذه الوجوه السبعة ولا تخرج عنها . وكذلك الاختلاف فى اللهجات ـ وهو اختلافٌ شكلىٌّ ـ يردُّ إليها ولا يخرج عنها . بخلاف الآراء الأخرى فإنه يتعذر أو يتعسر الرجوع بالقراءات كلها إليها . وليس من صواب الرأى أن يحصر النبى ﷺ الأحرف التى نزل عليها القرآن فى سبعة ثم نترك نحن طرقاً فى القراءات المروية عنه دون أن نردَّها إلى السبعة ؛ لأن ذلك يلزمه أحد خطرين : فإما أن تكون تلك الطرق المقروء بها غير نازلة ، وإما أن يكون هنا حرف نازل وراء السبعة الأحرف التى نزل عليها القرآن ، ويكون الحصر فى كلام الرسول ﷺ غير صحيح . وكلا هذين خطأ عظيم وإثمٌ كبير .

(رابعها) أن هذا الرأى لا يلزمه محذورٌ من المحذورات الآتية التى يستهدف لها الأقوال الأُخرى ، وسنزجيها إليك قريباً ، فاصبر وما صبرك إلا بالله .

الذين قالوا بهذا المذهب

ولا يعزبن عن بالك أن هذا المذهب قد اختاره فى جملته فحول من العلماء ، وقاربه كلّ القرب مذهبُ الإمام ابن قتيبة ، والمحقق ابن الجزرى ، والقاضى ابن الطيب كما يأتى :

ولا فرق بين آرائهم وبين هذا الرأى إلا اختلاف فى طرق التتبع والاستقصاء ، والتعبير والأداء. وسيظهر لك أن الرازى كان أهدَى منهم سبيلاً ،وأكثر توفيقا حتى لقد ذهب العلامة ابن حجر إلى أن مذهب الرازى هو مذهب ابن قتيبة بعد تنقيحه وتهذيبه، فقال مانصه : « وقد أخذ (أى الرازى) كلام ابن قتيبة ونقحه » اه .

وقد اختار هذا المذهب أيضاً من المتأخرين بعض أعلام المحققين ، كالعلامة المرحوم الشيخ الخضرى الدمياطى والعلامة المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعى . لكن منهم من تغاضى عن الفروق الدقيقة التى بين الرازى ومذاهب أولئك الثلاثة الذين تشاركت آراؤهم فى الجملة ، ومنهم من صرّح بالاتّحاد بين هذه المذاهب جميعاً وما شابهها ، واعتبر الخلاف بينها لفظياً فحسب .

لهذا نرى أن نسوق إليك فى هذا المقام تلك المذاهب الثلاثة أيضاً ، جمعاً بين المتشابهات من ناحية،وتمهيداً لتحقيق الفرق بينها وبين مذهب الرازى من ناحية أُخرى، وزيادةً فى تنوير المذهب المختار وغيره من ناحية ثالثة .

أما ابن قتيبة فيقول :

إن المراد بالأحرف السبعة ، الأوجهُ التى يقع بها التّغايُر :

(فأولها) ماتتغيّر حركته،ولا يزول معناهُ ولا صورتهُ ، مثل « ولا يُضارَّ كاتِبٌ » بفتح الراء وضمها .

(وثانيها) مايتغير بالفعل مثل « بَعِّدْ وَبَاعِدْ » بلفظ الطلب والماضى .

(وثالثها) مايتغير باللفظ مثل « نُنْشِرُهَا وَنُنْشِزُهَا » بالراء المهملة والزاى المعجمة.

(ورابعها) مايتغير بإبدال حرفٍ قريب المخرج مثل « طَلْحٍ مَنْضُودٍ وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » .

(وخامسها) مايتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

(وسادسها) مايتغير بالزيادة والنقصان مثل : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى » بنقص لفظ « مَاخَلَقَ » .

(وسابعها) مايتغير بإبدال كلمةٍ بأُخرى مثل : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ . وكالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ » .

وأما ابن الجزرى فيقول :

قد تتبعت صحيح القراءات وشاذَّها وضعيفها ومنكرها، فإذا هى يرجع اختلافها إلى سبعة أوجهٍ لا يخرج عنها .

١ ــ وذلك إما فى الحركات بلا تغيُّر فى المعنى والصورة نحو « البُخل » بأربعة أوجه « ويحسَب » بوجهين .

٢ ــ أو بتغيُّر فى المعنى فقط نحو « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » . برفع لفظ آدم ونصب لفظ كلمات ، وبالعكس .

٣ ــ وإما فى الحروف بتغيُّر المعنى لا الصورة نحو « تَبْلُو وَتَتْلُو »

٤ ــ وعكس ذلك نحو « بَصْطَةً وَبَسْطَةً » ونحو « الصِّراط والسِّراط » .

٥ ــ أو بتغيُّرهما نحو « فَامْضُوا ، فَاسْعَوْا » .

٦ ـ وإما فى التقديم والتأخير نحو « فَيَقْتُلُونَ ، وَيُقْتَلُونَ » بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل فى إحدى الكلمتين ، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول فى الكلمة الأخرى .

٧ ـ أو فى الزيادة والنقصان نحو « أوصَى ، ووصَّى »

فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها .

وأما القاضى ابن الطيب فيقول فيما يحكيه القرطبى عنه :

تدبَّرت وجوه الاختلافات فى القراءة فوجدتها سبعاً :

١ ـ منها ماتتغيَّر حركته ولا يزول معناه ولا صورته . مثل « هُنَّ أَطْهَرْ لَكُمْ ، وَأَطْهَرُ » أى بإسكان الراء وضمها « وَيَضِيقْ صَدْرِى ، وَيَضِيقُ صَدْرِى » أى بإسكان القاف وضمها .

٢ ـ ومنها مالا تتغيَّر صورته ، ويتغيَّر معناه بالإعراب مثل « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَبَاعَدَ » أى بصيغة الماضى والطلب :

٣ ـ ومنها ماتبقى صورته ، ويتغيَّر معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله « نُنْشِرُهَا ، وَنُنْشِزُهَا » أى بالراء وبالزاى .

٤ ـ ومنها ماتتغيَّر صورته ويبقى معناه ، مثل « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ، وكالصُّوف المنفوش » .

٥ ـ ومنها مايتغيَّر صورته ومعناه مثل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » .

٦ ـ ومنها التقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

٧ ـ ومنها الزيادة والنقصان نحو : « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً . وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى » أى بزيادة لفظ أنثى .

٦ — النسبة بين هـــذه المذاهب

ومذهب الرازى

ويذهب بعض الجهابذة إلى القول بالاتحاد بين هـذه المذاهب الثلاثة ومذهب الرازى ، بل بينها جميعاً وبين مايشابهها ، ويجعل الخلاف بينها كلها لفظياً لا حقيقياً. وذلك تكلُّفٌ بعيدٌ فيما أرى ، لأننا نلاحظ وجهاً كاملاً فى كلام الرازىّ ، لم يُنَوِّه به واحدٌ من أولئك الثلاثة . فهو فضلًا عن أنه أدمج وجوههم السبعة فى وجوهٍ ستة بطريقته الدقيقة ، نجده قد عقد الوجه السابع لاختلاف اللهجات ، كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم ونحو ذلك .

على حين أننا مارأينا واحداً من أولئك الأعلام الثلاثة عرض لهذا النوع من الاختلاف. بل وجدنا فى كلامهم ماجعلهم يهملون هذا الوجه عن قصد وعمد .

فهذا ابن قتيبة يقول :

« وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام . والروم والإشمام ، والتخفيف والتسهيل ونحو ذلك ، فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوَّع فى اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة فى أَدائه ، لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً » اهـ .

ولكنى أرى أن هذا العذر الذى قدَّمه ابن قتيبة لإهمال هذا الوجه ، لا يُسَوِّغ ذلك الإهمال . فإن المسألة ليست مسأله أسماء وعناوين يترتب عليها أن اختلاف اللهجات فى اللفظ الواحد تخرجه عن أن يكون واحداً أو لا تخرجه ، بل المسألة مسألة رعاية أمرٍ واقعٍ تختلف به القراءات فعلًا ويمكن أن يكون مثار النزاع السابق الذى دبَّ بين الصحابة فى اختلاف القراءات ، كما يمكن أن يكون أيضاً مثاراً للنزاع فى كل عصر ومصر بين القراء ، إذا لم يعلموا أن الجميع من عِداد الحروف السبعة التى نزل عليها القرآن . وذلك لأن تحريف القرآن

يحرم بما يَمَسُّ صورته وطريق أدائه وكيفية لهجاته، كما يحرم بما يَمَسُّ جرهره وتغيير حروفه وكلماته وحركاته وترتيبه .

أمر آخر : هو أن التيسير على الأمّة ـ وهى الحكمة البارزة فى نزول القرآن على سبعة أحرف ـ لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذى نوّه به الرازى ؛ وهو اختلاف اللهجات . بل هذا قد يكون أولى بالحسبان وأحرى بالرعاية فى باب التخفيف والتيسير ؛ لأنه قد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لغته فى جوهرها ، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لغته نفسها بلهجة غير لهجته ، وطريقة فى الأداء غير طريقته. ذلك لأن الترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، والإظهار والإدغام ؛ والفتح والإمالة ، ونحوها ، ماهى إلا أمورٌ دقيقة ، وكيفياتٌ مُكْتَنَفَةٌ بشىء من الغموض والعسر فى النطق على من لم يتعوّدها ولم ينشأ عليها.

واختلاف القبائل العربية فيما مضى ، كان يدور على اللهجات فى كثير من الحالات. وكذلك اختلاف الشعوب الإسلامية وأقاليم الشعب الواحد منها الآن ، يدور فى كثير من الحالات أيضاً على اختلاف اللهجات .

وإذن فتخفيف الله على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يتحقق إلا بملاحظة الاختلاف فى هـذه اللهجات . حتى إن بعض العلماء جعل الوجوه السبعة منحصرة فى اللهجات لا غير ، كما يأتى .

قال الإمام ابن قتيبة نفسه فى كتاب المشكل مانصُّه : ـ « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيَّه ﷺ أن يُقرِئَ كل أمة (لعله يريد بالأمّة القبيلة) بلغتهم ، وما جرت به عادتهم ، فالهُذَلِىُّ يقرأ « عَتَّى حــين » يريد (حَتَّى حينٍ) هكذا يلفظ بها ويستعملها (أى يقلب الحاء عيناً فى النطق) . والأسدى يقرأ « يِعْلَمُونَ ، وَنِعْلَمُ ، وَتِسْوَدُّ وُجُوهٌ ، أَلَمْ إِعْهَدْ » بكسر حروف المضارعة فى ذلك كله ، والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز . والآخر يقرأ « قِيـلَ لَهُمْ ، وَغِيضَ الْمَاءُ » بإشمام الضم مع الكسر

و « بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » بإشمام الكسر مع الضم . و « مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا » بإشمام الضم مع الإدغام .

ثم قال ابن قتيبة أيضاً : « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده ، طفلاً ويافعاً وكهلاً ، لاشتدَّ ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولا يمكن إلا بعد رياضةٍ للنفس طويلة ، وتذليلٍ للسان ، وقطع للعادة . فأراد الله برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم مُتَّسعاً في اللغات ، وَمُتَصَرَّفاً في الحركات ، كتيسيره عليهم في الدين » اهـ .

فأنت تراه قد اعتبر اللهجات وطرق الأداء صراحةً في هذه الكلمات .

وكذلك نجد العلامة ابن الجزرى ، يعترف بهذا الاختلاف في اللهجات ، ويقول ما نصُّه : — وهذا يقرأ « عَلَيْهُمْ ، وَفِيهُمْ » بضم الهاء ، والآخر يقرأ « عَلَيْهِمُو ، وَمِنْهُمُو » بالصلة . وهذا يقرأ « قَدَ أفْلَحَ ، وَقُلُ أُوحِيَ ، وَإِذَا خَلَوا اَلَى شَيَاطِينِهِمْ » بالنقل ، والآخر يقرأ « مُوسَى ، وَعِيسَى » بالإمالة . وغيره يُلَطِّفُ . وهذا يقرأ « خبيراً بصيراً » بترقيق الراء ، والآخر يقرأ « الصَّلاة ، والطَّلاق » بالتفخيم ، إلى غير ذلك » اهـ .

ولكن من العجب العاجب أن هذين الإمامين الجليلين ، اَللَّذَيْنَ اعترفا صراحة باختلاف اللهجات وطرق الأداء على هذا الوجه ، فاتهما أن ينظماه في سلك الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأُمة . والعصمة لله وحده .

فالأحقُّ والأدقُّ ماذهب إليه الرازى ! .

ولعل هذه الدقة ، وهذا الشمول الذى وُفِّق إليه الرازى في الوجوه السبعة هو التنقيح الذى نوَّه به ابن حجر ، إذ قال . « وقد أخذ (أى الرازى) كلام ابن قتيبة ونقَّحه » . وليس معناه الاتحاد بينهما ، لما علمت من وضوح الفرق ؛ وأن كلام الرازى أعمُّ من كلام أولئك الثلاثة عموماً مطلقاً .

٧ — دفع الاعتراضات الواردة على هذا المذهب

اعترض على هذا المذهب وماقاربه من مذهب ابن قتيبة وابن الجزرى وابن الطيب بجملة اعتراضات نقدِّمها إليك ، ثم نفنِّدها بين يديك ، فيما يأتى :

« الاعتراض الأول » يقولون : إن هذا القول مع اختلاف قائليه فى بيانه ، لم يذكر واحد منهم دليلاً إلا أنه تتبَّع وجوه الاختلاف فى القراءة ، فوجدها لاتخرج عن سبعة . وهذا لاينهض دليلاً لأىِّ واحدٍ منهم على أنَّ المراد بالأحرف السبعة الأوجهُ التى تختلف فيها القراءة .

ونجيب أولا : بأن هــذا المذهب الذى اخترناه لم نختلف ولم نتردَّد فى بيــانه . ثانياً : أنا أيَّدْناهُ بعدَّة أدلَّة لابدليل واحد . ثالثاً : أنا لانسلم كون تتبُّع وجوه الاختلاف فى القراءة لايصلح دليلاً لبيان الأحرف السبعة بهذه الوجوه السبعة . كيف ؟ والاستقراء التام دليلٌ من جملة الأدلة التى يحترمها المنطق القديم والمنطق الحديث ، مادام مستوفيـاً لشروطه الثلاثة التى أولها أن تـكون القضية الاستقرائية متضمنة حكماً حقيقياً ، وثانيها أن تـكون كلية حقيقية أى موضوعها كلياً حقيقياً صادقاً على ماوجد من أفراده فيما مضى ، وماهو موجود فى الحال ، وما يمكن أن يوجد فى المستقبل . وثالثها أن يكون الوصول إلى القضية الاستقرائية بواسطة الملاحظة والتجربة .

ولا ريب أن الوجــوه السبعة التى ذكرها أبو الفضل الرازى تحقق فى استقرائهـا الشروط الثلاثة ، لأن الرازى لاحظ كل وجوه الاختلاف فوجــدها لاتخرج عن هذه السبعة ، ثم أصدر بعد هــذا الاستقراء التام حكماً حقيقياً بأنه لامعنى لهــذه الأحرف السبعة فى الحديث الشريف سوى تلك الأوجه السبعة . وهو حُكْمٌ يقوم على قضيةٍ كلّيَّة سالبة كما ترى .

« الاعتراض الثانى » يقولون : إن طريق تتبُّع أبى الفضل الرازى ، وابن قتيبة ، وابن الجزرىّ ، وابن الطيب ، يخالف بعضها بعضاً . وهذا يدلُّ على أنه يمكن الزيادة على سبعة وجوه .

ونجيب : بأن مجرد الاختلاف فى طرق استقراء هؤلاء الأئمة لايلزم منه إمكان الزيادة على سبعة فى مذهب كل منهم . إنما يلزم ذلك من كان استقراؤه ناقصاً دون من كان استقراؤه تاماً . وقد أثبتنا أمامك أن استقراء الرازى تامٌّ مستوفٍ لجميع شروط الإنتاج . ولا يضيره أن يسلك فى طريقة استقرائه سبيلاً لم يسلكها مخالفوه ، فلكل إنسان أن يختار فى استقرائه ماشاء من الطرق التى يراها أصوب وأقرب ، مادام ملتزماً لشرائط إنتاجه . وإذا كان غيره قد وقع فى نقصٍ من تتبُّعه واستقصائه ، فلا يضير ذلك مذهب الرازى القائم على الاستقراء التام فى قليلٍ ولا كثير . « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

« الاعتراض الثالث » يقولون : إنك قد علمت أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان الغرض منها الرخصة ، وأكثر الأمة يومئذ أُمِّىٌّ لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها فحسب ، والرخصة ليست ظاهرة فى قراءة الفعل المبنى للمجهول أو للمعلوم ، أو فى إبدال حركة بأخرى ؛ أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير ، فإن القراءة بأحدها لاتوجب مشقةً ، يسأل النبى صلى الله عليه وسلم المعافاة منها ويقول : « إن الأُمَّةَ لا تُطِيقُ ذلكَ » ، ويطلب التيسير على الأمة بإبدال حرف أو تغيير فعل من المضىِّ إلى الأمر ، أو من البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول هذا لاتفيده الروايات السابقة ولا تدلُّ عليه .

ونجيب : بأنا لانسلم خفاء الرخصة فى قراءة الفعل المبنى للمجهول أو للمعلوم أو فى إبدال حركة بأخرى ، أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير . كيف ؟ والرخصة فى ذلك ظاهرة أيضاً . بل هى ظاهرة فيما كان دونها وهو اختلاف اللهجات مع بقاء الكلمة ، والحرف ،

والحركة ، والترتيب بين الكلمات والحروف. وهذا نشاهده نحن ونحسُّه فى تيسُّر أو تعسُّر بعض صفات الحروف على بعض الناس فى النطق ، دون صفات أُخرى . فالبعض يسهل عليه التفخيم دون الترقيق ، أو الفتحة دون الإمالة ، أو الإظهار دون الإدغام ، والبعض يصعب عليه ذلك ويسهل عكسه. فكيف إذا تغيَّرت الكلمات أو الحروف أو الحركات أو الترتيب ؟ .

« الاعتراض الرابع » يقولون : إنه لا يُتَصَوَّرُ وجود أوجه الخلاف فى القراءات المذكورة فى كلمة واحدة ، حتى يكون ذلك تيسيراً وتخييراً كما تقدم . وإن أرادوا أن ذلك متفرقٌ فى القرآن جميعه كالقائل باللغات السبع المتفرقة فى القرآن لم يكن ثَمَّةَ رُخْصَةٌ ولا اختلافٌ بين الصحابة .

ونجيب : بأن هذا الاعتراض مَبْنِيٌّ من أساسه على غفلة عن حقيقة هذا المذهب المختار وأشباهه ، لأنه عبارة عن وجود سبعة إليها ترجع جميع الاختلافات فى القراءة دون أن تلتزم هذه الوجوه السبعة فى الكلمة الواحدة ، ودون أن يقال إنها موزَّعةٌ أشتاتاً على أبعاض القرآن . وإذاً فالرخصةُ متحققةٌ ، بل لا تتحقق على الوجه الأكمل إلا بهذا القول . وماذا عسى أن يبقى من التيسير والتخفيف وقد جمعت هذه الوجوهُ كلَّ اختلاف فى القراءات متواترها وصحيحها وضعيفها وشاذِّها بكل طريق من طرق الاختلاف حتى ولو كان فى اللهجات ، ولو وصلت لغات الكلمة إلى سبع وثلاثين ، كما أسلفنا فى كلمة « أف » حكاية عن الرمانى .

« الاعتراض الخامس » يقولون: إن الرخصة قد وقعت ، وأكثرهم يومئذ لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها .

وأجيب باحتمال أن يكون الانحصار المذكور وقع اتفاقاً ، وإنما اُطُّلِعَ عليه بالاستقراء .

والأَقْعَدُ من هذا فى الجواب أن يقال : إن الانحصار المذكور عُرف بطريق الاستقراء التام ، وهو دليل من الأدلة القاطعة كما تقدّم الكلام عليه جواباً عن اعتراضٍ سابق . وكون الرخصة وقعت وأكثرهم أميون ، لا يقدح فى بيان الحروف السبعة المذكورة ، لأن الحاجة لم تكن ماسّة إلى تحديد معنى الأحرف السبعة بهذا الوصف العنوانى التى اعتبرت به تلك الوجوه سبعة فحسبهم أن يعلموا أن وجوه الاختلاف بينهم سبعة وجوه ، ولا يضيرهم ألّا يستطيعوا الْعَنْوَنَةَ عنها بما نُعَنْوِنُ نحن ، ما داموا يعرفون السبعة تطبيقاً فى جميع مفردات القرآن ، وما داموا يُعَوِّلُونَ فى القراءة على تلقّيهم عن رسول الله ﷺ الذى يؤمنون بأنه لا يغادر فى إبلاغ القرآن وجهاً من وجوهه السبعة . ونظير ذلك أنهم كانوا لا يعرفون تلك العناوين والأسماء والقوانين التى تتّصِلُ بالإعراب والبناء، ولكنهم كانوا يعرفون أكثر منا كيف ينطقون نطقاً صحيحاً فصيحاً منطبقاً عليه ماعرفنا نحن بعدُ من تلك الأسماء والقواعد المتصلة بالإعراب والبناء .

٨ — بقاء الأحرف السبعة فى المصاحف

ننتقل بك إلى نقطة أخرى : هل الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم لها وجودٌ فى المصاحف العثمانية .

ذهب جماعة من الفقهاء والقرّاء والمتكلمين إلى أنّ جميع هذه الأحرف موجودةٌ بالمصاحف العثمانية .

واحتجوا بأنه لا يجوز للأُمة أن تهمل نقل شيء منها ، وأن الصحابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التى كتبها أبو بكر ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك . ومعنى هذا أن الصحف التى كانت عند أبى بكر جمعت الأحرف السبعة ، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك .

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط ، جامعة للعرضة الأخيرة التى عرضها النبى ﷺ على جبريل متضمنة لها .

وذهب ابن جرير الطبرى ومن لفَّ لفّه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة ، وتأثروا فى هذا الرأى بمذهبهم فى معنى الحروف السبعة ، وما التزموه فيه من أن هذه السبعة كانت فى صدر الإسلام أيام الرسول ﷺ ، وخلافة أبى بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان . ثم رأت الأمة بقيادة عثمان أن تقتصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين فأخذت به وأهملت كلَّ ما عداه من الأحرف الستة ، ونسخ عثمان المصاحف بهذا الحرف الذى استبقته الأمة وحده . وسيأتى بيان هذا المذهب وما ورد عليه من توهين .

والتحقيق أن القول باشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها، يتوقف على أمرين : أحدهما تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وثانيهما الرجوع إلى ماهو مكتوبٌ وماثلٌ بتلك المصاحف فى الواقع ونفس الأمر .

ولقد أسلفنا لك ما اخترناه فى تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وأنها الأوجه التى يرجع إليها كل اختلافٍ فى القراءات ، سواء منها ما كان صحيحاً وشاذًّا ومنكراً وأنها تنحصر فى سبعة على ماذكره الرازى الذى حالفه التوفيق فى الدقّة والاستقراء التام .

ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها فى الواقع ونفس الأمر ، نخرج بهذه الحقيقة التى لا تقبل النقض ، ونصل إلى فصل الخطاب فى هذا الباب ، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على مايوافق رسمه من هذه الأحرف كلًّا أو بعضاً ، بحيث لم تخلُ المصاحفُ فى مجموعها عن حرفٍ منها رأساً .

ولنبين ذلك فى المذهب الذى اخترناه :

أما الوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء إفراداً وجمعاً الخ نحو قوله سبحانه «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ» المقروءة بجمع الأمانة وإفرادها ، فقد اشتمل عليهما المصحف إذ كان الرسم العثمانى فيه هكذا :

« لأمنتهم » برسم المفرد فى الحروف ولكن عليها ألف صغيرة لتشير إلى قراءة الجمع وغير منقوطة ولا مشكولة .

وأما الوجه الثانى وهو اختلاف تصريف الأفعال نحو قوله سبحانه « يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ » المقروءة بكسر الكاف وضمها فى الفعل ، فقد وافقت كلتا القراءتين رسم

المصحف العثمانى أيضاً ، لأن هيكل الفعل واحد فى الخط لا يتغير فى كلتا القراءتين ، والمصحفُ العثمانى لم يكن معجماً ولا مشكولاً .

وأما الوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب كقراءة « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ » بفتح الراء وضمها ، فإن الرسم يحتملهما كالوجه السابق ، وهو واضح .

وأما الوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة ، فمنه ما يوافق الرسم فى بعض المصاحف نحو قوله سبحانه فى سورة التوبة : « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ » وقرىء « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » بزيادة لفظ « منْ » وهما قراءتان متواترتان وقد وافقت كلتاهما رسم المصحف ، بيدَ أن ذات الزيادة توافق رسم المصحف المكى لأن لفظ « منْ » ثابتة فيه . أما حذفها فإنه يوافق رسم غير المصحف المكى حيث لم تثبت فيه ، أى فى غير المصحف المكى . ومن هذا الوجه ما لا يوافق رسم المصحف بحال من الأحوال نحو قوله سبحانه : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » وقرأ ابن عباس هكذا « يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا » بزيادة كلمة « صَالِحَةٍ » فإن هذه الكلمة لم تثبت فى مصحف من المصاحف العثمانية ، فهى مخالفة لخط المصحف ، وذلك لأن هذه القراءة وما شاكلها منسوخةٌ بالعرضة الأخيرة أى عرض القرآن من النبىِّ صلى الله عليه وسلم على جبريل آخر حياته الشريفة . ويدلُّ على هذ النسخ إجماع الأُمة على ما فى المصاحف. فتلخص مما ذكرنا أن بعض هذا الوجه الرابع اشتملت عليه المصاحف ، وبعضه لم تشتمل عليه ، لأنه نُسخ .

وأما الوجه الخامس : وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، فهو مثل سابقه . منه ماهو موافق لرسم المصحف نحو قوله سبحانه فى سورة التوبة : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا » قرئَ الفعل بالبناء الفاعل فى الأول ، وللمفعول فى الثانى ، وقرئَ بالعكس ، وهما قراءتان متواترتان ، ولا يخالف شيء منهما رسم المصحف . ومنه ماخالف رسم المصحف

نحو قوله سبحانه « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِٱلْمَوْتِ » فإن هذه القراءة الثانية لا يحتملها رسم المصحف وإن كانت منقولة عن أبي بكر الصديق ، وطلحة بن مطرف ، وزين العابدين (رضى الله عنهم) لكنها لم تتواتر ، فهى منسوخة بالعرضة الأخيرة ، وبإجماع الصحابة على المصحف العثمانى ، فلا يجوز القراءة بها بخلاف القراءة الأولى لأنها وافقت خط المصحف ، واستقرَّت القراءة بها دون نسخ . ومثل ذلك قوله سبحانه : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ » وقرئ « إذا جَاءَ فَتْحُ ٱللَّهِ وَٱلنصْرُ » فالأولى هى التى وافقت الرسم . والثانية لم توافقه فهى منسوخة أيضاً لما ذكرنا .

وأما الوجه السادس : وهو الاختلاف بالإبدال ، فقد وافق بعضه رسم المصحف ، وخالفه البعض أيضاً . مثال ما وافق الرسم قوله سبحانه : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » وقرئ « فَتَثَبَّتُوا » وهما قراءتان متواترتان . وتوافق كلتاهما رسم المصحف . ومثال الثانى قراءة « إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ » وقراءة « وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالصُّوفِ ٱلْمَنْفُوشِ » فإنهما مخالفتان لرسم المصحف . وذلك لنسخهما بالعرضة الأخيرة أيضاً ، واستقرار الأمر على ما وافق الرسم منه ، وهو قراءة « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ » وقراءة « كَالْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ » :

وأما الوجه السابع ، وهو الاختلاف بسبب تباين اللهجات فيوافق رسم المصحف موافقة تامة . لأنه اختلافٌ شكلى لا يترتب عليه تغيير جوهر الكلمة ، وهو ظاهر . وتجد شواهد كثيرةً فى خط المصحف تدلُّ على بعض هذا النوع من الاختلاف نحو « وَهَلْ أَتيكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ » فإنها رسمت هكذا بياء فى الفعل بعد التاء ، وبقلب ألف موسى ياء ، ومن غير شكلٍ ولا إعجام .

٩ — الأقوال الأخرى ودفعها

وهاك معرضاً عاماً تشهد فيه الآراء الأخرى بما لها وما عليها . رأينا من واجبنا أن نسوقها إليك ثم نوهنها بين يديك ؛ كيلا يكون منها حجر عثرة فى طريقك إلى ما اخترناه وأيدناه .

القول الأول

إن هذا الحديث مشكل لا سبيل إلى معرفة معناه المقصود. وشبهته أن لفظ «أحرف» فيه ، جمع حرف . والحرف مشترك لفظى بين معان كثيرة. والمشترك اللفظى لا يدرى أىُّ معانيه هو المقصود ؟ .

ويدفع هذا الرأى بأنا لا نسلم ماقاله على إطلاقه من أن المشترك اللفظى لا يدرى أىُّ معانيه هو المقصود ؟ بل المشترك اللفظى يدلُّ على معناه المقصود متى قامت قرينة تعين ذلك المعنى ، تقول: نظرت بالعين المجردة ، وشربت من عين زبيدة، ومعناهما واضحٌ غير مشكل ، مع أن لفظ العين فيهما مشتركٌ لفظى ، ولكن مدلوله يتعين فى المثال الأول أن يكون جارحةَ الإنسان الباصرة ، ومدلوله فى المثال الثانى يتعين أن يكون نابعة الماء الجارية وذلك بقرينة لفظ نظرت فى المعنى الأول ، ولفظ شربت فى الثانى .

وعلى هذا الباب جاء لفظ « أحرف » فى الحديث الشريف ، فإن سياق الروايات السابقة ، يدلُّ على أن المراد بالحرف معنى من معانيه السابقة على التعيين وهو الوجه ، وأن الأحرف هى الأوجه التى يرجع إليها الاختلاف فى قراءة ألفاظ القرآن لا معانيه . وقد قام الدليل العقلىُّ وهو الاستقراء التامُّ على أن هذه الوجوه سبعة كما أسلفنا فإياك أن تنسى ، وتذكَّرْ الشاهد الثامن إن نفعت الذكرى .

القول الثانى

وإليه جنح القاضى عياض ومن تبعه : ـ أن لفظ السبعة فى الحديث الشريف ليس مراداً به حقيقةَ العدد المعروف ، إنما هو كناية عن الكثرة فى الآحاد ، كما أن السبعين تستعمل كناية عن الكثرة فى العشرات ، وكما أن السبعمائة تستعمل كناية عن الكثرة فى المئات .

ويدفع هذا بما قدّمناه فى الشاهد الثانى . فارجع إليه ، واحرص عليه .

القول الثالث والرابع

أن المراد بالأحرف السبعة سبعُ قراءات . ويدفع بأنه إذا كان المراد بهذا أن كل كلمة من كلمات القرآن تقرأ سبع قراءات ، فذلك ممنوع ، لأنه لا يوجد فى القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل . وإذا كان المراد أن غاية ماينتهى إليه عدد القراءات فى الكلمة الواحدة سبعة أحرف فهذا يصحُّ أن يكون (قولًا رابعاً) كما قال السبكى ، ثم هو غير مسلم أيضاً ، لأن فى كلمات القرآن مايقرأ بطرق أكثر كما ورد أن كلمة « عَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ » تقرأ باثنين وعشرين وجهاً . وأن كلمة « أُفٍّ » فيها سبع وثلاثون لغة . وإذا كان المراد أن الاختلاف فى القراءات لا يخرج عن سبعة أوجه فعلى صاحب هذا القول البيان ، فإذا بيّنها بالوجوه التى ذكرناها كان هذا القول متداخلاً معها ، فلا يستقيم اعتباره قولًا مستقلاً برأسه. وبعض أكابر العلماء حاول أن يجعله متحداً مع القول الذى اخترناه وما أشبهه ، ولكنك قد علمت مافيه .

القول الخامس والسادس والسابع

مانقلناه آنفاً عن ابن قتيبة ، وعن ابن الجزرى ، وعن ابن الطيب . وقد بان لك

هناك أن فى ثلاثتها قصوراً عن أن تشمل جميع القراءات المتواترة، وإن كانت قريبة من القول المختار . ثم بينها تداخلٌ يتعذر أو يتعسر معه اعتبارها أقوالاً مستقلة .

القول الثامن

أن المراد بالأحرف السبعة وجوهٌ ترجع إلى كيفيّة النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار، وتفخيم وترقيق ، وإمالة وإشباع ، ومد وقصر ، وتشديد وتخفيف وتليين .

وهو مدفوعٌ بأنه قد زاد فيما عدّه على سبعة . وإذا أجاب بأن السبعة غيرُ مراد بها حقيقتها وأنها مثل فى الكثرة فقد علمتَ ما فيه . ثم إن الأوجه التى ذكرها واحداً واحداً ترجع كلها إلى نوع واحد هو اختلاف اللهجات وكيفيات النطق وحدها ، فلا تشمل القراءات التى ترجع إلى اختلاف نفس الألفاظ بالإبدال أو التقديم والتأخير ، أو النقص والزيادة ، ونحو ذلك . وفى هذا القصور ما فيه ، على أكثر مما أسلفنا فى ردّ تلك الآراء القاصرة .

القول التاسع

وهو أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة فى كلمة واحدة ومعنى واحد ، وإن شئت فقل : سبع لغاتٍ من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحدة ومعنى واحد ، نحو هلمَّ ، وأقبلْ ، وتعالَ ، وعجلْ ، وأسرعْ ، وقصدى ، ونحوى . فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد هو طلب الإقبال . وهذا القول منسوبٌ لجمهور أهل الفقه والحديث منهم سفيان ، وابن وهب ، وابن جرير الطبرى ، والطحاوى . وحجتهم ما جاء فى حديث أبى بكرة من قوله ﷺ « كلها شافٍ كافٍ ما لمْ تختمْ آيةُ عذابٍ برحمةٍ ولا آيةُ رحمةٍ بعذابٍ ، نحو قولك : تعالَ وأقبل وهلمَّ ، واذهبْ ، وأسرعْ . وعجلْ » . وما جاء فى حديث أبىّ بن كعب أنه كان يقرأ « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ،

مَرُّوا فِيهِ ، سَعَوْا فِيهِ » وما جاء عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا ، أَمْهِلُونَا ، أَخِّرُونَا » .

ويدفع هذا القول بوجوه : (أحدها) أن ما ذكر فى هذه الأحاديث ليس من قبيل حصر الأحرف السبعة فيها وفى نوعها وحده حتى يصح الاستدلال بها على ما ذهبوا إليه ، بل هو — كما قال ابن عبد البر — من قبيل ضرب المثل للحروف التى نزل القرآن عليها ، وأنها معانٍ متفقٌ مفهومها ، مختلفٌ مسموعها ، لا يكون فى شىء منها معنى وضدُّه .

وكيف يكون المراد حصر الأحرف السبعة ، فيما ذكروه ؟ على حين أنه يرجع إلى بعض نوع واحد من أنواع الاختلاف ، وهو إبدال كلمة بأخرى أعمّ من أن يكون بمرادفٍ أو غير مرادف . ولا ريب أن مذهبهم المذكور يتلخص فى أنه إبدال كلمة بأخرى على شرط الترادف . وهذا بعض ذاك . فأين يذهبون بتلك الوجوه الأخرى وهى باقية إلى اليوم فى القراءات المتواترة المكتوبة بين دفتى المصحف على ما بيناه فى المذهب المختار . فقصر الحروف السبعة على بعض ذلك النوع وحده ، فيه ما فيه من القصور الذى أوردنا عليه ما أوردنا فى الأقوال السابقة القاصرة ، بل القصور هنا أشدُّ وأفحش ، لأنه يرجع إلى بعض نوعٍ واحدٍ لا إلى نوعٍ كامل ، بلهَ أنواعٍ متعدِّدة ! .

(ثانيها) أن أصحاب هذا المذهب — على جلالة قدرهم ، ونباهة شأنهم — قد وضعوا أنفسهم فى مأزقٍ ضيقٍ ، لأن ترويجهم لمذهبهم ، اضطرهم إلى أن يتورَّطوا فى أمور خطرها عظيم ، إذ قالوا إن الباقى الآن حرفٌ واحد من السبعة التى نزل عليها القرآن . أما الستة الأخرى فقد ذهبت ولم يعد لها وجود ألبتة . ونسوا أو تناسوا تلك الوجوه المتنوعة القائمة فى القرآن على جبهة الدهر إلى اليوم . ثم حاولوا أن يؤيِّدوا ذلك فلم يستطيعوا

أن يثبتوا للأحرف الستة التي يقولون بضياعها نسخاً ولا رفعاً ، وأسلمهم هذا العجز إلى وَرْطَةٍ أُخْرى ، هي دعْوَى إجماع الأمة على أن تَثْبُتَ على حرف واحد ، وأن تَرْفُضَ القراءة بجميع ماعداه من الأحرف الستة . وأنَّى يكونُ لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه ؟ هنالك احتالوا على إثباته بوَرْطَةٍ ثالثة ، وهى القول بأن استنساخ المصاحف فى زمن عثمان رضى الله عنه كان إجماعاً من الأمة على تركِ الحروف الستة والاقتصار على حرف واحد هو الذى نَسَخَ عثمانُ المصاحفَ عليه ، مع أننا أثبتنا لك فيما مَرَّ بقاءَ الأحرف السبعة فى المصاحف العثمانية حرفاً حرفاً ، ومثَّلْنا لذلك . وقُصَارَى ما استطاعوا أن يُسوِّغوا به مذهبهم وتورُّطاتهم هذه ، أن الأمة على عهد عثمان رضى الله عنه قد اختلفت فى قراءات القرآن إلى حَدٍّ جعلهم يتنازعون ويترامَوْن بتكفير بعضهم بعضاً ، حتى خِيفَتِ الفتنة ، فرأى الصحابة بقيادة خليفتهم الحكيم عثمان رضى الله عنه أن يُعالجوا المشكلة ، ويُطْفِئُوا الفتنة ، بهذه الطريقة ، من جمع الناس على حرف واحد ، ونسخ المصاحف على حرف واحد ، وإهمال كل ماعداه من الحروف والمصاحف المنسوخة عليها .

وهذا — لعمرك — استنادٌ مائِل ، واحتجاجٌ باطل . فقد تنازع الناس على عهد الرسول ﷺ أيضاً فى قراءات القرآن على حروف مختلفة ، كما رأيت فى الروايات السابقة ، ومع ذلك أقرَّهم الرسول على هذه الحروف المختلفة ، وقرَّرَهَا فيهم ، وحملهم على التسليم بها فى أساليب متنوِّعة . وجعل ذلك هو الحلَّ الوحيد لمشكلتهم ، والعلاج الناجع لنزاعهم . وأفهمهم أن تعدُّد وجوه القراءة إنما هو رحمةٌ من الله بهم ، بل بالأمة كلها . وقرَّر فى صراحة وهو يَسْأَل مولاه المزيدَ من عدد الحروف أنَّ الأمة لاتُطيقُ حصرها فى مَضِيق حرف واحد ، وقال : « وإنَّ أُمَّتى لاتُطِيقُ ذلكَ » إلى آخر ماعرفت . وأنت خبير بأن أمة محمد ﷺ باقيةٌ إلى يوم القيامة . وهى لاتطيق ذلك كما قرَّر رسولُها المعصوم الرحيم صلوات الله وسلامه عليه . كما نشاهد نحن الآنَ من أن بعض الألسنة فى بعض الشعوب الإسلامية ، لايتيسَّر لها أن تُحسن النطق ببعض الحروف ولا ببعض اللَّهجات دون بعض .

فكيف يسوغ للصحابة وهم خير القرون ، أن يُغلقوا باب الرحمة والتخفيف الذى فتحه الله لأُمة الإسلام ، مخالفين فى ذلك هَدْىَ الرسول عليه الصلاة والسلام فى عمله للتخفيف بطلب تعدُّد الحروف ، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدُّد للحروف ؟

ألا إن هذه ثُغْرَةٌ لا يمكن سدُّها ، وثُلْمَةٌ يصعب جبرها ، وإلا فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة حروف نزل عليها القرآن ، دون أن يُبْقُوا عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع ؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرَّر بقوله وفعله ، أنه لا يجوز لأحد أيًّا كان ، أن يمنع أحداً أيًّا كان ، من القراءة بحرف من السبعة أيًّا كان . فقد صَوَّب قراءة كلٍّ من المختلفين ، وقال لكلٍّ « هَـكَذَا أُنْزِلَتْ » وضرب فى صَدْر أُبَىٍّ بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف فى القراءة . إلى آخر ما شرحنا فى الشاهدين الثالث والخامس من الشواهد الماضية .

وقُصارَى القول ، أننا نَرْبَأ بأصحاب رسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكَّروا ، فضلاً عن أن يتآمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها . وحاشا عثمان رضى الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وتزعَّمه ! .

وكيف ينسب إليه هذا ؟ والمعروف أنه نسخ المصاحف من الصحف التى جمعت على عهد أبى بكر رضى الله عنه قبل أن يدبَّ النزاع فى أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة فى القرآن . فكانت تلك الصحف محتملةً للأَحرف السبعة جميعاً ، وموافقةً لها جميعاً ، ضرورةَ أنه لم يحدثْ وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد فى رأيهم . ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبى بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة حروف ولو كان ذلك لَنُقِلَ إلينا متواتراً ؛ لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله تواتُراً .

ثم كيف يفعل عثمان رضى الله عنه ذلك وهو الذى عرف أن علاج الرسول لمثل هذا

النوع الذى دبّ فى زمانه ، كان بجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة ، لا بمنعهم عنها كلاً ولا بعضاً .

ثم كيف يفعل عثمان ذلك ، وتوافقه الأُمة ، ويتم الإجماع ؟ ثم يكون خلافٌ فى معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع ؟ أى كيف تُجمِع الأمةُ على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء فى معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً ، ويكادون يتفقون — رغم خلافهم هذا — على أن الأحرف السبعة باقية ، مع أن الإجماع حجةٌ عند المسلمين ، وبه ينجلى ظلامُ الشكِّ عن وجه اليقين !!.

ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين فى أقطار الأرض أيامَ خلافة عثمان رضى الله عنه ، قضى عليه أن يَجمع المسلمين على حرف واحد فى القراءة ، فلماذا لم تسمح نفسُه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة ، مع أن الضرورة تُقَدَّر بقدرها ، وهذه الستة الأحرف لم تنسخ لا تلاوةً ولا حكماً حتى تذهب بجرَّة قلمٍ كذلك ، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده فى أعظم مرجع ، وأقدس كتاب ، وهو القرآن الكريم . على حين أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، حفظوا للتاريخ آيات نسخت تلاوتها ونسخت أحكامها جميعاً . وعلى حين أنهم حفظوا قراءاتٍ شاذة فى القرآن ، ثم نُقلت إلينا ، وكُتِبَ لها الخلود إلى اليوم وإلى مابعد اليوم . بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة ، وتناقل العلماء أحاديث موضوعة ، ونصُّوا على حكم كلٍ منها وعلى إهمال العمل بها .

ثم إنّ من عرف تحمس الصحابة لدينهم واستبسالهم فى الدفاع عن حمى القرآن يستبعد كل البعد ، بل يُحيل كل الإحالة أن يكونوا قد فعلوا ذلك ، أو أقل من ذلك ، عاوِدْ ماقرَّرناه فى الشاهد السادس من شواهدنا الماضية ، وانظر إلى موقف عمر من هشام وموقف هشام من عمر ، وموقف أبيٍّ وابن مسعود وصاحبيهما . وتأمَّل كيف أن كلًّا من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أبى أن يتنازل عن قراءةٍ سمعها عن رسول الله ﷺ وعلمها

إياه رسول الله ﷺ ثم أقرّهم رسولُ الله ﷺ على استمسا كهم هذا ، وحلّ مشكلتهم بأن أعلمهم أن كلاً منهم مصيب ومحسن ، وأن قراءة كل منهم هكذا أنزلت ، وأن القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، وأنّ من كَفَرَ بحرفٍ منها فقد كفر بها كلها ، وألاّ يختلفوا فى ذلك فقد أهلك الاختلافُ من كانوا قبلهم . وبهذا « قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قولَ كلِّ خطيب ».

(أمر ثالث) هو أن هؤلاء الذين شايعوا ذلك المذهب ، يلتزمون أن يقولوا : إن اختلاف القراءات الحاصل اليوم ، يرجع كله إلى حرف واحد ، وهكذا شاء لهم رأيهم أن يجعلوا تلك الكثرة الغامرة القائمة الآن حرفاً واحداً ، على مابينها من اختلاف فى الوجوه والأنواع وعلى رغم أن من القراءات الحاضرة مايكون وجه الاختلاف فيه ناشئاً عن وجود ألفاظٍ مترادفة فى كلمةٍ واحدة ومعنى واحد ، ومنها ماهو من لغات قبائل مختلفة ؛ كما نصَّ على ذلك السيوطى فى النوع السابع والثلاثين . ونقلنا منه شيئاً من موضع آخر من هذا المبحث .

ولدينا دليلٌ مادىٌّ أيضاً على بقاء الأحرف السبعة جميعاً ، هو بقاء التيسير والتخفيف ، وتهوين الأداء على الأمة الإسلامية الذى هو الحكمة فى الأحرف السبعة .

فها نحن أُولاءِ لا نزال نشاهد عن طريق القراءات المختلفة القائمة الآن سبيلاً سهلاً قد وَسِعَ كافَّةَ الشعوب المسلمة ، سواء منها الأمم العربية وغير العربية ، والحمد لله على دوام فضله ورحمته ، وبقاء تخفيفه وتيسيره . وغفر الله لأولئك الأعلام الذين أخطأوا إصابة المرمَى ، فقد اجتهدوا وللمجتهد أجر وإن أخطأ ، ونسأل الله التوفيق والسداد ، آمين .

القول العاشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب، بمعنى أن القرآن لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب، وهى لغة قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن، وهى أفصح لغات العرب. قال بعضهم: هذا أصحُّ الأقوال وأَوْلاها بالصواب، وهو الذى عليه أكثر العلماء، وصححه البيهقى، واختاره الأبهرى، واقتصر عليه صاحب القاموس.

وقال أبو عبيد: « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقة فيه، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم. قال: وبعض اللغات أَسعد به من بعض وأكثر نصيباً » وقيل فى عد القبائل السبع آراء أُخر.

ويدفع هذا القول على جميع آرائه بأمرين: (أحدهما) أن فى القرآن الكريم ألفاظاً كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة التى عدُّوها.

مثل كلمة « سامدون » فى قوله تعالى: « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » فإنها بالحميرية. ومثل كلمة « خمراً » فى قوله: « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » فإنها بلغة أهل عُمان لأنهم يسمون العنب خمراً (أى حقيقةً لا مجازاً). ومثل كلمة « بعلا » فى قوله تعالى: « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أى رَبًّا بلغة أَزْدِ شَنُوءَةَ. ومثل كلمة « لَا يَلِتْكُمْ » أى لا ينقصكم فى قوله تعالى: « لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا » فإنها بلغة بنى عَبْس. ومثل كلمة « فباءوا » بمعنى استوجبوا فى قوله تعالى: « فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » فإنها بلغة جُرْهُمْ. ومثل كلمة « رفث » بمعنى جماع فى قوله تعالى: « فَلَا رَفَثَ » فإنها بلغة مَذْحِج. ومثل كلمة « تُسِيمُونَ » بمعنى ترْعَوْنَ فى قوله تعالى: « فِيهِ تُسِيمُونَ » فإنها بلغة خَثْعَم، إلى

غير ذلك . وارجع إلى النوع السابع والثلاثين من إتقان السيوطى إن أردت المزيد .

وحسبك فى هذا المقام مانقله الواسطىُّ فى كتابه الذى وضعه فى القراءات العشر إذ يقول : « إن فى القرآن من أربعين لغةً عربية وهى : قريش ، وهُذَيْل ، وكِنانة ، وخَثْعَم ، والخَزْرَج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عَيلان ، وجُرْهُم ، واليمن ، وأزْدُشَنوءة ، وكِندة ، وتميم ، وحِمْيَر ، ومَدْيَن ، ولَخْم ، وسَعْد العشيرة ، وحَضرموت ، وسدوس ، والعمالقة ، وأَنمار ، وغسَّان، ومَذْحِج ، وخُزاعة ، وغَطَفان، وسَبَأ ، وعُمَان ، وبنو حنيفة، وثعلب ، وطَيِّئ ، وعامر بن صَعْصَعَة ، وأَوْس ، ومُزَينة ، وثقيف ، وجذام ، وبَلِيّ ، وعُذْرة ، وهوازن ، والنَّمرِ ، واليمامة » اهـ .

ولا يغيبَنَّ عن بالك أن هذه اللغات كلها تمثَّلت فى لغة قريش باعتبار أن لغة قريش كانت المتزعِّمة لها ، والمهيْمنة عليها ، والآخذة منها ماتشاء مما يَحْلُولها ويَرِقُّ فى ذَوْقها، ثم يأخذه الجميع عنها ، حتى صحَّ أن يُعتبر لسان قريش هو اللسان العربى العام ، وبه نزل القرآن ، على ماسبق بيانه ، فلا تغفل . والله يتولَّى هُدانا أجمعين .

(ثانيهما) أن توجيه هذا المذهب بما قاله أبو عبيد، يقتضى أن يكون القرآن أبعاضاً، منه ماهو بلغة قريش ، ومنه ماهو بلغة هُذَيْلٍ ، وهكذا . ولا شك أن ذلك غير محقق لحكمة التيسير الملحوظة للشارع الحكيم فى نزول القرآن على سبعة أحرف، فإن هذا المذهب يستلزم أن كل شخص لايمكنه أن يقرأ إلا البعض الذى نزل بلغته، دون البعض الذى نزل بلغة غيره . وهذا باطل من ناحية، ومخالف للاختلاف الذى صورته لنا الروايات السابقة بين الصحابة فى القراءة من ناحية أخرى فإن المقروء فيها كان واحداً لا محالة، كسورة الفرقان بين عمر وهشام. وسورة من آل حم بين ابن مسعود وصاحبه، وقد صوَّب الرسول ﷺ قراءة كل من المختلفين ، وكلاهما قرشى .

القول الحادى عشر

أنّ المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل مضر خاصة ، وأنها متفرقة فى القرآن . وأن تلك القبائل السبع هى : قريش ، وكنانة ، وأسد ، وهذيل ، وتميم ، وضبَة ، وقيس .

ونردُّ هذا بما رددنا به سابقه ، بل هذا أدنى إلى البطلان ، لأنه أخصُّ مما قبله الذى دحضناه من جهة خصوصه ، فكيف هذا ؟ تلك ناحية . وثمة ناحية أخرى : وهى أن فى قبائل مضر شواذّ ينزه عنها القرآن الكريم مثل كَشْكَشَةِ قَيْسٍ ، وهى جعل كاف المؤنث شيناً ، فيقولون فى قوله تعالى : « قَدْ جَعَلَ رَبكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » قد جَعَلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيًّا . ومثل تَمْتَمَةِ تميم الذين يجعلون السين تاء فيقولون فى الناس « النات » مع أن هذه لغات لم يُحفظ منها شىء فى القرآن الكريم .

القول الثانى عشر إلى الأربعين

أن المراد بالأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ، سبعة أصناف فى القرآن ، وأصحاب هذه الأقوال يختلفون فى تعيين هذه الأصناف . وفى أسلوب التعبير عنها إلى آراء تكمل بها العدّة أربعين قولاً .

فمنهم من يقول : إنها أمر ، ونهى ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال .

ومنهم من يقول : إنها وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

ومنهم من يقول : إنها محكم ومتشابه ، وناسخ ، ومنسوخ ، وخصوص ، وعموم ، وقصص .

ومنهم من يقول : إنها لفظ عام أريد به العام ، ولفظ خاص أريد به الخاص ، ولفظ عام أريد به الخاص ، ولفظ خاص أريد به العام ، ولفظ يستغنى بتنزيله عن تأويله ، ولفظ لا يعلم فقهه إلا العلماء ، ولفظ لا يعلم معناه إلا الراسخون فى العلم .

ومنهم من يقول : إنها إظهار الربوبية ، وإثبات الوحدانية ، وتعظيم الألوهية ، والتعبد لله ، ومجانبة الإشراك ، والترغيب فى الثواب ، والترهيب من العقاب .

ومنهم من يقول : إنها المطلق ، والمقيد ، والعام ، والخاص ، والنص ، والمؤول والناسخ ، والمنسوخ ، والاستثناء ، وأقسامه .

ومنهم من يقول : إنها الحذف ، والصلة ، والتقديم ، والتأخير ، والاستعارة ، والتكرار ، والكناية ، والحقيقة ، والمجاز ، والمجمل ، والمفسر ، والظاهر والغريب .

ومنهم من يقول سوى ذلك كله ، غير أنها من هذا الطراز أو من طراز ما سبق فى الأقوال الأخرى ، حتى أكمل بها بعضهم عدَّةَ الأقوال أربعين قولاً .

١٠ ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة

والكل مردود ردًّا إجماليًا بما يأتى :

(أولا) أن سياق الأحاديث السابقة ، لا ينطبق على هذه الأقوال بحال ، فإن هذه الأصناف التى عينوها ، لا يتأتى الاختلاف فيها بسبب القراءة . والاختلافُ الذى نقلته الروايات السابقة تدلُّ تلك الروايات نفسها على أنه ما كان إلا بسبب القراءة ، فتعين أن يكون مرجعه التلفُّظ وكيفية النطق ، لا تلك الأصناف والأنواع التى سردوها فى معرض الآراء . أنظر الشاهد الثامن من شواهدنا الماضية إن شئت .

(ثانياً) أنه لا يوجد لهم سندٌ صحيحٌ يدلُّ على حصر الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن فيما بيَّنوه . وما يكون لنا أن نقبل رأياً غير مدلَّل ولا مؤيَّد بحجة .

(ثالثاً) أن التوسعة الملحوظة للشارع الرحيم فى نزول القرآن على الأحرف السبعة ، لا تتحقق فيما ذكروه من تلك الأصناف والأنواع .

(رابعاً) أن بعض تلك الآراء نلاحظ عليها أنها زادت على السبعة فيما ذكرته من الأصناف والأنواع . فإما أن تكون أخطأت فى العدّ من أول الأمر ، وإما أن تكون متأثرةً بفكرة أن لفظ السبعة كناية ٌ لا حقيقة ، وقد علمت فيما سبق مافيه من خطأ أيضا . راجع الشاهد الثانى من شواهدنا الآنفة إن أردت .

(خامساً) أن أكثر ماذكروه فى تلك الآراء والأصناف ، يتداخل بعضه فى بعض ، ويشبه بعضه بعضا ، فمن المتعسر اعتبارها أقوالاً مستقلة .

نقل السيوطى عن الشرف المرسى أنه قال : « هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدرى مستندها ، ولا عمّن نقلت ؟ ولا أدرى لم خصّ كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر ؟ مع أنها كلها موجودة فى القرآن ، فلا أدرى معنى التخصيص . ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة . وأكثرها معارض لحديث عمر وهشام بن حكيم الذى فى الصحيح ، فإنهما لم يختلفا فى تفسيره ولا أحكامه ، وإنما اختلفا فى قراءة حروفه . وقد ظنّ كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع ، وهو جهل قبيح » اهـ .

١١ — علاج الشبهات الواردة

على أصل الموضوع

أعداء الإسلام فى كثرةٍ ونشاطٍ ويقظة ، وبين المسلمين جهلةٌ يؤذون الإسلام والأمة بأشدّ مما يؤذيه أعداؤه ، على حد قول القائل :

« لا يبلُغُ الأعداء من جاهل   ما يبلُغُ الجاهل من نفسه »

وقد نرى ونسمع اتهامات وشبهات ، مرةً من هنا ، ومرةً من هناك ، فمن واجب الأمانة فى أعناقنا ، أن نبدِّد ظلمات هذه الشبهات والتُّهم ، بما بين أيدينا من أنوار العلم وأسلحة الحجج . « وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » .

(الشبهة الأولى) يقولون : إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف فى القرآن ، مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه ، إذ يقول : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » وذلك تناقض ، ولا ندرى أيُّهما يكون الصادق .

والجواب : أن الاختلاف الذى تثبته تلك الأحاديث ، غيرُ الاختلاف الذى ينفيه القرآن . وهذا كافٍ فى دفع التناقض ، فكلاهما صادق . وبيان ذلك أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنويع فى طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه فى دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف ، وبشرط التلقى فيها كلها عن النبي ﷺ .

أما القرآن فينفى الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معانى القرآن وتعاليمه ، مع ثبوت التنويع فى وجوه التلفظ والأداء السابق .

ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يلزم منه تناقضٌ ولا تخاذل ولا تضادٌّ ولا تدافُع بين مدلولات القرآن ومعانيه ، وتعاليمه ومراميه ، بعضها مع بعض . بل القرآن كله سلسلة واحدة ، متصلة الحلقات ، محكمة السور والآيات ، متآخذة المبادئ والغايات ، مهما تعدَّدت طرق قراءته ، ومهما تنوَّعت فنون أدائه .

وللمحقق ابن الجزرى كلام نفيس يتَّصل بهذا الموضوع ننقل إليك شيئًا منه بقليل من التصرف ، إذ يقول : « قد تدبَّرنا اختلاف القراءات ، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال : أحدها اختلاف اللفظ لا المعنى . الثانى اختلافهما جميعاً مع جواز اجتماعهما فى شىء واحد . الثالث اختلافهما جميعًا مع امتناع جوز اجتماعهما فى شىء واحد ، لكن يتفقان من وجهٍ آخر لا يقتضى التضادّ .

فأما الأول فكالاختلاف في ألفاظ « الصِّراط ، وعليهم ، وَيَئُودُهُ ، والقدس ويحسب » ، ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط . وأما الثاني فنحو لفظ « مالك وملك » في الفاتحة ، لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى ، لأنه مالكُ يوم الدين وملكُه . . وكذا ننشزُها بالزاى وننشرُها بالراء ، لأن المراد بهما هو العظام . وذلك أن الله تعالى أنشرها أي أحياها ، وأنشزها أي رفع بعضها إلى بعض ، حتى التأمت ، فضمَّن اللهُ المعنيين في القراءتين . وأما الثالث فنحو قوله تعالى : «وظنُّوا أنهمْ قد كذبوا» قرئ بالتشديدوالتخفيف في لفظ « كذبوا » المبني للمجهول. فأماوجه التشديد ،فالمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذَّبوهم . وأما وجه التخفيف، فالمعنى : وتوهم المرسلُ إليهم أن الرسل قد كَذَبُوهُمْ (أي كذبوا عليهم) فيما أخبروهم به . فالظنُّ في الأولى يقين ، والضمائر الثلاثة للرسل . والظنُّ في القراءة الثانية شكٌّ والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى ورفع الأخرى في كلمة « لتزولُ » ، وبكسر الأولى وفتح الثانية فيها أيضاً . فأماوجه فتح الأولى ورفع الثانية من « لتزول » فهو أن تكون كلمة « إنْ » مخفَّفةً من الثقيلة ، أي وإنَّ مكرهم كاملُ الشدة تقتلع بسببه الجبالُ الراسيات من مواضعها . وفي القراءة الثانية « إنْ » نافيةٌ أي ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزولَ منه أمرُ محمد ﷺ ودينُ الإسلام . ففي الأولى تكون الجبال حقيقة ، وفي الثانية تكون مجازاً . ثم قال أيضاً : « فليس في شيء من القرآن تنافٍ ولا تضادٌّ ولا تناقضٌ . وكلُّ ما صحَّ عن النبي ﷺ من ذلك، فقد وجب قبوله، ولم يسعْ أحداً من الأمة ردُّه ، ولزم الإيمان به وأنه كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءةٍ منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته علماً وعملاً ، ولا يجوز ترك موجَب إحداهما لأجل الأخرى ظنًّا أن هذا تعارُض » اهـ .

وإلى ذلك أشار عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بقوله : « لا تختلفوا في القرآن ،

ولا تنازعوا فيه ، فإنه لا يختلفُ ولا يتساقطُ : ألا ترون أن شريعة الإسلام واحدة حدودها وقراءتها ، وأمر الله فيها واحد . لو كان من الحرفين حرفٌ يأمر بشيء وينهى عنه الآخر ، كان ذلك الاختلاف . ولكنه جامع ذلك كله . ومن قرأ قراءة فلا يدعها رغبةً عنها ، فإنه من كفر بحرفٍ منه كفر به كله » اه .

(الشبهة الثانية) :

يقولون : إن هذا الاختلاف فى القراءات ، يوقع فى شك وريب من القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا فى بعض الروايات معنى تخيير الشخص أن يأتى من عنده باللفظ وما يرادفه ؛ أو باللفظ وما لا يضاده فى المعنى ، كحديث أبى بكرة ، وفيه « كلها شافٍ كافٍ ، ما لم تختم آيةُ عذابٍ برحمةٍ ، أو آيةُ رحمةٍ بعذاب ، نحو قولك : تعالَ ، وأقبلْ ، وهلمَّ ، واذهبْ ، وأسرعْ ، وعجلْ » . جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بإسناد جيد ومثله حديث أبيٍّ بن كعب . وأكثر من ذلك ما جاء فى فضائل أبى عبيد أن عبدالله بن مسعود أقرأ رَجُلاً : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » فقال الرجل : « طَعَامُ الْيَتِيمِ » فردَّها عليه ، فلم يستقمْ بها لسانهُ : فقال : أتستطيع أن تقول : طعامُ الفاجر . قال : نعم . قال : فافعل . » اه .

والجواب : أن اختلاف القراءات لا يوقع فى شك ولا ريب ما دام الكلُّ نازلاً من عند الله . وأما هذه الروايات التى اعتمدتْ عليها الشبهة ؛ فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تخيير الشخص أن يأتى من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه ، أو باللفظ وما لا يضاده فى المعنى، حتى يوقعَ ذلك فى ريبٍ من هذا التنزيل . بل قصارى ما تدلُّ عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسعَ على عباده ، خصوصاً فى مبدأ عهدهم بالوحى ، أن يقرءوا القرآن بما تلينُ به ألسنتهم . وكان من جملة هذه التوسعة القراءةُ بمترادفاتٍ من اللفظ الواحد للمعنى الواحد، مع ملاحظة أن الجميع نازلٌ من عند الله ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد ﷺ ،

وقرأه الرسول على الناس على مكثٍ ، وسمعوه منه ، ثم نسخ الله ماشاء أن ينسخ بعد ذلك ، وأبقى ما أبقى ، لحكمةٍ سامية تستقبلك فى مبحث النسخ .

يدلُّ على أن الجميع نازلٌ من عند الله تعالى قوله ﷺ لكلٍّ من المتنازعين المختلفين فى القراءة من أصحابه : « هـكَذَا أُنْزِلَتْ » ، وقول كل من المختلفين لصاحبه : « أقرأنيها رسولُ اللهِ ﷺ » ؛ وقولُ الله تعالى لرسوله جواباً لمن سأله تبديلَ القرآن : « قُلْ مَا يَـكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » : وليس بعد كلام الله ورسوله كلام . وكذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر فى نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ، ولا من ناحية ألفاظه ، بل ولا من ناحية قانون أدائه ، فمن يخرج على هذا الإجماع ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، يولِّه الله ما تولى ويصلهِ جهنم وساءت مصيراً .

وها نحن أولاءِ قد رأينا القرآن فى تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعاً باتاً ، مشفوعاً بالوعيد الشديد ، ومصحوباً بالعقاب الأليم . فما يكون لابن مسعود ، ولا لأكبر من ابن مسعود — بعد هذا — أن يبدِّل لفظاً من ألفاظ القرآن بلفظٍ من تلقاء نفسه . انظر ما قرّرناه فى الشاهدين : الرابع والسابع من هذا المبحث .

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة « الفاجر » بدلا من كلمة « الأثيم » فى قول الله تعالى « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » فتدلُّ على أن ابن مسعود سمع الروايتين عن رسول الله ﷺ . ولما رأى الرجل قد تعسر عليه النطق بالأولى ، أشار عليه أن يقرأ بالثانية ، وكلاهما منزّل من عند الله .

وكذلك حديث أبى بكرة السابق ، لا يدلُّ على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضادُّه ، كما زعم الواهم ، إنما ذلك الحديث وأشباهه ، من باب الأمثال التى يضربها الرسول ﷺ للحروف التى نزل عليها القرآن ؛ ليفيدَ أن تلك الحروف

على اختلافها ، ما هي إلا ألفاظٌ متوافقةٌ مفاهيمها ، متساندةٌ معانيها لا تخاذُلَ بينها ولا تهافت ، ولا تضادَّ ولا تناقض ، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضدُّها . وتلك الأحاديث بهذا الوجه ، تقريرٌ لأن جميع الحروف نازلة من عند الله « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

وهاك برهاناً آخر ذكره صاحب التبيان في مثل هذا المقام إذ يقول : « إنَّ النبيَّ ﷺ علَّمَ البراء بنَ عازبٍ دُعاءً فيه هذه الكلمة « وَنَبِيِّكَ ٱلَّذِى أَرْسَلْتَ » فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال : « وَرَسُولِكَ ٱلَّذِى أَرْسَلْتَ » فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك ، بل قال له : « لا . وَنَبِيِّكَ ٱلَّذِى أَرْسَلْتَ » . وهكذا نهاه عليه الصلاة السلام أن يضع لفظة رسول ، موضعَ لفظة نبي ، مع أن كليهما حقٌّ لا يحيل معنى ، إذ هو ﷺ رسولٌ ونبيٌّ معاً . ثم قال : فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا : إنه عليه الصلاة السلام كان يجيزُ أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزيز حكيم ، غفورٌ رحيمٌ ، أو سميعٌ عليمٌ . وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآناً ، والله يقول مخبراً عن نبيه ﷺ « مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى » ولا تبديلَ أكثرُ من وضع كلمةٍ مكان أخرى » اهـ بتصرف قليل .

(الشبهة الثالثة) :

يقولون : إن نزول القرآن على سبعة أحرف ، ينافي ما هو مقرَّر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها ، ثم إنه يؤدي إلى ضياع الوحدة التي يجب أن تسود الأمة الواحدة بسبب اجتماعها على لسانٍ واحد .

والجواب : أنه لا منافاة ، ولا ضياع للوحدة ، فإن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعةٌ كلها في لغة قريش . ذلك أن قريشاً كانوا قبل مهبط الوحي والتنزيل ،

قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ، وأيامها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هذّبوه وصقّلوه . وبهذا كانت لغة قريش تجمع لغاتٍ مختارة منتقاةٍ من بين لغات القبائل كافّة . وكان هـذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة إليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم .

ومن هنا شاءت حكمة الحكيم العليم أن يَطْلُعَ عليهم القرآنُ من هذا الأفق ، وأن يطلّ عليهم من هـذه السماء سماءِ قريش ولغتها التي أعطوْها مقادتهم ، وولوْا شطرها وجوههم ، تخاطبهم بهذا اللسان العام لهم ، ليضمّ نشرهم ، ولينظم نثرهم . وقد تمّ له ما أراد بهذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات ، وباللسان الذي خضعتْ له وتمثلتْ فيه كافة الألسنة العربية .

ولو نزل القرآن بغير لغة قريش هذه لكان مثار مشاحنات وعصبيات ، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم ولعلا بعضهم على بعض ، ولما اجتمع عليه العرب أبداً . بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراجتْ شبهتهمْ وافتراؤهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليهما ، نظراً إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه ، ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوى ، مما يجعلهم يذوقون الإعجاز ويلمسونه ، كما تذوقوه بوضوح حين نزل بلسانهم . « إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ » .

(الشبهة الرابعة) :

يقولون : إنه لا معنى للاحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء .

والجواب : أن هـذه شبهة تعرض كثيراً للعامة ومن فى حكمهم ممن لم يأخذوا من علوم

القرآن والحديث بحظٍ ولا نصيب . فإن ذلك المعنى الذى زعموه غيرُ صحيح من وجهين :

(أحدهما) أن الأحرف التى نزل بها القرآن ، أعمُّ من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عموماً مطلقاً ، وأن هذه القراءات أخصُّ من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصاً مطلقاً . ذلك لأن الوجوه التى أنزل الله عليها كتابه ، تنتظم كل وجه قرأ به النبى ﷺ ، وأقرأه أصحابه ، وذلك ينتظم القراءات السبعَ المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء ، كما ينتظم مافوقها إلى العشرة ، وما بعد العشرة ، وما كان قرآناً ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعاً ، ولهذا نصوا فى المذهب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذّها ومنكرها كما سبق .

(ثانيهما) : أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف . ومحالٌ أن يفرض الرسول على نفسه وعلى أصحابه ألّا يقرءوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها ، على حين أن بين العهدين بضعة قرون ! وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبى ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم . فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهى باطلة .

وتستلزم أيضاً أن يبقى قولُ الرسول ﷺ : « إنَّ هذَا القرآنَ أُنزلَ عَلَى سبعةِ أحرُفٍ » عارياً عن الفائدة ، غير نافذ الأثر ، حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتؤخذ القراءةُ عنهم . وذلك باطل أيضاً يكذبه الواقع من قراءة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون .

قال المحقق ابن الجزرى : « فلو كان الحديث منصرفاً إلى قراءات السبعة المشهورين أو سبعة غيرهم من القرّاء الذين وُلدوا بعد التابعين ، لَأدّى ذلك إلى أن يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى أن يُولد هؤلاء السبعة ، فتؤخذ عنهم القراءة ، وأدّى أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا وُلدوا وتعلموا اختاروا القراءة به . وهذا باطل ؟ إذ طريق أخذ القراءة أن تُؤخذ عن إمام ثقةٍ ، لفظاً عن لفظ ، إماماً عن إمام . إلى أن يتّصل بالنبى ﷺ » اه .

المبحث السابع

فى المكى والمدنى من القرآن الكريم

ليس من غرضنا فى هذ المبحث أن نَسْتَقْصِىَ بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسُوره . وأن نحقّق ما كان منها مكيًّا وما كان مدنيًّا ، فتلك محاولة كبيرة جديرة أن تفرد بالتأليف ، وقد أفردها فعلاً بالتأليف جماعة ، منهم مكىٌّ والْعِزُّ الدّرينى .

ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى ، وعلى فائدة العلم بالمكى والمدنى ، وعلى الطريق الموصلة إليه ، وعلى الضوابط التى يُعرف بها ، وعلى السور المكية والمدنية والمختلف فيها ، وعلى أنواع السور المكية والمدنية ، وعلى أوجهٍ تتعلّق بالمكى والمدنى ، وعلى فروقٍ أخرى بين المكى والمدنى صيغت من بعضها مطاعن فى القرآن ، وعلى دفع تلك المطاعن ونقضها .

١ — الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى

للعلماء فى معنى المكى والمدنى ثلاثة اصطلاحات .

(الأول) أن المكى مانزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى مانزل بالمدينة . ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل على النبي ﷺ بمنى وعَرَفات والحُدَيْبية . ويدخل فى المدينة ضواحيها أيضاً كالمنزل عليه فى بدرٍ وَأُحُد. وهذا التقسيم لُوحظ فيه مكان النزول كما ترى. لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولاحاصر ، لأنه لايشمل مانزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما، كقوله سبحانه فى سورة التوبة : « لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ » الخ فإنها نزلت بِتَبُوك ، وقوله سبحانه فى سورة الزخرف « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » الخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلةَ الإسراء . ولا ريب أن عدم الضبط فى التقسيم يترك واسطةً لا تدخل فيما يُذكر من الأقسام ، وذلك عَيْبٌ يخلُّ بالمقصود الأول من التقسيم ، وهو الضبط والحصر .

(الاصطلاح الثانى) أن المكى ماوقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ماوقع خطاباً لأهل المدينة . وعليه يُحمل قول من قال : إن ماصدر فى القرآن بلفظ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكى ؛ وما صدر فيه بلفظ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فهو مدنى ؛ لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فخوطبوا بيأيها الناس ، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم. ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة ، فخوطبوا بيأيها الذين آمنوا ،وإن كان غيرهم داخلاً فيهم أيضاً. وألحقَ بعضهم صيغة يابنى آدم بصيغة يأيها الناس . أخرج أبو عبيد فى فضائل القرآن عن ميمون ابن مهران قال : « ما كان فى القرآن يأيها الناس ، أو يابنى آدم ، فإنه مكى ، وما كان يأيها الذين آمنوا ، فإنه مدنى »

وهذا التقسيم لُوحظ فيه المخاطبون كما ترى ، لكن يرد عليه أمران : أحدهما ما ورد على سابقه من أنه غيرُ ضابطٍ ولا حاصر ، فإن فى القرآن ما نزل غير مصدَّر بأحدهما نحو قوله سبحانه فى فاتحة سورة الأحزاب : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ » الخ ونحو قوله سبحانه فى فاتحة سورة المنافقين : « إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ » الخ .

(ثانيهما أن هذا التقسيم غير مطرد فى جميع موارد الصيغتين المذكورتين ، بل إن هناك آياتٍ مدنيةً صُدِّرت بصيغة « يأيها الناس » ، وهناك آيات مكية صُدِّرت بصيغة « يأيها الذين آمنوا » . مثال الأولى سورة النساء ، فإنها مدنية وأولها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ » ، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ » ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن فى أواخرها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » الخ .

قال بعضهم : « هذا القول إن أُخذ على إطلاقه ففيه نظر ، فإن سورة البقرة مدنية وفيها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ » إلى آخر ما ذكرناه أمامك . غير أنه قال أخيراً ما نصُّه : — « فإن أريد أنَّ الغالبَ كذلكَ فصحيحٌ » .

أقول : ولكن صحةَّ الكلام فى ذاته لا تُسوِّغُ صحَّة التقسيم ، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطاً حاصراً ، وأن يكون مطَّرِداً . وقيد الغالبيَّة المراد ، لايحقِّقُ الضبط والحصر وإن حقَّق الاطراد ، فيبقى التقسيم مَعيباً . على أنهم قالوا : المرادُ لايَدْفعُ الإيراد .

(الاصطلاح الثالث) وهو المشهور : أن المكى ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدنى ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة .

وهذا التقسيم كما ترى لُوحظ فيه زمن النزول ، وهو تقسيم صحيحٌ سليم ، لأنه ضابطٌ حاصر ومُطَّرِدٌ لا يختلف ، بخلاف سابقيه ، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم . وعليه فآية : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ

الْإِسْلَامَ دِينا » مدنية ، مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة فى حجة الوداع . وكذلك آية « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » فإنها مدنية مع أنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عامَ الفتح الأعظم . وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر ، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور .

٢ — فائدة العلم بالمكى والمدنى

من فوائد العلم بالمكى والمدنى تمييزُ الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم فى موضوع واحد ، وكان الحكم فى إحدى هاتين الآيتين أو الأيات مخالفاً للحكم فى غيرها ، ثم عُرف أن بعضها مكى وبعضها مدنى ، فإننا نحكم بأن المدنى منها ناسخ للمكى نظراً إلى تأخر المدنى عن المكى .

ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرُّجه الحكيم بوجهٍ عام ، وذلك يترتَّب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية فى تربية الشعوب والأفراد . وسيستقبلك فى هذا المبحث فروقٌ بين المكى والمدنى تُلاحظ فيها جلال هذه الحكمة .

ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف . ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر ؛ وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف ، وما نزل بالأرض وما نزل بالسماء ، إلى غير ذلك . فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمسّه ويَعْبَثُ به ، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتّصل به أو يحتفّ بنزوله إلى هذا الحد !

٣ — الطريق الموصلة إلى معرفة المكى والمدنى

لا سبيل إلى معرفة المكى والمدنى إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين فى ذلك ؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيانٌ المكى والمدنى . وذلك لأن المسلمين فى زمانه لم يكونوا فى حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشاهدون الوحى والتنزيل ، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عِيَانًا . « وليس بعدَ العِيَانِ بيان » .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « واللهِ الذى لا إلهَ غيرُه ، مانزلت سورةٌ من كتاب اللهِ إلَّا وأَنَا أعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ ؟ وَلَا نزلَتْ آيةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إلا وَأَنَا أعْلَمُ فيما نزلت ؟ ولوْ أعلمُ أنَّ أحداً أعْلمُ مِنِّى بكتاب الله تبلُغُهُ الإبلُ لرَكِبْتُ إليْهِ » . وقال أيوب : سأل رجلٌ عِكرِمةَ عن آيةٍ من القرآنِ فقال : « نَزَلَتْ فِى سَفْحِ ذَلِكَ الجَبَل » وأشار إلى سَلْعٍ اهـ .

ولعل هذا التوجيه الذى ذكرته أولى مما ذكره القاضى أبو بكر فى الانتصار ، إذ يقول مانصُّه : « ولم يَرِد عن النبى ﷺ فى ذلك قول ، لأنه لم يأمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفةُ تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يُعرف ذلك بغير نصِّ الرسولَ » اهـ .

٤ — الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى

قد عرفنا فيما مضى أن مَرَدَّ العلم بالمكى والمدنى هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، بَيْد أن هناك علاماتٍ وضوابط يعرف بها المكى والمدنى . وهاك ضوابط المكى :

١ — كل سورة فيها لفظ « كلاَّ » فهى مكية . وقد ذُكر هذا اللفظ فى القرآن ثلاثا

وثلاثين مرة ، فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن . قال الديرينى رحمه الله :

« وَمَا نَزَلَتْ كَلاَّ بِيَثْرِبَ فَاعْلَمَنْ   وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ فِي نِصْفِهِ الْأَعْلَى »

قال العمانى : « وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جبابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم ، بخلاف النصف الأول . وما نزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم » اهـ .

٢ — كل سورة فيها سجدة فهى مكية لا مدنية .

٣ — كل سورة فى أولها حروف التَّهَجِّى فهى مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع . وفى الرعد خلاف .

٤ — كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهى مكية سوى البقرة .

٥ — كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة أيضاً .

٦ — كل سورة فيها يأيها الناس وليس فيها يأيها الذين آمنوا فهى مكية ، ولكنه ورد على هذا ماتقدّم بين يديك من سورة الحج .

٧ — كل سورة من المفصّل فهى مكية . أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : « نزل المفصّل بمكة ، فمكثنا حِجَجاً نقرؤه ولا ينزل غيره » لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصّل مدنى نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر ، فإنها كانت من أواخر مانزل بعد الهجرة ، بل قيل إنها آخر مانزل ، كما سبق فى مبحث أول مانزل وآخر مانزل . فالأَوْلَى أن يُحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصل ، لا على جميع سور المفصل . والمفَصَّلُ على وِزَان مُعَظَّم : هـو السبع الأخير من القرآن الكريم مُبتدَأةً من

سورة الحجرات على الأصح . وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بعضها وبعض من أجل قصرها . وقيل : سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها ، فقولها قولٌ فصْلٌ : لا نسخ فيه ولا نقض .

أما ضوابط المدنى : فكما يأتى :

١ ـ كل سورة فيها الحدود والفرائض فهى مدنية .

٢ ـ كل سورة فيها إذنٌ بالجهاد وبيانٌ لأحكام الجهاد فهى مدنية .

٣ ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية ما عدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها ، فإنها مدنية . وهى التى ذكر فيها المنافقون .

٥ — السور المكية والمدنية والمختلف فيها

نقل السيوطى فى الإتقان أقوالاً كثيرة فى تعيين السور المكية والمدنية ، من أوفقها ما ذكره أبو الحسن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ إذ يقول :

« المدنى باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وماعدا ذلك مكى باتفاق » ثم نظم فى ذلك أبياتاً رقيقة جامعة ، وهو يريد بالسور العشرين المدنية بالاتفاق : سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقين ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

ويريد بالسور الاثنتى عشرة المختلف فيها : سورة الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطفيف ، والقدر ، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، والإخلاص ، والمعوذتين .

ويريد بالسور المكية باتفاق ماعدا ذلك وهى اثنتان وثمانون سورة . وإلى هذا القسم المكى يشير فى منظومته بقوله :

« وما سوى ذاكَ مكىٌّ تنزُّلُه فلا تكن من خلاف الناس فى حَصَرِ
فليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظرِ »

وقد جرى هذا البيت مجرى الأمثال عند أهل العلم .

٦ — أنوع السور المكية والمدنية

قد تكون السورة كلها مكية ، وقد تكون كلها مدنية ، وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها ، فتلك أربعة أنواع .

مثال النوع الأول سورة المدثر فإنها كلها مكية . ومثال الثانى سورة آل عمران فإنها كلها مدنية ، ومثال الثالث سورة الأعراف فإنها مكية ماعدا آية « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ » قاله قتادة . واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » وقال : إن تلك الآيات مدنية . ومثال النوع الرابع سورة الحج فإنها مدنية ما عدا أربع آيات منها ، تبتدئ بقوله سبحانه « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى » إلى قوله « عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » .

واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية ، يكون تبعاً لما يغلب فيها ، أو تبعاً لفاتحتها ، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلا كُتبت مكية ، ثم يزيد الله فيها مايشاء . ولعل الأنسب بالاصطلاح المشهور فى معنى المكى والمدنى أن يقال : إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كُتبت مكية ، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كُتبت مدنية ثم يذكر المستثنى من تلك السور إن كان هناك استثناء فيقال : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، أو سورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية أو نحو ذلك ، كما تراه فى كثير من المصاحف عُنوَاناً للسورة .

وقد بذل العلماء هِمَّة جبَّارةً فى استقصاء حال ما نزل من السور والآيات حتى لقد قال أبو القاسم النيسابورى فى كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن مانصه : « من أشرف علوم القرآن ، علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى فى المكى ، وما نزل بالُجحْفَة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف وما نزل بالُحدَيْبِيَة ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مُشَيَّعاً ، وما نزل مُفرداً ، والآيات المدنيات فى السور المكية ، والآيات المكيات فى السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حُمل من المدينة إلى مكة ، وما حُمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجملاً ، وما نزل مفسَّراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : مكى وبعضهم مدنى ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ويميِّز بينها لم يَحِلَّ له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى » اه .

قال السيوطى بعد أن أورد هذا : وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه ، فمنها ما أفردته بنوع ، ومنها ما تكلَّمت عليه فى ضمن بعض الأنواع . اه وجزاهم الله أحسن الجزاء .

وُجُوهٌ تتعلَّق بالمكى والمدنى

نبَّهَ السيوطى عند كلامه فى هذا المبحث إلى أن هناك وجوهاً فى المكى والمدنى . منها ما تستطيع أن تفهمه مما قصصناه عليك آنفا . ومنها ما يشبه تنزيل المدنى فى السور المكية ، فى قوله تعالى فى سورة النجم : « ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ » قال السيوطى فى توجيهه مانصه : « فإن الفواحش كل ذنب فيه حدٌّ ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللَّمَم مابين الحدَّين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حدٌّ ولا نحوه » اه لكن فيه نظر من وجهين : (أحدهما) أن تفسير الفواحش بما ذكر غير متفق عليه ،

بل فسَّرها غيره بأنها الكبائر مطلقاً . وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بحدٍّ . وفسرها السيوطى نفسه فى سورة الأنعام بأنها الكبائر . (والثانى) أن بعضهم يستثنى هذه الآية من سورة النجم المكية ، وينصُّ على أنها مدنية .

ومنها . مايشبه تنزيل المكى فى السور المدنية ، نحو سورة « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً » ، وكقوله سبحانه فى سورة الأنفال المدنية : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الخ . وفى هذا نظر أيضاً ؛ فإن المعروف أن سورة « والعاديات » من السور المكية كما سبق ، وأن آية « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ » الخ منصوصٌ على أنها نزلت بمكة ، كما نقل السيوطى نفسه عن مقاتل ، وقال : إنها مُسْتَثْنَاةٌ من سورة الأنفال المدنية . بل نصَّ بعضهم على أن هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلها مكيات مستثنيات من سورة الأنفال المدنية .

ومنها : ماحُمِلَ من مكة إلى المدينة ، نحو سورة يوسف وسورة الإخلاص وسورة سبح .

ومنها : ماحُمِلَ من المدينة إلى مكة ، نحو آية الربا فى سورة البقرة المدنية ، وصدر سورة التوبة المدنية .

ومنها : ماحُمِلَ إلى الحبشة نحو سورة مريم ، فقد صحَّ أن جعفر بن أبى طالب قرأها على النجاشى .

ومنها : ماحُمِلَ إلى الروم كقوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية .

وأنت خبير بأن الاصطلاح المشهور فى المكى والمدنى ينتظم كل مانزل سواء أكان بمكة والمدينة ، أم بغيرهما كالجحفة ، والطائف ، وبيت المقدس ، والحديبية ، ومِنى ، وعرفات ، وعُسْفان ، وتبُوك ، وبدر ، وأُحدٍ ، وحِراء ، وحمراء الأسد . وتفصيل ذلك يخرج بنا إلى حدِّ الإطالة ، فناهيك ما ذكرنا . « واللبيب تكفيه الإشارة » .

فروق أخرى بين المكى والمدنى

توجد فروقٌ أُخرى بين المكى والمدنى ، غير ماقدمناه فى ضوابطهما وهذه الفروق فيها دقَّة عن تلك ، لتعلقها فى مجموعها بأمور معنوية وبلاغية . ثم إن أعداء الإسلام قد صاغوا عن طريق بعضها شبهاتٍ سَدَّدوا سهامها إلى القرآن الكريم لذلك أفردناها بعنوان، توطئةً لنقض تلك الشبهات « وَقَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ » .

ونذكر من خواصِّ القسم المكى أنه قد كثر فيه مايأتى :

(أولاً) أنه حَمَلَ حملةً شعواءَ على الشرك والوثنية ، وعلى الشبهات التى تذرَّع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية ، ودخل عليهم من كل باب ، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحسِّ ، وضرب لهم أبلغ الأمثال ، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعةً أقلَّ نوع من الذباب ، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شرَّ عادية الذباب، وقال : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

ولما عاندوا واحتجُّوا بما كان عليه آباؤهم ، نَعَى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام ، وسفَّه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر فى أنفسهم وفى آيات الله فى الآفاق ، وقبَّح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد « أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » . وناقشهم كذلك فى عقائدهم الضالة التى نَجَمَتْ عن تلك الوثنية من جُحود الإلهيات والنبوَّات ، وإنكار البعث والمسئولية والجزاء .

(ثانياً) أنه فتح عيونهم على مافى أنفسهم من شواهد الحق ، وعلى مافى الكون من أعلام الرشد ، ونَوع لهم فى الأدلة وتفنن فى الأساليب ، وقاضاهم إلى الأوَّليات

والمشاهدات ، ثم قادهم من وراء ذلك قيادةً راشدةً حكيمة ، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته ، والإيمان بالبعث ومسئوليته ، والجزاء العادل وَدِقَّته ، ثم التسليم بالوحي وبكل ماجاء به الوحي من هدى الله في الإلهيات والنبوّات والسمعيات في العقائد على سواء .

(ثالثاً) أنه تحدّث عن عاداتهم القبيحة ، كالقتل ، وسفك الدماء ، ووأد البنات ، واستباحة الأعراض ، وأكل مال الأيتام . فلفَت أنظارهم إلى مافي ذلك من أخطار ، وما زال بهم حتى طهّرهم منها ، ونجَح في إبعادهم عنها .

(رابعاً) أنه شرح لهم أصول الأخلاق ، وحقوق الاجتماع ، شرحاً عجيباً كرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وفوضى الجهل ، وجفاء الطبع ، وقذارة القلب وخشونة اللفظ . وحبّب إليهم الإيمان ، والطاعة ،والنظام ، والعلم ، والمحبة ، والرحمة ، والإخلاص، واحترام الغير ، وبرّ الوالدين ، وإكرام الجار ، وطهارة القلوب ، ونظافة الألسنة ، إلى غير ذلك .

(خامساً) أنه قصّ عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ، مافيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر ، من تقرير سُنَنه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان ، وانتصار أهل الإيمان والإحسان ، مهما طالت الأيام وامتدّ الزمان ، ماداموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان .

(سادساً) أنه سلك مع أهل مكة سبيلَ الإيجاز في خطابه ، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات ، صغيرة السُّوَر . لأنهم كانوا أهل فصاحةٍ ولَسَن ، صناعتهم الكلام ، وهمتهم البيان ؛ فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .

كما أن قانون الحكمة العالية ، قضى بأن يسلك سبيل التدرُّج والارتقاء في تربية الأفراد ، وأن يقدّم الأهم على المهمّ . ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات ،

أهمُّ من ضروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية لذلك كثر فى القسم المكى التحدُّث عنها والعناية بها كما علمت فى الخواصِّ الماضية جرياً على سُنَّة التدرُّج من ناحية ، وتقديماً للأَهمِّ على المهمِّ من ناحيةٍ أخرى .

أما خواصُّ القسم المدنى ، فنذكر منها أنه قد كثر فيه ما يأتى :

(أولا) التحدُّث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام ، وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية ، والحقوق الشخصية ، وسائر ضروب العبادات والمعاملات . انظر – إن شئت – فى سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح والحجرات ونحوها .

(ثانياً) دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ، ومناقشتهم فى عقائدهم الباطلة ، وبيان جناياتهم على الحق ، وتحريفهم لكتب الله ، ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ . اقرأ – إن شئت – سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح ونحوها .

(ثالثاً) سلوك الإطناب والتطويل فى آياته وسوره . وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة فى الذكاء والألمعيَّة وطول الباع فى باحات الفصاحة والبيان ؛ فيناسبهم الشرح والإيضاح ، وذلك يستتبع كثيراً من البسط والإسهاب ؛ لأن دستور البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال ، وخطابِ الأغبياء بغير ما يُخاطب به الأذكياء . « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

نَقْض الشبهات التى أُثيرت
حول هذا الموضوع

قلنا ونقول : إن أعداء الإسلام كثيرون ، وإنهم يتربصون به الدوائر ، وينتهزون كلَّ فرصة ليسدِّدوا إليه سهام المطاعن. وإن من واجبنا أن نَحْمِيَ العَرِين ونقوم بواجب الدفاع فى هذا المُعمعان ، ولن يتسنى ذلك إلا إذا تسلَّحنا بجميع الأَسلحة ، وفى مقدّمتها دراسة تلك الشبهات التى يحرقون بخورَها فى مصر وغير مصر حتى لِشبابنا المتعلم ، فى بعض الدروس والكتب التى يزعمون أنها أدبية. وقد شهدت مصر وَقْتاً مامعركةً حامية الوطيس دارت رحاها حول أمثال هذه الشبهات التى نسوقها إليك، فاقْتَحِمْهَا عَنْوَة ، وخُذْهَا بقوّة. ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما أجمل أن نردِّد قول الشاعر :

« أَنَا لَا أَلُومُ الْمُسْتَبِدْ دَ إِذَا تَعَنَّتَ أَوْ تَعَدَّى
فَسَبِيلُهُ أَنْ يَسْتَبِدْ دَ وَشَأْنُنَا أَنْ نَسْتَعِدَّا »

الشبهة الأولى وفى طيها شبهات

يقولون : إن الباحث الناقد ، يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين ، لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، وتأثر ببيئات متباينة ؛ فنرى أن القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطّة ، كما نشاهد القسم المدنى منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فالقسم المكى يتفرّدُ بالعنف والشدّة ، والقسوة والحدّة ، والغضب ، والسباب ، والوعيد والتهديد . مثل سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » وسورة « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وسورة « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » ومثل « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

والجواب : أن هذه الشبهة تتألّف من شبهات أربع ، وإن شئت فقل : تتألف من مقدّمات ثلاثٍ كواذب ، تتأدّى ، أو يريد صاحبها أن يتأدّى بها إلى نتيجة هى الأخرى كاذبة .

فأما المقدّمات الثلاث الكواذب فهى أن القسم المكى تفرّد بالعنف والشدّة، وأنّ فيه سباباً وإقذاعاً ، وأنه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطّة. وأما النتيجة أو الهدف الذى يرمى إليه فهو أن القرآن مفككُ الأجزاء ،غيرُ متصل الحلقات ، وأنه خاضعٌ للظروف، متأثرٌ بالبيئة .

وغرضهم من هذا معروفٌ طبعاً، وهو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجزاً إنما هو كلام محمد الذى تأثر أولاً بأهل مكة فكان كلامه خشناً بعيداً عن المعارف العالية التى اكتسبها من أهل الكتاب فى المدينة .

ذلك كله ما يجب أن نحمل عليه انتقاد أولئك المضللين ، فإن قرينة عداوتهم للحق

وخصومتهم للإسلام ، ونقدهم للقرآن ، تبعد كلامهم عن كل تأويل حسن ، وتحمله على أسوإ فروضه .

والآن إليك على بنيان هذه الشبهة من القواعد، لتعلم إغراقها فى البطلان وإغراق ذويها فى الكذب والإسفاف .

(١) — فأما قولهم : إن القسم المكى قد تفرّد بالعنف والشدّة فينقضه أن فى القسم المدنى شدّة وعنفاً ، فدعوى تفرّد القسم المكى بذلك باطلة ، قال تعالى فى سورة البقرة وهى مدنية : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » وقال فيها أيضاً : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ » وقال فيها أيضاً : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وقال سبحانه فى سورة آل عمران — وهى مدنية كذلك — « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ . كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » .

وإنما اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكى والمدنى على الشدّة والعنف ، لأن ضرورة التربية الرشيدة ، فى إصلاح الأفراد والشعوب ، وسياسة الأمم والدول ، تقضى أن يمزُجَ المصلح فى قانون هدايته ، بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد والشدّة واللين .

ثم إن دعواهم انفراد المكى بالعنف والشدّة ، يفهم منه دعوى انفراد المدنى

باللين والصفح ، ودعوى خلوّ المكي من ذلك اللين والصفح. وهذا المفهوم باطل كمنطوقه أيضاً ودليل ذلك أن بين السور المكية آيات كريمة تفيض ليناً وصفحاً ، وتقطر سماحة وعفواً ، بل تنادي أن تقابل السيئةُ بالحسنة ، كما في قوله سبحانه في سورة فصلت المكية: « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

وكما في قوله سبحانه من سورة الشورى المكية : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

وكذلك قوله سبحانه في سورة الحجر المكية : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » : إلى آخر السورة. ومثله قول الله جلت قدرته في سورة الزمر المكية : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

(٢) وأما زعمهم أن فى القسم المكى سِباباً ، ويريدون من السباب معناه المعروف عندهم من الفحة والبذاءة ، والخروج عن حدود الأدب واللياقة ، فقد « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » . ونحن نتحدّاهم أن يأتوا بمثال واحد فى القرآن كله ، مكيِّه ومدنيه ، يكون من هذا اللون القذِر الرخيص . وهل يعقل أن القرآن الذى جاء يعلم الناس أصول الآداب ، يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب ؟ كيف وقد حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين ؟ فقال فى سورة الأنعام : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

نعم إن فى القرآن كله لا فى القسم المكى وحده تسفيهاً لأحلام المتنطعين ، الذين يُصِمّونَ آذانهم ، ويغمضون أعينهم عن الحق ، ويهملون الحجج والبراهين ، وهو فى ذلك شديد عنيف ، بيدَ أنه فى شدّته وعنفه ، لم يخرج عن جادّة الأدب ، ولم يعدل عن سنن الحق ، ولم يصدف عن سبيل الحكمة . بل الحكمة تتقاضاه أن يشتدَّ مع هؤلاء ، لأنهم يستحقون الشدّة ، ومن مصلحتهم هم ، ومن الرحمة بهم ، والخير لهم ، أن يشتدّ عليهم ليرْعوُوا عن باطلهم ، ويصيخوا إلى صوت الحق والرشد ، ويسيروا على هدى الدليل والحجة ، على حد قول القائل :

« فقسا ليزدجروا . ومنْ يكُ حازماً
فليقسُ أحياناً على منْ يرحمُ »

أضف إلى ذلك أن هذا التقريع الحكيم تجده فى السور المدنية ، كما تجده فى السور المكية . وإن كان فى المكى أكثر من المدنى ، لأن أهل مكة كانوا أشدّاء العارضة ، صعاب المراس ، مسرفين فى العناد والإباء ، لم يتركوا باباً من الشرِّ إلا دخلوه على الرسول وأصحابه ، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله بليل ، بل وجهوا إليه الأذى فى مُهاجره .

والشاهد على أن فى السور المدنية تقريعاً عنيفاً أيضاً عند المناسبات قوله سبحانه من سورة البقرة المدنية فى شأن المشركين : « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وقوله من سورة البقرة أيضاً فى شأن المنافقين « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إلى تمام ثلاث عشرة آية مليئة بالتوبيخ والتعنيف لتلك الحشرات الآدمية ، الذين ينفثون سمومهم ، ويفسدون المجتمع بسلاحٍ خطير ذى حدَّين هو سلاح النفاق والذبذبة . وكذلك تقرأ فى هذه السورة المدنية نفسها فى شأن اليهود آيات كثيرة من هذا الطراز ، تنقدهم وتنعى جرائمهم ، وتحمل عليهم حملةً شعواء ، تقبيحاً لجناياتهم وجنايات آبائهم من قبلهم . مثل قوله سبحانه : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » ومثل قوله « بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

ومثل قوله تعالى فى شأن النصارى من سورة آل عمران: « إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » الخ . وقوله فيهم أيضاً من هذه السورة : « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّالُّونَ » الخ ..

أما السور والآيات التى اعتمدت عليها الشبهة ، فلا تدلُّ على ذلك السباب الذى زعموه ووصموا به القرآن الكريم ، لأن سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ » غاية ما اشتملت عليه أنها إنذارٌ ووعيدٌ لأبى لهب وامرأته ، جزاء ما أساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما يدلُّ على ذلك سبب نزولها : أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس قال : لما نزلت « وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهرٍ يا بنى عدىٍّ ، لبطون قريش حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرأيتكم لوْ أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغيرَ عليكم أكنتمْ مصدقىَّ ؟ قالوا : نعم ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإنى نذيرٌ لكم بينَ يدىْ عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : تبًّا لكَ ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبى لهب كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق الرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى عن مجاهد أنها كانت تمشى بالنميمة .

فهذه الأسباب مجتمعةً تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبى لهب بما يستحقُّ من إنذاره بالهلاك والقطيعة ، وأن ماله لا ينفعه ولا كسبه ، وأنه خاسر هو وامرأته ، وأن مصيرهما إلى النار وبئس القرار .

ولا ريب أن فى هذا الوعيد العنيف ردعاً له ولأمثاله ، وتسليةً لمن أصيب بأذاهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية ، والتربية الحكيمة الربانية .

« ووضعُ الندى فى موضعِ السيفِ بالعلاَ
مضرٌّ كوضعِ السيفِ فى موضعِ الندى »

وأما سورة « والعصر » فليس فيها سباب ولا ما يشبه السباب ، وكل ما عرضت له

أنها جعلت الناس قسمين : قسماً غريقاً فى الخسران ، وقسماً فاز ونجا من هذا الخسران ، وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة . اقرأ قوله سبحانه: « وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ : إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » فهل ترى فيها ظِلاًّ للسباب والإقذاع ؟ ولكن القوم لا يستحون !.

وأما سورة « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » : فمبلغ ماتشير إليه ، أن المخاطبين شغلتهم الدنيا عن الدين ، وألْهتهم الأموال عن رب الأموال، حتى انتهت أعمارهم وهم على هذه الحال. وَغداً يُسألون عن هذا النعيم ، ويُعاقَبون على إهمال شكره بعذاب الجحيم .

وأما قوله سبحانه : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » ، فهو حكاية لما حلّ بالأمم السابقة كثمود وعادٍ ، حين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، ليكون من هذا القصص والخبر ، عبرةٌ لأُولئك الكفار ومُزْدَجَر ، فلا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ، لأن سُنّة الله واحدةٌ فى الأمم ، وميزان عدالته قائم فى كل جيل وقبيل . « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » .

الخلاصة

والخلاصة أن القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين ، فتارةً يشتدُّ وتارةً يلين ، تبعاً لما يقتضيه حالهم ، سواء منهم مكيُّهم ومدنيُّهم ، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ، ماهو وعد ووعيد وتسامُحٌ وتشديد ، وأخذٌ وردٌّ ، وجذب وشدٌّ ، كما سبق لك فى الأمثلة والشواهد الكثيرة . وإذا لوحظ أن أهل مكة كثُر خطابهم بالشدّة والعنف ، فذلك لما مَرَدوا عليه من أذى الرسول وأصحابه والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم . ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى فى مهاجرهم .

وكان القرآن فى حملته عليهم وعلى أمثالهم بالقول ، بعيداً عن كل معانى السباب والإقذاع ، متذرعاً بالحكمة والأدب الكامل فى الإرشاد والإقناع ، حاثًّا على الصبر والعفو والإحسان ، حتى ليخاطب الله رسوله فى سورة الأنعام المكيَّة بقوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ . وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

ظاهرة مسكتة

على أننا نلاحظ فى آفاق الآيات والسور المكية ، ظاهرة باهرة ، تُسكت كل معاندٍ ، وتُفحم كل مكابر فى هذا الموضوع . وهى أن القسم المكى خلا خُلُوًّا تاماً من تشريع القتال والجهاد والمخاشنة ، كما خلت أيامه فى مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل والمصاولة ؛ فلم يُسمع للمسلمين فيها صَلْصَلَةٌ لسيف ، ولا قعقعةٌ لسلاح ، ولا زحْف على عدو . إنما هو الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة ، بالرغم من إيغال الأعداء فى أذاهم ، ولجاجهم فى عُتُوِّهم وأساهم ، سبًّا وطعناً ، وقتلاً ونهباً ، ومقاطعةً ومهاترةً ، ومصاولةً ومكابرةً .

(٣) — وأما زعمهم أن القسم المكى يمتاز بكل مميِّزات الأوساط المنحطَّة فهو مردودٌ عليهم ، باطلٌ من كل باب دخلوه ، وعلى أى وجه أرادوه ؛ لأنهم إن أرادوا بذلك ما توهموه من انفراده بالشدة والعنف ، أو السباب والإقذاع ، فقد علمت مبلغ

مافيه من كذب وافتراء وجهالة بما جاء فى القرآن من ترغيب وترهيب ، فى شطريه المكى والمدنى على سواء .

وإن أرادوا بانحطاطه الإشارة إلى قصر آياته ، أو إلى خلوه من التشريعات التفصيلية العملية فهذا لا يدلُّ على الانحطاط ، بل قصر الآيات والخلو من تفاصيل التشريع لهما وجه آخر يظهر عند الكلام عليهما فى الشبهات الآتية .

وإن أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا منحطين فى الفصاحة والبيان والذكاء والألمعية ، فتلكَ ثالثةُ الأثافى ، لأن التاريخ شاهد عدل بأن قريشا كانت فى مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ، يصدرون عن رأيها ، ويرجعون إلى حكمها ، ويأخذون عنها ، ويركبون ظهور الإبل إليها ، وينزلون على قولها فيما يعلو وينزل من منظوم ومنثور ، ويذعنون لها بالسبق فى مضمار الفصاحة والبلاغة ، والذكاء والألمعيَّة ، والشرف والنبل . وكان لها هذا الامتياز من قبل الإسلام . ثم دام لها وزاد عليها فى الإسلام . واعترف لها به أهل المدينة وغيرهم من عرب وأعجام .!

ثم إن وصف القسم المكى بميزات الأوساط المنحطة ، تهمة جريئة وطعنة طائشة ، وأكذوبة مكشوفة ، مارضيها لأنفسهم أعداء الإسلام فى فجر دعوته من مشركين وأهل كتاب ، وعرب وعجم ، وأميين ومثقَّفين ، على حين أن أولئك العرب كانوا على أمِّيتهم أعرف الناس بانحطاط الكلام ورُقِيِّه ، وعلوِّه ونزوله . كما كانوا أحرص الناس على إحراج محمد ، ودحْض حجته ، ونقض دينه ، والقضاء على الإسلام فى مهده . ولكن سجيتهم لم تسمح بهذا الهُراء الذى يَهْرِف به الملاحدة فى القسم المكى من القرآن . بل نعلم بجانب بهذا أن القرآن كان له سلطان على نفوسهم إلى حدٍّ خارقٍ مدهش ، يقودهم بقوته إلى الإسلام ، ويدفع المعاند منهم إذا استمع إليه أن يسجد لبلاغته ، ويهتزَّ لفصاحته ، وأن يأخذ نفسه بالتشاغل عنه مخافة أن يؤمن عن طريق تأثره بسماعه !.

وأما زعمهم انقطاع الصلة بين القسم المكى والمدنى والتعارض بين أسلوبيهما ، فهو زعمٌ ساقطٌ مبنىٌّ على الاعتبارات الخاطئة الماضية التى أثبتنا بطلانها . ثم هو دعوى ماجنة ، يكذبها الواقع ، ويفنّدها الذوق البلاغىُّ المنصف . وأدلُّ دليل على ذلك ، أن أساطين البلاغة من أعداء الإسلام فى مكة نفسها أيام نزول القرآن لم يستطيعوا أن يتّهموا أساليب التنزيل بمثل هـذا الاتهام ولا كذباً ، لأنهم كانوا أعقل من ملاحدة اليوم ، يرون أن هذا الاتهام يكون كذباً مكشوفاً وافتراء مفضوحاً . بل هذا وحيدهم الوليد بن المغيرة يقول للملأ من قريش : « والله لقد سمعتُ من محمدٍ آنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ ، إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوةً ، وإنّ أعلاه لمُثْمِر ، وإن أسفله لمُغْدِق ، وإنه يَعْلُو وما يُعْلَى » .

ولما قالت قريش عندئذ : صَبَأَ واللهِ الوليد ، واحتالوا عليه أن يطعن فى القرآن ، لم يجد حيلة إلا أن يقول : « إنْ هٰذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر » . ولم يستطع أن يرمى القرآن بالتهافت والتخاذل ، وانقطاع الصلة بين أجزائه وانحطاط شىء من أساليبه ، على نحو ما يُرجف أولئك الخرّاصون · « وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُبَيِّتُونَ » .

٤ ــ وإذا بطل هذا وما سبقه ، بطل ما زعموه من تأثُّر القرآن بالوسط والبيئة ، وما رتّبوه عليه من أنه كلام محمد لا كلام رب العزة . ثم إنها اتهامات سخيفة لا تستحقُّ الرّد ، ما دام إعجاز القرآن قائماً ، يتحدّى كل جيل وقبيل ، ويُفحم كل معارض ومكابر . ولمبحث إعجاز القرآن مجالٌ آخر عسى أن يكون قريباً ·

ولولا أن الشبيبة الحاضرة من أنصاف المتعلمين وأشباههم ، ينخدعون بمثل هذه الترّهات ، ما أتعبنا أنفسنا فى علاجها ولا أتعبناك ، فاصبر معنا على دفع هذا المصاب ، والله يتولّى هدانا وهُداك .

الشبهة الثانية

يقولون: إن قصَر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية ، يدلُّ على انقطاع الصلة بين القسم المكى والقسم المدنى ، ويدل على أن القسم المكى يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة ، ويدلُّ على أن القرآن فى نمطه هذا نتيجةٌ لتأثر محمدٍ بالوسط والبيئة ، فلما كان فى مكة أميًّا بين الأميين جاءت سوَر المكى وآياته قصيرة ، ولما وجد فى المدينة بين مثقفين مستنيرين ، جاءت سوَر المدنى وآياته طويلة ، وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة التشكيك فى أن القرآن من عند الله « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ »

وننقض شبهتهم هذه بما يأتى :

أولاً — أن فى القسم المكى سوراً طويلةً مثل سورة الأنعام، وفى القسم المدنى سوراً قصيرةً مثل سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ » فكلامهم لا يسلم على عمومه .

ثانياً — إذا أرادوا الكثرة الغالبة لا الكلية الشاملة فهذا نسلمه لهم ، بيدَ أنه لا يدل على ما افتروه ورتبوه عليه ، لأن قصر معظم السور المكية وآياتها ، وطول معظم السور المدنية وآياتها ، لا يقطع الصلة بين قسمى القرآن : مكيه ومدنيه ، ولا بين سور القرآن وآياته جميعاً . بل الصلة كما يحسها كل صاحب ذوقٍ فى البلاغة ، محكمةٌ وشائعةٌ بين كافة أجزاء التنزيل . وقد تفنن العلماء وأشبعوا الحديث عن هذه المناسبات فى غضون تفسيرهم لكتاب الله . وتقدم تقرير هذا التناسب البارع فى صفحة ٧٣

على أنك تلاحظ آياتٍ مكية منبثة بين آيات سور مدنية ، وتلاحظ آيات مدنية منبثة بين آيات سور مكية . وبرغم ذلك لا يكاد أحد يحسُّ التفاوت أو التفكك

والانقطاع ، بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة ، وكال الاتصال ، وجمال التناسق والانسجام ، مما يجعل القرآن كله على طوله ، سلسلة واحدة محكمة متصلة الحلقات ، أو عقداً رائماً أخاذاً منتظم الحبات ، أو قانوناً رصيناً مترابط المبادئ والغايات .

ثالثاً — أن قصر السور والآيات المكية ، لايدل على مازعموه من امتياز القسم المكى بمميزات الأوساط المنحطة ، بل القصر مظهر الإيجاز ، والإيجاز مظهر رُقِىّ المخاطب ، وآية فهمه وذكائه ، بحيث يكفيه من الكلام موجزه ، ومن الخطاب أقصره . أما من كان دونه ذكاء وفهماً ، فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط ، إن لم يكن بالمساواة والتوسط .

ولهذا المعنى جاء قسم القرآن المكى قصيراً موجزاً فى معظمه ، وجاء قسم المدنى طويلاً مسهباً فى أكثره . ويرجع ذلك إلى ماأشرنا إليه قبلاً من أن القرشيين فى مكة كانوا فى الذؤابة من قبائل العرب ، ذكاء وألمعية ، وفصاحة وبلاغة ، وشرفاً وشجاعة فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته ، رعايةً لحق قانون البلاغة والبيان ، فى خطاب الذكى النابه ، بغير مايخاطب به مَنْ كان دونه . ولا يقدح فى مزايا المكيين هذه أنهم كانوا أميين لم يستنيروا بثقافة المدنيين ، فللثقافة والاستنارة ميدان ، وللذكاء والتمهر فى البيان ميدان . وأهل المدينة لم يكونوا على استنارتهم ليبلغوا شأن قريش فى تلك الخصائص والمزايا ، وكان منهم أهل كتاب درجوا على ألا يستفيدوا إلا بالتطويل ، ولا يقنعوا إلا ببسط الكلام .

ومن هنا تعرف مبلغ ما فى هذه الشبهة من زيف وكذب فيما رتبوه على هذا من أن القرآن كان نتيجةً لتأثر محمد بانحطاط أهل مكة فى القسم المكى ، وباستنارة أهل المدينة فى القسم المدنى ، حتى جاء قرآنه قصيرا فى الأول ، طويلا فى الثانى .

رابعاً ـ أن القرآن قد تحدّى الناس جميعاً مكيّهم ومدنيّهم ، وعربيّهم وعجميّهم ، أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من تلك السور القصيرة ، فعجزوا أجمعين ، وأسلم المنصفون منهم لله رب العالمين . فلو كان القصرُ أثراً للانحطاط كما يقول أولئك المرجفون ، لكان فى مقدور الممتاز غير المنحطّ أن يأتى بمثل ذلك المنحط ، بل بأرقى منه « سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

وإذا أراد أولئك المتقولون ، أن يعللوا القصر والطول بأن المكى لم يتعرض لتفاصيل التشريع بخلاف المدنى ، فإليك هذه الشبهة وتمحيصها فيما يليك .

الشبهة الثالثة

يقولون : إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام ، بينما القسم المدنى مشحونٌ بتفاصيل التشريع والأحكام . وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه ، فهو حين كان بمكة بين الأميين جاء قرآنه المكى خالياً من العلوم والمعارف العالية ، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء قرآنه المدنى مليئاً بتلك العلوم والمعارف العالية .

وننقض هذه الشبهة : (أولا) ـ بأن القسم المكى لم يَخلُ جملةً من التشريع والأحكام ، بل عرض لها وجاء عليها ، ولكن بطريقة إجمالية ، فإن مقاصد الدين خمسة : (١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (٢) وحفظ النفس (٣) وحفظ العقل (٤) وحفظ النسل (٥) وحفظ المال . وقد تحدّث القسم المكى عنها إجمالا . اقرأ إن شئت قوله تعالى من سورة الأنعام المكية « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى تمام ثلاث آيات بعدها ، جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة .

ولا يخفى عليك أن آيات العقائد فى القسم المكى ظاهرة واضحة ، وكثيرة شائعة ،

ليست من موضوع الاشتباه ، ولا يختلف اثنان فى أنها أكثر من مثيلاتها فى السور المدنية بأضعاف الأضعاف .

(ثانياً) ـ أن كثرة التفاصيل فى تشريع الأحكام بالمدينة ، ليس نتيجة لما زعموه .

إنما هو أمر لا بدّ منه فى سياسة الأمم ، وتربية الشعوب ، وهداية الخلق . ذلك أن الطفرة حليفةُ الخيبة والفشل ، والتدرُّج حليف التوفيق والنجاح ، وتقديم الأهمّ على المهمّ واجب فى نظر الحكمة . لهذا بدأ الله عباده فى مكة بما هو أهمّ : بدأهم بإصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية ، وتقويمها بعقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح ، حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ القويم ، وشعروا بمسئولية البعث والجزاء ، وتقرّرت فيهم هذه العقائد الراشدة ، فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق ، وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ، ثم كلفهم ما لا بدّ منه من أمهات العبادات . وهذا ما كان فى مكة . ولما مرنوا على ذلك ، وتهيأت نفوسهم للترقى والكمال ، بتطاول الأيام والسنين ، وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة ، جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام ، وأتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام .

ونظير ذلك ما تواضع عليه الناس قديماً وحديثاً فى سياسة التعليم ، من أنهم يلقنون البادئين فى مراحل التعليم الأولى أخفّ المسائل وأوجزها ؛ فيما يشبه قصارَ السور ، ومختصر القصص ، حتى إذا تقدَّمت بهم السن وعظم الاستعداد ، تلاطم بحرُ التعليم وزاد ، على حدّ قولهم . « الإمدادُ عَلَى قدْرِ الاستعداد » .

أما ما زعموه من أن ذلك كان نتيجةً لاختلاط محمد بأهل المدينة المستنيرين ؛ فينقضه أن القرآن جاء يصلح عقائدَ أهل الكتاب وأخطاءهم فى التشريع وفى التحليل والتحريم ، وفى الأخبار والتواريخ ، فكيف يأخذ المصيب من المخطىء ؟ وهل

يستمدُّ الحيُّ حياته من ميِّت ؟ اقرأ إن شئت قوله تعالى : « قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الخ وقوله جلَّ ذكره : « يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؟ » الخ وقوله عزَّ اسمه : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ » الخ وهذه الآيات من سورة آل عمران : وقوله تعالت قدرته من سورة المائدة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ » الخ .

(ثالثاً) أن مازعموه لو كان صحيحاً ، لظهر أثرُ أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة ، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة ، ولكانوا هم الأحرياء بهذه النبوَّة والرسالة ، ولسبق محمداً إليها كثيرٌ غيرُه من فصحاء العرب وتجّار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب فى المدينة والشام أيَّما اختلاط .

(رابعاً) أن القرآن تحدَّى الكافَّة من مكيين ومدنيين ، بل من جنٍّ وإنس ، فهلَّا كان أساتذته أولئك يستطيعون أن يُجاروه ولو فى مقدار سورة قصيرة واحدة ! يالها فرية ! ثم يالها صفاقة ! .

« هٰذَا كَلامٌ لَهُ خَبِيءٌ مَعْنَاهُ : لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ »

الشبهة الرابعة

يقولون : إن القرآن أقسم كثيراً بالضحى والليل ، والتين والزيتون وطور سينين ، وكثير من المخلوقات . ولا ريب أن القسم بالأشياء الحسية ، يدلُّ على تأثُّر القرآن بالبيئة فى مكة ، لأن القوم فيها كانوا أُميين ، لا تعدو مداركهم حدود الحسيات . أما بعد الهجرة واتصال محمد بأهل المدينة ، وهم قوم مثقَّفون مستنيرون ،

فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقى الجديد ، وخلا من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة .

وهذه الشبهة مدفوعة « أولاً » : بما قدّمنا من أن أهل مكة كانوا أرقى ذوقاً ، وأعلى كعباً ، وأعظم ذكاء ، من أهل المدينة ، وأن الخطاب معهم كان ملحوظاً فيه اشتماله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوّقون والمتمهرّون فى صناعة البيان . فلا يستقيم إذن مازعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تعدو حدود الحسيّات . والتاريخ خير شاهد ، وأعدل حاكم بامتياز العرب فى مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن .

(ثانياً) أن القسم بالأمور الحسية فى القرآن كالضحى والليل ، ليس منشؤه انحطاط القوم كما يزعمون ، إنما منشؤه رعاية مقتضى الحال فيما سيق القسم لأجله ، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أفحش العقائد فيهم ، وهى عقيدة الشرك . ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة ، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها ، إلا بلفت عقولهم إلى مافى الكون من شئون الله وخلق الله ، وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخالق المحيطة بهم ، ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده ، مادام هو الخالق وحده ، لأنه لا يستحق العبادة عقلاً ، إلا من كان له أثر الخلق فى العالم فعلاً . « أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » ؟ .

فعرضُ بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بالتوحيد ، بعد إقرارهم أنْ ليس لها خالق إلا الله ، إلزامٌ لهم بطرح الشرك ، وتوحيد الخالق . وهذا مطمحٌ نبيل ، أجاد القرآن فى أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله ، وكان فى إجادته هذه موفياً على الغاية ، واصلاً إلى قمة الإعجاز كعادته ، متفنناً فى ذكر النعم ، منوعاً فى سردها وبيانها . فمرّةً يحدّث عن خلق السماء ، ومرةً عن خلق الأرض ، وثالثةً عن أنفسهم ، ورابعةً عن أنواع الحيوان والنبات والجماد ، وهلم جرّا . وتارةً يختار القرآن فى عرضه طريقة السرد والشرح ،

وتارةً يختار طريقة الحلف والقسم ، لأن فى الحلف والقسم معنى العظمة التى أودعها الله فى هذه النعم دالةً على توحيده وعظمته ، حتى صحَّ أن يدور القسم عليها ، وأن يجىء الحلف بها .

ومن هنا أقسم الله بما أقسم من الأمور الحسية والمعنوية ، فالأمور الحسية كما ذكرنا ، والمعنوية مثل القرآن الكريم فى قوله سبحانه : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » لينبّههم إلى مدى إنعامه عليهم بتلك الأقسام كلها ، حسيّها ومعنويّها ، فيرعوُوا عن شركهم بتلك الآلهة المزيفة التى لا تملك ضرًّا ولا نفعاً ، وليس لها أىُّ شأن فى هذا الخلق . على حدِّ قوله سبحانه فى سورة الأحقاف : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

وأنت خبيرٌ بأن المصاب بداء الشرك لا سبيل إلى إنقاذه منه إلا بمثل هذه الطريقة المثلى ، التى سلكها القرآن بعرض دلائل التوحيد من آيات الله فى الآفاق على أنظار المشركين ، وهذا سبيل متعين فى خطاب كل مشرك ولو كان واحد الفلاسفة ، ووحيد العباقرة ، وأستاذ المثقفين والمستنيرين . فحلف القرآن بأمثال هاتيك المخلوقات والحسيات ، ليس دالًّا على سذاجة المخاطبين وانحطاطهم ، وليس بالتالى سبيلاً إلى الطعن فى القرآن بأنه كلام محمد المتأثر بانحطاط البيئة المكية كما يرجفون : « إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

(ثالثاً) أن فى مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسراراً تنأى بها عن السذاجة والبساطة وتشهد ببراعة المخاطبين بها وتفوّقهم فى الفهم والذكاء والفصاحة والبيان .

ذلك أن القسم بها كما قلنا ، إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها . حتى صحّ أن يكون مقسماً بها . وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب ، لأنها غير مشروحة ولا مفسرة في القرآن الكريم ، فلا يفهمها إلا من كمل عقله ، وسلم ذوقه . ولنشرح لك بعض الأسرار ، ليتبين الحال ، ولا يبقى للشبهة مجال .

(المثال الأول) أقسم الله سبحانه بالضحى والليل في قوله : « وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » وسبب نزول هذه الآيات : أن النبي ﷺ فتر عنه الوحي مرةً لا ينزل بقرآن ، فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه ؟ أي تركه وأبغضه ، فنزلت هذه الآيات مصدرة بهذا القسم ، مشيرةً إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه ﷺ بمنزلة الضحى ، تقوى به الحياة ، وتنمى به الناميات ، وما عرض بعد ذلك من فترة الوحي فهو بمنزلة الليل إذا سجى ، لتستريح فيه القوى وتستعدّ فيه النفوس لما يستقبلها من العمل . ومن المعلوم أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدة أول أمره حتى جاء إلى خديجة رضي الله عنها ترجف بوادرُه ، كما هو معروف في حديث الصحيحين . فكانت فترة الوحي لتثبيته عليه الصلاة والسلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه منه حتى تتمّ به حكمة الله في إرساله إلى الخلق . ولهذا قال له . « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ » أي إن كرّة الوحي ثانياً سيكمل بها الدين ، وتتمّ بها نعمة الله على أهله ، وأين بداية الوحي من نهايته؟ وأين إجمال الدين الذي جاء في قوله « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ » الخ من تفصيل العقائد والأحكام الذي جاء في مثاني القرآن؟ ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » .

فمن هذا نعلم أن الحلف بالضحى والليل في هذا المقام ، ليس مجرد تذكير

بآياته ونعمه فحسب . بل هو أيضاً إقامة دليل على أن تنزُّل الوحى أشبه بضَحْوة النهار ، وأن فترة الوحى أشبه بهدْأة الليل ، فاذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم ، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعى والحركة والحياة بالنهار ، والنوم والاستجمام بالليل ، يجب أن يتقبلوا أيضاً مايجرى على محمد ﷺ من نزول الوحى وفترته للمعنى الذى سلف

(المثال الثانى) أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون فى قوله جل ذكره: « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره لهذه السورة مانصُّه :

وقد يرجح أنهما (أى التين والزيتون) النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا ، بل لما يذكِّران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر . قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، فإنه كان يستظلُّ فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، وعندما بدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين . (والزيتون) إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر وأُهلك من أهلك منه بالطوفان ، ونجى نوح فى سفينته ، واستقرت السفينة ، نظر نوح إلى ماحوله ، فرأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض ، فأرسل بعض الطيور لعله يأتى إليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض ، فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسُرَّ ، وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر ، ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى امَّحى عمرانها ، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهى من أكبر مايذكر من الحوادث .

(وطور سينين) إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية ، وظهور نور التوحيد فى العالم ،

بعد ماتدنَّست جوانب الأرض بالوثنية ، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى ﷺ جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع . ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ماأصاب مَنْ قبلهم من الاختلاف فى الدين، وحجْب نوره بالبدع ، وإخطاء معناه بالتأويل ، وإحداث ماليس منه بسبيل ، فمنَّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ماسبق من أطوار الانسانية وبين مايلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة . وإليه أشار بذكر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذى فصلنا بيانه ، يتناسب القسم والمقسم عليه . اه ما أردنا نقله .

الشبهة الخامسة

يقولون : إن القسم المكى من القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام فى كثير من فواتح السور مثل « الٓمٓ وكٓهيعٓصٓ » . وذلك يبطل دعوى المسلمين أن القرآن بيان للناس وهدى ، وأنه كلام الله . وأىٌ بيان وأى هدى فى قوله (الٓمٓ) وقوله (كٓ-هٰ-يٰ-عٓ-صٓ)؟ بل هذه الأحرف وأمثالها فى غاية البعد عن الهدى ، بدليل أنه لم يهتد أحدٌ منهم ولا الراسخون فى العلم لإدراك معناها . فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل ، وإنما هذه الألفاظ من وضع كَتَبة محمد من اليهود تنبيهاً على انقطاع كلام واستئناف آخر ، ومعناها (أوْعَزَ إلىَّ محمد) أو (أمرنى محمد) يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته . وقريب من هذا قول بعضهم : إن الحروف العربية غير المفهومة المفتتح بها أوائل بعض السور ، إما أن يكون قصد منها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مُخيف ، أو هى رمزٌ للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

وننقض هذه الشبهة بأمور : (أولها) أنه لم يكن للرسول ﷺ كَتَبة من اليهود أبداً . وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحابى ، فليسألوه إن كانوا صادقين . (ثانيا) أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تستعمل فى تلك المعانى التى زعموها وهى (أَوْعَزَ إلىّ محمد) أو (أمرنى محمد) ، لا عند اليهود ولا عند غيرهم فى أية لغة من لغات البشر . (ثالثها) أن اليهود لم يعرف عنهم الطعن فى القرآن بمثل هذا . ولو كان هذا مطعناً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به ، وتوجيها له ، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، يتمنَّوْنَ أن يجدوا فى القرآن مغمزاً من أى نوع يكون ، ليهدموا به دعوة الإسلام . كيف وهم يكفرون به حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحق ؟ (رابعها) : أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافى وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة ، فإن هذه الأوصاف يكفى فى تحقُّقها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه . ولا ريب أن الكثرة الغامرة فى القرآن كلها بيانٌ للتعاليم الإلٰهية وهدايةٌ للخلق إل الحق ، ورحمةٌ للعالم من وراء تقرير أصول السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الجواب مبنىٌّ على أحد رأيين للعلماء فى فواتح تلك السور ، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا ، بل هو من الأسرار التى استأثر الله بعلمها ، ولم يطلع عليها أحداً من خلقه . وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية وهى ابتلاؤه سبحانه ، وتمحيصه لعباده ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وصادقَ الإيمان من المنافق ، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ، ودلائل هدايته ، وشواهد رحمته ، فى غير تلك الفواتح من كتابه ، بين آيات وسور كثيرة ، لا تعتبر تلك الفواتح فى جانبها إلا قطرة من بحر ، أو غَيْضاً من فَيْض .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ، ولو لم يفهموا معناها ، ولم يدركوا مغزاها . ثقةً منهم بأنها صادرةٌ من لدن حكيم عليم ، عمّت حكمته ما خفي وماظهر من معاني كتابه ، ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله .

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ »

ونظير ذلك أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك ، فتبتليهم بأمور يزلُّ عندها المزيّفون ، ويظهر الصادقون .

على حد قول القائل :ـ

وعلى حدِّ المثل القائل : « إنَّ أخاك من واساك » .

أَبْلُ الرِّجَالَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمَنَّ فِعَالَهُمْ وَتَفَقَّدِ
فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي اللَّبَانَةِ وَالتُّقَى فَبِهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ

ونظير ذلك أيضاً أن تكون أستاذاً معلماً ، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك ، ومبلغ ثقتهم فيك وفي علمك ، بعد أن زوّدتهم منك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الإلغاز والخفاء ، ليظهر الذكيُّ من الغبيِّ ، والواثق بك الوامق لك ، من المتشكك فيك المتردِّد في علمك وفضلك . فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألغاز والمعمّيات ، صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها ، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخفاء ، وهي الاختبار والابتلاء . وأما المتشكك فيك فيقول : ماذا أراد بهذا ؟ وكيف ساغ له أن يورده ؟ وما مبلغ العلم الذي فيه ؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زوّدته بها من قبل ذلك ، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل .

ولا يفوتنك فى هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلاً منهم « حاشاه حاشاه » فقد وسع كلَّ شىء علماً . إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق ، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم ، فلا يتهمون الله فى عدله وجزائه ، إذا جعل من الناس أهلاً لثوابه وآخرين لعقابه . « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » .

(الرأى الثانى فى فواتح السور) إن لها معنى مقصوداً معلوماً . قالوا : لأن القرآن كتاب هداية ، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى ، خصوصاً أننا أُمرنا بتدبر القرآن والاستنباط منه ، وهذا لا يكون إلا إذا فهم المعنى أيضاً .

غير أن أصحاب هذا الرأى تشعبت أقوالهم فى بيان هـذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور ، فذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بهـا ، واستدلوا بآثار تفيد ذلك ، منها ماروى عن النبى ﷺ أنه قال « يٓس قَلْبُ الْقُرْآنِ » وقوله « مَنْ قَرَأَ حٓم السَّجْدَةَ حُفِظَ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ » . ومنها اشتهار بعض السور بالتسمية بها . ثم إن ورودها فى فواتح سور مختلفة بلفظ واحد ، ينافى كونها أسماء للسور . بل شأنها فى ذلك شأن الأعلام المشتركة اشتراكاً لفظياً كلفظ محمد المسمى به أشخـاص كثيرون . فيضم إلى اسم كل منهم مايميز مسماه عن غيره فيقال : محمد المصرى ومحمد الشامى مثلا . وكذلك فواتح السور يقال فيها : «الٓم البقرة والٓم آل عمران وحٓم السجدة» وهلم جرا .

وبعضهم ذهب إلى أنهـا أسمـاء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها . وهؤلاء منهم من قال : إن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين أن الذى سيتلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله ، إنما تركب من مثل هـذه الحروف التى فى الفواتح ، وهى معروفة لهم ، يتخاطبون بما يدور عليها ولا يخرج عنها .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو الدلالة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

ومنهم من قال : إن المقصود منها القسم بها لإظهار شرفها وفضلها إذ هى مبنى كتبه المنزلة . ومنهم من قال : إن المقصود منها بيان نبوة محمد ﷺ من ناحية أنه ينطق بأسامى الحروف مع أنه أُمىٌّ لم يقرأ ولم يكتب ، والمعروف أن النطق بأسامى الحروف من شأن القارئ وحده ، لا سبيل للأمى إلى معرفتها ولا النطق بها ، فإتيانه بها وترديده لها ، دليلٌ مادىٌّ أمامهم على أنه لا يأتى بهذا القرآن من تلقاء نفسه ، إنما يتلقاهُ من لدن حكيم عليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم . وذلك أن قرع السمع فى أول الكلام بما يعيي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب ، دافعٌ لها أن تصغى وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالا : فهى كوسائل التشويق التى تُعرض فى مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثة فى التعليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها إلى الاستماع إليه . والمعروف أن أعداء الإسلام فى صدر الدعوة كان يقول بعضهم لبعض : « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » . فلما أُنزلت السُّوَرُ المبدوءة بحروف الهجاء ، وقرع أسماعهم مالم يألفوا ، التفتوا ، وإذا هم أمام آيات بيِّناتٍ استهوتْ قلوبهم ، واستمالتْ عقولهم ، فآمن من أراد الله هدايته ، وشارفَ الإيمانَ من شاء الله تأخيره ، وقامت الحجَّة فى وجه الطغاة المكابرين ، وأخذت عليهم الطرقُ فلا عذر لهم فى الدنيا ولا يوم الدين .

وقال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره لسورة آل عمران مانصه :

« إعلم أن القرآن كتابٌ سماوىٌّ . والكتب السماوية تُصرح تارةً وترمزُ أخرى . والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعانى والمغازى الشريفة . وقديماً كان ذلك فى أهل الديانات . ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين فى المدينة وفى بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجُمَّل المعروفة اليوم فى الحروف العربية ؟ فيجعلون الألف بواحد ، والباء باثنين ، والجيم بثلاثة ، والدال بأربعة ، وهكذا مارِّين على الحروف الأبجديَّة ، إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى الغين بألف ، كما ستراه فى هذا المقام .

كذلك ترى أن النصارى فى إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفى سوريا ، قد اتَّخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن . وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فى مصر . وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » لهذه الجملة : « يسوع المسيح بن الله المخلِّص » فالألف من إكسيس هى الحرف الأول من لفظ « إيسوس » يسوع . والكاف منها هى الحرف الأول من « كرستوس » المسيح . والسين منها هى حرف الثاء التى تبدل منها فى النطق فى لفظ « ثيو » الله . والياء منها تدل على « ايوث » ابن . والسين الثانية منها تشير إلى « ثوتير » المخلص . ومجموع هذه الكلمات : يسوع المسيح بن الله المخلِّص . ولفظ « إكسيس » اتفق أنه يدل على معنى سمكة ، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلٰههم .

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف ، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلَّت عليه الحروف . قال الحبر الإنجليزى صموئيل موننج : إنه كان يوجد كثيراً فى قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم . وكان كل مسيحى يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم اه :

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التى أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل

القرآن لجميع الناس من عرب وعجم ، كان لا بدّ أن يكون على منهج يلذّه الأمم ويكون فيه ما يألفون . وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التى فى أوائل السور ، وبين الجمّل عند اليهود ورموز النصارى ، إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبى ، أو بين علم العلماء وعلم العامّة . وبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز ، وكانت رموز اليهود هى حروف الجمل .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « مرّ أبو ياسر بن أخْطب برسول الله ﷺ وهو يتلو سورة البقرة : « الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » ثم أتى أخوه حيّ بن أخْطب وكعب بن الأشرف ، فسألوه عن « الٓمٓ » وقالوا : ننشدك الله الذى لا إله إلا هو أحقّ أنها أتتْكَ من السماء ؟ فقال النبى ﷺ : نَعَمْ كَذَٰلِكَ نَزَلَتْ . فقال حيّ : إن كنت صادقاً إنى لأعلم أَجَلَ هذه الأمة من السنين . ثم قالوا : كيف ندخل فى دين رجل دلّت هذه الحروف بحساب الجمّل على أن منتهى أجل أُمته إحدى وسبعون سنة ، فضحك النبى ﷺ . فقال حيّ : فهل غير هذا ؟ فقال : نعم « الٓمٓصٓ » . فقال حيّ : هذا أكثر من الأول ، هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ قال : نعم « الٓر » فقال حيّ : هذا أكثر من الأولى والثانية ، فنحن نشهد إن كنت صاقاً ما ملكت أُمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة . فهل غير هذا ؟ فقال نعم « الٓمٓر » . قال حيّ : فنحن نشهد أنّا من الذين لا يؤمنون ، ولا ندرى بأيِّ أقوالك نأخذ . فقال أبو ياسر : أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبيِّنوا أنها كم تكون ؟ فإن كان محمد صادقاً فيما يقول إنى لأراه سيجتمع له هذا كله . فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى أبالقليل نأخذ أم بالكثير ؟

فبهذا تعرف أيها الذكىّ أن الجمّل كانت للتعارف عند اليهود ، وهو نوع من

الرموز الحرفية ، فكانت هذه الحروف لا بدّ من نزولها فى القرآن ليأخذ الناس فى فهمها كل مذهب ويتصرف الفكر فيها .

ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف :

(الطريقة الأولى) أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم ملكه . وعنه أن « الر ، وحم ، ون » مجموعها الرحمن . وعنه أن « الم » معناه أنا الله أعلم ، ونحو ذلك فى سائر الفواتح . وعنه أن الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد أى القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . أقول : إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجلّ فى أكثر الأحوال ، وذكر الله أجلُّ شىء . ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدّم عن الأمم السالفة من النصارى فى إسكندرية ورومة . ولكن لا بدّ أن يكون هناك ما هو أعلى وأجل .

(الطريقة الثانية) أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ . وهذا مما ترضاه النفوس . ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة . وهذا النبي الأمى ﷺ قد نطق بها . والذى فى أول السور أربعة عشر حرفاً منها ، وهى كلها ثمانية وعشرون حرفاً إن لم تعدّ الألف حرفاً برأسه ، فالأربعة عشر نصفها . وقد جاءت فى تسع وعشرين سورة وهى عدد الحروف الهجائية إذا عدّت فيها الألف . وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهى . « فحثه شخص سكت » بنصفها ، وهى الحاء والهاء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة — أى يضعف الاعتماد عليها — وهى ما تقدّم ، وإما مجهورة وهى ثمانية عشر ، نصفها — وهو تسعة — ذكرت فى فواتح السور ، ويجمعها « لن يقطع أمر » .

والحروف الشديدة ثمانية وهى « أجِدت طبقك » أربعة منها فى الفواتح وهى « أقطك » .

والحروف الرخوة عشرون وهى الباقية ، نصفها عشرة وهى فى هذه الفواتح . يجمعها « حمس على نصره » .

والحروف المطبقة أربعة : الصاد والضاد والطاء والظاء . وفى الفواتح نصفها : الصاد والطاء .

وبقية الحروف — وهى أربعة وعشرون حرفاً — تسمى منفتحة ، نصفهاوهو اثنا عشر فى الفواتح المذكورة .

فانظر كيف أتى فى هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائيـة ، إن لم تعـدّ الألف ، وجعلهـا فى تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيهـا الألف ؟ وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقـة ونصف المنفتحة ؟ ! ! .

ولقد ذكرت لك قُلاًّ من كُثْرٍ مما ذكره العلماء فى هذا المقام ، ولا أطيل عليك خيفة السآمة والملل ، وكفاك ما أمليته عليك فى هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهـــذه الأوصاف ؟ وكيف وضعت الحروف على هذا النظام ؟ .

وإنى موقن أن المتعلم لوطلب منه أن يأتى بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه مااستطاع إلى ذلك سبيلا ، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة ؟ وكيف يراعى نصف المجهورة فى نفس العدد ؟ .

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ . ففائدة هذا الوجه أهمُّ من الوجه الأول ؛ فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثـانى ففيـه إعجازٌ للعقول وحيرة . فيقال : كيف تنصَّفُ الحروف الهجائية وتنصَّف أنواعُهـا من مهموسة

وشديدة الخ . وهذه الأنواع لم يدرسها أحـد فى العالم أيام النبوة . ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأنصافها !

إن ذلك ليعطى العقول مثلا من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذاً هو من الوحى ؟ . وهذا الوجه على قوّته يفضله مابعده .

(الطريقة الثالثة) أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً ، متناسقاً متناسباً . والـكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه ، موافقاً لإبداعه ، سائراً على منهاجه ، دلّ ذلك على أنه من عنده . وإذا جاء الـكتاب السماوى مخالفاً لنهجه ، منافراً لفعله ، منحرفاً عن سننه ، كان ذلك الـكتاب مصطنعاً مفتعلا منقولاً مكذوبا ؛ « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً » .

والعالم المشاهد ، فيه عدد الثمانية والعشرين . وذلك فيما يأتى :

(١) مفاصل اليدين فى كل يد أربعة عشر .

(٢) خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة فى أسفل الصلب ، وأربع عشرة فى أعلاه .

(٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمال والحمير والسباع وسائر الحيوانات التى تلد أولادها ، منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن .

(٤) عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح .

(٥) عدد الخرزات التى فى أذناب الحيوانات الطويلة الأذناب كالبقر والسباع .

(٦) عمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة ، كالسمك والحيّات وبعض الحشرات .

(٧) عدد الحروف التى فى لغة العرب التى هى أتمّ اللغات ، ثمان وعشرون حرفاً.

منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف ، وهى : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن . وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها ، وهى : أ ب ج ح خ ع غ ف ق ك م هـ و ى .

(٨) والحروف التى تخط بالقلم قسمان . منها أربعة عشر معلمة بالنقط وهى : ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ فـ قـ ن ، وأربعة عشر غير معلمة وهى : ا ح د ر س ص ط ع ك و هـ ل م لا . وهذا الحرف هو الألف التى هى من حروف العلة . أما الأولى فهى الهمزة . فهذه أربعة عشر حرفاً .وبقيت الياء ، وهى تنقط فى وسط الكلمة ولا تنقط فى آخرها . فأصبحت الحروف المعلمة أربعة عشر ، وغير المعلمة أربعة عشر ، والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم ، لتكون القسمة عادلة . والفضل فى هذا العدل للحكيم الذى وضع حروف الهجاء العربية ، فإنه كان حكيما ، والحكيم هو الذى يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية . وهذا جعل ثمانية وعشرين حرفاً مقسمة قسمين ، كل منها أربعة عشر كما فى مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات .

(٩) منازل القمر ثمان وعشرون منزلة . فى البروج الشمالية أربع عشرة وفى الجنوبية أربع عشرة . فهذا يفيد أن الموجودات التى عددها ثمانية وعشرون تكون قسمين كل منها أربعة عشر . فهكذا هنا فى القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين ، قسم منها أربعة عشر منطوق بهٌ فى أوائل السور ، وقسم منها أربعة عشر غير منطوق به فى أوائلها . وكأنه تعالى يقول : أىْ عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون وهى قسمان ، ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهى قسمان ، وهكذا . والحروف التى تدغم فى حرف التعريف والتى هى معلمة كلٌّ منها أربعة عشر . وضدها أربعة عشر فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى ، لأنى نظمت حروفه على هذا النمط الذى اخترته فى صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية ، فمن أين ابشر كمحمد أو غيره

أن ينظم هذا النظام ، ويجمل هـذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته ، والسنن الذى رسمته ، والنهج الذى سلكته ؟ إن القرآن تنزيلٌ منى وقد وضعت هـذه الحروف فى أوائل السور لتستخرجوا منهـا ذلك ، فتعلموا أنى ما خلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل جعلت النظام فى العالم وفى الوحى متناسبا . وهـذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ، ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال . إن اللغـات متغيِّرة ، وليس فى العالم لغة تبقى غير متغيِّرة إلا التى حافظ عليها دينٌ . وهل غير اللغة العربية حافظ عليهـا دين ؟! » .

هذا ــ ولا يخفى عليك أن ذاك الرأى الثانى فى فواتح السور أبلغ فى نقض الشبهة من الرأى الأول . لأنه ينفى مازعموه من أساس الاتهام ، وهو أنه ليس لهذه الفواتح معنى مفهوم ، ويقرر أن معانيها مفهومة على ماتبيّن فى تلك الوجوه السابقة . وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعانى ، فليس ذلك عيباً فى القرآن . إنما هو عيب فى استعداد بعض أفراد الإنسان . وكتاب الله خوطب به الخواصُّ كما خوطب به العوامُّ ، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظٌ لا يفهمها إلا الخاصَّة دون العامة .

وعلى كلا هذين الرأيين يتَّضح لك أن اشتمال القرآن على هذه الألفاظ ، ليس من قبيل اشتماله على لغو الكلام ، أو إظهار القرآن بمظهر عميق مخيف ، ولا يفهم منه أنها رموز المصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن ، إلى غير ذلك من الهذيان . بل ثبوت هذه الفواتح لا يقدح فى كون القرآن من عند الله ، سواء أفادت معنى ظاهراً أم لم تفد على ما بيَّنَّاه من حكمة الله البالغة فى إيرادها . والله هو الحكيم العليم .

الشبهة السادسة

يقولون : إن القرآن فى قسمه المكى قد خلا من الأدلة والبراهين ، بخلاف قسمه المدنى فإنه ملىء بالأدلة ، مدعَّم بالحجة ، وهذا برهان جديد على تأثُّر القرآن بالوسط الذى كان فيه محمد !

وننقض شبهتهم (أولاً) بما أسلفنا من أن القرآن لو كان نتيجة تأثر محمد بالوسط الذى يعيش فيه ، لكان الوسط أولى بتوجيه هذا المطعن عليه ، ولكان أعرف بهذا النقص فيه، فيظفر عليه ويدخل إلى إبطال دعوته من هذا الباب الواسع ، لا سيما أن الرسول فى مكة والمدينة كان له أعداء ألِدَّاء ، ليس لعدواتهم دواء .

(ثانياً) أنه لو صحَّ هذا لبطلت نبوَّته ، ولصح أن تكون النبوَّة لهم باعتبار أنهم مصدرها ، وأنهم أساتذته فيها . وهذا النقض يقال فى ردِّ شبهاتهم الماضية الساقطة ، التى تدل على فساد فطرتهم ، وعلى مقدار تبجُّحهم وتجنِّيهم على الحقيقة والتاريخ والاستخفاف بعقول الناس .

(ثالثاً) أن كذبهم فى هذه الشبهة صريحٌ مكشوف ، لأن القسم المكى حافل بأقوى الأدلة ، وأعظم الحجج ، على عقيدة الإسلام فى الإلهيَّات ، والنبوَّات ، والسمعيات . استمع إليه فى سورة « المؤمنون » المكية وهو يرفع قواعد التوحيد، ويزلزل بنيان الشرك إذ يقول : « مَا ٱتَّخَذَ ٱللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ، إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » وإذ يقول فى سورة الأنبياء المكية : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

وأنصت إليه فى سورة العنكبوت المكية وهو يدلل على نبوة محمد ﷺ إذ يقول: « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَنْ لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . وتدبر حجته التى أقامها لتقرير اقتداره على البعث بعد الموت فى قوله سبحانه من سورة ق المكية: « وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ، وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » وقوله فيها أيضاً: « أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

وانظر إليه يقيم الدليل العقلى على البعث والجزاء فى سورة المؤمنون المكية إذ يقول: « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » وفى سورة السجدة إذ يقول: « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » الخ . وفى سورة الجاثية المكية إذ يقول : « أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وتأمل مناقشته ونقضه بالحجة أوهام المشركين فى احتجاجهم لأباطيلهم بالمشيئة الإلهية إذ يقول فى سورة الأنعام المكية : « سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ

مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ . كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » . إلى غير ذلك من أدلة ساطعة ، وبراهين بارعة ، لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية . ولكن القوم استحبُّوا العمى على الهدى ، فاستمرءوا هذا الكذب والافتراء . نسأل الله أن يكفينا شرَّ الفتنة ، وأن يثبتنا على الحق ، فإن قلوب الخلق بيديه ، والأمر كله منه وإليه . « مَنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

المبحث الثامن

(فى جمع القرآن وتاريخه ، والرد على مايثار حوله من شبه ، ونماذج من الروايات الواردة فى ذلك)

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره فى الصدور . وتطلق تارة أخرى ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلماتٍ وآياتٍ وسوراً . هذا جمع فى الصحائف والسطور ، وذاك جمع فى القلوب والصدور . ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث فى الصدر الأول ثلاث مرات : الأولى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانية فى خلافة أبى بكر ، والثالثة على عهد عثمان ، وفى هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق . وقد أُثيرت فى هذا الموضوع شُبَه باردة لامناص لنا من أن نكشف عنها اللثام ، ثم نعرضها لحرارة الحقائق العلمية الصحيحة ، حتى تذوب وتَنْماع ،

أو تذهب وتتبخر « فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ » .

جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور

نزل القرآن على النبى ﷺ ، فكانت همته بادئ ذى بدء منصرفة إلى أن يحفظه ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه نبى أمى بعثه الله فى الأميين . « هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ » اه من سورة الجمعة . ومن شأن الأمى أن يعوّل على حافظته فيما يهمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعه . خصوصاً إذا أوتى من قوة الحفظ والاستظهار ، ماييسر له هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهى متمتعة بخصائص العروبة الكاملة ، التى منها سرعة الحفظ ، وسيلان الأذهان ، حتى كانت قلوبهم أناجيلهم ، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم ، وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم . ثم جاء القرآن فبهرهم بقوة بيانه ، وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه ، واستأثر بكريم مواهبهم فى لفظه ومعناه ، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة ! .

أما النبى ﷺ فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه ، أنه كان يحرك لسانه به فى أشد حالات حرجه وشدّته ، وهو يعانى مايعانيه من الوحى وسطوته ، وجبريل فى هبوطه عليه بقوته . يفعل الرسول كل ذلك استعجالا لحفظه وجمعه فى قلبه ، مخافة أن تفوته كلمة ، أو يفلت منه حرف . ومازال ﷺ كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له فى صدره ، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه ، فقال له فى سورة القيامة : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » وقال له فى سورة طه : « وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ

إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » . ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن فى قلبه الشريف ، وسيد الحفاظ فى عصره المنيف. ومرجع المسلمين فى كل مايعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن . وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه ، وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة . وكان جبريل يعارضه إياه فى كل عام مرة . وعارضه إياه فى العام الأخير مرتين . قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما : « سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن جبريل كان يعارضنى القرآنَ فى كلِّ سنةٍ مرَّة ، وإنهُ عارضنى العامَ مرتينِ ، ولا أراهُ إلَّا حضرَ أجلى » .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كان كتاب الله فى المحل الأول من عنايتهم . يتنافسون فى استظهاره وحفظه . ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه . ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار مايحفظون منه . وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها فى زواجها سورةً من القرآن يعلمها إياها زوجها . وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة الهجود ، إيثاراً للذة القيام به فى الليل ، والتلاوة له فى الأسحار ، والصلاة به والناس نيام ، حتى لقد كان الذى يمرُّ ببيوت الصحابة فى غسق الدُّجى ، يسمع فيها دويًّا كدوىِّ النحل بالقرآن . وكان الرسول ﷺ يذكى فيهم روح هذه العناية بالتنزيل ، يبلغهم ماأنزل إليه من ربه . ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم ، كما بعث مصعبَ بن عميرٍ وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ، يعلمانهم الإسلام ، ويقرئانهم القرآن ، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء .

قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبى ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجَّةٌ بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » .

ومن هنا كان حفّاظ القرآن فى حياة الرسول ﷺ جمّا غفيراً ، منهم الأربعة الخلفاء ،وطلحة ، وسعد ،وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبوهريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ، وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحفصه ، وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين ، رضوان الله عليهم أجمعين . وحفظ القرآن من الأنصار فى حياته صلى الله عليه وسلم أبىّ ابن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبوالدرداء ، ومجمع بن حارثة ، وأنس بن مالك ، وأبو زيد الذى سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومتى (رضى الله عنهم أجمعين). وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبى ﷺ . وأياما تكن الحال، فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين ، حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة .قال القرطبى «قدقتل يوم اليمامة سبعون من القرّاء .وقتل فى عهد رسول الله ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد » .

قال المحقق ابن الجزرى : « ثم إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لاعلى خط المصاحف والكتب . وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ، ففى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ قال : « إنّ رَبى قالَ لى قمْ فِى قرَيْشٍ فأنذرهمْ ، فقلتُ لهُ أىْ ربِّ إذنْ يثلغوا رأسى حتى يدعوهُ خبزَةً . فقال : إنى مبتليكَ ومبتلٍ بكَ ، ومنزلٌ عليكَ كتاباً لا يغسله الماء ، تقرَؤهُ نائماً ويقظانَ ، فابعثْ جنداً أبعث مثلهمْ ، وقاتلْ بمنْ أطاعكَ منْ عصاكَ . وأنفقْ ينفقْ عليكَ » فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج فى حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرأ فى كل حال كما جاء فى صفة أمته « أناجيلهم صدورهم » وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا فى الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب » . اه ما أردنا نقله .

ولا يشكلن عليك في هذا المقام ماجاء في صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : « ماتَ النبيُّ ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعةٍ : أبو الدرداء ومعاذ بن جبلٍ وزيد بن ثابت وأبو زيد . قال : « ونحنُ ورثناهُ » وأبو زيد هذا اسمه قيسُ بن السكن كما رواه أبو داود بإسناد على شرط الشيخين . وإنما قلنا لا يشكلن عليك هذا الحديث ، لأن الحصر الذى تلمحه فيه حصر نسبي ، وليس حصراً حقيقيًّا حتى ينفى أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ .

والدليل على أن هذا الحصر إضافى لا حقيقى هو مارواه البخارى عن أنس نفسه أيضاً وقد سأله قتادة عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أربعةٌ كلهم من الأنصار : أبيُّ بن كعبٍ ، ومعاذُ بنُ جبلٍ ، وزيدُ بنُ ثابتٍ ، وأبو زيد » اهـ فأنت ترى أن أنساً فى هذه الرواية ذكر من الأربعة أبيَّ بن كعب بدلاً من أبى الدرداء فى الرواية السابقة . وهو صادق فى كلتا الروايتين لأنه ليس بمعقول أن يكذِّب نفسه ، فتعين أنه يريد من الحصر الذى أورده الحصر الإضافى ، بأن يقال إن أنساً رضى الله عنه تعلق غرضه فى وقتٍ ما بأن يذكر الثلاثة ، ويذكر معهم أبيَّ بن كعب دون أبى الدرداء ، حاصراً الجمع فيهم ، ثم علق غرضه فى وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبيٍّ بن كعب .

وهذا التوجيه وإن كان بعيداً ، إلا أنه يتعين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين ، وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء . ومن هنا قال الماوردى : لا يلزم من قول أنس رضى الله عنه « لم يجمعه غيرهم » أن يكون الواقع كذلك فى نفس الأمر ، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك ، مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد ، ولا يتم له ذلك إلا إذا كان قد لقى كل واحد منهم ، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن فى عهد النبى ﷺ . وهذا فى غاية البعد فى العادة . وكيف يكون الواقع ماذكر ، وقد جاء فى صحيح البخارى أيضاً من طريق حفص بن عمر أن النبى ﷺ يقول : « خذوا

القرآن عن أربعة : عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَيٍّ بن كعب » والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأوَّلان ، واثنان من الأنصار وهما الأخيران . اهـ ولعل مراد الماوردى بهذا نفى الحصر الحقيقى وتوجيه الحصر الإضافى،على نحو مابيَّنَّا مستدلين بحديث أنس نفسه كما رأيت ، وبالروايات الأخرى التى حكى بعضهم فيها التواتر،وهى تصرح بأسماء أخرى غير أسماء هؤلاء الأربعة المذكورين فى رواية أنس هـذه . من تلك الروايات ما أخرجه النسائى بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال : « جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُ بِهِ كلَّ ليلةٍ ، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال له : اقرَأْهُ فى شَهْرٍ . . . إلى آخر الحديث » . ومنها ما أخرجه ابن أبى داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظى قال . « جَمَعَ القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ خمسةٌ من الأنصار : مُعاذ بن جبل ، وعُبادة بن الصامت ، وأُبَىُّ بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصارى » .

وذهب بعضهم إلى أن الجمع فى حديث أنس المذكور مرادٌ به الكتابة لا الحفظ . وبعضهم ذهب إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها ، أو تلقياً ومشافهةً عن الرسول ﷺ ، أو الجمعُ شيئاً فشيئا حتى تكامل نزوله .

وللإمام أبى بكر الباقلانى أجوبةٌ ثمانية يحاول بها دفع إشكال هذا الحديث. لكن ابن حجر ضعَّفها، وغيره فنَّدها. والخطب سهل على كل حال،وفيما ذكرناه كفاية للخروج من هذا الإشكال .

غير أنه لا يفوتنى أن أقضى لك على هـذا الإشكال بكلمة أعجبتنى عن المازرى إذ يقول مانصُّه : « وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ، ولا متمسَّك لهم فيه فإنا لا نسلم حمله على ظاهره : سلمناه. ولكن من أين لهم أن الواقع فى نفس الأمر كذلك؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألَّا يكون حفظ مجموعه

الجم الغفير . وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكلُّ الكلَّ ولو على التوزيع كفى ، وقال القرطبي : قد قتل يوم اليمامة سبعون ، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد . قال: وإنما خصَّ أنسٌ الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم ، أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم » اهـ .

ثم إن ماذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتمَّ حفظ القرآن آلافٌ مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة : عثمان ، وعلى ، وأُبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري . كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم،وأقرءوه لكثير غيرهم. جازاهم الله أحسن الجزاء . آمين .

ولعلك أيها القارئ الكريم لا تستكثر منا هذا المجهود الطويل في حديث أنس السابق،فإن بعض الملاحدة قد اتخذمنه مثاراً للطعن في تواتر القرآن.ومن وظيفتنا أن نردَّ المطاعن ونُفحم الطاعن . فأردنا أن نشبع الكلام في هذا الموضوع عند هذه المناسبة أداء للواجب من ناحية،ولنستغني عن إيراده في الشبهات الآتية من ناحية أخرى. «وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» .

جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا : إن همَّة الرسول وأصحابه كانت منصرفةً أول الأمر ، إلى جمع القرآن فى القلوب بحفظه واستظهاره ضرورةَ أنه نبيٌّ أميٌّ بعثه الله فى الأميين . أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم فى ذلك العهد . ومن هنا كان التعويل على الحفظ فى الصدور، يفوق التعويل على الحفظ بين السطور . على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم ، دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم .

ولكن القرآن حظى بأوفى نصيب من عناية النبى ﷺ وأصحابه ، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره ، عن عنايتهم بكتابته ونقشه ؛ ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم .

فهاهو ذا رسول الله ﷺ ، قد اتَّخذ كُتَّاباً للوحى ، كلما نزل شىء من القرآن أمرهم بكتابته ، مبالغةً فى تسجيله وتقييده . وزيادةً فى التوثُّق والضبط والاحتياط فى كتاب الله تعالى ، حتى تُظاهر الكتابةُ الحفظ ويُعاضِد النقشُ اللفظ .

وكان هؤلاء الكُتّاب من خيرة الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبى بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، وثابت بن قيس ، وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته . فيكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسُب (١) واللِّخاف (٢) ،

---

(١) العسب بضم العين والسين — جمع عسيب — وهو جريد النخل ، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض .

(٢) اللخاف — بكسر اللام — جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء وهى الحجارة الرقيقة . وقال الخطابى : صفائح الحجارة .

والرقاع[١]، وقطع الأديم[٢] وعظام الأكتاف والأضلاع . ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ . وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط، بيدَ أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف . بل كتب منثوراً كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا .

روى عن ابن عباس أنه قال . « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَنْ يكتب ، فقال : ضَعُوا هٰذِهِ السُّورَةَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا » . وعن زيد بن ثابت قال : « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرآنَ مِنَ الرِّقَاعِ » .

وكان هذا التأليف عبارةً عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول: « ضعوُا كذَا في موضعِ كَذَا » . ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل .

أما الصحابة — رضوان الله عليهم — فقد كان منهم من يكتبون القرآن ، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتفٍ أو عظم أو نحو ذلك ، بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ . ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورةً أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج في سَرِيةٍ مثلا فنزلت في وقت غيابه سورة ،فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه ، فيجمعه ويتتبَّعه على حسب ما يتسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك . وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب

---

(١) الرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد .

(٢) الأديم : الجلد .

جريا على عادة العرب فى حفظ أنسابها ، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة.

صفوة المقال :

وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد الرسول ﷺ ، وكانت كتابته ملحوظًا فيها أن تشمل الأحرف السبعة التى نزل عليها ، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة ، وبعض ماهو ثابت بخبر الواحد ، وربما كتبه غير مرتّب. ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً فى صحف ولا مصاحف عامة .

لماذا لم يجمع القرآن أيامئذ فى صُحُفٍ ولا مصاحف ؟

وإنما لم يجمع القرآن فى صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة :

أولها أنه لم يوجد من دواعى كتابته فى صحف أو مصاحف مثل ماوجد على عهد أبى بكر حتى كتبه فى صحف . ولا مثل ماوجد على عهد عثمان حتى نسخه فى مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بخير ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد ، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتُوفى على الغاية ، حتى فى طريقة أدائه على حروفه السبعة التى نزل عليها .

ثانيها : أن النبى ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحى بنسخ ماشاء الله من آية أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل منجّماً فى مدى عشرين سنة أو أكثر

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ، فقد علمت أن نزوله ، كان على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات .

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع فى صحف أو مصاحف والحال على ماشرحنا

لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ، أو حدث سبب. مع أن الظروف لا تساعد، وأدوات الكتابة ليست ميسورة، والتعويل كان على الحفظ قبل كل شيء. ولكن لما استقرّ الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول ﷺ، وأُمن النسخ، وتقرّر الترتيب، ووُجد من الدواعي مايقتضي نسخه فى صحف أو مصاحف، وفّق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن، وحياطة لأصل التشريع الأول، مصداقاً لقوله سبحانه: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ».

جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه

ألقت الخلافة قيادها إلى أبى بكر رضى الله عنه بعد غروب شمس النبوة، وواجهتْ أبا بكر فى خلافته هذه أحداثٌ شِدادٌ ومشاكل صعاب. منها موقعة اليمامة سنة ١٢ اثنتى عشرة للهجرة. وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردّة من أتباع مُسَيْلمة الكذاب، وكانت معركة حامية الوطيس، استُشهد فيها كثيرٌ من قُرّاء الصحابة وحَفَظَتِهم للقرآن، ينتهى عددهم إلى السبعين، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة، من أجَلّهم سالم مولى أبى حذيفة. ولقد هالَ ذلك المسلمين، وعزّ الأمر على عمر، فدخل على أبى بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن، خشية الضياع بموت الحفّاظ وقتل القرّاء. فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقّافاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجرّه التجديد إلى التبديل، أو يسوقه الإنشاء والاختراع، إلى الوقوع فى مهاوى الخروج والابتداع.

ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر تجلّى له وجهُ المصلحة، فاقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذى يشير به عمر ماهو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع

والإضافات الفاسقة . بل هو مُسْتَمَدٌّ من القواعد التى وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كُتَّاب للوحى ، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه . قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي فى كتاب فهم السنن ما نصُّه : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مُفرَّقاً فى الرقاع ، والأكتاف ، والعسُب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكانٍ إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراقٍ وُجدت فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء » اه .

تنفيذ أبى بكر للفكرة :

اهتمّ أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة ، ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت رضى الله عنه ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر فى جمع القرآن ، مالم يجتمع فى غيره من الرجال ، إذ كان من حُفَّاظ القرآن ، ومن كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد العَرْضَةَ الأخيرة للقرآن فى ختام حياته صلى الله عليه وسلم . وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه . فاستشار أبو بكر عمر فى هذا فوافقه . وجاء زيدٌ فعرض أبو بكر عليه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها ، فتردَّد زيدٌ أول الأمر ، ولكن أبا بكر ما زال به يعالج شكوكه ، ويبيِّن له وجه المصلحة ، حتى اطمأنَّ واقتنع بصواب ما نُدب إليه ، وشرع يجمع ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ، ويعاونونه فى هذا المشروع الجلل ، حتى تمّ لهم ما أرادوا « وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ » .

وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه أنَّ زيد بن ثابت رضى الله عنه قال :

« أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ ٱلْيَمَامَةِ (أى عقب استشهاد القراء السبعين

فى واقعة اليمامة) فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عنده . قال أبو بكر رضى الله عنه : « إن عمر أتانى فقال : إنَّ القتلَ قد استحرَّ (أى اشتدّ) يومَ اليمامة بقرّاء القرآن ، وإنى أخشى أنْ يستحر القتلُ بالقراء بالمواطنِ فيذهبَ كثيرٌ من القرآنِ وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآنِ . قلت لعمر : كيف نفعلُ ما لم يفعلهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا واللهِ خيرٌ ، فلم يزل عمرُ يراجعُنى حتى شرحَ اللهُ صدْرى لذلك ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عمرُ . قال زيد : قال أبو بكر : إنّكَ رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتهمك ، وقدْ كنت تكتبُ الْوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرُآن فاجمعه . فو الله لو كلفونى نقلَ جبلٍ من الجبالِ ، ما كانَ أثقل على ممّا أمرنى به منْ جمع القرآن ! قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو واللهِ خيرٌ فلم يزل أبو بكرٍ يراجعنى ، حتى شرح اللهُ صدرى للّذى شرح له صدرَ أبى بكرٍ وعمرَ . فتتبعتُ القرآن أجمعهُ من العُسبِ وَاللخافِ وصدورِ الرِّجالِ ، حتى وَجدْتُ آخر سورةِ التوبةِ معَ أبى خزيمةَ الأنصاريّ لَمْ أَجدْها معَ أحدٍ غيرِهِ « لقدْ جاءكُمْ رسُولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ » حتى خاتمة براءة . فكانت الصحفُ عند أبى بكر حتى توَفّاهُ الله ، ثم عند عمرَ حياتهُ ، ثم عند حَفْصَةَ بنتِ عمر » اه .

فهذ الحديث — كما ترى — يدلُّ على مبلغ اهتمام كبار الصحابة بالمحافظة على القرآن وعلى مبلغ ثقة أبى بكر وعمر بزيد بن ثابت ، وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لتوافر تلك المناقب التى ذكرها فيه أبو بكر . ويؤيد ورعَه ودينه وأمانتَه قوله : « فوَ اللهِ لو كلّفُونى نقلَ جبلٍ مِنَ الجبَالِ ، ما كان أَثقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أمرنى به من جَمْعِ القرْآن » . ويشهد بوفرة عقله تردُّده وتوقفه أول الأمر ومناقشتهُ لأبى بكر حتى راجعه أبو بكر وأقنعه بوجه الصواب . وينطق بدقّة تحرِّيه قوله : « فتتبَّعْتُ القرُآن أجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَاللخافِ وَصُدُورِ الرِّجالِ » اه . رضى الله عنه وأرضاه ، ورضى عنهم وعنا أجمعين .

دُستور أبى بكر فى كتابة الصُّحف :

وانتهج زيد فى القرآن طريقة دقيقة مُحكمة وضعها له أبو بكر وعمر ، فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبُّتٍ بالغ وحذر دقيق ، وتحريات شاملة ، فلم يكتف بما حفظ فى قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه . بل جعل يتتبَّع ويستقصى آخذاً على نفسه أن يعتمد فى جمعه على مصدرين اثنين : أحدهما . ما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى : ما كان محفوظاً فى صدور الرجال . وبلغ من مبالغته فى الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عَدْلان أنه كُتب بين يدى رسول الله ﷺ .

يدلُّ على ذلك ما أخرجه ابن أبى داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قَدِم عمر ، فقال : من كان تلقَّى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعُسُب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهدَ شهيدان » .

ويدلُّ عليه ما أخرجه أبو داود أيضا ، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ، ولزيد : « اقعُدَا على باب المسجدِ ، فمن جاءَكما بشاهِدين على شيءٍ من كِتاب الله فا كْتُباهِ » اه وهو حديثٌ رجاله ثقاتٌ وإن كان منقطعا . قال ابن حجر : « المراد بالشاهدين : الحفظُ والكتابةُ » .

وقال السخاوى فى جمال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصُّه : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ » . ولم يعتمد زيدٌ على الحفظ وحده ، ولذلك قال فى الحديث الذى رواه البخارى سابقاً ، إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبى خزيمة . أى لم يجدها مكتوبةً إلا مع أبى خزيمة الأنصارى ، مع أن زيداً كان يحفظها ، وكان كثيرٌ من الصحابة يحفظونها . ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة ، زيادةً فى التوثُّق ، ومبالغـةً فى الاحتياط . وعلى هذا

الدستور الرشيد ثَمّ جمعُ القرآن بإشراف أبى بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبى بكر فى الإشراف ، ولعمر فى الاقتراح ، ولزيد فى التنفيذ ، وللصحابة فى المعاونة والإقرار !.

قال علىٌّ كرم الله وجهه : « أعظمُ الناسِ فى المصاحفِ أجراً أبو بكر ، رحمةُ الله عَلَى أبى بكر ، هو أوَّل مَن جمعَ كِتَاب الله » أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف بسند حسن .

وقد قوبلت تلك الصحف التى جمعها زيدٌ بما تستحقُّ من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده . ثم حفظها عمر بعده . ثم حفظتها أمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر . حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان رضى الله عنه ، حيث اعتمد عليها فى استنساخ مصاحف القرآن . ثم ردّها إليها كما يأتيك بيانه إن شاء الله .

مزايا هذه الصُّحف :

وامتازت هذه الصحف أولا بأنها جمعت القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحرِّى ، وأسلم أُصول التثبُّت العلمى ، كما سبق شرحه لك فى الدستور السابق .

ثانياً : أنه اقتُصِرَ فيها على مالم تُنسخ تلاوته .

ثالثاً : أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها ، وتواتُر مافيها . ولا يطعن فى ذلك التواتر مامرَّ عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبى خزيمة ، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده ، وذلك لا يُنافى أنه وُجد محفوظا عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حدَّ التواتر ، وقد قلنا غير مرة : إن المعوَّل عليه وقتئذ كان هو الحفظ والاستظهار . وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر ، زيادة فى الاحتياط ؛ ومبالغةً فى الدقّة والحذر . ولا يعزُبَنَّ عن بالك أن هذا الجمع كان شاملا للأحرف

السبعة التى نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة فى الرقاع كذلك .

ملاحظة :

جمعُ القرآن فى صحفٍ أو مصحف على ذلك النمط الآنف بمزاياه السابقة التى ذكرناها بين يديك ، لم يعرف لأحدٍ قبل أبى بكر رضى الله عنه . وذلك لاينافى أن الصحابة كانت لهم صحفٌ أو مصاحفُ كتبوا فيها القرآن من قبل . لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبى بكر ، من دقة البحث والتحرِّى ، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ، ومن بلوغها حدَّ التواتر ، ومن إجماع الأمة عليها ، ومن شمولها للأحرف السبعة كما تقدَّم . وإذن لا يضيرنا فى هذا البحث أن يقال إن عليا رضى الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ، ولا يعكرُ صفوَ موضوعنا أن يستدلُّوا على ذلك بما نقله السيوطى عن ابن الفرس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال : « لمَّا كانَ بدء خلافةِ أبى بكر ، قعدَ علىٌّ بنُ أبى طالبٍ فى بيته ، فقيل لأبى بكرٍ : قدْ كرهَ بيعتكَ . فأرسلَ إليه ، فقالَ : أكرهتَ بيعتى ؟ فقال : رأيتُ كتابَ اللهِ يزادُ فيهِ ، فحدثتُ نفسى ألا ألبسَ ردائى إلا لصلاةٍ حتى أجمعهُ . قال لهُ أبو بكرٍ : فإنكَ نعمَ ما رأيتَ ! . قال محمدٌ : فقلتُ لعكرمةَ : ألَّفوهُ كما أنزلَ الأوَّلَ فالأوَّلَ ؟ قالَ : لوْ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يؤلِّفوهُ هذا التأليفَ ما استطاعوا . ! » اهـ وأخرج ابن أشتة من وجهٍ آخر عن ابن سيرين هذا الأثر ، وفيه أنه كتب فى مصحفه الناسخ والمنسوخ ، وأن ابن سيرين قال : فطلبت ذلك الكتاب ، وكتبت فيه إلى المدينة ، فلم أقدر عليه . اهـ .

نقول إن هذه الرواية وأشباهها لا تضير بحثنا ، ولا تعكر صفو موضوعنا ، فقصاراها

أنها تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن فى مصحف . لكنها لا تعطى هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية ، ولا تخلع عليه تلك المزايا التى للصحف أو المصحف المجموع فى عهد أبى بكر . بل هى مصاحف فردية ، ليست لها تلك الثقة ولا هذه المزايا . وإذا كانت قد سبقت فى الوجود وتقدّم بها الزمان فإن جمع أبى بكر هو الأول من نوعه على كل حال . وقد اعترف على بن أبى طالب نفسه بهذه الحقيقة فى الحديث الذى أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف بسند حسن آنفاً إذ قال : « أعظمُ النـاسِ أجراً فى المصاحفِ أبو بكرٍ ، رحمةُ اللهِ على أبى بكر ، هوَ أولُ منْ جمعَ كتابَ اللهِ » .

فهذا اعترافٌ صريحٌ من أبى الحسن بالأوليـة لجمـع أبى بكر على النحو الآنف . رضوان الله عليهم أجمعين .

جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه

اتسعت الفتوحات فى زمن عثمان ، واستبحر العمران ، وتفرّق المسلمون فى الأمصار والأقطار ، ونبتت ناشئةٌ جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد النـاس بالرسول والوحى والتنزيل . وكان أهل كل أقليم من أقاليم الإسلام ، يأخذون بقراءةِ من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يقرءون بقراءة أبىٍّ بن كعب ، وأهل الـكوفة يقرءون بقراءة عبدالله بن مسعود ، وغيرهم يقرأ بقراءة أبى موسى الأشعرى. فـكان بينهم اختلاف فى حروف الأداء ووجوه القراءة ، بطريقةٍ فتحت باب الشقاق والنزاع فى قراءة القرآن ، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف بل كان هذا الشقاق أشد ؛ لبعـد عهـد هؤلاء بالنبوّة ، وعدم وجود الرسول بينهم ، يطمئنون إلى حكمـه ، ويصدرون جميعاً عن رأيه . واستفحل الداء حتى كفّر بعضهم بعضاً ، وكادت تـكون فتنة فى الأرض وفساد كبير . ولم يقف هذا الطغيان عند حدٍّ ،

بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة ، وأصاب الصغار والكبار على سواء .

أخرج ابن أبى داود فى المصاحف من طريق أبى قلابة أنه قال : « لما كانت خلافةُ عثمان ، جعل المعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، والمعلِّمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، فجعل الغلمانُ يلتقون فيختلفونَ حتى ارتفعَ ذلك إلى المعلِّمينَ ، حتى كفَّرَ بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمانَ ، فخطب فقال : « أنتمْ عندى تختلفونَ ، فمنْ نأى عنى منَ الأمصارِ أشدُّ اختلافاً » .

وصدق عثمان ، فقد كانت الأمصار النائية أشدَّ اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز . وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعتهم المجامع ، أو التقوا على جهاد أعدائهم ، يعجبون من ذلك . وكانوا يمعنون فى التعجب والإنكار ، كلما سمعوا زيادةً فى اختلاف طرق أداء القرآن . وتأدى بهم التعجب إلى الشكِّ والمداجاة ، ثم إلى التأثيم والملاحاة . وتيقظت الفتنة التى كادت تطيحُ فيها الرءوس ، وتسفك الدماء ، وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى فى كتابهم . كما قال حذيفة لعثمان فى الحديث الآتى قريباً .

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها ، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون . إنما كان كل صحابى فى إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التى نزل عليها القرآن . ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد .

لهذه الأسباب والأحداث ، رأى عثمان بثاقب رأيه ، وصادق نظره ، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع ، وأن يستأصل الداء ، قبل أن يعزّ الدواء ، فجمع أعلام

الصحابه وذوى البصر منهم ، وأجال الرأى بينه وبينهم فى علاج هذه الفتنة ، ووضع حدٍّ لذلك الاختلاف ، وحسم مادة هذا النزاع . فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار ، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ماعداها ، وألاّ يعتمدوا سواها . وبذلك يرأبُ الصدع، ويجبر الكسر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادى فى ظلام هذا الاختلاف ، ومصباحهم الكشاف فى ليل تلك الفتنة ، وحكمهم العدل فى ذاك النزاع والمراء ، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء .

تنفيذ عثمان لقرار الجمع .

وشرع عثمان فى تنفيذ هذا القرار الحكيم ، حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة ، فعهد فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ ، وهم زيدبن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن ابن الحارث بن هشام . وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش .

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ، فبعثت إليه بالصحف التى عندها،وهى الصحف التى جمع القرآن فيها على عهدأبى بكر رضى الله عنه. وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء فى نسخها، وجاء فى بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثنى عشر رجلاً . وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة، ويقرءُوا أن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذى نجده الآن فى المصاحف .

دستور عثمان فى كتابة المصاحف :

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون فى هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن ، وعلموا أنه قد استقرّ فى العرضة الأخيرة ، وما أيقنوا صحته عن النبى ﷺ مما لم ينسخ . وتركوا ماسوى ذلك نحو قراءة « فامضوا إلى ذكر اللهِ » بدل كلمة « فاسعوْا » ونحو « وكانَ ورَاءهمْ ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غصباً »

بزيادة كلمة « صالحةٍ » ، إلى غير ذلك . وإنما كتبوا مصاحف متعدِّدة ، لأن عثمان رضى الله عنه قصد إرسال ماوقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين ، وهى الأخرى متعددة ، وكتبوها متفاوتةً فى إثبات وحذف وبدل وغيرها ، لأنه رضى الله عنه قصد اشتمالها على الأحرف السبعة . وجعلوها خالية من النقط والشكل ، تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجرُّدها من النقط والشكل نحو « فتبيَّنوا » من قوله تعالى « إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » فإنها تصلح أن تقرأ « فَتَثَبَّتُوا » عند خُلوِّها من النقط والشكل وهى قراءةٌ أخرى ، وكذلك كلمة « نُنشِزُهَا » من قوله تعالى « وَانْظُرْ إلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا » فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحةً عندهم أن يقرءوها « نُنشِرُهَا » بالزاى ، وهى قراءة واردة أيضاً ، وكذلك كلمة « أُفٍّ » التى ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً .

أما الكلمات التى لاتدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً ، فإنهم كانو يرسمونها فى بعض المصاحف برسمٍ يدلُّ على قراءة ، وفى بعضٍ آخر برسم آخر يدلُّ على القراءة الثانية ، كقراءة «وَصَّى» بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز ، وهما قراءتان فى قوله سبحانه : « وَوَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ » وكذلك قراءة « تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ » وقراءة « مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » بزيادة لفظ « مِنْ » فى قوله تعالى فى سورة التوبة : « لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » وهما قراءتان أيضا .

وصفوة القول : أن اللفظ الذى لاتختلف فيه وجوه القراءات ، كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة . أما الذى تختلف فيه وجوه القراءات ، فإن كان لا يمكن رسمه فى الخط محتملا لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه فى مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر : وكانوا يتحاشون أن

يكتبوه بالرسمين فى مصحف واحد خشية أن يُتوهَّم أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين فى قراءة واحدة ، وليس كذلك . بل هما قراءتان نزل اللفظ فى إحداهما بوجهٍ واحد ، وفى الثانية بوجهٍ آخر من غير تكرار فى واحدةٍ منهما .

وكذلك كانوا يتحاشَوْن أن يكتبوا هذا اللفظ فى مصحف واحد برسمين : أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثانى تصحيح للأول . أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية دون العكس تحكُّم ، أو ترجيحٌ بلا مرجِّح وذلك نحو كلمة (وَصَّى) بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز كما سبق .

أما اللفظ الذى تختلف فيه القراءات ، ويدلُّ عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو « فَتَبَيَّنُوا » « وَنُنْشِرُهَا » كما سلف بيانه ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين ، شبيهة بدلالة المشترك اللفظى على كلا المعنيين المعقولين . والذى دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخُطَّة فى رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التى نزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها ، حتى لا يقال : إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته ، أو منعوا أحداً من القراءة بأىِّ حرف شاء ؛ على حين أنها كلها منقولة نقلا متواتراً عن النبى صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ يقول : « فأىَّ ذلك قرأتم أصبتم فلا تُمَارُوا » وكان من الدستور الذى وضعه عثمان رضى الله عنه لهم فى هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء القرشيين « إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وزيدُ ابنُ ثابتٍ فى شىء مِنَ القُرْآنِ ، فاكْتُبُوهُ بلسان قريشٍ ، فإنما نزل بِلِسانِهم » ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ؛ وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرَق .

وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ، أن حذيفةَ بن اليمانِ قدِمَ على عثمانَ وكانَ يغازى أهلَ الشامِ فى فتحِ أرمينيّةَ وأذرَ بيجانَ معَ أهلِ العراقِ ، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهمْ فى القراءة ، فقال حذيفةُ لعثمانَ : يا أميرَ المؤمنينَ أدركْ هذهِ الأمة قبلَ أنْ يختلفُوا فى الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنصارى . فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ : أن أرسلى إلينا بالصحفِ ننسخها فى المصاحف ، ثمّ نردها إليكِ . فأرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمانَ ، فأمرَ زيدَ ابنَ ثابتٍ ، وعبدَ اللهِ بن الزبيرِ ، وسعيدَ بن العاصِ ، وعبدَ الرحمنِ بن الحارثِ ابن هشام ، فنسخوها فى المصاحفِ . وقالَ عثمانُ للرهطِ القرشيينَ الثلاثةِ : «إذا اختلفتمْ أنتمْ وزيدُ بنُ ثابتٍ فى شىء من القرآنِ فاكتبوهُ بلسانِ قريش ، فإنما نزلَ بلسانهمْ ، ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحفَ فى المصاحفِ ، ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ ،فأرسلَ إلى كلِّ أفق بمصحف مما نسخوا . وأمرَ بما سواهُ منَ القرآنِ فى كلِّ صحيفةٍ أومصحفٍ أنْ يحرَقَ » اهـ .

تحريق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة :

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة ، عمل على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار ، وأمر أن يحرق كلَّ ماعداها مما يخالفها ، سواء أ كانت صحفاً أم مصاحف . وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجادَّة فى كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التى توافر فيها من المزايا مالم يتوافر فى غيرها .

وهذه المزايا هى :

(١) الاقتصار على ما ثبت بالتواتر ، دون ما كانت روايته آحاداً .

(٢) وإهمال مانسخت تلاوته ولم يستقرَّ فى العرضة الأخيرة .

(٣) وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن . بخلاف صحف أبى بكر رضى الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور .

(٤) وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التى نزل عليها القرآن ، على مامرَّ بك من عدم إعجامها وشكلها ، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد .

(٥) وتجريدها من كل ماليس قرآناً كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى ، أو بياناً لناسخ ومنسوخ ، أو نحو ذلك .

وقد استجاب الصحابة لعثمان ، فحرقوا مصاحفهم ، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية . حتى عبد الله بن مسعود الذى نقل عنه أنه أنكر أولا مصاحف عثمان ، وأنه أبى أن يحرق مصحفه ، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة ، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها .

وبعدئذٍ طهر الجوُّ الإسلامى من أوبئة الشقاق والنزاع ، وأصبح مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبى بن كعب ، ومصحف عائشة ، ومصحف على ، ومصحف سالم مولى أبى حذيفة. أصبحت كلها وأمثالها فى خبر كان ، مغسولة بالماء أو محروقة بالنيران . « وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً » .

ورضى الله عن عثمان ، فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه ، وحافظ على القرآن ، وجمع كلمة الأمة ، وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم .

ولن يقدح فى عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية ، فقد علمت وجهة نظره فى ذلك . على أنه لم يفعل مافعل من هذا الأمر الجلل ، إلا بعد أن استشار الصحابة ، واكتسب موافقتهم ، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم .

روى أبو بكر الأنبارى عن سويد بن غفلة قال : « سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس : اتقوا الله وإياكم وَالغُلُوَّ فى عثمان ، وقولكم : حَرّاقُ مصاحف ، فو الله ما حرقها إلا عن ملأٍ منا أصحابَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم » .

وعن عمر بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لو كُنْتَ الوالىَ وَقْتَ عثمانَ ، لَفَعَلْتُ فى المصاحِفِ مِثلَ الذى فَعلَ عثمانُ » رضى الله عن الجميع ، وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع .

فذلكة :

تستطيع مما سبق أن تفرق بين مرّات جمع القرآن فى عهوده الثلاثة : عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر ، وعهد عثمان (رضى الله عنهما) فالجمع فى عهد النبى ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها فى مكانها الخاصّ من سورها ، ولكن مع بَعْثرَةِ الكتابة وتفرُّقها بين عُسُبٍ وعظام ، وحجارة ورقاع ، ونحو ذلك حسبما تتيسّر أدوات الكتابة ، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فقد كان عبارةً عن نقل القرآن وكتابته فى صحف مرتَّبَ الآيات أيضاً ، مقتصراً فيه على ما لم تُنسخ تلاوته مستوثقاً له بالتواتر والإجماع . وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتَّباً ، خشية ذهاب شىء منه بموت حملته وحفّاظه .

وأما الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما فى تلك الصحف فى مصحف واحد إمام ، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية ملاحَظاً فيها تلك المزايا السالف ذكرها مع ترتيب سوره وآياته جميعاً . وكان الغرض منه إطفاء الفتنة

التى اشتملت بين المسلمين حين اختلفوا فى قراءة القرآن ، وجمعَ شملهم وتوحيد كلمتهم ، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

الردُّ على ما يثار حول جمع القرآن من شُبه

كان القرآن ولايزال هَدَفاً لأعداء الإسلام ، يُسدِّدون إليه سهام المطاعن ، ويتَّخِذون من علومه مثاراً للشبهات يلفِّقونها زوراً وكذباً ، ويروِّجونها ظلماً وعدواناً . من ذلك ما نقصُّه عليك فى موضوعنا هذا مشفوعاً بالتفْنيد فيما يأتى :

الشبهة الأولى وهى تعتمد على سبع شبه

يقولون : إن فى طريقة كتابة القرآن وجمعه ، دليلاً على أنه قد سقط منه شىء وأنه ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أُنزل عليه . واعتمدوا فى هذه الشبهة على المزاعم الآتيـة :

(أولا) أن محمداً قال : رحم الله فلاناً لقد أذكرنى كذا وكذا آية . كنت أسقَطْتُهُنَّ ، ويرى أُنْسِيتُهُنَّ . فهذا الحديث فيه اعترافٌ من النبى نفسه بأنه أسقط عمدا بعض آيات القرآن أو أُنسيها .

(ثانياً) أن ما جاء فى سورة الأعلى « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ ٱللهُ » يدلُّ بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً قد أسقط عمداً أو أنسى آيات لم يتَّفق له من يذكِّره إياها .

(ثالثاً) أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة فى حذفه ، فمن ذلك

آية المتعة أسقطها علي بن أبي طالب بتّة ، وكان يضرب من يقرؤها . وهذا مما شنّعت عائشة به عليه فقالت : إنه يجلد على القرآن ، وينهى عنه ، وقد بدّله وحرّفه .

(رابعاً) أن أبي بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا نجده اليوم في المصحف وهو . « اللهمّ إنّا نستعينكَ ونستهديكَ ونستغفركَ ونتوبُ إليكَ ونؤمنُ بِكَ ونتوكّلُ عليكَ ونُثني عليكَ الخيرَ كلَّهُ . نشكرُكَ ولا نكفرُكَ ، ونخلعُ ونتركُ مَن يفجرُكَ . اللهمّ إيّاكَ نعبدُ ولكَ نصلّي ونسجدُ ، وإليكَ نسعى ونحفدُ . نرجو رحمتكَ ونخافُ عذابكَ ، إنّ عذابكَ الجدّ بالكفّارِ مُلحقٌ » .

(خامساً) أن كثيراً من آياته لم يكن لها قيدٌ سوى تحفُّظ الصحابة ، وكان بعضهم قد قتلوا في مغازي محمد وحروب خلفائه الأولين ، وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه من قبل أن يُوعِزَ أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه ، فلذلك لم يستطع زيدٌ أن يجمع سوى ما كان يتحفّظه الأحياء .

(سادساً) أن ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها ، فإنه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط ، وقد ضاع بعضها . وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آياتٍ نُسخت حرفاً لا حكماً . وهو من غريب المزاعم . وحقيقة الأمر فيها أنها قد سقطت بتّةً بضياع العظم الذي كانت مكتوبة عليه ، ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم .

(سابعاً) لما قام الحجّاج بنصرة بني أمية لم يُبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة كانت قد نزلت فيهم ، وزاد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما أراده ووجّه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة

وهى القرآن المتداوَل اليوم . وَعَمَدَ إلى المصاحف المتقدمة ، فلم يُبق منها نسخة إلا أغلى لها الخلّ وطرحها فيه حتى تقطّعت . وإنما رام بما فعله أن يتزلّف إلى بنى أمية ، فلم يُبْقِ فى القرآن ما يسوءهم .

نقض هذه المزاعم الباطلة

ملخّص هذه الشبهة أن القرآن الذى بأيدينا ناقص سقط منه ما سقط ، بدليل المزاعم السبعة التى سُقْناها أمامك . وإذن فلنمحص بين يديك هذه المزاعم ، لنـأتى بنيـان هذه الشبهة من القواعد .

(١) أما احتجاجهم الأول — وهو الحديث الذى أوردوه — فإنه لا ينهض حجةً لهم فيما زعموا من الشكّ فى الأصل الذى قامت عليه كتابة القرآن وجمعه . بل الأصلُ سليم قويم وهو وجودُ هذه الآيات مكتوبةً فى الوثائق التى استكتبها الرسول ، ووجودُها محفوظةً فى صدور أصحابه الذين تلقّوها عنه ، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر ، وأجمعوا جميعاً على صحّته . كما عُرف ذلك فى دستور جمع القرآن .

إنما قُصارى هذا الخبر أنه يدلُّ على أن قراءة ذلك الرجل ذكّرت النبى ﷺ إيّاها، وكان قد أُنسِيَها أو أَسْقطها (أى نسيانا) .

وهذا النوع من النسيان لا يزعْزع الثقة بالرسول ، ولا يشكِّك فى دقّة جمع القرآن ونَسْخه ، فإن الرسول ﷺ كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل ، ثم استكتبها كُتّابَ الوحى، وبلّغها الناسَ فحفظوها عنه ، ومنهم رجل الرواية عبّاد بن بشّار رضى الله عنه على ما رُوى .

وليس فى ذلك الخبر الذى ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التى كتبها كُتّاب الوحى، وليس فيه مايدلُّ على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعاً، حتى يُخاف عليها وعلى أمثالها الضياع ، ويُخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام،

كما يفترى أولئك الخرّاصون . بل الرواية نفسها تُثبت صراحةً أن فى الصحابة من كان يقرؤها وسمعها الرسول منه .

ثم إن دستور جمع القرآن — وقد مرّ آنفاً — يؤيد أنهم لم يكتبوا فى المصحف إلا ما تظاهر الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته . ومنه هذه الآيات التى يدور عليها الكلام هنا من غير ما شك .

ولا يفوتنّك فى هذا المقام أمران : (أحدهما) أن كلمة « أَسْقَطْتُهُنَّ » فى بعض روايات هذا الحديث ، معناها أسقطتُهن نسياناً ، كما تدلُّ على ذلك كلمة « أُنْسِيتُهُنَّ » فى الرواية الأخرى . . . ومحالٌ أن يُراد بها الإسقاط عمداً ، لأن الرسول ﷺ لا ينبغى له ولا يعقل منه أن يبدِّل شيئاً فى القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه ، وإلاَّ لكان خائناً أعظم الخيانة . والخائن لا يمكن أن يكون رسولاً .

هذا هو حكم العقل المجرَّد من الهوى ، وهو أيضاً حكم النقل فى كتاب الله ؛ إذ يقول سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وإذ يقول جلَّ ذكره : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ » .

(الأمر الثانى) أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التى سمعها الرسول من عبَّاد بن بشَّارٍ قد أُمَّحَتْ من ذهنه الشريف جملةً . غاية ما تفيده أنها كانت غائبةً عنه ثم ذكرها وحضرت فى ذهنه بقراءة عبَّاد . وغيبة الشىء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشىء ، غير محوه منه ، بدليل أن الحافظ منا لأىِّ نصٍ من النصوص يغيب عنه هذا النصُّ إذا اشتغل ذهنه بغيره ، وهو يوقن فى ذلك الوقت بأنه مخزون فى حافظته بحيث إذا دعا إليه داعٍ استعرضه واستحضره ثم قرأه . أما النسيان التامّ المرادف لامِّحاء الشىء من الحافظة ، فإن الدليل قام على استحالته على النبى ﷺ فيما يُخلُّ بوظيفة الرسالة والتبليغ . وإذا عرض له نسيان فإنه سحابة صيف لا تجىء إلا لتزول . ولا ريب أن نسيان الرسول هنا كان بعد

أن أدّى وظيفته وبلغ الناس وحفظوا عنه . فهو نسيانٌ لم يخلّ بالرسالة والتبليغ . . قال البدر العينى فى باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخارى ما نصّه :

وقال الجمهور : جاز النسيان عليه (أى على النبى ﷺ) فيما ليس طريقه البلاغ والتعليم ، بشرط ألاّ يُقرّ عليه ، بل لابدّ أن يذكره . وأما غيره فلايجوز قبل التبليغ ، وأما نسيان ما بلّغه كما فى هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف » اه .

هذا . ولقد كنت فى الطبعة الأولى تابعت بعض الكاتبين هنا فى اتهام هذه الرواية بالدسّ والوضع ، ولكن تبين لى بعد إعادة النظر ، وتنبيه بعض ذى الفِطَن ، أن الخبر صحيح رواه الشيخان ؛ ففى صحيح البخارى عن هشام عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سَمِعَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً يَقْرَأُ فى المسجد . فقالَ : يرحمُهُ اللهُ . لَقَدْ أذْكَرَنى كذا وكذا آيةً مِن سُورَةِ كذا » . زاد فى رواية أخرى : « وقال: أسقطتُهنَّ مِن سورَةِ كذا وكذا » .

وفى صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبى ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَقرأُ مِنَ اللّيلِ ، فقال: « يرحمُهُ اللهُ لقد أذكرنى كذا وكذا آيةً كنتُ أسقطتُها من سورة كذا وكذا » .

وقال النووىُّ فى كتابه التبيان فى آداب حملة القرآن ما نصّه : وثبت فى الصحيحين أيضاً عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ سمع رجلاً يقرأ ، فقال : « رحمهُ الله . لقدْ أذكرنِى آيةً كنتُ أسقطتُها » . وفى رواية فى الصحيح « كنتُ أُنسِيتُها » اه .

سبحان ربى ! « لاَ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنْسَى » .

(٢) وأما احتجاجهم الثانى وهو الاستثناء الذى فى قوله سبحانه « سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ » فلايدلُّ على مازعموا؛ لأنه استثناء صورىٌّ لا حقيقىٌّ . والحكمة فيه أن يعلن الله عباده أن عدم نسيانه ﷺ الذى وعده الله إياه فى قوله : « فَلاَ تَنْسَى » إنما هو محض فضل من الله وإحسان ، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه . وفى ذلك

الاستثناء الصورى فائدتان : إحداهما ترجع إلى النبى ﷺ حيث يشعر دائماً أنه مغمورٌ بنعمة الله وعنايته ، مادام متذكراً للقرآن لا ينساه . والثانية تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم ﷺ فيما خصه الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية ، فلا يفتتنون فيه كما فتنَ النصارى فى المسيح بن مريم .

والدليل على أن هذا الاستثناء صورىٌّ لا حقيقى أمران : (أحدهما) ماجاء فى سبب النزول وهو أن النبى ﷺ كان يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحى ، مخافةَ أن ينساه ويُفلت منه ، فاقتضت رحمة الله بحبيبه أن يطمئنهُ من هذه الناحية ، وأن يريحه من هذا العناء ، فنزلت هذه الآية . كما نزلت آية « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » وآية « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » .

(ثانيهما) أن قوله « إِلَّا ماشاء اللهُ » يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه . والمشيئة لم تقع بدليل ما مرَّ بك من نحو قوله : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » . وإذاً فالنسيان لم يقع ، للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق. فالذى عنده ذوقٌ لأساليب اللغة ، ونظرٌ فى وجوه الأدلة ، لا يتردَّد فى أن الآية وعدٌ من الله أكيد، بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى ، وعداً منه على وجه التأبيد، من غير استثناء حقيقى لوقت من الأوقات . وإلا لما كانت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام ، ولكان نزولها أشبه بالعبث ولغو الكلام !.

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره للاستثناء فى هذه الآية مانصه :

« ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ، ربما يوهم أن قدرة الله لا تسعُ غيره ، وأن ذلك خارج عن إرادته جلَّ شأنه ، جاء بالاستثناء فى قوله « إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ » ، فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفى النسيان رأساً . وقالوا : إن ذلك

كما يقول الرجل لصاحبه « أنتَ سهيمى فيما أملكُ إلا ماشاء الله » لايقصد استثناء شىء ، وهو من استعمال القلة فى معنى النفى. وعلى ذلك جاء الاستثناء فى قوله تعالى فى سورة هود « وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ » أى غير مقطوع . فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد ، بكرم من الله وسعة جود ، لا بتحتيم عليه وإيجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ماوهب ، لم يمنعه من ذلك مانع .

وما ورد من أنه ﷺ نسى شيئاً كان يذكره ، فذلك إن صح ، فهو فى غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التى أمر بتبليغها . وكل مايقال غير ذلك ، فهو من مدخلات الملحدين ، التى جازت على عقول المغفلين ، فلوثوا بها ماطهره الله ، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ ، ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشىء من ذلك » اه .

ذلك رأىٌ فى معنى الاستثناء ، وثمة وجه آخر فيه ، وهو أنه استثناء حقيقى ، غير أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره ، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرئُ نبيه فلاينسيه إلا ماشاءه وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التى بينها العلماء فى مبحث النسخ . والدليل على هذا قوله سبحانه فى سورة البقرة : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » قال العلامة أبو السعود فى تفسيره : وقرئ « مَانَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِكَهَا » وقرئ « مَانُنْسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا » والمعنى أن كل آية نذهب بها على ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا، إلى بدل أو إلى غير بدل « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أى نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال فى النوع والثواب من الذاهبة . وقرئ بقلب الهمزة ألفا (أو مثلها) أى فيما ذكر من النفع والثواب » اه ما أردنا نقله .

وأياما يكن معنى الاستثناء فى آية « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَاشَاءَ ٱللَّهُ » فإنه لايفهم منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسى حرفاً واحداً مما أمر بتلاوته وتبليغه للخلق ،

وإبقاء التشريع على قراءته وقرآنيته من غير نسخ . وذلك على أن المراد من النسيان المحو التامّ من الذاكرة . أما إن أريد به غيبة الذهن عنه فقد سبق القول فيه قريباً . ولا تحسبن أن دواعى سهو الرسول ونسيانه تنال من مقامه ، فإنها دواعٍ شريفة على حدّ ماقيل :

« ياسائلى عن رسول الله كيف سها ؟ والسهوُ من كل قلبٍ غافلٍ لاَهِى
سَهَا عن كل شىءٍ سرُّهُ ، فَسهَا عمــا ســوى اللهِ ، فالتعظيم لله

(٣ و ٤) وأما احتجاجهم الثالث والرابع بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عند جمعه مارأوا المصلحة فى حذفه ، ومنه آية المتعة وصيغة القنوت ، فهو احتجاجٌ باطلٌ قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتضافرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن ، وكانوا أيقظ الخلق فى حراسة القرآن ، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ماثبت بالتواتر ، وردُّوا كل مالم يثبت تواتره لأنه غير قطعى ويأبى عليهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعى . وقد سبق لك ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة فى كتابة الصحف على عهد أبى بكر ، وكتابة المصاحف على عهد عثمان . فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين فى التجنِّى والضلال .

وإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلمزوا الصحابة ويعيبوهم بهذه الحيطة البالغة لكتاب الله ، حتى أسقطوا ما لم يتواتر ، وما لم يكن فى العرضة الأخيرة ، وما نسخت تلاوته وكان يقرؤه مَنْ لم يبلغه النسخ ، نقول : إذا كانوا يريدون أن يَلْمِزوا الصحابة والقرآن بذلك ، فالأولى لهم أن يلمزوا أنفسهم وأن يُواروا سوآتهم . لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا فى كتاب الله بغير علم ، وأن ينسبوا إلى الله مالم تقم عليه حجة قاطعة ، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب المحرفة والأناجيل المبدلة .

وإنما نذكِّر هؤلاء بتلك الكلمة التى يردِّدونها هم ، وهى : « من كان بيته من زجاج فلا يرجمنَّ الناس بالحجارة » ! .

وكلمة الفصل فى هـذا الموضوع : أن آية المتعة التى يزعمون ، وصيغة القنوت التى يحكون ، لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا فى عداد القرآن ، وإن ادعوا قرآنيتهما فعليهم البيان : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

قال صاحب الانتصار مانصُّه : « إن كلام القنوت المروى أن أُبَىَّ بن كعب أثبته فى مصحفه ، لم تقم الحجَّة بأنه قرآن منزل ، بل هو ضربٌ من الدعاء ، وأنه لو كان قرآناً لنقل إلينا نقل القرآن ، وحصل العلم بصحته » ثم قال « ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآناً منزلا ثم نُسخ وأُبيح الدعاء به وخُلط بما ليس بقرآن . ولم يصحَّ ذلك عنه ، إنما روى عنه أنه أثبته فى مصحفه ، وقد أثبت فى مصحفه ماليس بقرآن من دعاء أو تأويل » اهـ . وهذا الدعاء هو القنوت الذى أخذ به السادة الحنفية . وبعضهم ذكر أن أُبيًّا رضى الله عنه كتبه فى مصحفه ، وسماه سورة الخَلْع والحَفْد ، لورود مادَّة هاتين الكلمتين فيه ، وقد عرفت توجيه ذلك .

والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم فى صحف أو مصاحف خاصَّة بهم ربما كتبوا فيها ماليس بقرآن ، مما يكون تأويلا لبعض ماغمض عليهم من معانى القرآن ، أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن فى أنه يصح الإتيان به فى الصلاة عند القنوت ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن . ولكن ندرة أدوات الكتابة ، وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم ، هوَّن عليهم ذلك ؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره . فظنَّ بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن ، مع أن الحقيقة ليست كذلك ، إنما هى ماعلمت . أضف إلى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى عليه حينٌ من الدهر نهى

عن كتابة غير القرآن إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم : «لا تَكْتُبُوا عَنِّى وَمَنْ كَتَبَ عَنِّى شَيْئًا غَيْرَ القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ» وذلك كله مخافة اللبْس والخلط والاشتباه فى القرآن الكريم .

(٥) وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفُّظ الصحابة ، وقد قُتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه ، فلا يُسَلَّم لهم ؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء ، كان يتحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يُسْتَشْهَدُوا ولم يموتوا ، بدليل قول عمر : «وَأَخْشَى أَنْ يموتَ القُرَّاء من سائِرِ المواطن» ومعنى هذا أن القرّاء كلهم لم يموتوا . إنما المسألة مسألة خشية وخوف . ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفَّاظ ، وكذلك عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وغيرهم ، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن فى الصحف ، وعاش منهم من عاش حتى نسخ فى المصاحف وحينئذ فكتابة زيد ما كتبه ، هى كتابة لكل القرآن ، لم تفلت منه كلمة ولا حرف .

وكان القرآن كله مكتوباً كما سبق شرحه وبيانه ، حتى إن الصحابة فى جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معاً ، دون الاكتفاء بأحدهما وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدى النبى ﷺ ويطلبون على ذلك شاهدين ، كما سلف إيضاحه .

(٦) وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط الخ ؛ فينقضه ما أثبتناه آنفا فى جمع القرآن ، من أن ترتيب آياته كان توقيفيًّا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد كُتَّاب الوحى أن يضعوا آية كذا فى مكان كذا من سورة كذا . وكان يُقرِئُها أصحابه كذلك ، ويحفظها الجميع ، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو ، حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفاً مستفيضاً بين الصحابة حفظًا وكتابة . ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن ،

مرتَّب الآيات كذلك فى كل رقعة أو عظْمة ، وإن كانت العظام والرقاع منتشرةً وكثيرةً مُبَعْثَرَةً . على أننا قرَّرنا غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقى قبل كل شيء ، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده ، فلا جرم كان فى الحفظ والكتابة معاً ، ضمانٌ للنظام والترتيب ، والضبط والحصر .

وأما قولهم فى هذا الاحتجاج : « وقد ضاع بعضها » فيظهر أنهم استندوا فى ذلك إلى ماورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة ، فلم يجدوها إلا عند خُزَيْمة بن ثابت فظنَّ هؤلاء أن هذا اعترافٌ منا بضياع شيء من مكتوب القرآن . وليس الأمر كما فهموا ، بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكتوبة إلا عند خزيمة بخلاف غيرها من الآيات ، فقد كانت مكتوبة عند عدَّة من الصحابة ، ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرءونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم : فُقدت آية . وإلا فما أدراهم أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها ؟ .

وأما قولهم فى هذا الاحتجاج أيضاً : إن ضياع ذلك البعض دعا الصحابة إلى دعوى النسخ وهو من غريب المزاعم ، فهو قولٌ أثيمٌ أرادوا به الطعن على النسخ وإنكاره ، وسيأتيك الكلام على النسخ وحكمته ودفع الشبه عنه فى مبحثٍ خاص إن شاء الله .

(٧) وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحجَّاج ، فهى نسبة كاذبة ، لا برهان لهم بها ، ولا دليل عليها . وهاهو التاريخ ، فليأتوا لنا منه بسلطان مبين على أن الحجاج جمع المصاحف ، فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها . ولو أنه فعل ذلك لانقل إلينا متواتراً ، لأن هذا مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره ! وكيف يفعل ذلك ، والأمة كلها تُقِرُّه ، وأئمة الدين الموجودون فى عهده كالحسن البصرى يسكتون ولا ينكرون ، ولا يدافعون ولا يستقتلون ؟ « إِنْ هٰذا إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

ثم إن الحجاج كان عاملاً من العمال على بعض أقطار الإسلام ، فأنى له أن يجمع المصاحف ويحرقها فيما عدا ولايته التي هو عامل عليها ؟

وإذا فرضنا أن الحجاج كان له من القوة والشوكة ما أسكت به كل الأمـة فى زمانه على هذا الخرق الواسع فى الإسلام والقرآن ، فمـا الذى أسكت المسلمين بعد انقضاء عهد الحجاج ؟ وإذا كان الحجاج قد استطاع التحكم فى المصاحف ، والتلاعب فيهـا بالزيادة والنقص ، فـكيف استطاع أن يتحكم فى قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة فى ذلك العهد ، حتى يمحو منها ماشاء ويثبت ماأراد ؟! .

هذه دعاوى ساقطة ، تحمل أدلة سقوطها فى ألفاظها ، وتدلُّ على جرأة القوم وإغراقهم فى الجهل والضـلال . « وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » . نسأل الله السـلامة بمنه وكرمه . آمين .

الشبهة الثانية

يقولون : إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع ، حصلت فيه زيادة. والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوذتين من القرآن ، وأن فى القرآن ماهو من كلام أبى بكر وكلام عمر .

وننقض هذه الشبهة (أولاً) : بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذى تمسكتم به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن . والمسألة مذكورة فى كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تمحيصها والجواب عليها .

وخلاصة ماقالوه : ان المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن . ويشكل على هذا مانقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين . بل روى أنه حكَّ من مصحفه المعوذتين ، زعماً منه أنهما ليستا من القرآن .

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل ، قال النووى فى شرح المهذَّب مانصه : «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئاً منها كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطلٌ ليس بصحيح » اهـ وقال ابن حزم فى كتاب القدح المعلى : (هذا كذبٌ على ابن مسعود وموضوع) . بل صحَّ عن ابن مسعود نفسه قراءةُ عاصم ، وفيها المعوذتان والفاتحة . وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر « أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما فى الصلاةِ » . زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً : « فإنِ استطعتَ ألاَّ تفوتكَ قراءتهما فى صلاةٍ فافعلْ » ، وأخرج أحمد من طريق أبى العلاء بن الشِّخِّير عن رجل من الصحابة أن النبى ﷺ أقرأنا المعوذتين وقال له : إذا أنتَ صليتَ فاقرأْ بهما . وإسناده صحيح .

(ثانياً) يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته ،

كان قبل علمه بذلك ، فلما تبين له قرآنيتهما بعد ، وتمّ التواتر ، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان فى مقدّمة من آمن بأنهما من القرآن .

قال بعضهم : « يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده ، فتوقف فى أمرهما . وإنما لم ينكر ذلك عليه ، لأنه كان بصدد البحث والنظر ، والواجب عليه التثبت فى هذا الأمر » اهـ . ولعل هذا الجواب هو الذى تستريح إليه النفس ، لأن قراءة عاصم عن زرعة عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهى صحيحة ، ونقلها عن ابن مسعود صحيح ، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر . إذاً فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود ، جمعاً بين الروايتين .

وما يقال فى نقل إنكاره قرآنية المعوذتين يقال فى نقل إنكاره قرآنية الفاتحة . بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة ، أدخل فى البطلان ، وأعرق فى الضلال ، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثانى التى تُثَنَّى وتكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، على لسان كل مسلم ومسلمة . فحاش لابن مسعود أن يكون قد خفى عليه قرآنيتها ، فضلاً عن إنكاره قرآنيتها . وقصارى ما نقل فيها عنه أنه لم يكتبها فى مصحفه ، وهذا لا يدلُّ على الإنكار . قال ابن قتيبة ما نصه : « وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه ، فليس لظنه أنها ليست من القرآن ـ معاذ الله ـ ، ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافةَ الشكِّ والنسيان ، والزيادة والنقصان » اهـ ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة فى مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن ، وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان .

(ثالثاً) أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله ، فإن إنكاره هذا لا يضرّنا فى شىء ، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن ، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر . ولم يقل أحد فى الدنيا :

إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبنى عليه ألا يخالف فيه مخالف . وإلا لأمكن هدم كل تواتر ، وإبطال كل علم قام عليه ، بمجرد أن يخالف فيه مخالف ، ولو لم يكن فى العير ولا فى النفير . قال ابن قتيبة فى مشكل القرآن : — « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن . لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ، ولا نقول إنه أصاب فى ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار » اهـ .

(رابعاً) أن ما زعموه من أن آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » الخ من كلام أبى بكر فهو زعمٌ باطل ، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل . وقد جاء فى الروايات الصحيحة أنها نزلت فى واقعة أحد ، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم ، وأنها ليست من كلام أبى بكر . وذلك أنه لما أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما أصيبوا به ، وكسرت رباعيةُ (١) النبي صلى الله عليه وسلم ، وشجّ (٢) وجهُه الشريف ، وجحشت (٣) ركبته ، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل . هنالك قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيّ فيأخُذ لنا أماناً من أبى سفيان . وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم . وقال أناس من المنافقين : إن كان محمد قد قتل ، فالحقوا بدينكم الأول . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : إن كان محمد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء ، (يعنى المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعنى المنافقين) ، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

وروى أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، فقد ورد أنه قال :

---

(١) الرباعية : هى السن التى بين الناب والثنية (٢) شجُّ الوجه : جرحه .

(٣) جحشُ الركبة : خدشها .

عرفت عينيه تحت المغفر تَزْهِرَان، فناديت بأعلى صوتى: يامعشر المسلمين: أبشروا! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه رضى الله عنهم يُنافحون عنه. ثم لام النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على الفرار. فقالوا: يارسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا. أتانا الخبر أنك قُتلت، فرُعِبَتْ قلوبنا، فولَّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى هذه الآية: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ. أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً » الخ من سورة آل عمران.

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبى بكر، يعتمدون فيما طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ، ومن ردِّ أبى بكر عليه بهذه الآية، فزعموا أنها من كلام أبى بكر، وما هى من كلام أبى بكر. إنما هى من كلام رب العزة، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ ببضع سنين، والمسلمون جميعاً — ومنهم أبو بكر وعمر — يحفظونها ويعرفونها. غير أن منهم من ذهل عنها كعمر، لهول الحادث وشدة الصدمة، وتصدُّع قلبه بموت رسول الرحمة وهادى الأمة ﷺ.

وكان من آثار ذلك أن عمر رضى الله عنه غفل عن هذه الآية يوم تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يومئذ وقال: «إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات. ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: مات. والله ليرجعنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى. فَلَيُقَطِّعَنَّ أيدىَ رجالٍ وأرجلهم، زعموا أن رسول الله ﷺ مات ».

هنالك نهض أبو بكر ينقذ الموقف فقال: « على رِسْلك ياعمر، أنْصِتْ، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان

يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم تلا هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » إلى آخرها . قال الراوى : فوالله ، لكأنّ الناسَ لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، فأخذها الناس من أبى بكر . وقال عمر : ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعَقِرْتُ(١) حتى وقعت على الأرض ،ماتحملنى رِجْلَاىَ . وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » اه .

وهذه الآية – كما ترى – لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبى بكر ، بل هى تحمل فى طيِّها أدلة كونها من كلام الله ، وأن الصحابة يعلمون أنها من كلام الله ، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح ببضع سنين . ولكن ما الحيلة فيمن أعماهم الهوى والتعصُّب؟ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

(خامساً) : أن ما ادَّعوه من أن آية « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » من كلام عمر ، مردودٌ أيضاً بمثل مارددنا به زعمهم السابق فى آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » الخ . بل زعمهم هذا أظهر فى البطلان ، لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى » فنزلت « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » فى سورة البقرة . وهناك فرق بين كلمة عمر فى تمنّيه الذى هو سبب النزول ، وبين كلمة القرآن النازلة بذلك السبب ، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ « لو » . أما تمنِّى عمر فجاء الفعل فيه بصيغة الماضى وقرن بلفظ « لو » . وتحقيق القرآن أمنيّة أو أمنياتٍ لعمر ، لا يدل على أن ما نزل تحقيقاً لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر . بل البعد بينهما شاسع ، والبون بعيد .

---

(١) قال فى المختار : « والعَقَر بفتحتين: أن تُسْلِمَ الرجلَ قوائمُهُ فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهَش . وبابه طرب . ومنه قول عمر رضى الله عنه : فَعَقِرْتُ حتى خَرَرْتُ إلى الأرض » اه .

الشبهة الثالثة

يزعم بعض غُلاة الشيعة أن عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر أيضاً حرّفوا القرآن، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره . ورووا عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله : أن القرآن الذى جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية[1] . وروى محمد ابن نصر عنه أنه قال: كان فى سورة «لم يكن» اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم .وروى محمد ابن جهنم الهلالى وغيره عن أبى عبدالله أن لفظ « أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » فى سورة النحل ليس كلام الله ، بل هو محرف عن موضعه ، وحقيقة المنزل « أئمة هى أزكى من أئمتكم». ومنهم من قال : إن القرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أُسقطت بتمامها ، وأن أكثر سورة الأحزاب سقط ؛ إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام ، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت . وكذلك ادعوا أن الصحابة أسقطوا لفظ « وَيْلَكَ » من قبل « لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » وأسقطوا لفظ « عَنْ وِلَايَةِ عَلِيٍّ » من بعد « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُونَ » وأسقطوا لفظ « بعلىِّ بن أبى طالب » من بعد « وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ » وأسقطوا لفظ « آل محمدٍ » من بعد « وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا » إلى غير ذلك .

فالقرآن الذى بأيدى المسلمين اليوم شرقاً وغرباً ، أشدُّ تحريفاً عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والإنجيل ، وأضعف تأليفاً منهما وأجمع للأباطيل ! « قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ » .

ونقض هذه الشبهة بما يأتى :-

(أولاً) أنها اتهامات مجردة عن السند والدليل ، وكانت لا تستحق الذكر لولا

---

(١) مع العلم بأن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومئتا آية وكسور كما يأتى .

أن ردّدها بعض الملاحدة ، وربما يخدع بها بعض المفتونين . ويكفى فى بطلانهـا أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبه برهان .

« والدعاوى مالم يُقيموا عليها بيِّنَاتٍ ، أبناؤها أَدْعِيَاء »

ولـكن هكذا شاءت حماقتهم وسفاهتهم ! « وَمَنْ يُهِن اللهُ فما لهُ مِنْ مكْرِمٍ ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ مايَشَاءُ » .

(ثانياً) أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف ، ولم يُطق أن يكون منسوباً إليهم وهو منهم ، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمح بهم التفكير وغاب عنهم الصواب . قال الطبرسى[(١)] فى مجمع البيان ما نصه : « أما الزيادة فيه — أى القرآن — فمجمع على بطلانها . وأما النقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية . والصحيح خلافه . وهو الذى نصره المرتضى ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء » اهـ .

وقال الطبرسى أيضاً فى مجمع البيان ما نصه : « أما الزيادة فى القرآن فمجمع على بطلانها ، وأما النقصان فهو أشد استحالة . ثم قال : إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الـكبار والوقائع العظام والـكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدّت ، والدواعى توفّرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه شىء فيما ذكرناه ، لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شىء اختلف فيه من إعرابه وقراءاته وحروفه وآياته ، فـكيف يجوز أن يكون مغيّرًا أو منقوصاً ، مع العناية الصادقة والضبط الشديد ؟ » اهـ .

(ثالثاً) أن التواتر قد قام ، والإجمـاع قد انعقـد ، على أن الموجود بين دفّتى المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل . والتواتر طريق

(١) الطبرسى من رؤساء الشيعة ، وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم .

واضحة من طرق العلم . والإجماع سبيل قويم من سبل الحق . « فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ » .

(رابعاً) أن الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهذيانات ـ صحّ النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن ، على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان . ولعلك لم تنس أنه قال في جمع أبي بكر مانصه : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » . وكذلك قال في جمع عثمان مانصُّه : « يامعشرَ الناسِ اتقوا اللهَ ، وإيا كم والغلوَّ في عثمان ، وقولَكم : حَرّاقُ مصاحف ، فوالله ماحرقها إلا عن ملأٍ منا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقوله : « لو كنتُ الواليَ وقتَ عثمانَ لفعلتُ في المصاحفِ مثلَ الذي فعل عثمانُ » وبهذا قطع الإمام ألسنة أولئك المفترين ، وردَّ كيدهم في نحورهم مخذولين . فأين يذهبون ؟ « إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ » ؟ .

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ » .

(خامساً) :أن الخلافة قد انتهت إلى عليّ كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان ، فماذا منعه أن يجهر وقتئذ بالحق في القرآن ، وأن يصحح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان ؟ مع أنه الإمام المعصوم في عقيدة أولئك المبطلين ، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن ، ومن أشجع خلق الله في نصرة الدين والإسلام . ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضي الله عنه ، فماذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كي يظهر حقيقة كتاب الله للأمة ! . هذه مزاعم يقولها إلا مجنون ، ولا يصدّق بها إلا مأفون ! ! .

الشبهة الرابعة

يقولون : ورد أن عبد الله بن مسعود قال : « يامعشر المسلمين . أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ، ويتولاَّه رجلٌ — واللهِ — لقد أسلمتُ وإنه لفى صُلبِ رجلٍ كافر ؟ » اه

قالوا : وهو يعنى بهذا الرجل زيدَ بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن . وهذا يدلُّ بالتالى على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة ، ولم يبلغ حدَّ التواتر .

وننقض شبهتهم هذه . (أولاً) بأن كلام ابن مسعود هذا — إذا صحَّ — لايدل على الطعن فى جمع القرآن ، إنما يدل على أنه كان يرى فى نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع ، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد فى هذا الباب . وذلك لا ينافى أنه كان يرى فى زيد أهليَّةً وكفاية للنهوض بما أُسند إليه ، وإن كان هو فى نظر نفسه أكفأ وأجدر . غير أن المسألة تقديرية . ولا ريب أن تقدير أبى بكر وعمر وعثمان لزيد أصدقُ من تقدير ابن مسعود له . كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا التى توافرت فيه ، حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية . أضف إلى ذلك أن عثمان ضمَّ إليه ثلاثة ، ثم كان هو وجمهور الصحابة مُشْرفين عليهم مراقبين لهم ، وناهيك فى عثمان أنه كان من حُفاظ ومعلمى القرآن ! .

وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود — على فرض صحَّته — كان منصبًّا على طريقة تأليف لجنة الجمع ، لاعلى صحة نفس الجمع . مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يَكْبُرُ زيداً بزمن طويل ، إذ كان عبد الله مسلماً وزيدٌ لايزال ضميراً مستتراً فى صُلب أبيه . وليس هذا بطعن فى زيد ، فكم ترك الأول للآخر . ولو كان الأمر بالسن لاختل كثيرٌ من نظام الكون . ثم إن كلمة

ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن فى زيد من ناحية أن أباه كان كافراً ، ولكن هذا ليس بمطعن ، فكثير من أكابر الصحابة كانوا فى مبدأ أمرهم كفاراً ، وخرجوا من أصلاب آباء كافرين . والله تعالى يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ويقول : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

(ثانياً) : أننا إذا سلمنا صحة مانقل عن ابن مسعود ، وسلمنا أنه أراد الطعن فى صحة جمع القرآن ، لانسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار ، بدليل ماصح عنه أنه رجع إلى مافى مصحف عثمان ، وحرق مصحفه فى آخرة الأمر ، حين تبين له أن هذا هو الحق ، وبدليل ماصحّ عنه من قراءة عاصم عن زُرعة ، وقد تقدم .

(ثالثاً) أن كلام ابن مسعود هذا — على تسليم صحته وأنه أراد به الطعن فى صحة الجمع ، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه — لانسلم أنه يدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر كما أسلفنا يكفى فى القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشروطه ، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح فى تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود ، مادام جمٌّ غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو فى عهد أبى بكر مرةً ، وفى عهد عثمان مرةً أخرى .

الشبهة الخامسة

يقولون : كيف يكون القرآن متواتراً ، مع مايروى عن زيد بن ثابت أنه قال فى الجمع على عهد أبى بكر مانصه : « فقمت فتتبعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمةَ الأنصارى لم أجدهما مع غيره ، وهما « لقدْ جاءكمْ رسولٌ » إلى آخر السورة .

ثم كيف يكون القرآن متواتراً ، مع مايروى أيضاً عن زيد بن ثابت أنه قال فى الجمع على عهد عثمان مانصه : « فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدهَا معَ أحدٍ إلاَّ معَ خزيمةَ بن ثابتٍ الأنصارىِّ الذى جعلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شهادتَه بشهادةِ رجلينِ : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ » ؟

والجواب على هذه الشبهة (أولا) أن كلام زيد بن ثابت هذا ، لايبطل التواتر . وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة ، لم تثبت قرآنيتهما بقول أبى خزيمة وحده . بل ثبتت بأخبار كثرةٍ غامرةٍ من الصحابة عن حفظهم فى صدورهم ، وإن لم يكونوا كتبوه فى أوراقهم . ومعنى قول زيد : « حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عندَ غيرهِ » أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبى خزيمة ، فالذى انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما ، وليست الكتابة شرطا فى المتواتر ، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم ، فكتابة أبى خزيمة الأنصارى كانت توثقاً واحتياطاً فوق مايطلبه التواتر ويقتضيه ، فكيف نقدح فى التواتر بانفراده بها ؟!

(ثانياً) يقال مثل ذلك فيما روى عن زيد فى آية سورة الأحزاب : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ » فإن معناه أن زيداً لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصارى . ويدلُّ على أن هذا هو المعنى الذى أراده زيد بعبارته تلك ، قولُ زيد نفسه فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب الخ ، فإن تعبيره بلفظ « فقدتُ » يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له ، غير أنه فقد مكتوبها ، فلم يجده إلا مع خزيمة ، وإلا فمن الذى أنبأ زيداً أنه فقد آية ؟

(ثالثاً) أن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآية الأحزاب ، لايدل على

عدم تواترهما ، حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمة وخزيمة بذكرهما من حفظهما . غاية مايدل عليه كلامه ، أنهما انفردا بذكرهما ابتداء ، ثم تذكر الصحابة ماذكراه ، وكان هؤلاء الصحابة جمعاً يؤمن تواطؤهم على الكذب ، فدونتْ تلك الآيات فى الصحف والمصحف ، بعد قيام هذا التواتر فيها

الشبهة السادسة

يقولون : كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والعظام خوفاً عليها من الضياع ، وبقى جانب كبير منها محفوظاً فى صدور الرجال . وقد نشأ عن ذلك عدة مشاكل يعتبرها الباحثون فيه كافيةً لإثبات كون القرآن الحالى لا يحتوى جميع الآيات التى نطق بها محمد ، وبعضها يختلف فى القراءة واللفظ والمعنى . ويقولون بعبارة أخرى إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ما أنزل ، إذ من المؤكد أنه ذهب منه جانب ليس بقليل ، وأنسى منه جانب آخر ، قال ابن عمر : « لا يقولنَّ أحدُ كم قدْ أخذتُ القرآن كله . قد ذهب منه كثيرٌ . ولكن ليقل : قد أخذتُ ماظهرَ منهُ » . فهذا يثبت أن القرآن الحالى لا يتضمن جميع ما كان مسطوراً فى اللوح المحفوظ . ولا هو طبق مانطقت به شفتا محمد ، سيما أن فى آيات عديدة منه اختلافاتٍ مدهشة ، ولا يعلم نصها الصحيحَ أحدٌ » اه

ونقض هذه الشبهة بما يأتى :

(أولا) أن كتابة القرآن على الحجارة والسعف والعظام ، وبقاء جانب كبير منه محفوظاً فى صدور الرجال ، لا يلزم منه مشكلة واحدة فضلاً عن عدّة مشاكل ، إنما هو وهمٌ من الأوهام تخيلوه فخالوه ، وبدليل أنهم لم يذكروا سندهم فيما ذهبوا إليه من هذا الشطط .

(ثانياً) أن الحجارة وسعف النخل والعظام التى كتب عليها بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعنون أو يخيلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها ، بل كانت العرب لبداوتها ولبعدها عن وسائل الحضارة والعمران، تصطفى من أنواع الحجارة الموفورة عندها نوعاً رقيقاً يكون كالصحيفة يصلح للكتابة وللبقاء ، أشبه بما نراه اليوم من الكتابة الجميلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما نسميه (الجبس). وكذلك سعف النخل يكشطون الخوص عنه ، ويكتبون فى الجزء العريض منه بعد أن يصقلوه ويهذبوه فيكون أشبه بالصحيفة . وقل مثل هذا فى العظام ، بدليل أن الروايات الواردة فى ذلك نصّت على نوع خاص منه وهو عظام الأكتاف ، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصقولة صالحة للكتابة عليها بسهولة .

(ثالثاً) : أن استنتاجهم من هذا كون القرآن الحالى لا يحتوى جميع الآيات التى نطق بها محمد ، استنتاجٌ معكوس ، وفهمٌ منكوس ، لأن كتابة القرآن وحفظه فى آنٍ واحد فى صدور آلافٍ مؤلفة من الخلق ، أدعى إلى بقاء ذلك القرآن ، وأدلُّ على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف . كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كافٍ فى هذه الثقة ؟ فما بالك إذا كان القرآن كله مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين، ومحفوظاً فى صدور جماعات كثيرين ! .

(رابعاً) قولهم : « وبعضها يختلف فى القراءة واللفظ والمعنى » إن أرادوا به الطعن فى تعدُّد القراءات واختلاف وجوه الأداء ، فقد سبق فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيك فى الرد عليهم ، وسيأتيك فى مبحث القراءات ما يزيدك تنوُّراً فى هذا الموضوع ، وإن أرادوا به شيئاً آخر فعليهم البيان . وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة ، ويوجبه عموم الدعوة الإسلامية . خصوصاً لمن شافههم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم على اختلاف قبائلهم ، وتنوُّع

لهجاتهم ، وتباين وجوه نطقهم ، عربٌ تؤلف بينهم العروبة الواحدة ، ويجمعهم اللسان العربي العام . فأيُّ عيب على القرآن إذا اختلفت حروف أدائه ، وكيفيات النطق بكلماته ، بسم القبائل العربية جميعاً ، وليتسنَّى لها تلاوة ألفاظه ، وتفهُّم معانيه ؟ ولئلا يقول أحد منها : لو جاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن ، ولأتينا بمثله ، وعارضنا بلاغته ! « وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(خامساً) : قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ما أُنزل الخ، كلامٌ مجردٌ من السند والحجة ، لا يستحق الرد ، فإن استندوا فيه إلى ما سبق فقد استندوا إلى أوهن من بيت العنكبوت ، وقد عرفت وجوه الوهن التى فيـــه . وإن استنـدوا إلى ما ذكروه بعد مما نسبوه لابن عمر ، فقد زادوا الطينَ بِلَّة ؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة ، وعلى فرض صحتها فهى موقوفة وليست بمرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى فرض رفعها فهى معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة فى تواتر القرآن وسلامتـه من التغيير والزيادة والنقصان ، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده فى خبر الواحد .

(سادساً) : أن نهايتهم التى ختموا بها هذه الشبهة أقبح من بدايتهم ، لأنهم رتَّبوها على تلك الأكاذيب والمهاترات ، ثم زادوا فيها اتهاماً جديداً مجرداً من السند والحجة أيضاً ، وهو أن فى آيات عديدة من القرآن اختلافات مدهشة ، ولا يعلم نصها الصحيح أحد ، وهكذا خرجوا من اتهام إلى اتهام ، واحتجوا بكذب على كذب ، وهانت عليهم كرامتهم وعقولهم ، فقالوا ما شاء لهم الهوى والتعصب إلى هذا الحد . وأنت خبير بأن القرآن الحالى وصل إلينـا محفوظاً من كل عبث كما نطق به الرسول ﷺ وكما خطَّه الله تعالى بقلمـه فى لوحه . « وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

أما زعمهم أن فيه اختلافات مدهشة ، فقد علمت فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف مدى اختلاف وجوه القراءات وحكمته ، وأنه لا يؤدى إلى تخاذل وتناقض حتى يكون مدهشاً .

وأما نصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمعٌ يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الأمة . من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم .

فادعاء هؤلاء الجهلة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد ، ادّعاء مفضوح ، وكذب مكشوف .

قال صاحب مُسَلَّم الثبوت — وهو من أشهر الكتب فى أصول الفقه الإسلامى — : « ما نُقِلَ آحاداً فليس بقرآن قطعاً ، ولم يُعرف فى هذا خلافٌ لواحد من أهل المذاهب . والدليل على ذلك أن القرآن مما تتوافر الدواعى على نقله لتضمُّنه التحدِّى ، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعاً ، ولذلك عُلم جهد الصحابة فى حفظه بالتواتر القاطع ، وكل ماتتوافر الدواعى على نقله ينقل متواتراً عادة ، فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً . والمنقول آحاداً ليس متواتراً فليس قرآناً » اه بتصرف قليل .

خَطٌّ منيعٌ من خطوط الدِّفاع عن الكتاب والسنة

أو الدواعى والعوامل التى توافرت فى الصحابة حتى استظهروا القرآن والحديث النبوىّ وتثبّتوا فيهما

إن الناظر فى الشبهات السالفة وأمثالها ، يبدو له فى وضوح أن القوم يحاولون الطعن فى القرآن عن طريق النيل من الصحابة ، فطوراً يقولون : إن الصحابة حين جمع القرآن لم يكونوا يستظهرونه ، وإن الذين استظهروه منهم ماتوا قبل جمعه واستشهدوا . وطورا يقولون : إن الصحابة لم يتثبتوا فى جمع القرآن ، بل حطبوا فيه بليل ، وزادوا فيه ونقصوا منه ما شاءوا .

وقد كثرت هجمات أعداء الإسلام من هذه الناحية كثرةً فاحشة ، بحيث إذا استقصينا شبهاتهم كلها ضاق بنا نطاق هذا التأليف ، وخرجنا جملةً من الجو العلمى الهادئ اللذيذ ، إلى ميدان صاخب بالقيل والقال ، والصيال والجدال ، والدفاع والنضال .

وكذلك كثرت هجمات أعداء الإسلام على السنة النبوية من ناحية الصحابة أيضا ، فتارةً يستكثرون عليهم أن يكونوا قد حفظوا الحديث الشريف وهو موسوعات كبيرة ، وتارةً يتهمونهم بالخيانة والتزيُّد وعدم التثبُّت والتحرِّى ، ويبنون على ذلك مفترياتٍ ما أنزل الله بها من سلطان .

يريدون بهذه الاتهامات الجريئة للصحابة ، أن يزعزعوا ثقة الناس بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ ، حتى يفتنوا المسلمين عن دينهم ، وحتى يقيموا الحواجز والعواثير فى طريق غير المسلمين ، مخافة أن يجتذبهم الإسلام إليه بمحاسنه الأخَّاذة ، وقوَّته المحولة ، وتعاليمه الوضَّاءة ! .

وبرغم أن شبهات القوم كلها متشابهة ، وطرق دفعها هى الأخرى متشابهة ، فإن واجب الحيْطة والحذر يقتضينا بعد ما تقدَّم أن نقيم خطًا منيعًا من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة ، وأن نؤلِّف هذا الخط من جبهتين قويتين ، الجبهة الأولى تُطاول السماء بتجْلية الدواعى والعوامل التى توافرت فى أصحاب رسولِ الله ﷺ حتى جعلت منهم كثرةً غامرة يحفظون القرآن والحديث ، وينقلونهما نقلًا متواترًا مستفيضا . والجبهة الثانية تُفاخر الجوزاء بنظم الدواعى والعوامل التى توافرت فيهم رضوان الله عليهم ، حتى جعلتهم يتثبَّتون أبلغ تثبُّت وأدقَّه فى القرآن وجمع القرآن وكل مايتصل بالقرآن ، وفى الحديث الشريف وكل مايتصل بالحديث الشريف .

وإنى أستمنح الله فتوحًا وتوفيقًا فى هذه المحاولة الجليلة « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

١ — الجبهة الأولى

أو الدواعي والعوامل في حفظ الصحابة للكتاب والسنة

ونقلهم لهما

ولنبدأ بشرح العوامل والدواعي التي يسَّرت للصحابة حفظ الكتاب والسنة ونقلهما ، حتى لا يستبعد ذلك عليهم أحد ، ولا يطعن في الكتاب والسنة عن هذا الطريق أحد :

العامل الأول

أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة ؛ ولا يحذِقون الخط والكتابة ، اللهم إلا نَزْرٌ يسيرٌ لا يُصاغ منهم حكم على المجموع . وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة عليهم ، وبُعْدِهم عن أسباب المدنية والحضارة ، وعدم اتصالهم اتصالاً علمياً وثيقاً بالأمتين المتحضِّرتين في العالم لذلك الحين : أمة الفرس في الشرق ، وأمة الروم في الغرب . ومعلوم أن الكتابة والقراءة وامِّحاء الأمية في أية أمة ، رهينٌ بخروجها من عهد السذاجة والبساطة، إلى عهد المدنية والحضارة .

ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهمه حفظه وذكره . ومن هنا كان تعويل الصحابة على حوافظهم يقدحونها في الإحاطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن الحفظ هو السبيل الوحيدة أو الشبيهة بالوحيدة إلى إحاطتهم بهما.
ولو كانت الكتابة شائعة فيهم ، لاعتمدوا على النقش بين السطور ، بدلا من الحفظ في الصدور .

نعم . عمل الرسول على كتابة القرآن ، وكان له كُتَّابٌ يكتبون الوحى كما سبق، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك ، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئةً قليلة بجانب الجمِّ الغفير من سواد الأُمة الكثير . ولعلك لم تنس أن كتابة القرآن فى عهد الرسول كان الغرض منها زيادة التوثُّق والاحتياط للقرآن الكريم ، بتقييده وتسجيله بالنقش ، فوق تقييده وتسجيله بالحفظ .

أما السنة النبوية فقد نهى النبى ﷺ أصحابه عن كتابتها أولَ الأمرِ مخافة اللبس بالقرآن، إذ قال عليه الصلاة والسلام: « لَا تَـكْتُبُوا عَنِّى وَمَنْ كَتَبَ عَنِّى غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّى فَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى .

نعم . خشى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط القرآن بالسنَّة، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتوزَّع جهودهم وهى لا تحتمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فقَصَرَهُم على الأهم أولاً وهو القرآن ، خصوصاً إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرةً لديهم إلى حدٍّ بعيد ، حتى كانوا يكتبون فى اللِّخاف والسَّعَف والعظام كما علمت .

فرحمةً بهم من ناحية ، وأخذاً لهم بتقديم الأهم على المهم من ناحية ثانية ، وحفظاً للقرآن أن يشتبه بالسنة إذا هم كتبوا السنة بجانب القرآن نظراً إلى عزَّة الورَق وندرة أدواتَ الكتابة ، رعايةً لهذه الغايات الثلاث نهى الرسول عن كتابة السنة .

أما إذا أُمن اللبس ، ولم يُخش الاختلاط ، وكان الأمر سهلاً على الشخص ، فلا عليه أن يكتب الحديث الشريف ، كما يكتب القرآن الكريم . وعلى ذلك تُحمل الأحاديث الواردة فى الإذن بكتابة السنة آخر الأمر، والواردة فى الإذن لبعض الأشخاص

كعبد الله بن عمْرو (رضى الله عنه) . ولهذا الموضوع مبحثٌ خاصٌ به فاطلبه إن شئت فى علوم الحديث .

وأيًّا ما تكن كتابة القرآن والسنة النبوية، فإن التعويل قبل كل شىء كان على الحفظ والاستظهار ، ولا يزال التعويل حتى الآن على التلقِّى من صدور الرجال ، ثقةً عن ثقة ، وإماماً عن إمام ، إلى النبى ﷺ .

غير أن الرجل الأمى والأمة الأمية يكونان أسبق من غيرهما إلى الحفظ ، للمعنى الذى أسلفناه لك .

العامل الثانى

أن الصحابة كانوا أمة يُضرب بها المثل فى الذكاء والألمعيَّة ، وقوّة الحافظة وصفاء الطبع ، وسيلان الذهن وحدّة الخاطر ! وفى التاريخ العربى شواهد على ذلك يطول بنا تفصيلها ، ولعلها على بالٍ منك . حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ مايسمعه لأول مرة مهما كثر وطال ، وربما كان من لغة غير لغته،ولسانٍ سوى لسانه،وحسبك أن تعرف أن رءوسهم كانت دواوين شعرهم ، وأن صدورهم كانت سِجلّ أنسابهم،وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم ! كل أولئك كانت خصائص كامنةً فيهم وفى سائر الأمة العربية من قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام فأرهف فيهم هذه القُوى والمواهب ، وزادهم من تلك المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صَقْل ، ونفوسَهم من طُهر ، وعقولَهم من سُمُوٍّ ، خصوصاً إذا كانوا يسمعون لأصدق الحديث وهو كتاب الله ، ولخير الهَدْى وهو هَدْى محمد ﷺ .

العامل الثالث

بساطة هذه الأمة العربية ، واقتصارها فى حياتها على ضروريّات الحياة من غير مَيْل إلى التَّرف ، ولا إنفاق جهد أو وقت فى الكماليات . فقد كان حسب الواحد منهم لُقيماتٌ يُقِمْنَ صُلبه ، وكان يكفيه من معيشته مايذكره شاعرهم فى قوله : —

« وَمَا العيشُ إلَّا نَوْمَةٌ وَتَبَطُّحٌ ‏ ‏ ‏ وَتَمْرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَمَاءُ »

ومثلك يعلم أن هذه الحياة الهادئة الوادعة ، وتلك العيشة الراضية القاصدة ، تُوفِّر الوقت والمجهود ، وترضى الإنسان بالموجود ، ولا تشغل البال بالمفقود . ولهذا أثره العظيم فى صفاء الفكرة وقوّة الحافظة وسيلان الأذهان ، خصوصاً أذهان الصحابة فى اتّجاهها إلى حفظ القرآن وحديث النبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك على حد قول القائل : —

« . . . فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا » .

العامل الرابع

حُبُّهم الصادقُ لله ولرسوله ، حبًّا ملك مشاعرهم ، واحتلّ مكان العقيدة فيهم . وأنت تعرف من دراسة علم النفس ، أن الحبّ إذا صدق وتمكن ، حمل المحبّ حملاً على ترسُّم آثار محبوبه ، والتلذُّذ بحديثه ، والتنادُر بأخباره ، ووَعْى كل مايصدر عنه ويبدُر منه . ومن هنا كان حب الصحابة لله ورسوله ، من أقوى العوامل على حفظهم كتابَ الله وسنةَ رسوله ﷺ . على حدّ قول القائل :

« لهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ‏ ‏ ‏ عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

لهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ به ‏ ‏ ‏ وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِ

إذا شكت من كلال السَّيْرِ واعدها روحَ القُدُومِ فتحيا عند ميعادِ »

أما حبُّ الصحابة العميق لله تعالى ، فلا يحتاج إلى شرح وبيان ، ولا إلى إقامة دليل وبرهان ، فهم خير القرون بنصّ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «خيرُ القرُونِ قرْنِي ثمّ الذين يَلُونَهُم » ، وهم الذين بذلوا نفوسهم ونفائسهم رخيصةً فى سبيل رضاه ، وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يبتغون فضلًا من الله ، وهم الذين حملوا هداية الإسلام إلى الشرق والغرب ، وأتوا بالعجب العُجاب فى نجاح الدعوة الإسلامية بالحَضَر والبدْو ، وكانوا أحرياء بامتداح الله إياهم غير مرة فى القرآن ، وبثناءِ الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم فى أحاديث عظيمة الشأن !

وأما مظاهر حُبّهم الرسول صلى الله عليه وسلم فما حكاه التاريخ الصادق عنهم من أنه ما كان أحدٌ يحب أحداً مثل ما كان يحب أصحاب محمدٍ محمداً . دَمُ الرجل منهم رخيص فى سبيل أن يُفدَى رسول الله ﷺ من شوكةٍ يُشاكها فى أسفل قدمه . وماء وضوئه يبتدرونه فى اليوم الشديد البرد يتبرّكون به ، وأب الواحد منهم وأبناؤه من ألَدّ أعدائه ماداموا يعادون محمداً ، وحديث محمد موضع التنافس من رجالهم ونسائهم ، حتى إذا أعيا الواحدَ منهم طِلَابُهُ ، تناوب هو وزميلٌ له الاختلافَ إلى رسول صلى الله عليه وسلم ، على أن يقوم أحدهما بعمل الآخر عند ذَهابه ، ويقوم الآخر برواية ما سمعه وعرفه من الرسول بعد إيابه [١] .

وهذه وافدةُ النساء تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم « يارسولَ اللهِ غَلَبنَا عليكَ الرجالُ ، فاجعلْ لنَا مِنْ نَفْسِكَ يوماً نأتيك فيه تعلمنا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ » إلى غير ذلك من شواهد ومظاهر ، تدلُّ على مبلغ هذا الحب السامى الشريف ، ويرحم الله القائل : —

---

(١) انظر باب التناوُب فى طلب العلم من صحيح البخارى .

« أَسَرتْ قُرَيْشٌ مُسْلِماً فى غَزْوَةٍ ... فَمضى بِلاَ وَجَلٍ إلى السَّيَّافِ
سَأَلوهُ : هل يُرضِيكَ أَنَّكَ سالِمٌ ... ولكَ النبيُّ فِدًى مِنَ الإتلافِ
فأجابَ كلاَّ . لا سَلِمْتُ من الرَّدى ... وَيُصابَ أَنفُ محمدٍ بِرُعافِ »

ولقد كان من مظاهر هذا الحب ـ كما رأيت تسابقهم إلى كتاب الله يأخذونه عنه ويحفظونه منه . ثم إلى سُنَّته الغرّاء يحيطون بأقوالها وأفعالها وأحوالها وتقريراتها . بل كانوا يتفننون فى البحث عن هَدْيه وخبره ، والوقوف على صفته وشكله ، كما تجد ذلك واضحاً من سؤال الحسن والحسين عن حِلْيَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجيبا به من تَجْلِيَة تلك الصور المحمدية الرائعة ، ورسمها بريشة المصوِّر الماهر ، والصَّناع القادر ، على يد أبيهما على بن أبى طالب ، وخالهما هند بن أبى هالة ، رضى الله عنهم أجمعين (١) .

العامل الخامس

بلاغة القرآن الكريم إلى حدٍّ فاق كل بيان ، وأخرس كل لسان ، وأسكت كل معارض ومكابر ، وهدم كل مجادل ومهاتر ، حتى قام ولا يزال يقوم فى فم الدنيا معجزة من الله لحبيبه ، وآية من الحق لتأييد رسوله . وبعد كلام الله فى إعجازه وبلاغته ، كلامُ محمد ﷺ فى إشراقه وديباجته وبراعته ، وجزالة ألفاظه وسُمُوِّ معانيه وهدايته . فقد كان ﷺ أفصح الناس وأبلغ الناس ، وكان العرب إلى جانب ذلك مأخوذين بكل فصيح بليغ ، متنافسين فى حفظ أجود المنظوم والمنثور . فمن هنا هَبُّوا هَبَّةً واحدة يحفظون القرآن ، ويفهمون القرآن ، ويعملون بالقرآن ، وينامون ويستيقظون على القرآن . وكذلك

(١) انظر فى ذلك مايرويه محمد أبو عيسى الترمذى متفرقاً فى كتاب الشمائل من طريق سفيان بن وكيع . رضى الله عنهم .

السنة النبوية كانت عنايتهم بحفظها والعمل بهـا تلى عنايتهم بالقرآن الـكريم يتناقلونها ويتبادرونها كما سمعت .

والـكلام فى أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه ، وفى بلاغة كلام النبوة وامتيازه ، وفى تنافس العرب فى ميدان البيان ، كل ذلك مما لا يحتاج إلى شرح ولا تبيان ، فهـذا كتاب الله ينطبق علينا بالحق ، ويتحدّى بإعجازه كافّة الخلق . وهـذا بحر النبوة يفيض بالدرارى واللآلئ ويزخر بالهدايات البالغة والحـكم الغوالى . وهـذا تاريخ الأدب العربى يسجِّل لأولئك العرب فوْقَهم فى صناعة الـكلام . وسَبْقَهم فى حَلْبة الفصاحة كافّة الأنام ، وامتيازهم فى تذوُّق أسرار البلاغة خصوصاً بلاغة القرآن !! .

العامل السادس

الترغيبُ فى الإقبال على الـكتاب والسنة علماً وعملا ، وحفظاً وفهما ، وتعليماً ونشراً وكذلك الترهيب من الإعراض عنهما ، والإهمال لهما .

نقرأ فى القرآن الـكريم قوله سبحانه : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » . فتأمَّل كيف قدَّم تلاوة القرآن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ . ونقرأ قوله جلّ ذكره : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ » . فانظر كيف حثَّ بهذا الأسلوب البارع على تدبُّر القرآن والتذكر والاتعاظ به ؟ . ونقرأ قوله عزّ اسمه : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ . أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللاعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ » . فتدبَّر كيف يكون وعيد مَنْ كتم القرآن وهدى القرآن ؟ .

ثم نقرأ فى السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعَ قَوْمٌ فى بيتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يتلونَ كتابَ اللهِ وَيَتَدارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهمُ السكينةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فيمن عندهُ » . رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .

ونقرأ فى صحيح البخارى ومسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلّمَهُ » .

ونقرأ لأبى داود والترمذى وابن ماجه قوله ﷺ : « عُرضت علىّ ذنوبُ أمتى فلم أر ذنباً أعظمَ من سورة من القرآن أو آيةٍ أُوتيها رَجلٌ ثم نسيها » .

أليس ذلك وأمثال ذلك — وهو كثير — يحفز الهمم ويحرك العزائم ، إلى حفظ القرآن واستظهاره والمداومة على تلاوته ، مخافةَ الوقوع فى وعيد نسيانه . وهو وعيد كما سمعت شديد ؟ .

أما السنة النبوية فقد جاء فى شأنها عن الله تعالى : « وَمَآ آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وقوله سبحانه : « مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ » . وقوله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً » . وقوله : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

وجاء ترغيباً فى السنة النبوية من الحديث الشريف قوله ﷺ : « نَضَّرَ الله امرأ سمع مِنّا حديثاً ، فأداه كما سمعه ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى من سامع » وهو حديث متواتر ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجّة الوداع : « ألا فليبلِّغْ الشاهدُ الغائبَ . فلعلّ بعض من يَبْلُغُهُ أن يكون أوْعَى له من بعضِ من سمعهُ » رواه الشيخان . وجاء ترهيباً من

الإعراض عن السنة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سُنَّتى فليس منى » . رواه مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عنى وهو مُتَّكِيءٌ على أريكتهِ ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، فما وجدنا فيه حلالا اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه . وإن ماحرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرَّمهُ الله » أخرجه أبو داود والترمذى . زاد أبو داود فى أوله : « ألا إنى أوتيتُ الكتابَ ومثله معه » . فأنت ترى فى أمثال هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ما يحفز همة المؤمن الضعيف إلى الإقبال على روائع النبوة يستهديها ، وبدائع النبى صلى الله عليه وسلم يستظهرها ، فكيف أنت والصحابة الذين كانوا لا يضارعون طولَ باع ولا علوَّ همة فى هذا الميدان !! .

العامل السابع

منزله الكتاب والسنة من الدين ، فالكتاب هو أصل التشريع الأول والدستور الجامع لخير الدنيا والآخرة ، والقانون المنظِّم لعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه . ثم السنة هى الأصل الثانى للتشريع ، وهى شارحةٌ للقرآن الكريم ، مفصِّلة لمجمله ، مقيدة لمطلقه ، مخصِّصة لعامه ، مبيِّنة لمبهمه ، مظهرة لأسراره كما قال سبحانه : « وأَنزَلْنَا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِليهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ومن هنا يقول يحيى بن كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتابُ قاضياً على السنة » يريد بهذه الكلمة ماوضَّحه السيوطى بقوله : « والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ، ومفصلة لمجملاته ، لأن فيه لِوَجازته كنوزاً يحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه ﷺ

وهو معنى كون السنة قاضيةً على الكتاب ، وليس القرآن مبيناً للسنة ، ولا قاضياً عليها ، لأنها بينة بنفسها ، إذ لم تصل إلى حدّ القرآن فى الإعجاز والإيجاز ، لأنها شرح له ، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح » اهـ .

ولا ريب أن الصحابة كانوا أعرف الناس بمنزلة الكتاب والسنة ، فلا غرْو أن كانوا أحرص على حذقهما وتحفظهما والعمل بهما .

العامل الثامن

ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة ، من شأنها أن تثير الاهتمام ، وتنبه الأذهان ، وتلفت الأنظار إلى قضاء الله ورسوله فيها ، وحديثهما عنها وإجابتهما عليها وبذلك يتمكن الوحى الإلهى والكلام النبوى فى النفوس فضلَ تمكن ، وينتقش فى الأذهان على مرّ الزمان .

تجوّلْ مرّةً فى رياض القرآن الكريم ، تجده يساير الحوادث والطوارئ فى تجدُّدها ووقوعها ، فتارةً يجيب السائلين على أسئلتهم بمثل قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » . وتارة يفصل فى مشكلة قامت ، ويقضى على فتنة طغت ، بمثل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » إلى قوله : « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهن ست عشرة آية من سورة النور نزلن فى حادث من أروع الحوادث ، هو اتهام أم المؤمنين السيدة الجليلة عائشة زوج رسول الله ﷺ . وبنت الصديق أبى بكر (رضى الله عنها وعن أبيها) . وفى هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة ، ولا تزالُ تسجل براءة هذه الحصان الطاهرة من فوق سبع سموات . وتارة يلفت القرآن أنظار المسلمين إلى تصحيح

أغلاطهم التي وقعوا فيها ويرشدهم إلى شاكلة الصواب. كقوله سبحانه في سورة آل عمران: « وإذْ غدوتَ منْ أهلكَ تبوئُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ » إلى آيات كثيرة بعدها. وكلها نزلت في غزوة أحد تدل المسلمين على خطئهم في هذا الموقف الرهيب، وتحذرهم أن يقعوا حيناً آخر في مثل ذاك المأزق العصيب.

وعلى هذا النمط نزلت سور في القرآن وآيات تفوت العدد وتجاوز الإحصاء.

وإذا تجولتَ في رياض الحديث النبوي الشريف يطالعك منه العجب العاجب في هذا الباب. انظر قصة المخزومية التي سرقت وقول الرسول ﷺ لمن شفع فيها: « وايمُ اللهِ لوْ أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدهَا » رواه أصحاب الكتب الستة. ثم تأمل حادث تلك المرأة الجهنية التي أقرت بزناها بين يدي رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، كيف أمر الرسول فكفلها وليها حتى وضعت حملها، ثم أتى بها فرجمتْ، ثم صلى رسولُ الرحمة عليها. ولما سئل صلوات الله وسلامه عليه كيف تصلي عليها وهي زانية؟ قال: « إنهـا تابتْ توبةً لوْ قسمت عَلَى سبعينَ منْ أهلِ المدينـةِ لوَسعتهمْ. وهلْ وجدتْ أفضلَ منْ أنْ جادتْ بنفسهَا للهِ عزَّ وجلَّ؟ » رواه مسلم. وتدبر الحديث المعروف بحديث جبريل، وفيه يسأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها على مرأى ومسمع من الصحابة. وقد قال لهم أخيراً: هذا جبريلُ أتاكمْ يعلمكمْ دينكمْ ». أخرجه الخمسة غير البخاري. والناظر في السنة يجدها في كثرتها الغامرة، تدور على مثل تلك الوقائع والحوادثِ والأسئلة.

وقد قرَّر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأمور مقارنة لها في الفكر، تجعلها أبقى على الزمن، وأثبت في النفس، فلا بدع أن يكون ماذكرنا داعية من دواعي حفظ الصحابة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على حين أنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع والحوادث، المشافهون بخطاب الحق، المواجهون بكلام سيد الخلق، في هذه المناسبات الملائمة والأسباب

القائمة ، التى تجعل نفوسهم مستشرفة لقضاء الله فيها ، متعطشة إلى حديث رسوله عنها ، فينزل الكلام على القلوب وهى متشوقة ، كما ينزل الغيث على الأرض وهى متعطشة ، تنهله بلهف ، وتأخذه بشغف ، وتمسكه وتحرص عليه بيقظة ، وتعتز به وتعتدُّ عن حقيقة ، وتنتفع به وتنفع ، بل تهتزُّ به وتربو وتنبتُ من كل زوج بهيج !!.

العامل التاسع

اقتران القرآن دائما بالإعجاز ، واقتران بعض الأحاديث النبوية بأمور خارقة للعادة ، تروع النفس ، وتشوق الناظر ، وتهول السامع . وإنما اعتبرنا ذلك الإعجاز وخرق العادة من عوامل حفظ الصحابة ، لأن الشأن فيما يخرج على نواميس الكون وقوانينه العامة ، أن يتقرّر فى حافظة منْ شاهده ، وأن يتركز فى فؤاد كل من عاينه فرداً كان أو أمة ؛ حتى لقد يتخذ مبدأً تؤرخُ بحدوثه الأيام والسنون ، وتقاس بوجوده الأعمار والآجال .

أما القرآن الكريم فإعجازه سارٍ فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، لا تكاد تخلو سورة ولا آية منه . وأعرف الناس بوجوه إعجازه ، وأعظمهم ذوقاً لأسرار بلاغته ، هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يصدرون فى هذه المعرفة وهذا الذوق عن فطرتهم العربية الصافية ، وسليقتهم السليمة السامية ، وتمهرهم فى فنون البيان وصناعة اللسان . ومن هذا كان القرآن حياتهم الصحيحة ، به يقومون ويقعدون ، وينامون ويستيقظون ، ويعيشون ويتعاملون ، ويلتذون ويتعبدون . وهذا هو معنى كونه روحاً فى قول الله سبحانه : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » وليست هناك طائفةٌ فى التاريخ تمثل فيها القرآن روحاً ، كما تمثل فى هذه الطبقة العليا الكريمة طبقة الصحابة الذين وهبوه حياتهم فوهبهم الحياة ، وطبعهم طبعة جديدة حتى صاروا

أشبه بالملائكة ، وهكذا سوام الله بكتابه خلقاً آخر « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » !! .

وأما السنة النبوية ، فقد اقترن بعضها بمعجزات خارقة ، وأمامك أحاديث المعجزات وهى كثيرة فيها المعجب والمطرب . غير أنا نربأ بك أن تكون فيها كحاطب ليل ، على حين أن بين أيدينا فى الصحيح منها الجمُّ الغفير والعدد الكثير ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

وهاكَ نموذجاً واحداً رواه البخارى ومسلم عن أبى العباس سهل بن سعدٍ الساعدى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لأعطينَّ هذهِ الرايةَ غداً رجلاً يفتحُ اللهُ عَلَى يديهِ ، يحبُّ اللهَ ورسولهَ ، ويحبهُ اللهُ ورسولهُ ، فباتَ الناس يدوكونَ (أى يخوضون) ليلتهم ، أيهمْ يعطاهاَ ، فلما أصبحَ الناسُ غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهمْ يرجو أنْ يعطاهاَ . فقال : أينَ عليُّ بنُ أبى طالبٍ ؟ فقيلَ يارسولَ اللهِ هو يشتكى مرضاً بعينيهِ . قال فأرسلوا إليهِ . فأُتى بهِ ، فبصقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعينيهِ ، ودعاَ لهُ ، فبرِئَ حتى كأنْ لمْ يكنْ بهِ وجعٌ . فأعطاهُ الرايةَ ، فقالى عليٌّ رضى الله عنه : يارسولَ الله أقاتِلهمْ حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : انفذْ عَلَى رسلكَ حتى تنزلَ بساحتهمْ ، ثمَّ ادعهمْ إلى الإسلامِ ، وأخبرهمْ بمَا يجبُ عليهمْ منْ حقِّ اللهِ تعالى فيهِ ، واللهِ لأنْ يهدىَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ منْ حُمْرِ النعمِ » .

وهذه الوصية من الرسول ﷺ لعلى فى هذا المقام ، جديرةٌ وحدها أن تقطع ألسنة أولئك الأفاكين الذين يزعمون أن الإسلام قام على السيف والقوة ، واعتمد على البطش والقسوة ، ولم ينتشر بالدليل والحجة ولم يجئ بالسلام والرحمة . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » ! .

العامل العاشر

حكمة الله ورسوله فى التربيـة والتعليم ، وحسن سياستهما فى الدعوة والإرشاد ، مما جعل الـكتاب والسنّة يتقرّران فى الأذهان ، ويسهلان على الصحابة فى الحفظ والاستظهار .

أما القرآن الـكريم، فحسبك أن تعرف من حكمة الله به فى التربية والتعليم ، أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم ، وبالأسلوب الخلاّب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم ، وأنه تدرّج بهم فى نزوله ، فلم ينزل جملةً واحدة يرهقهم به ويعجزون عنه ،بل أنزله منجّماً فى مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة ، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة فى كثير من صوره وآياته ، ودعمه بالدليل والحجة، وخاطب به العقول والضمائر ، وناط به مصلحتهم وخيرهم وسعادتهم، وصدر فى ذلك كله عن رحمة واسعة بهم ، يكادون يلمسونها باليد ويرونها بالعين ! « مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْـكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَـكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْـكُمْ لَعَلَّـكُمْ تَشْـكُرُونَ » . « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وأما السنّة النبوية ، فقد ضربت الرقم القياسى فى باب هذه السياسة التعليمية الراشدة ، حتى إذا كان علماء التربية فى العصور الحديثة ، قد عدّوا من الحـكمة فى التعليم والتربية الاستعانة بوسائل الإيضاح ، وألوان التشويق ، فإن محمـداً صلى الله عليـه وسلم النبىّ الأمىّ ، كان من قبل أربعة عشر قرناً ، ومن قبل أن يولد علم التربية وعلم النفس ، كان هو المعلم الأول فى رعاية تلك الوسائل الموضّحة ، وهاتيك المشوّقات الرائعـة ، حتى تفتحت قلوب سامعيه للهداية ، وامتلأت صدور أصحابه بتعاليمه ، كأنما كُتِبَتْ فيهـا كتاباً بالـكلمة والحرف .

ذلك لأنه ﷺ كان أفصح الناس لساناً ، وأوضحهم بياناً وأجودهم إلقاء ، ينتقى عُيون الكلام وهو الذى أوتى جوامع الكلم ، ويفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ويُفصله تفصيلاً يُراعى فيه المقام والأفهام ، ولا يسرد الحديث سرداً يزرى برونقه أو يذهب بشىء منه ، بل يتكلم كلاماً لو عدّه العادُّ لأحصاه . وكان يعيد الكلمة ثلاثاً أو أكثر من ثلاث عند الحاجة ، كيما تحفظ عنه ، كما جاء فى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال . « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً . وكما جاء فى حديث البخارى ومسلم أنه ﷺ قال : « أَلا أنبئكم بِأكبَرِ الكبائِرِ (ثلاثاً) قلنا : بَلَى يارسول الله قال : الإشراكُ بالله ، وعقوقُ الوالدين ، ألا وقولُ الزورِ وشهادةُ الزورِ — وكان مُتَّكِئاً فجلسَ — فما زالَ يُكرِّرُها حتى قُلنا لَيتَهُ سَكتَ » .

ومن هَدْيه ﷺ أنه كان إذا خطب احمرّت عيناه ، وعلا صوتهُ واشتدّ غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صبّحكم ومسّاكم . ويقول : بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتينِ (وَيَقْرُنُ بينَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) ويقول : « أمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الحديثِ كتابُ اللهِ ، وخيرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها وكلَّ مُحدَثَةٍ بدعةٌ ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ . ثم يقول : أَنا أَوْلَى بكلِّ مؤمنٍ مِنْ نفسِهِ . مَنْ تركَ مالاً فَلِأَهْلِهِ ، وَمَنْ تركَ دَيناً أو ضَياعاً [1] فإلَيَّ وَعَلَيَّ » رواه مسلم .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أنه كان يضرب لهم الأمثال الرائعة التى تُجَلِّى لهم المعانى ، كأنها العروسُ بارعةً ليلة الزفاف ، أو الشمسُ ساطعةً ليس دونها سحاب . تأمل قوله وهو يضرب المثل فى ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وخطر إهمالهما ، ثم قل لى بربك : هل يبارح ذاكرتك هذا التمثيل البديع ؟ .

---

(١) الضياع بفتح الضاد يستعمل مصدراً لضاع ، ويستعمل اسماً بمعنى العيال أو الضائعين منهم . قال فى القاموس : « والضَّياع أيضاً العيال ، أو ضُيَّعُهم » اه ولا يخفى أن المعنى المصدرى غير مُرادٍ هنا .

يروى البخارى عن النعمان بن بشير أن النبى ﷺ قال : « مثلُ القائِمِ فى حدود الله وَالواقِعِ فيها ، كمَثَلِ قومٍ اُستَهَموا فى سفينةٍ ، فصارَ بعضُهم أعْلاها وبعضُهم أسفلها . وكان الذى فى أسفلِهاَ إِذَا اُسْتَقَوْا منَ المـاءَ مَرُّوا على منْ فوقهم ، فقالوا : لو أَنَّا خرَقْنَا فى نصيبِنا خرْقًا ولم نُؤْذِ مَنْ فوْقَنا . فَإِنْ ترَكوهُمْ وماَ أرادُوا هَلَكُوا جميعاً . وإِنْ أَخذُوا عَلَى أيديهِمْ نجَوْا ، ونجوا جميعاً » .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أسئلته التى كان يلقيها على أصحابه ، فيوقظ بها انتباههم ، ويُرْهف بسببها شعورهم ، حتى يستقبلوا هَدْيه بنفوس عطاش ، وقلوب ظِماء ، فيستقرّ فيها أثبت استقرار ، ويعلقَ بها علوق الروح بالأجسام .

وإليك مثلاً واحداً عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدْرُون منِ اُلمُفْلِسُ ؟ قالوا : اُلمفلسُ فِينَا منْ لَا دِرْهمَ لهُ وَلَا دينارَ وَلَا مَتاعَ . فقال : إنَّ المفْلِسَ مِنْ أمتى مَنْ يَأْتى يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتِى وقد شتَمَ هٰذا ، وقَذَفَ هٰذا ، وأَكلَ مالَ هٰذا وسفَكَ دَمَ هٰذَا ، فيُعْطَى هٰذا مِنْ حسَنَاتِهِ ، وهذا من حسناته ، فإنْ فَنِيَتْ حسَنَاتُهُ قبلَ أَنْ يُقْضَى ماعليهِ ، أُخِذَ مِنْ خطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليهِ ، ثمّ طُرِحَ فِى النَّارِ » رواه مسلم .

ومن العجائب فى وسائل إيضاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعين برسم يديه الكريمتين على توضيح المعانى وتقريبها إلى الأذهان ، مع أنه النبى الأمى الذى لم يقرأ كتاباً ، ولم يجلس إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى مدرسة ، ولم يدرس الرسم ولا الهندسة .

نقرأ فى صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « خطَّ لنَا رسولُ الله ﷺ خطًّا مُربَّعًا ، وخطَّ وسطَهُ خطًّا ، وخطَّ خُطُوطًا إلى جَنْبِ الخط (أى الذى فى الوسط) ، وخطَّ خطًّا خارجاً . فقال : أتدْرُونَ ماهَذا ؟ قلنا : اللهُ ورسولُه أعْلَمُ . قال : هذا الإنسانُ (يريد الخط الذى فى الوسط) وهذَا الأجلُ مُحِيطٌ به (يريد الخط المربع)

وَهٰذِهِ الأعراضُ تَنْهَشُهُ (يشير إلى الخطوط التى حوله) إنْ أَخْطَأَهُ هٰذَا نَهَشَهُ هٰذَا وهٰذَا الأَمَلُ (يعنى الخطَّ الخارج) .

ومن سياسته الحكيمة فى التعليم والتربية ، أنه كان ينتهز فرصة الخطأ فى أفهامهم ، فيصحِّح لهم الفكرة فى حينها ، ويلقِّنهم تعاليمه السامية ونفوسهم مستشرفة لها . من ذلك مايقصُّه علينا البخاريُّ ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : « جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسألونَ عنْ عبادَتِهِ ، فَلَمَّا أُخبِرُوا كأَنَّهُمْ تقالُّوها (أى رأوها قليلة) وقالوا : أينَ نحنُ منْ رسول الله ﷺ وقد غُفِرَ لهُ ماتقدم من ذَنبهِ وما تأَخَّرَ ؟ قال أحدُهُمْ : أمَّا أنا فَأُصلِّى اللَّيْلَ أبداً . وقال الآخرُ : وأنا أَصُومُ الدَّهرَ أبداً . وقال الآخر : وأنا أَعتزلُ النِّساء فلا أتزوَّج أبداً . فجاء رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إليهمْ ، فقال : أنتم الذينَ قُلتمْ كذا وكذا !! أما والله إنى لَأَخشاكُم للهِ ، وأتقاكُم لله ، ولٰكِنِى أصومُ وأُفطرُ ، وأُصلى وأَرْقُدُ ، وأتزوَّجُ النساء ، فمن رغِبَ عنْ سُنَّتى فليْسَ مِنِّى » .

وكان من وسائل إيضاحه تمثيله صلى الله عليه وسلم بالعمل . يصلى ويقول : « صَلُّوا كما رأيتمُونى أُصلى » ويحجُّ ويقول : « خُذُوا عنِّى مَناسِكَكُمْ » ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى ويقول : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتَيْن » كما تقدَّم فى رواية مسلم

العامل الحادى عشر

الترغيب والترهيب اللذان يفيض بهما بحر الكتاب والسنة . ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير ، وأن يحميها كل شر ، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل ، ومن هنا تحرص النفوس الموفّقة على وَعْى هداية القرآن وهدى الرسول ، وتعمل جاهدةً على أن تحفظ منهما ماوسعها الإمكان .

أما النفوس الضالة المخذولة ، فإنها مصروفة عن هذه السعادة بصوارف الهوى والشهوة ، أو محجوبة عن هذا المقام بحجاب التعصب والجمود على الفتنة ، أو مرتطمة بظلام الجهل فى أوحال الضلال والنكال .

ولسنا بحاجة أن نلتمس شواهد الترغيب والترهب من الكتاب والسنة ، فمددهما فيّاض بأوفى ماعرف العلم من ضروب الترغيب والترهيب ، وفنون الوعد والوعيد ، وأساليب التبشير والإنذار على وجوه مختلفة ، واعتبارات متنوعة ، فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق على سواء .

وهاكِ نموذَجا من ترغيبات القرآن وترهيباته على سبيل التذكير ، والذكرى تنفع المؤمنين — .

يقول تبارك اسمه فى سورة واحدة هى سورة السجدة: «وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ؟ لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَى دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » .

فانظر بعين بصيرتك فى أساليب هذه الترغيبات ، وفنون تلك الترهيبات ، التى احتوتها هذه الآيات ، والقرآن مَلِيءٌ كله من هذه الأنوار على هذا الغرار ! .

ولا تحسبن السنة النبوية إلا بحراً متلاطم الأمواج فى هذا الباب . وهاك نموذجاً بل نماذج منها تدلك على مدى ماتتأثر به النفوس البشرية عند مايمرّ بها الوعد والوعيد ، وما يتركه هذا التأثر من ثبات الأوامر والنواهى واستقرارها فى الذهن ، وانتقاشها فى صحيفة الفكر ، ثم اندفاع الإنسان من ورائها إلى العمل والاتباع .

هاهو صلى الله عليه وسلم يبشر واصلَ رحمه بسعة الرزق والبركة فى العمر فيقول : « مَن سرَّه أنْ يُبْسَطَ له رِزْقِهِ ، وأن يُنسأَ له فى أَثَرِه ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه » أخرجه البخارى والترمذى .

وهاهو ﷺ يتحدث بالوعد لمن جعل الآخرة همَّه ، وبالوعيد لمن جعل الدنيا همَّه

فيقول : « مَن كانت الآخرةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِناهُ فى قلبِهِ ، وجَمَعَ له شملَهُ ، وأتته الدُّنيا وهى راغمةٌ . ومَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ جَعَلَ الله الفقرَ بين عَيْنَيْهِ ، وفرّقَ الله عَلَيْهِ شملَهُ ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلا ماقُدِّرَ له » رواه الترمذى .

وهاهو صلى الله عليه وسلم يحرّض المؤمنين على القتال ويحثهم على الدفاع والنضال ، فيقول : ـ « تَضَمَّنَ الله لمن خرج فى سبيل الله ، لا يُخرِجُهُ إلّا جِهادٌ فى سبيلى ، وإيمانٌ بى ، وتصديقٌ برسلى ، فهو عَلَيَّ ضامِنٌ أن أُدْخِلَهُ الجنَّةَ ؛ أوْ أرجِعهُ إلى مسكنِهِ الذى خرَجَ منهُ نائِلاً مانالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ . والذى نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ مامِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فى سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة كهيئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ ؛ لونُهُ لونُ دمٍ ، وريحُهُ ريحُ مسكٍ . والذى نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ لولا أَنْ أَشُقَّ على المسلمين ماقعدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزو فى سبيل الله عزَّ وجلَّ أبداً . ولٰكِنْ لا أَجِدُ سَعَةً فأَحمِلَهُمْ ، ولايجدونَ سَعَةً فيَتْبَعُونى وَيَشُقُّ عليهم أنْ يَتَخَلَّفُوا عنى والذى نَفْسُ محمد بيدِهِ لَوَدِدْتُ أن أَغْزُوَ فى سبيل اللهِ فَأُقتَلَ ، ثمَّ أغزُوَ فَأُقتَلَ » أخرجه الثلاثة والنسائى .

فأنت ترى فى هذه الكلمات النبوية قوة هائلة محولة ؛ تجعلها ماثلة فى الأذهان ، كما تجعل النفوس رخيصة هينة فى سبيل الدفاع عن الدين والأوطان . حتى لقد كان الرجل يستمع إلى هذه المرغبات والمشوّقات وهو يأكل ، فمايصبر حتى يتم طعامه ، بل يرمى بما فى يده ، ويقوم فيجاهد متشوقاً إلى الموت ، متلهفاً على أن يستشهد فى سبيل الله . كذلك أخرج مالك عن يحيى بن سعيد : « أنّ رسول الله ﷺ رغّب فى الجهاد وذكر الجنةَ ورجلٌ من الأنصار يأكل تمرات ، فقال : إنى لحريصٌ على الدنيا إن جلستُ حتى أفرغَ منهن ، فرمى مافى يده ، وحملَ بسيفه ، فقاتل حتى قتل » .

العامل الثانى عشر

اهتداء الصحابة رضوان الله عليهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يحلُّون مافيهما من حلال، ويحرِّمون مافيهما من حرام، ويتبعون ماجاء فيهما من نصح ورشد، ويتعهَّدون ظواهرهم وبواطنهم بالتربية والآداب الإسلامية، دستورهم القرآن، وإمامهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

وما من شك أن العمل بالعلم يقرِّره فى النفس أبلغ تقرير، وينقشه فى صحيفة الفكر أثبت نَقش، على نحو ماهو معروف فى فن التربية وعلم النفس، من أن التطبيق يؤيد المعارف، والأمثلة تقيِّد القواعد، ولا تطبيق أبلغ من العمل، ولا مثال أمثل من الاتباع، خصوصاً المعارف الدينية، فإنها تزكو بتنفيذها، وتزيد باتباعها. قال تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» أى هداية ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الرشد والغيِّ، كما جاء فى بعض وجوه التفاسير. وذلك أن المجاهدة تؤدى إلى المشاهدة، والعناية بطهارة القلوب وتزكية النفوس تفجر الحكمة فى قلب العبد. قال الغزالى رحمه الله: «أما الكتب والتعليم فلا تفِى بذلك (أى بالحكمة تتفجر فى القلب) بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد، إنما تتفتح بالمجاهدة ومراقبة الأعمال الظاهرة والباطنة، والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة، مع حضور القلب بصافى الفكرة، والانقطاع إلى الله عز وجل عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف! فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة. وكم من مقتصر على المهم فى التعليم، ومتوفر على العمل ومراقبة القلب، فتح الله له من لطائف الحكمة ماتحار فيه عقول ذوى الألباب. ولذلك قال ﷺ: «مَنْ عمِلَ بمَا علِمَ ورثهُ اللهُ علمَ مَا لمْ يكنْ يعلمُ»[1].

---

(١) قال الحافظ العراقى فى هذا الحديث: رواه أبو نعيم فى الحلية لكن بسند ضعيف

العامل الثالث عشر

وجود الرسول ﷺ بين ظَهْرَانيهم ، يُحَفِّظُهم من الكتاب والسنة ما لم يحفظوه، ويعلمهم ما جهلوه ، ويجيبهم إذا سألوه ، ويريهم شاكلة الصواب فيما أخطأوه ، ويَقِفهم على حقيقة الأمر إذا تشككوه ، في صبر وأناة وسَعَة صدر وكرم نفس وطيب قلب .

ولا ريب أن هذا عاملٌ مهمٌّ ييسر لهم الحفظ ويهوّن عليهم الاستظهار ، ضرورةَ أنه ﷺ مرجع واضح ، ومنهل عذب ، لا سيما إذا لاحظنا أنه ﷺ كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليِّن الجانب ، ليس بفظٍ ، ولا غايظ ولا صخَّاب ، ولا فحَّاش ، ولا عياب ، وأن من جالسه أو فاوضه في حاجة صابَرَه حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناسَ بسطُه وخلقُه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس علم وحياء وأمانة وصبر ، يُدرس فيه القرآن ، وتذاع فيه السنة ، ويَعْبَقُ منه أريجُ الهداية .

عوامل خاصة بالقرآن الكريم

تلك العوامل التي ذكرناها عوامل مشتركة بين الكتاب والسنة ، طوَّعَتْ للصحابة حفظَهما واستظهارهما ، والإحاطة بهما وحذقهما .

بيد أن هناك عوامل خاصَّة توافرت في حفظ الصحابة للقرآن دون السنة .

أولها : أن الله تعالى تحدَّى بالقرآن أمة العرب ، بل كافَّة الخلق فقال سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ » ولما عجزوا قال : « فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ » ولما عجزوا أيضاً قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » ولما عجزوا الثالثة سجّل عليهم

هزيمتهم وأعلن فَلَج القرآن بالإعجاز فى هـذا الميدان ، إذ قال عزّ اسمه : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » .

هذا التحدّى الذى امتاز به القرآن ؛ فتح عيون الناس جميعاً ، ولفتهم بقوة إليه ، لا فرق بين أوليائه وأعدائه . أما أولياؤه ومتّبعوه ؛ فقرءوه من هذه الناحية ؛ ليُفحموا به أعداءهم ، ويؤيّدوا بإعجازه دينهم ونبيهم . وأما أعداؤه ومخالفوه ، فاقتفوا أثره وتتبعوه ، أمَلًا فى أن يجدوا فيه مَغمزاً ، ويأخذوا عليه مَطْعناً . فلا جرم كان هذا التحدى من الدواعى التى توافرت على نقل القرآن وتواتره وجريانه على كل لسان ! .

ثانيهـا : عنايته ﷺ بكتابة القرآن فيما تيسّر من أدوات الكتابة ، إذ اتخذ كُتّاباً للوحى من أصحابه . وأقرّ كل من يكتب القرآن لنفسه فى الوقت الذى نهى فيه عن كتابة السنة فى الحديث الذى أسلفناه من رواية مسلم « لَا تَكْتُبُوا عَنِّى وَمَن كَتَبَ عنى شيئاً غيرَ الْقُرآن فليَمْحُهُ » .

وغنىٌّ عن البيان ، أن الكتابة من عوامل تيسير الحفظ والاستظهار .

ثالثهـا : تشريع قراءة القرآن فى الصلاة ، فرضاً كانت أو نفلاً ، سرًّا أو جهراً ، ليلية أو نهارية ؛ حتى صلاة الجنازة . ومثل الصلاة فى ذلك خطبة الجمعة . وتلك وسيلة فعالة ؛ جعلت الصحابة يقرءونه ويسمعونه ؛ ثم جعلتهم عن هذا الطريق يتحفّظونه ويستظهرونه ، لا فرق بين رجل وامرأة ، وصغير وكبير ؛ وغنى وفقير ، على قدر ما سمح به استعداد كل منهم .

رابعها : الترغيب فى تلاوة القرآن ولو فى غير صلاة ومن غير وضوء . اقرأ إن شئت قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّٰهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ . » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اَلذى يَقْرَأُ اَلْقُرْآنَ وهوَ ماهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكرام البرَرَةِ . والذى يقرَأُ اَلْقُرْآنَ وهو يَتَتَعْتَعُ فيهِ وهو عَلَيْهِ شاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ » رواه البخارى ومسلم . ويقول ﷺ : « لا حَسَدَ إلَّا فِي اثنتين : رَجُلٍ آتاهُ اللهُ القرآنَ وهو يقوم به آناءَ اللَّيْلِ وَآناءَ النهار ، وَرجلٍ آتاهُ اللهُ مالًا فَهُوَ يُنفِقه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ » رواه الشيخان أيضاً .

ويقول ﷺ : « مَنْ قرأَ حرفاً منْ كِتابِ اللهِ تعالَى فلَهُ حسنَةٌ ، وَالحسنةُ بِعَشْرِ أمثالهَا . لا أقول : الم حَرْفٌ . وَلٰـكِنْ أَلِفٌ حرفٌ ؛ وَلَامٌ حرفٌ ؛ وَمِيمٌ حَرْفٌ » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يُقَالُ لِقَارِئِ القرآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كنتَ تُرَتِّلُ فى الدنيا ؛ فَإِنَّ منزِلَتَكَ عِنْدَ آخر آيةٍ تقرَؤُها » رواه أبو داود والترمذى والنسائى . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعلَّمَ اَلْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » رواه البخارى .

فهل يعقل أن أصحاب محمد ﷺ الذين سمعوا ذلك وأمثال ذلك ؛ يتوانون لحظةً عن قراءة القرآن ؟ ثم ألا تكون تلك التلاوة سبيلا إلى أن يحذقوه ويحرزوه ؟ .

خامسها : عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وإذاعته ونشره ، إذ كان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره الله . وكان يسمعهم إياه فى الخطبة والصلاة ؛ وفى الدروس والعظات ؛ وفى الدعوة والإرشاد ، وفى الفتوى والقضاء ؛ وكان يُرَغِّب فى تعليمه ونشره كما سمعت . وكان يرسل بَعثات القرّاء إلى كل بلد يعلِّمون أهلها كتاب الله ، كما

أرسل مُصْعَب بن عمير وابن أُمِّ مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها، وكما أرسل مُعاذ بن جبل إلى مكة بعد الفتح للإقراء . قال عبادة بن الصامت : كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجلٍ منا يعلمه القرآن .

سادسها: القَدَاسة التى امتاز بها كتاب الله عن كل ماسواه ، حيث اجتمع فيه من المزايا ماقصصنا عليك وما لم نقصص عليك . كنسبته إلى الله تعالى ، وكحرمة قراءته على الجنب والحائض والنفساء ، وكحرمة مَسِّ مصحفه وحمله على أولئك جميعاً وعلى المحدث حدثاً أصغر أيضاً ، إلى غير ذلك .

ولا شك أن هذه القداسة تلفت الأنظار إليه ، وتخلع همم المؤمنين به عليه ، فيحيطون به علماً ، ويخضعون لتعاليمه عملاً . وذلك ماحدا المسلمين فى كل عصر ومصر أن يُعْنَوْا بحفظ كتاب الله حتى عصرنا الذى نعيش فيه ، فما بالك بعصر الصحابة وهو عصر العلم والنور ، والتقوى والهداية ، والنشر والدعوة ؟! .

أما بعد :

فهذه بضعة عشر عاملاً توافرت فى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم حتى حفظوا الكتاب والسنة ، وقد جمعناها لك هذا الجمع ، معتقدين أن من ورائها عوامل شخصية توافرت فى بعض القراء وبعض المحدثين منهم دون بعض . والسبيل إلى تلك العوامل الشخصية دراسة تراجم أولئك القرّاء والمتصدِّرين لرواية الحديث من الصحابة ، فارجع إليها إن شئت ، واحرص على ماذكرنا لك ، وصُغْ منها أسلحة علمية مُرْهَفَة تشهرها فى وجه أولئك الخونة الذين يخوضون فى الصحابة بغير علم ، ويطعنون فى الكتاب والسنة عن طريق الطعن فيهم بعدم الحفظ والضبط .

ونحن نتحدّى أُمم العالم بهذه الدواعى التى توافرت فى الصحابة حتى نقلوا الكتاب والسنة ، وتواتر عنهم ذلك خصوصاً القرآن الكريم .

« أولئكَ آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا ياجريرُ المجامعُ ! »

غمرهم الله برحمته ورضوانه ، وصبَّ عليهم شآبيب جوده وإحسانه . آمين .

ب - الجبهة الثانية

أو عوامل تثبت الصحابة فى الكتاب والسنة

الآن وقد فرغنا من عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، نعرج على عوامل تثبتهم - رضوان الله عليهم - فيهما . فنذكر أنّ الناظر فى تاريخ الصحابة ، يروعه مايعرفه عنهم فى تثبتهم ، أكثر ممـــا يروعه عنهم فى حفظهم ؛ لأن التثبت فضيلة ترجع إلى الأمانة الكاملة والعقل الناضج من ناحيــة ، ثم هو فى الصحابة بلغ القمة من ناحيــة أخرى ، إذ كان تثبتاً بالغاً ، وحذراً دقيقاً ، وحيطة نادرة ، وتحرياً عميقاً لكتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ فى كل ما يتصل بهما عن قرب أو بعد .

ولهذا التثبت النادر فى دقته واستقصائه ، بواعث ودواع ، أو أسباب وعوامل ، يجمل بنا أن نقدّمها إليك ، كأسلحة ماضية تنافح بها عن الكتاب والسنة ، وعن الصحابة فى أدائهم للكتاب والسنة .

العامل الأول

أن الله تعالى أمر فى محكم كتابه بالتثبت والتحرى ، وحذّر من الطيش والتسرُّع ، فى الأنباء والأخبار ، بله القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، فقال سبحانه: « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . » .

وكذلك نهى الله عن اتباع مالا دليل عليــه إلا أن تسمع الأذن ، أو ترى العين ، أو يعتقد القلب عن برهان ، فقال عزّ من قائل : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً . » .

وقد عاب القرآن على من يأخذون بالظن فيما لا يكفي فيه الظن ، فقال الله جلّ شأنه : « إنْ يَتّبِعُونَ إلاّ الظنّ ، وإنّ الظنّ لا يُغنى منَ الحقّ شيئاً » إلى غير ذلك من أدلة كثيرة فى الكتاب والسنة تأمر بالنظر ، وكان الصحابة هم المخاطبين بهذه التعاليم والمشافهين بها ، فلا ريب أن تكون تلك الآداب الإسلامية من أهمّ العوامل فى تثبتهم وحذرهم خصوصاً فيما يتصل بكتاب ربهم وسنة نبيهم . وبعيد كل البعد ، بل محالٌ كل الاستحالة ، أن يكونوا قد أهملوا هذا النصح السامى ، وهم خير طبقة أُخرجتْ للناس .

العامل الثانى

ماسمعوه من الترهيب الشديد ، ومن التهديد والوعيد ، لمن يكذب على الله أو يفترى على رسوله ومصطفاه . قال الله سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ؟ » فانظر كيف سلك الله من افترى الكذب عليه فى سلك من قال أوحىَ إلىّ ولم يوحَ إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ ثم انظر كيف قدّمه عليهما فى الذّكر وصدره فى الوعيد ، ونعته أول منْ نعت بالإغراق فى الظلم .

وقال سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ » وقال سبحانه : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ . أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ . » .

ونقرأ فى السنة النبوية أنه ﷺ قال : « من كذبَ علىّ متعمداً فليتبوأْ مقعدهُ منَ النارِ » . وهو حديث مشهور ، بل متواتر ، ورد أنه قد رواه اثنان وستون صحابياً منهم العشرة المبشرون بالجنة ، ولا يعرف حديث اجتمع عليه العشرة المبشرون بالجنة إلا

هذا ، ولا حديثٌ يروى عن أكثر من ستين صحابياً إلا هذا .

ولقد سمع الصحابة هذه الترهيبات وأمثالها . وما أمثالها فى القرآن والسنة بقليل ، بل لقد سمع الأصحاب نهى رسولِ الله ﷺ عما دون الكذب وما كان أقل من التزيد ، إذ حذرهم رواية الضعفاء والمدخولين فقال: « سيكونُ فى آخرِ أمتى أناسٌ يحدثونكم مالم تسمعوا أنتمْ ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم » رواه مسلم . بل حذرهم ﷺ رواية المجهولين فقال : « إنَّ الشيطانَ ليتمثلُ فى صورةِ الرجلِ فيأتى القوم فيحدثهم الكذبَ، فيتفرقونَ فيقولُ الرجل منهم :سمعتُ رجلاً أعرفُ وجههُ ولاأعرفُ اسمهُ يحدثُ كذا وكذا »

رواه مسلم .

فهل يستبيح عاقل منصف لنفسه أن يقول : إن الصحابة الذين سمعوا هذه النصائح وتلك الزواجر عن التزيد والافتراء ، يقدمون على كذب فى القرآن والسنة ، أو يقصرون فى التثبت والتحرى والاحتياط فى نقل الذكر الحكيم ، والهدى النبوى الكريم ؟! .

العامل الثالث

أن الإسلام أمرهم بالصدق ونهاهم عن الكذب إطلاقاً ، فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ . » وأنت خبير بأن هذا الخطاب بهذه الصيغة فى هذا المقام مع تقديم الأمر بالتقوى ، فيه إشارة إلى أن الصدق المأمور به من مقتضيات الإيمان ومن دعائم التقوى ، ويفهم من هذا أن من كذب وافترى ، فسبيله سبيل من كفر وطغى . كما صرّح سبحانه بذلك فى قوله : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ » .

ويقول النبي ﷺ : « عليكم بالصدقِ فإنهُ معَ البرِّ وهما في الجنةِ . وإياكم والكذبَ فإنهُ معَ الفجورِ وهما في النارِ » رواه ابن ماجه .

وعن صفوان بن سليم رضى الله عنه قال : قلنا يا رسولَ الله : أيكونُ المؤمنُ جباناً ؟ قال : « نعم ». قلنا : أفيكونُ بخيلاً ؟ قال : « نعم » . قلنا : أفيكون كذاباً ؟ قال: « لا » أخرجه مالك . فانظر إلى الحديث الأول كيف جعل الصدق هادياً إلى البر وإلى الجنة ، وجعل الكذب هادياً إلى الفجور وإلى النار . ثم انظر إلى الحديث الثانى كيف اعتبر الكذب أفحش من الجبن والبخل ، وأخرجه فى هذه الصورة الشنيعة التى لا تجتمع هى والإيمان فى نفس واحدة أبداً . !

وستقضى العجب حين تعلم أن الرسول ﷺ بالغ فى تقبيح الكذب حتى فى توافه الأشياء ومحقرات الأمور ! استمع إليه ﷺ وهو ينهى عن الكذب فى المزاح بهذه الطريقة الرادعة فيقول : « ويلٌ للذى يحدثُ ليضحكَ منهُ القومُ فيكذب ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ » رواه أبو داود والترمذى . ثم استمع إليه ﷺ وهو يتوعد من يكذب فى منامه ويقول : « منْ كذب فى حلمٍ كلفَ يومَ القيامةِ أنْ يعقدَ بينَ شعيرتينِ ، وليسَ بعاقدٍ بينهما أبداً » .

قل لى بربك : هل تلك الطبقة الأولى الممتازة التى سمعت ذلك وأضعاف ذلك بآذانها من فم رسولها ، والتى اعتنقت الإيمان بعد البحث والنظر ، واعتقدته طريقاً إلى سعادتها وعزها ، والتى باعت أنفسها وأموالها لله بأن لها الجنة فى نعيمها وخلودها. نقول: هل تلك الطبقة الكريمة ترضى بعد ذلك كله أن تركب رأسها وتنكص على أعقابها ؟ فتكذب على الله ورسوله ، أولا تتحرى الصدق فى كتاب الله وسنة رسوله ! ذلك شططٌ بعيد لا يجوز إلا على عقول المغفلين ! .

العامل الرابع

أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا مُغرَمين بالتفقُّه والتعلم، مولَعين بالبحث والتنقيب، مشغوفين بكلام الله وكلام رسول الله، يعقدون المجالس لمدارسة القرآن وفهمه، ويركبون ظهور المطايا لطلب العلم وأخذه. وكانت عناية الرسول بتعليمهم القرآن تفوق كل عناية، يقرؤه عليهم، ويخطبهم به، ويزيِّن إمامته لهم بقراءته في صلاته، وفي دروسه وعظاته. وكان فوق ذلك يحب أن يسمعه منهم كما يحب أن يقرأه عليهم. روى البخارى ومسلم أن ابن مسعود قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «اقرأ علىَّ القرآن. قلتُ: يارسولَ الله. أَقْرَأُ عليكَ وعليكَ أُنْزِلَ؟ قال: إنى أُحِبُّ أن أسمعه من غيرى. فقرأتُ عليهِ سورةَ النِّسَاء حتى إذا جِئْتُ إلى هذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» قال: حَسْبُكَ الآنَ. فالْتَفَتُّ إليه فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفان.

وكذلك كان الصحابة، همتهم أن يقرءوا القرآن ويستمعوه. روى الشيخان عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرِفُ أصواتَ رُفْقَةِ الأشْعَرِيِّين بالليْلِ حين يَدْخُلون، وأعرِفُ منازلهم من أصواتِهم بالقرآن بالليل، وإن كُنْتُ لم أرَ منازلهم حين نزَلوا بالنَّهارِ».

وروى الدرامى وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول لأبى موسى الأشعرى: ذكِّرنا ربَّنا فيقرأ عنده القرآن. قال النووى: وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة.

وقد سبق فى عوامل حفظ الصحابة للسنة مدى عنايتهم بالإقبال عليها والاهتمام بلقاء

رسول الله ﷺ للتعلم منه والأخذ عنه . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كُنَّا نَدْرُس العِلمَ في مسجد قُبـاء إذْ خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ فقال : « تَعلَّموا ماشئتم أن تعلَّموا ، فلنْ يأجرَكمُ اللهُ حتى تعملوا » . رواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح . وكلمة العلم في هذا الحديث شاملة لعلم الكتاب وعلم السنة .

أليس هذا الوَلوع بالكتاب والسنة من دواعي تثبُّتهم فيهما ، كما هو من دواعي حفظهم لهما ، لأن اشتهار الشيء وذيوعه ، ولين الألسنة به ، يجعله من الوضوح والظهور ، بحيث لا يشوبه لَبْس ، ولا يخالطه زَيْف ، ولا يُقْبل فيه دخيل .

العامل الخامس

يسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يتثبَّتوا ، وسهولة الوصول عليهم إلى أن يقفوا على جليَّة الأمر ، فيما استغْلق عليهم معرفته من الكتاب والسنة . وذلك لمعاصرتهم رسول الله ﷺ يتصلون به في حياته ، فيشفي صدورهم من الريبة والشك ، ويريح قلوبهم بما يُشِـعُّ عليهم من أنوار العلم وحقائق اليقين .

أما بعد غروب شمس النبوة ، وانتقاله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه . فقد كان من السهل عليهم أيضاً أن يتصلوا بمن سمعوا بآذانهم من رسول ﷺ ، والسامعون يومئذ عدد كثير وجم غفير ، يساكنونهم في بلدهم ، ويجالسونهم في نواديهم ، فإن شك أحدهم في آية من كتاب الله ، أو خبر عن رسول الله أمكنه التثبُّت من عشرات سواه ، دون عَنَت ولا عسر ! .

العامل السادس

شجاعة الأصحاب شجاعـةً فطرية ، وصراحتهم صراحةً طبيعية ، نَشَئوا عليهما مُنْذُ حداثتهم ، وطبعوا عليهما بفطرتهم وبيئتهم ، كأمة متبدِّية لاتعرف خَتْلَ الحضارة الملوَّثة ، ولا تألف نفاق المدنيـة المذَبذَبة . ثم جاء الإسلام فعزَّز فيهم هـذا الخلق الفاضل ، وزادهم منه ، وبنى حضارته الصحيحة ومدنيَّته الطاهرة عليه ، بمثل ما سمعت فى أصدق الحديث وخير الهدى . حتى لقد كان الرجل منهم يقف فى وسط الجمهور يردُّ على أمير المؤمنين وهو يلقى خطاب عرشه ردًّا قوياً صريحاً خَشِناً . بل كانت المرأة تقف فى بُهْرَةِ المسجـــد الجامع فتقاطع خليفة المسلمين وهو يخطب ، وتعارض رأيه برأيها ، وتقرع حجَّته بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكلة الصواب ، وأمير المؤمنين فى الحالين يغتبط بهاتيك الصراحـة ويُسَرُّ بتلك الشجاعة ، ويعلن اغتباطه بموقف ذلك العربى الخشن الذى ردَّ عليـــه ، كما يعلن رجوعه عن رأيه إلى رأى هذه السيدة التى حجَّته بين يديه ، وما أمر عمر ببعيد عنكم ، ولا مجهول لـكم ، لا عند ولايته الخلافة وهو قائم يلقى خطاب عرشه ، ولا عندما وقف على منبره ينهى عن التغالى فى مهور النساء !! .

فهل يرضى العقل والمنطق أن تُجرح هذه الأمة الصريحة القوية وتتهم بالـكذب أو بالسكوت على الـكذب فى كلام الله ، وفى سنَّة رسول الله ؟! .

ثم ألا يحملهم هذا الخلق المشرق فيهم على كمال التثبُّت ودقَّة التحرى فى كتاب الله وسنة رسول الله ؟ « لَقَدْ أَسْفَرَ الصُّبْحُ لِذِى عَيْنَيْنِ » ! .

العامل السابع

تكافُل الصحابة تكافلاً اجتماعياً فرضه الإسلام عليهم ، فجعل عيونهم مفتَّحة لكل من يكذب على الله ، أو يفترى على رسول الله ، أو يخوض فى الشريعة بغير علم ، أو يفتى فى الدين بغير حجة .

أجل : لقد كان كل واحد منهم يُعتقد أنه عضو فى جسم الأُمة ، عليه أن يتعاون هو والمجموع فى المحافظة على الملّة ، ويعتقد أنه لَبِنَةٌ فى بناء الجماعة ، عليه أن يعمل على سلامتها من الدغَل والزغَل ، والافتراء والكذب ، خصوصاً فى أصل التشريع الأول وهو القرآن . وأصله الثانى وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبين يديك الكتاب والسنة ، فاقرأ فيهما إن شئت أدلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تجدها كثيرة متآخذة ، تقرِّر ذلك التكافل الاجتماعى الإسلامى بين آحاد الأمة ، بما لا يَدَعُ مجالا لمفترٍ على اللهِ ، ولا يترك حيلة لحاطب ليلٍ فى حديث رسول الله .

استمع إلى كلام الحق وهو يحضُّ على دعوة الخير وفضيلة النصح إذ يقول سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » إلى أن قال جلّ ذكره : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وهكذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان به ، تنويهاً بجلالتهما . وحثًّا على التمسك بحبلهما ، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يُصان ولا يكون إلا بهما .

وتدبَّر قول الله تعالى فى سورة المائدة : « لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

ثم تأمل حكم الله على بنى الإنسان جميعاً بأنهم غريقون فى الخسران ، إلا مَنْ جمع عناصر السعادة الأربعة ، وهى الإيمان ، والعمل الصالح ، والتوصية بالحق ، والتوصية بالصبر فى قوله سبحانه : « وَالعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وشُوفِهوا بخطابه من فم رسول الله عن جبريل عن الله ، ثم سمعوا بعد ذلك من كلام رسول الله أمثال ما يأتى : —

(١) يقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم » . رواه الترمذى بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه .

(٢) وعن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ والطاعة فى العُسر واليُسر ، والمنشَط والمكره ، وعلى أَثَرَةٍ علينا ، وعلى ألا نُنازع الأمر أهله ، إلا أن تروْا كُفراً بَواحاً (أى ظاهراً) ، عندكم مِنَ الله تعالى فيه بُرهان ، وعلى أن نقول الحقَّ أينما كُنَّا لا نخافُ فى الله لوْمَةَ لائمٍ » رواه الشيخان .

فهل بعد هـذا كله يُعقل أن يعبث الصحابة ، أو يقرُّوا من يعبثُ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!.

العامل الثامن

تعويدهم الصدق وترويضهم عليه عملا ، كما أرشدوا إليه وأدبوا به فيما سمعت علماً .

وأنت خبير بأن التربية غير التعليم ، وأن العلم غير العمل ، وأن نجاح الفرد والأمة مرهون بمقدار ما يَنْهلان من رحيق التربية ، وما يَقْطِفان من ثمرات الرياضة النفسية والقوانين الخلقية .

أما العلم وحده فقد يكون سلاح شقاء ونذير فناء ؛ كما نرى ونسمع ، ويالهول ما نرى وما نسمع ! ! .

ولقد أدرك الإسلام هذه الناحية الجليلة فى بناء الأمم ، فأعارها كل اهتمام وعُنِىَ بالتَّنفيذ والعمل أكثر مما عِنىَ بالعلم والكلام . ولعلك لم تنس أنه ﷺ قال لمن يدرسون العلم فى مسجد قُباء تلك النصيحة الذهبية الحكيمة « تعلَّموا ماشِئْتُمْ أن تعلَّموا ، فلن يأْجُرَكُمْ الله حتى تَعْمَلُوا » ! .

ولعلك لم تنس أيضاً أن الإسلام شرع عقوبة من أشنع العقوبات ، لمن اقترف نوعاً من الكذب وهو نوع الخوض فى الأعراض ، تلك العقوبة هى حدُّ القذف الذى يقول الحق جل شأنه فيه من سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

فتأمل كيف عاقب هذا القاذف الكاذب بالجلد ثمانين ، وردَّ شهادته وحكم بأنه من الفاسقين ، بل قال : « وأولئك هم الفاسقون » أى لا فاسق سواهم ولا خارج عن حدود الدين والأدب إلا هم !

ثم شَنِّفْ مسمعيك بما يرويه أبو داود فى سننه من أن عبد الله بن عامر قال :

« جاء رسول الله ﷺ إلى بَيْتِنا وأنا صَبِيٌّ صغيرٌ ، فذَهَبْتُ لِألعبَ ، فقالت أُمّي : تعالَ حتى أُعْطِيكَ . فقال ﷺ : وما أردْتِ أنْ تُعْطِيَهُ ؟ قالتْ : تمراً . فقالَ : أمَا إنّكِ لو لَمْ تفعلي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبة » اتصوّر في هذه التربية السامية كيف لم يسمح الرسول ﷺ لأُمٍّ أن تَعِدَ طفلها الصغير وعداً غير صادق ، بل يسائلها : ما الذى كانت تعطيه لو جاء ؟ ثم يقرر أنها لو خاست بعهدها هذا لكتبها الله عليها كذبة ! وهكذا يكتفى بذكر كلمة « كذبة » فى هذا المقام ردعاً لها وزجراً ومنه تعلم أن لفظ الكذب كان سوط عذاب يخيف الصحابة رجالًا ونساء . وذلك لما يسمعون عنه من شناعة ، ولما يعرفون فيه من بشاعة ! ولما تَأَصَّلَ فى نفوسهم من فضيلة الصدق وشرف الحق ! أفبعد هذه التربية العالية يصحُّ أن يُقال : إن الصحابة يكذبون على الله ورسوله ولا يَتَثَبَّتُون ! ألا إن هؤلاء من إفكهم ليهرفون بما لا يعرفون ، ويُسرفون فى تجريح الفضلاء واتّهام الأبرياء ولا يستحون ، فويل لهم من يومهم الذى يُوعدون ! .

العامل التاسع

القدوة الصالحة ، والأُسوة الحسنة ؛ التى كانوا يجدونها فى رسول الله ﷺ ماثلةً كاملةً ، جذّابةً أخّاذة . ولا يَعْزُبَنَّ عن بالك أن القدوة الصالحة خير عامل من عوامل التعليم والتربية ، والتأديب والتهذيب ، خصوصاً بين نبيٍّ ومتّبعيه ، وأستاذ ومتعلّميه ، ورئيس ومرءوسيه ، وراع ورعيته .

وها نحن أولاء نرى علماء النفس والاجتماع ، وأقطاب التربية والتعليم ، وبُناة الأخلاق والأمم : نراهم لايزالون يتحدّثون فى القدوة الصالحة ، ويوصُّون بالقدوة الصالحة ، ويبحثون عن القدوة الصالحة . وذلك لمكانتها من التأثير والإصلاح ، والتقويم والنجاح ، فى الأفراد والأمم على سواء ! ! .

ولم يعرف التاريخ ولن يعرف قدوةً أسمى ، ولا أُسوة أعلى ، ولا إمامةً أسنى ، من محمد ﷺ ، فى كافّة مناحى الكمال البشرى ، خصوصاً خُلقه الرضىّ ، وأدبه السنىّ ، ولا سيما صدقه وأمانته ، وتحرّيه ودقّته ! .

أجل : فقد كان ﷺ مشهوراً بالصدق ، معروفاً بالأمانة ، حتى من قبل بَعْثته ورسالته ، فكان إذا سار أشاروا إليه بالبنان ، وقالوا : هذا هو الصادق ، وإذا حكم رضوا حكومته وقالوا : هذا هو الأمين !

وكانت هذه الفضائل المشرقة فيه ، من بواعث إيمان المنصفين من أهل الجاهلية به . ولقد اضطرّ أن يشهد له بها أعداؤه الألدّاء ، كما آمن بها أتباعه الأوفياء !

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيم حزب المعارضة له يُقرّ بين يدى قَيْصَر الرُّوم بصدق محمد وأنهم لم يحفظوا عليه كَذْبَةً واحدة قبل رسالته ، ويكاد يؤمن القيصر متأثّراً فى جملة ما تأثّر ، بهذه الشهادة التى انطلق بها لسان ألدّ خصوم محمد يومئذ ، ثم يقول فى التعليق على كلام أبى سفيان والتنويه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام : « ما كان (أى محمد) لِيذَرَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله » ! والحديث طويل مشهور يرويه البخارى فى صحيحه . فراجعه إن شئت .

وهذا قائل قريش يقول للنبى ﷺ فى مَعْرِضٍ من المعارض : إنا لا نكذّبك ولكن نكذّب ما جئتَ به . وبسبب ذلك أنزل الله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . » .

ومما يذكر بالإعجاب والفخر لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم أنه عرض الإسلام على بنى عامر بن صَعْصَعَة ، وذلك قبل الهجرة ، وقبل أن تقوم للدين شوكة ، فقال كبيرهم : أرأيْتَ إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على مَنْ خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بتلك الكلمة الحكيمة الخالدة :

« الأمرُ للهِ يضعهُ حيثُ يشاء » ! فقال له كبيرهم أفنهدف (١) نحورُنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كانَ الأمرُ لغيرنا ؟ لاحاجةَ لنا بأمركَ .

وهنا تتجلى سياسة الإسلام ، وأنها سياسةٌ صريحة مكشوفة ، ورشيدة شريفة ، لاتعرف اللفّ والدوران ، ولاتعتمد الكذب والتضليل ، كما تتجلى صراحةُ نبيّ الإسلام ، وصدقُ نبيّ الإسلام ، وشرفُ نبيّ الإسلام ؛ عليه الصلاة والسلام !! .

نعم : لقد كان محمد ﷺ في ضيق أيّ ضيق ، يحتاج إلى أقل معاونة من عدو أو صديق ، وهذا حيٌّ من العرب يستطيع أن يكتسبه ويتقوى به ، ولكنه عليه الصلاة والسلام ، لايستطيع أن يعدَ فيخلف ، ولا أن يحدّث فيكذب ، ولا أن يعاهد فيغدر ! يسألونه أن يكونوا الخلفاء منْ بعده إذا أسلموا فيقول بملء فيه « الأمرُ للهِ يضعهُ حيثُ يشاء » ولو أنه قال إن شاء الله مثلاً لدانوا له أجمعين ، وأصبحوا من حزبه وجنده المسلمين ! .

مرحى مرحى لسياسة الإسلام . وأخلاق نبيّ الإسلام !! .

وإذا كانت هذه الأخلاق العليا هي منار القدوة للصحابة في رسول الله ، فكيف لايقتبسون من هذه الأنوار ، ولا يضربون في حياتهم على هذه الأوتار ؟ فضلاً .

---

(١) في القاموس : أهدفَ له الشيء عرضَ اهـ

وقال في لسان العرب ، الإهدافُ : الدنوُّ . أهدفَ له القومُ أي قربوا ... وكل شيء قد استقبلك استقبالاً فهو مهدف ومستهدف . اهـ . وقال الزمخشري في أساس البلاغة : أهدفَ له الشيء واستهدف : انتصب وعرض . وقال عبدالرحمن بن أبي بكر لأبيه أبي بكر رضي الله تعالى عنهما : لقد أهدفتَ لي يوم بدر فصفتُ عنك اهـ فالفعل لازم غير متعدٍّ . ومعنى صفتُ عنك : ملت وأعرضت . تدبر .

عن أن يقال عنهم : إنهم يكذبون أولا يتحرون فى كتاب الله وسنة رسول الله « سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

العامل العاشر

سموُّ تربية الصحابة على فضائل الإسلام كلها ، وكمال تأدبهم بآداب هذا الدين الحنيف وشدةُ خوفهم من الله ، وصفاء نفوسهم إلى حدٍّ لا يتفق والكذب خصوصاً الكذب على الله تعالى ، والتجنِّى على أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليه .

يقول علماء الأخلاق والمشتغلون بعلم النفس وعلوم الاجتماع : إن الكذب جنايةٌ قبيحةٌ ، لا يمكن أن يصدر إلا عن نفسٍ ساقطةٍ لم تتأدب ، ولا يتصور أن يفشو إلا فى شعبٍ شاذ لم يتهذب .

ونحن إذا استعرضنا تاريخ الصحابة — رضوان الله عليهم — نشاهد العجب فى عظمة تأديب الإسلام لهم ، وتربيته إياهم تربيةً ساميةً جعلتهم أشباه الملائكة يمشون على الأرض ، لاسيما ناحية الصدق والأمانة ، والتثبت والتحرى والاحتياط . وذلك من كثرة ماقرّر القرآن فيهم لهذه الفضائل ، ومن عناية الرسول ﷺ بهم علماً وعملاً ومراقبة ، حتى أصبحوا بنعمة من الله وفضلٍ منطبعةً قلوبهم على هذه الجلائل ، متشبعةً نفوسهم بمبادئ الشرف والنبل ، تأبى عليهم كرامتهم أن يقاربوا الكذب أو يقارفوا التهجم . لاسيما التهجم على مقام الكتاب العزيز ، وكلام صاحب الرسالة ﷺ .

قالت عائشة رضى الله عنها : « ما كانَ خلقٌ أشدَّ على أصحابِ رسول الله ﷺ منَ الكذبِ . ولقد كان رسول الله ﷺ يطّلعُ على الرجلِ منْ أصحابهِ على الكذبِ فما ينجلى منْ صدرهِ حتى يعلم أنهُ أحدثَ توبةً لله عزّ وجلَّ » رواه مسلم فى مقدمة صحيحه .

عوامل أخرى

إذا استعرضت بعض العوامل السابقة فى حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، تجد منها عوامل صالحة أيضاً لأن تكون دواعى تثبتهم فى الكتاب والسنة ، ولهذا أكتفى بالإشارة إليها دون إعادتها :

١ ـ فذكاء العرب وقوة حوافظهم وصفاء طبعهم إلى آخر ماذكرنا فى العامل الثانى هناك .لاشك أنه داعية من دواعى تثبتهم أيضاً ، لأن الشأن فيمن نشأعلى هذه الصفات ؛ أن يكون واثقاً مما حفظ ، فلا يحتاج إلى تزيُّدٍ ولا يقع فى تهجم .

٢ ـ وحبُّ الصحابة لله ولرسوله عامل كذلك من عوامل التثبت، لأن المحب الصادق لايقنع إلا بما يثق أنه كلام حبيبه من غير لبسٍ ولاشك ، ولا يرضى أن يفترى الكذب على حبيبه ، ولا يقبل أن يتقول عليه أو يتهجم فى كلامه ، خصوصاً إذا عرف أنه يكره ذلك منه . (انظر العامل الرابع من عوامل الحفظ) .

٣ ـ وموقف الصحابة فى محراب الفصاحة والبيان ، وعلو كعبهم فى نقد الكلام ، وكمال ذوقهم فى إدراك إعجاز القرآن وبلاغة النبي عليه الصلاة والسلام، كل أولئك ييسر عليهم التثبت ، ويهون عليهم أن يردوا ما ليس من كلام الله وكلام رسوله ، ضرورة أنهم يدركون الفوارق بين الأساليب الفاضلة والمفضولة ، ويزنون كلامهم بموازينهم البلاغية الصادقة . (انظر العامل الخامس من عوامل الحفظ) .

٤ ـ وعلم الصحابة بمنزلة الكتاب والسنة من الدين ، يجعلهم بلا شك يهتمون بالتثبت منهما ، والحيطة لهما . (انظر العامل السابع من عوامل الحفظ) .

٥ ـ واقتران الكتاب بالإعجاز ، واقتران السنة ببعض المعجزات والغرائب ، ثم ارتباط كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول بالحوادث والوقائع، كل أولئك مما يجعل

النفوس تتوثق منهما ولا تشتبه فيهما ولا تقبل التزيد والكذب عليهما . (انظر العامل الثامن والتاسع من عوامل الحفظ) .

إذا جمعت هذه العوامل وأمثالها إلى العشرة المسطورة بين يديك ، رأيت بضعة عشر عاملا من الدواعي المتوافرة ، والأدلة القائمة ، على أمانة الصحابة وتثبتهم من الكتاب والسنة .

مظاهر هذا التثبت

وهكذا نتصفح تاريخ الصحابة ، ونقتفي آثارهم ، فإذا هي شواهد حق على تغلغل فضيلة الصدق فيهم ، وشدة نفورهم ، ونقاء ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب . هذا عمر رضى الله عنه يقول : « أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا مَالَمْ نَرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ اُسْمًا ، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا ، فَإِذَا اُخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا » . وهذا عليٌّ كرم الله وجهه يقول : « أعظمُ الخطايا عندَ اللهِ عزَّ وجل اللسانُ الكذوبُ » . ويقول مرة أخرى : « إذا حدثتكمْ عنْ رسول الله ﷺ ، فلأَنْ أخِرَّ منَ السماء أحبُّ إليَّ منْ أنْ أكذبَ عليهِ » .

وإن شئتم فاعجبوا من سعيد بن المسيب وهو أحد من رباهم الصحابة : رمدتْ عيناه مرةً حتى بلغ الرمد خارجهما (والرمد وسخٌ أبيض من مجرى الدمع من العين) فقيل له : لو مسحتَ عينيك . فقال : وأين قول الطبيب : لا تمسَّ عينيك فأقول : لا أفعل ؟ ! .

وتدبروا ما رواه مسلم بسنده عن مجاهد قال : جاء بشير العدوى إلى ابن عباس ، فجعل يحدِّث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعل ابن عباس

لا يَأْذَنُ له ، ولا ينظر إليه . فقال : يابن عباس ، مالى لاأراك تسمع لحديثى ، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع ! فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ﷺ : ابتدرته أبصارُنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناسُ الصعب والذلول ، لم نأخذ من الناس إلا مانعرف .

ومن هذا الورع البالغ والحذر الدقيق ، تحرج كثير من أكابر الصحابة عن الرواية والتحديث ، فلم يسمع منهم إلا النزر اليسير ، مع أن لديهم من رسول الله الغمر الكثير . يُحدِّث ابن الزبير — رضى الله عنه — فيقول : قلت لأبى : مالى لاأسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ؟ فقال : أمَا إنى لم أفارقه مُنْذُ أسلمت ولكنى سمعته يقول : من كذبَ علىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ » رواه البخارى وأبو داود .

وإذا كان هذا مظهراً من مظاهر حذرهم واحتياطهم للسنّة النبوية ، فماذا تقدر من مظاهر حذرهم واحتياطهم لكتاب الله العزيز ؟ ! إنى أعتقد أنك إذا رجعت إلى أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ، تشاهد العجب العاجب من روائع هذه المظاهر .

فهذا عمر يأخذ بخناق هشام بن حكيم ويسوقه إلى النبى ﷺ ومانقم عليه إلا أنه قرأ سورة الفرقان على وجه لم يقرأه عمر ، ولم يكن يعرف عمر أنه هكذا نزل ، ولم يرسل عمر هشاماً حتى انتهى به إلى رسول الله ﷺ وأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأهما عليه الصلاة والسلام ، وقال فى قراءة كليهما : « هَكَذَا أُنْزِلَتْ » . وقال : « إنَّ هَذَا القرآن أُنزل عَلَى سَبْعَةِ أحْرُفٍ فاقرءوا ماتيسر منهُ » هذا ملخص ما كان بين عمر وهشام ، ومثل ذلك وقع من أُبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهما مع أصحابهم ، مما تعرضه عليك الروايات المبسوطة هناك فى هذا الموضوع ا .

أضف إلى هـــذا تلك الدقَّة البالغة التي أجملناها لك في دستور أبي بكر ودستور عثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن بالصحف والمصاحف ، وهي على مقربة منك ، فارجع إليها إن شئت .

ويشبه هذين الدستورين في جمع القرآن ، دستور أبي بكر في حماية السنة والحيطة لها والتثبُّت منها ، إذ جمع أصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم في الأمر ، ثم انتهوا إلى اتباع ما يأتي : ـ

أن ينظروا في خبر الواحد نظرةً فاحصة ، يعرضونه على كتاب الله تعالى وما تواتر أو اشتهر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خالف شيئاً منها زيَّفوه وردوه ، وإن لم يخالف نظروا نظرة ثانية فيمن جاء به ، فلا يقبلون إلا ممن عرف بالعـــدالة والضبط والصدق والتحري ، وإلا طالبوه بالتزكية من طريق آخر يشهد معه ويروي ماروا ه ، وبرغم هـذا وذاك فقد التزموا التقليل من الرواية لأن الإكثار مَظِنَّة الخطأ ومثار الاشتباه .

نعم : حداهم ورعهم وشدة خوفهم من الله ، أن يحصِّنوا حديث رسول الله بهذا الدستور الدقيق الرشيد القائم على رعاية هذه القواعد الثلاث : النظر في الخبر ، والنظر في المخبر ، والإقلال من الرواية .

ويرحم الله ابن الخطاب فقد أخذ بالأسس التي وضعها أبو بكر لحياطة الكتاب والسنة ، ثم بنى عليها ، وشمخ بها ، وزاد فيها ، حتى تشدَّد مع الأمناء الموثَّقين ، وضيَّق الخناق على الصحابة المكثرين ، حتى رُوي أنه حبس ثلاثة من مشاهير الصحابة سنةً كاملة ، ومانقم منهم إلا أنهم أكثروا الرواية . وإذا صحَّ هذا فهو درسٌ قاسٍ من الفاروق لعامة الشعب في الاحتياط لأصول التشريع والتبصُّر والتدقيق في الرواية تحملا وأداء ، على حدِّ قول الشاعر :

« إنى وقتلى سُلَيكا ثم أعْقِلَهُ   كالثَّوْرِ يُضرَبُ لَمَّا عافتِ البقرُ »

ثم جاء دور عثمان وعلى ، فحذَوا حَذْوَ أبى بكر وعمر ، إذ أوى الكتاب فى كنفهما إلى ركن ركين وظل ظليل ، وبقيت السنة فى عهدهما رفيعةَ العِماد ، قوية السِّناد ، حتى تلقَّاها بنو أمية على ما تركها الخلفاء ، بيضاء مشرقة ، ليلُها كنهارها .

ولبثت السنة فى العهد الأموى معتصمة بعزَّتها ومَنَعتها ، حتى طلع نجم الملك العادل عمر بن عبد العزيز ، على رأس المائة الثانية فردَّد صدى جدّه عمر بن الخطاب ، فى ضرورة صوْن السنة ووعْيها ، ولكن رأى أن يكون ذلك عن طريق الكتابة والنقش فى السطور ، بعد أن وُعيت فى العهد الماضى عن طريق الحفظ فى القلوب والصدور . وبذلك انتقل الحديث النبوى إلى دور جديد سعيد ، هو دور التأليف والكتابة والتقييد ، مما كان له أبلغ الأثر فى وصوله إلينا موزونا بأدقِّ موازين العلم والبحث الدقيق .

نتيجة ذلك

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن أُحيط الكتاب والسنة بسياجٍ من الفولاذ والحديد ، وأن حُفظ الدين من العبث بأصول التشريع ، وأن أخذ خلف الأمة درسًا قيِّمًا عن سلفهم الصالح فى ضرورة الاستبراء للدين ، واليقظة فى حراسة الكتاب والسنة ، ووجوب نقد الرُّواة وفحْص المرويَّات . وبهذا أيضا أُخذ الطريق على الدس والدساسين وحِيكت الشِّباك للدجالين والوضَّاعين ، وأصبح الدين الإسلامى منيعَ الحوْزَة ، محفوظ الذمار ، إلى درجة تفاخر بها شعوب العالم ؛ وأمم الأرض ، وأديان الدنيا ، مما لا يكاد يوجد مثله ولا قريبٌ منه فى تاريخ أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية ، منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم الناس هذا ! .

الموقف خطير

ولا تحسبنَّ أيها القارئ الكريم أنى بالغت أو أسرفت ، وإن كنت قد أطلت وأكثرت ، فإن هذا البحث جليل وخطير يتَّصل فى جلالته وخطورته بتلك الطائفة الممتازة التى اختارها الله لتلقى كتابه ، ومعاصرة رسوله ﷺ وحسن النيابة عنه فى نشر هداية الإسلام ، والدفاع عن حِمَى الدين الحنيف .

أولئك هم حجر الزواية فى بناء هذه الأمة المسلمة ، عنهم قبل غيرهم تلقَّت الأمة كتاب الله ، وحذقت سنة رسول الله ، وعرفت تعاليم الإسلام ، فالغضُّ من شأنهم والتحقير لهم ، بل النظر إليهم بالعين المجرَّدة من الاعتبار ، لا يتفق والمركز السامى الذى تبوَّءوه ، ولا يوائم المهمة الكبرى التى انتدبوا لها ونهضوا بها ، كما أن الطعن فيهم والتجريح لهم ، يزلزل بناء الإسلام ، ويقوّض دعائم الشريعة ، ويشكِّك فى صحة القرآن ، ويضيِّع الثقة بسنة سيد الأنام ! .

ومن أشد ما يُجرح به الصحابة اتهامهم بسوء الحفظ وعدم الضبط ولَمْزُهُم بالكذب والافتراء على الله ورسوله ، ونبزهم بعدم التثبُّت والتحرى فى نقلهم كتاب الله وسنة رسوله إلى الأمة ! .

لذلك عُنِى علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالدفاع عن عَرين الصحابة ، لأنه — كما رأيت — دفاعٌ عن عرين الإسلام . ولم يكن ذلك الدفاع نَزْوَةَ هَوى ، ولا نبْوَةَ عصبية ، بل كان نتيجة لدراسات تحليلية ، وأبحاث تاريخية ، وتحقيقات بارعة واسعة ، أحصتهم عددا ، ونقدتهم فرداً فرداً ، وعرضتهم على أدقِّ موازين الرجال ، مما تُباهى به الأمة الإسلامية كافةَ الأمم والأجيال .

وبعد هذا التحقيق والتدقيق ، خرج الصحابة رضى الله عنهم من بَوْتَقَةِ هذا البحث ، وإذا هم خير أمة أُخرجت للناس ، وأسمى طائفة عرفها التاريخ ، وأنبل

أصحاب لنبيّ ظهر على وجه الأرض ، وأوعى وأضبط جماعة لما اُستُحْفِظُوا عليه من كتاب الله وهَدْى رسول الله ﷺ .

وقد اضطُرَّ أهل السنة والجماعة، أن يعلنوا رأيهم هذا كعقيدة ، فقرّروا أن الصحابة عدول . ولم يشذَّ عن هـذا الرأى إلا المبتدعةُ والزنادقة قبّحهم الله ـ . قال أبو زُرْعة الرازى : « إذا رأيت الرجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك لأن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك إلينا كلَّه الصحابة . وهؤلاء (يعنى الزنادقة) يريدون أن يجرَحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة،والجَرْح بهم أولى ، وهم زنادقة » ! اهـ .

شهادة عليا من الله للصحابة

وفوق ماتقدم نجد الحق سبحانه وتعالى ، يمتدح أصحاب محمد ﷺ غير مرة،ونرى الرسول ﷺ يُطرِى صحابته فى غير موضع . اقرأ إن شئت قوله جلَّ جلاله : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ ، وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » إلى آخر سورة الفتح . ثم اقرأ إن شئت قوله عزَّ اسمه:« لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَى ». وقوله جلّت حكمته : « لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » إلى قوله : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » فى سورة الحشر . وتأمل قوله عزّ من قائل : « كُنْتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » الخ ، وقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».
ولا ريب أن الصحابة هم المشافَهون بهـذا الخطاب ، فهم داخلون فى مضمونه بادئ ذى بدء ، متحققون بمزاياه أول الأمر ! !

شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه

وكذلك نقرأ فى صحيح السنَّة ما يشهد بفضل الصحابة وكمال امتيازهم على الثقلين سوى النبيين والمرسلين. روى الترمذى وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « اللهَ اللهَ فى أصحابى، لاتتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً، فمَنْ أحَبَّهُمْ فبِحُبِّى أحَبَّهُمْ، وَمَنْ أبغَضَهم فبِبُغْضِى أبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فقد آذانِى وَمَنْ آذَانِى فقد آذَى اللهَ فيُوشِكُ أَن يَأْخُذَهُ ».

وروى البزّار فى مُسنده برجال كلهم موثَّقون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إنَّ اللهَ اختارَ أصحابِى على الثَّقَلَيْنِ سِوَى النبيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ » وجاء فى صحيح البخارى ومسلم أنه ﷺ قال فى شأن أصحابه: « لَوْ أنفقَ أَحَدُكُمْ مثلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ». وتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... ».

فأنت ترى من هذه الشهادات العالية فى الكتاب والسنة، مايرفع مقام الصحابة إلى الذِّرْوَة، ومالا يترك لطاعن فيهم دليلاً ولا شبه دليل.

حكمة الله فى اختيار الصحابة

والواقع أن العقل المجرَّد من الهوى والتعصُّب، يُحيل على الله فى حكمته ورحمته، أن يختار لحمل شريعته الختامية أمةً مغموزة أو طائفة ملموزة تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. ومن هنا كان توثيق هذه الطبقة الكريمة طبقة الصحابة، يعتبر دفاعاً عن الكتاب والسنة وأصول الإسلام من ناحية، ويعتبر إنصافاً أدبيًّا لمن يستحقُّونه من ناحية ثانية، ويعتبر تقديراً لحكمة الله البالغة فى اختيارهم لهذه المهمة العظمى من ناحية ثالثة. كما أن توهينهم

والنيْل منهم ، يُعَدُّ غمْزاً فى هذا الاختيار الحكيم ، ولَمْزاً فى ذلك الاصطفاء والتكريم ، فوق مافيه من هدم الكتاب والسنة والدين .

على أن المتصفح لتاريخ الأمة العربية وطبائعها ومميِّزاتها ، يرى من سلامة عنصرها ، وصفاء جوهرها ، وسموِّ مميزاتها ، مايجعله يحكم مطمئناً ، بأنها صارت خير أمة أُخرجت للناس ، بعد أن صَهَرَها الإسلام . وطهَّرها القرآن ، ونفى خبثها سيدُ الأنام ، عليه الصلاة والسلام .

ولكن الإسلام قد ابتُلى حديثاً بمثل أو بأشدَّ مما ابتُلى به قديماً ، فانطلقت ألسنةٌ فى هذا العصر تُرجف فى كتاب الله بغير علم ، وتخوض فى السنة بغير دليل ، وتطعن فى الصحابة دون استحياء ، وتنال من حَفَظة الشريعة بلا حجَّة ، وتتَّهمهم تارةً بسوء الحفظ ، وأخرى بالتزيُّد وعدم التثبُّت وقد زوَّدناك وسلَّحناك فانزل فى الميدان ولا تخشَ عِداك . « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » نصرنا الله بنصرة الإسلام ، وثبَّت منا الأقدام والأقلام ، والحمد لله فى البدء وفى الختام ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته الأعلام ، آمين .

المبحث التاسع

فى ترتيب آياتِ القرآن وسُوَرِه

معنى الآية :

آيات القرآن جمع آية ، والآية تطلق فى لسان اللغة بإطلاقات :

أولها : المعجزة . ومنه قوله تعالى : « سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ » أى معجزة واضحة .

ثانيها : العلامة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أى علامة ملكه .

ثالثها : العبرة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً » أى عبرةً لمن يعتبر

رابعها : الأمر العجيب . ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » .

خامسها : الجماعة . ومنه قولهم : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم : والمعنى أنهم لم يَدَعوا وراءهم شيئاً .

سادسها : البرهان والدليل ، نحو قوله جلَّ ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال ، خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان. تلك كلها إطلاقات لغوية ، وقد يستلزم بعضها بعضاً . ثم خُصَّت الآية فى الاُصطلاح بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة فى سورة من القرآن . والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحى والمعانى اللغوية السالفة واضحة، لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هى علامة على صدق من جاء بها ﷺ وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهى من الأمور العجيبة لمكانها من السموِّ والإعجاز ، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف ، وفيها معنى البرهان والدليل على ماتضمنته من هداية وعلم ، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته ، وعلى صدق رسوله فى رسالته .

طريقة معرفة الآية :

لا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع ، لأنه ليس للقياس والرأى مجال فيها ، إنما هو محض تعليم وإرشاد ، بدليل أن العلماء عدُّوا « المص » آية ، ولم يعدُّوا نظيرها وهو « المر » آية ، وعدُّوا « يس » آية ، ولم يعدُّوا نظيرها وهو « طس » آية ، وعدُّوا « حمعسق » آيتين ، ولم يعدُّوا نظيرها وهو « كهيعص » آيتين ، بل آية واحدة ، فلو كان الأمر مبنيا على القياس لـكان حكم المثلين واحداً فيما ذكر ، ولم يجيء هكذا مختلفاً .

ذلك مذهب الكوفيين ، لأنهم عدُّوا كل فاتحة من فواتح السور التى فيها شيء من حروف الهجاء آية سوى حمعسق ، فإنهم عدوها آيتين ، وسوى طس . ولم يعدوا من الآيات مافيه « ر » وهو « الر » و « المر » ، وما كان مفرداً وهو « ق ، ص ، ن » أى لم يعدُّوا شيئاً منها آية .

وغير الكوفيين لا يعتبرون شيئاً من الفواتح آية إطلاقاً . وحيث قلنا : إن المسألة توقيفية ، فلا يشتبهن عليك هذا الخلاف . لأن كلًّا وقف عند حدود مابلغه أو علمه . ولا تقولن كيف عدوا ماهو كلمة واحدة آية ؟ لأن الوارد عن الشارع هو هذا ، كما عدت كلمة « الرحمن » فى صدر سورة الرحمن آية ، وكما عدت كلمة « مدهامتانِ » آية ، وقوفاً عند الوارد .

أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال : « كنتُ أصلى فى المسجدِ ، فدعانى رسولُ اللهِ ﷺ فلم أُجبهُ ، ثم أتيتهُ فقلت : يارسولَ اللهِ إنى كنتُ أصلى . فقال : ألمْ يقـل اللهُ تعـالى : « يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » . ثم قال : لأعلِّمنكَ سورةً هىَ أعظمُ السورِ فى القرآنِ قبلَ أنْ تخرُجَ منَ المسجدِ . ثمَّ أخـذَ بيدى ، فلما أرادَ أنْ يخرُجَ قلت له : ألمْ تقلْ :

لأعلِّمنكَ سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآنِ ؟ قالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » هيَ السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتهُ » ، اه . فهذا الحديث يدل على أن الفاتحة سبع آيات ، وعلى أنها هي المرادة بالسبع المثاني في قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي هريرة أنه قال : قال النبي ﷺ « إنَّ لكلِّ شيءٍ سناماً ، وإن سنامَ القرآنِ سورةُ البقرةِ ، وفيها آيةٌ هيَ سيدةُ آي القرآن : آيةُ الكرسي » اه .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبيٍّ بن كعب ، قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذرِ . أتدري أيُّ آيةٍ منْ كتابِ الله معكَ أعظمُ ؟ قلت : « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، فضربَ في صدري وقال ليهنكَ العلم أبا المنذرِ » اه .

وأخرج الخمسة إلا النسائي عن أبي مسعود البدري أنه قال : قال النبي ﷺ : « من قرأ بالآيتين منْ آخرِ سورةِ البقرة في ليلةٍ كفتاهُ » اه .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال « أقرأني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سورةً منَ الثلاثينَ منْ آلِ حم » قال : يعني الأحقاف ، لأن السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين .

وقال ابن العربي : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : « أنَّ الفاتحة سبعُ آياتٍ ، وسورةَ الملكِ ثلاثونَ آيةً » اه .

رأيٌ آخر :

وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات ، منه ماهو سماعيٌّ توقيفيٌّ ، ومنها ماهو قياسيٌّ ، ومرجع ذلك إلى الفاصلة ، وهي الكلمة التي تكون آخر الآية ، نظيرها قرينة السجع في النثر ، وقافية البيت في الشعر . يقولون : فما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم

وقف عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة ، وماوصله دائماً تحققنا أنه ليس فاصلة ، وماوقف عليه مرةً ووصله أُخرى احتمل الوقفُ أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التامّ أو للاستراحة ، واحتمل الوصلُ أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدُّم تعريفها. وفى هـذا مجالٌ للقياس ، وهو ما أُلحق غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمر يقتضى ذلك . ولا محظور فيه لأنه لايؤدى إلى زيادة ولا نقصان فى القرآن ، وإنما غايته تعيين محل الفصل أو الوصل .

وقد يُلاحظ فى الكلمة الواحدة من القرآن أمران ، يقتضى أحدهما عدَّها من الفواصل ، والآخر يقتضى خلاف ذلك . مثال ذلك كلمة « عليهم » الأولى فى سورة الفاتحة ،منهم من يعتبرها رأس آية ، ومنهم من لايراها كذلك . وبسبب هذا أنهم اختلفوا فى البسملة أهى آية من الفاتحة أم لا ؟ مع اتفاقهم على أن عدد آيات الفاتحة سبع . فالذين ذهبوا إلى أن البسملة آية من الفاتحة جعلوا « صِراطَ ٱلذَّينَ أنعمْتَ عليهِمْ » إلى آخر السورة آية واحدة . والذين ذهبوا إلى أن البسملة ليست آية منها جعلوا الآية السابعة مابعد كلمة « عَلَيْهِمْ » الأولى ، واعتبروا هذه الكلمة فاصلة لوقوعها فى آخر الآية السادسة . ومن المرجحات لعدِّها فاصلة تحقُّق التناسب بين الآيات فى المقدار ، بخلاف ماإذا لم يعتبر فاصلة فإن هذه الآية الأخيرة تطول وتزيد على ماسواها كثيراً . ومن المرجحات لعدم عدِّها فاصلة أنها لا تشاكل فواصل الفاتحة ، فإنه جاء فى كل واحدة منها قبل الحرف الأخير ياء مدٍّ بخلاف هذه . أضف إلى ذلك أنه لم تجئ فاصلة على هذا النَّمط فى سورة من السور .

واعلم أنه قد تطلق الآية القرآنية ويراد بعضها أو أكثر . ولكن على ضرب من المجاز والتوسّع ، فلا تتوقّفن فيه . مثال إطلاق الآية على بعضها ، قول ابن عباس : أرجَى آيةٍ فى القرآن : « وَإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » فإن هذه

الجملة الكريمة بعض آية باتفاق . ومثال إطلاق الآية على أكثر منها قول ابن مسعود : أحكمُ آيةٍ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ » . فإنهما آيتان باتفاق .

عدد آيات القرآن :

قال صاحب التبيان مانصه : وأما عدد آى القرآن فقد اتفق العادُّون على أنه ستة آلاف ومائتا آية وكسر ، إلا أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم :

ففى عدد المدنى الأول سبع عشرة ، وبه قال نافع .

وفى عدد المدنى الأخير أربع عشرة عند شيبة ، وعشر عند أبى جعفر .

وفى عدد المكى عشرون .

وفى عدد الكوفى ست وثلاثون . وهو مرويٌّ عن حمزة الزيَّات .

وفى عدد البصرى خمس ، وهو مروى عن عاصم الجحدرى . وفى رواية عنه أربع، وبه قال أيوب بن المتوكل البصرى ، وفى رواية عن البصريين أنهم قالوا : تسع عشرة ، وروى ذلك عن قتادة .

وفى عدد الشامى ست وعشرون وهو مروِيٌّ عن يحيى بن الحارث الذمارى اه .

وقال صاحب التبيان أيضاً قبل ذلك مانصه : « عدد المكى منسوب إلى عبد الله ابن كثير أحد السبعة ، وهو يروى ذلك عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبيٍّ بن كعب .

وعدد المدنى على ضربين : عدد المدنى الأول وعدد المدنى الأخير . فعدد المدنى الأول غير منسوب إلى أحد بعينه . وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مُرْسَلاً ، ولم يسموا فى ذلك أحداً ، وكانوا يأخذون به وإن كان لهم عدد مخصوص . وعدد المدنى الأخير منسوب إلى أبى جعفر بن يزيد بن القعقاع أحد العشرة ، وشَيْبة ابن نِصَاح . وقد رواه عنهما إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى بواسطة

سليمان بن جماز . وقد وهم من نسب عدد المدنى الأول إلى أبى جعفر وشيبة ، وعدد المدنى الأخير إلى إسماعيل بن جعفر . وكأن الذى أوقعه فى ذلك ماذكر فى بعض الكتب من أن نافعاً روى عنهما عدد المدنى الأول ، وأن أبا عمرو عرض العدد المذكور على أبى جعفر ، فإن رواية ذلك عنهما لا تقتضى نسبته إليهما . وأما نسبة عدد المدنى الأخير إليهما فهو مما لا ريب فيه » اهـ . ما أردنا نقله ، تنويراً فى هذا الموضوع ، الذى اضطربت فيه بعض النقول .

سبب هذا الاختلاف .

سبب هذا الاختلاف أن النبي ﷺ كان يقف على رءوس الآى تعليماً لأصحابه أنها رءوس آيٍ ، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى ،فيظن بعض الناس أن ماوقف عليه النبي ﷺ ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها . وقد علمت أن الخطب فى ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه فى القرآن زيادة ولا نقص .

وآيات القرآن مختلفة فى الطول والقصر ، فأطول آية هى الدَّينْ فى سورة البقرة التى هى أطول سورة ، وأقصر آية كلمة « يسۤ » الواقعة فى صدر سورة يسۤ .

فوائد معرفة الآيات :

يزعم بعض الناس أنه لا فائدة من معرفة آيات القرآن . وللرد عليهم نذكر لهذه المعرفة ثلاث فوائد لا فائدة واحدة :

(الفائدة الأولى) : العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم . وفى حكمها الآية الطويلة التى تعدل بطولها تلك الثلاث القصار . ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدِّى بالسورة الواحدة فقال سبحانه : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى

عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة . وأقصر سورة فى القرآن هى سورة الكوثر ، وهى ثلاث آيات قِصار . فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة ، وفى قوتها الآية الواحدة الطويلة التى تكافئها .

(الفائدة الثانية) : حسن الوقف على رءوس الآى عند من يرى أن الوقف على الفواصل سُنّة ، بناء على ظاهر الحديث الذى استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطّع قراءته آيةً آية ، يقول « بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف . « الحمدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين » ثم يقف . « الرحمنِ الرحيمِ » ثم يقف .

قال صاحب التبيان فى موضع آخر . مانصه : (قال بعض العلماء : وفى الاستدلال به — أى بذلك الحديث — على ماذكر نظر ، وذلك لأنه حديث غريب غير متّصل الإسناد . رواه يحيى بن سعيد الأموى وغيره عن ابن جريج عن ابن أبى مُليكة عن أم سلمة . و الأصحُّ ماروه الليث عن ابن أبى مليكة عن يعلى بن مالك أنه سأل أمَّ سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت : مَا لَكُمْ وَصَلَاتَهُ ؟ ثم نَعَتَتْ قراءتَهُ مُفَسَّرَةً حَرْفاً حَرْفاً . ذكر ذلك الترمذى) اه .

أقول : ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبى ﷺ كان تارةً يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى ، بياناً لرءوس الآى . وكان تارةً يتبع فى الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رءوس الآى ، لتكون قراءته مفسرة حرفاً حرفا . وعلى هذا يمكن أن يقال : حينما كان الناس فى حاجة إلى بيان الآيات حَسُنَ الوقف على رءوس الآى ، ولو لم يتم المعنى ، وحينما كان الناس فى غنًى عن معرفة رءوس الآى لم يحسن الوقف إلا حيث يتم المعنى .

ويحتمل أن كلمة « مفسرة حرفاً حرفاً » فى الحديث الآنف يراد بها الترتيل وإخراج الحروف من مخارجها ، فلا تعارض الحديث الأول .

(الفائدة الثالثة) : اعتبار الآيات فى الصلاة والخطبة قال السيوطى مانصه : « يترتب على معرفة الآى وعددها وفواصلها أحكام فقهية ، منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة ، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات . ومنها اعتبارها فى الخطبة ، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفى شطرها إن لم تكن طويلة ، وكذا الطويلة على ماحققه الجمهور . ثم قال: ومنها اعتبارها فى السورة التى تقرأ فى الصلاة أو مايقوم مقامها، وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الصبح بالستين إلى المائة . ومنها اعتبارها فى قراءة قيام الليل إلى آخر ماقال » اهـ ما أردنا نقله . بيدَ أنه نقل عن الهذلى فى كامله مانصه : « اعلم أن قوماً جهلوا العدد ومافيه من الفوائد حتى قال الزعفرانى : إن العدد ليس بعلم، وإنما اشتغل به بعضهم ليروِّج به سوقه. قال : وليس كذلك ففيه من الفوائد معرفة الوقف ، ولأن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية . وقال جمع من العلماء : تجزئ بآية ، وآخرون بثلاث آيات ، وآخرون لابدَّ من سبع . والإعجاز لايقع بدون آية . فللعدد فائدة عظيمة فى ذلك » اهـ غير أنا لا ندرى ما الذى أراده الهذلى على التعيين من كلامه هذا ؟ ولا عن أى مذهب يتحدَّث ؟ .

ترتيب آيات القرآن

انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذى نراه اليوم بالمصاحف ، كان بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، وأنه لا مجال للرأى والاجتهاد فيه . بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وسلم ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها . ثم يقرؤها النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه،

ويأمر كتاب الوحى بكتابتها معيِّناً لهم السورة التى تكون فيها الآية ، وموضع الآية من هذه السورة . وكان يتلوه عليهم مراراً وتكراراً فى صلاته وعظاته وفى حكمه وأحكامه. وكان يعارض به جبريل كل عام مرة ، وعارضه به فى العام الأخير مرتين . كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا فى المصاحف . وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصحابة ، حفظه مرتب الآيات على هذا النمط . وشاع ذلك وذاع ، وملأ البقاع والأسماع ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويقرءونه فى صلاتهم ، ويأخذه بعضهم عن بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يدٌ ولا تصرفٌ فى ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم . بل الجمع الذى كان على عهد أبى بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العسب واللخاف وغيرها فى صحف ، والجمع الذى كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف فى مصاحف . وكلا هذين كان وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبى ﷺ عن الله تعالى . أجل : انعقد الإجماع على ذلك تامًّا لا ريب فيه . وممن حكى هذا الإجماع جماعةٌ ، منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر فى المناسبات إذ يقول مانصه : (ترتيب الآيات فى سورها واقعٌ بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين) .

واستند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها ماسبق لك قريباً، ومنها مارواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخَصَ ببصره ثم صوَّبه ثم قال : « أتانى جبريلُ فأمرنى أنْ أضعَ هذهِ الآيةَ هذا الموضعَ منَ السورةِ : إنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ » إلى آخرها .

ومنها ماثبت فى السنن الصحيحة من قراءة النبى ﷺ بسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء ومن قراءته لسورة الأعراف فى صلاة المغرب وسورة « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ »وسورة الروم فى صلاة الصبح،وقراءة سورة السجدة وسورة« هَلْ أَتَىٰ عَلَى

ٱلْإِنْسَانِ » فى صبح يوم الجمعة ، وقراءته سورة الجمعة والمنافقين فى صلاة الجمعة ، وقراءته سورة قٓ فى الخطبة وسورة اقتربت وقٓ فى صلاة العيد، كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذى فى المصحف على مرأى ومسمع من الصحابة .

ومنها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان : « وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » نسختها الآية الأخرى ، فلمَ تكتبها أو تدعها (والمعنى لماذا تكتبُها ؟ أو قال لماذا تتركها مكتوبة ؟ مع أنها منسوخة) قال يابن أخى لا أُغيِّرُ شيئًا من مكانه .

فهذا حديث أبلج من الصبح فى أن إثبات هذه الآية فى مكانها مع نسخها توقيفى لا يستطيع عثمان باعترافه أن يتصرف فيه ، لأنه لا مجال للرأى فى مثله .

ومنها . ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبى ﷺ عن شىء أكثرَ مما سألته عن الكلالة حتى طَعَنَ بأصبعه فى صدرى ، وقال: « تكفيكَ آيةُ الصَّيْفِ التى فى آخر سورة النِّساء » .

فأنت ترى أنه ﷺ دلَّه على موضع تلك لآية من سورة النساء، وهى قوله سبحانه: « يَسْتَفْتُونَكَ ؟ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ » الخ .

ملاحظة :

ذكر بعضهم أن كلمات القرآن ٧٧٩٣٤ أربع وثلاثون وتسعمائة وسبعة وسبعون ألف كلمة ، وذكر بعضهم غير ذلك . قيل : وسبب الاختلاف فى عدد الكلمات أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ، ولفظ ورسم ، واعتبار كل منها جائز ، وكلٌّ من العلماء اعتبر أحد ماهو جائز قال السخاوى : « لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة ، ، لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد فى كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان . والقرآن لا يمكن فيه ذلك » اه ولكن

ورد من الأحاديث فى اعتبار الحروف ما أخرجه الترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً : «مَنْ قرأ حرفاً من كتابِ اللهِ فلهُ بهِ حَسَنَةٌ . والحسنَةُ بعَشْرِ أمثالها ، لا أقول : «الم» حرف ، ولكن ألفْ حرف ، ولامْ حرف ، وميمْ حرف» وأخرج الطبرانى عن عمر ابن الخطاب مرفوعاً «القرآنُ ألْفُ ألْفِ حرفٍ وسبعةٌ وعشرونَ ألْفَ حرف ، فمن قرأهُ صابراً مُحْتَسِباً كان له بكلِّ حرفٍ زوجةٌ من الحُورِ العِينِ» . قال السيوطى بعد أن أورده : رجاله ثقات إلا شيخ الطبرانى محمد بن عبيد بن آدم بن أبى إياس تكلم فيه الذهبى ثم قال : وقد حمل ذلك (أى العدد المذكور فى هذا الحديث) على ما نسخ رسمه من القرآن ، إذ الموجود الآن لا يبلغ هذا العدد ، وهو يريد أن هذا الرقم الكبير الذى رُوى فى هذا الحديث ملحوظ فيه جميع الحروف النازلة من القرآن ما نسخ منها وما لم ينسخ . والله تعالى أعلم .

شبهة وتفنيدها

يقولون : إن ابن أبى داود أخرج بسنده ، عن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال : «أتى الحارثُ بنُ خزيمةَ بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال : أشهدُ أنِّى سمعتهما من رسولِ اللهِ وَوَعَيْتُهما . فقال عمر : «أنا أشهدُ لقد سمعتهما ثم قال : لو كانتا ثلاثَ آيات لجعلتها عَلَى حِدَة ، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها فى آخرها» يقولون : هذا الحديث يدل على أن ترتيب الآيات لم يكن فى القرآن كله بتوقيف ، إنما كان عن هوًى من الصحابة وعن تصرف منهم ولو فى البعض .

ونجيب : (أولا) بأن هذا الخبر معارِض للقاطع ، وهو ما أجمعت عليه الأمة . ومعارض القاطع ساقطٌ عن درجة الاعتبار ، فهذا خبر ساقط مردود على قائله .

(ثانياً) أنه معارِض لما لا يُحصى من الأخبار الدالة على خلافه ، وقد تقدم كثير منها . بل لابن أبى داود مخرجه خبر يعارضه ، ذلك أنه أخرج أيضاً عن أُبَىّ أنهم

جمعوا القرآن ، فلما انتهوا إلى الآية التى فى سورة براءة : « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » ظنوا أن هذه آخر ما نزل ، فقال أُبَىٌّ : إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » إلى آخر السورة .

ترتيب السور

معنى السورة :

السورة فى اللغة تطلق على ماذكره صاحب القاموس بقوله : « والسورة : الْمَنْزِلَةُ ، ومن القرآن معروفة ، لأنها منزلة بعد منزلة : مقطوعة عن الأخرى، والشرف، وماطال من البناء وحسن ، والعلامة ، وعرق من عروق الحائط » اهـ .

ويمكن تعريفها اصطلاحاً ، بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع . قالوا : وهى مأخوذة من سور المدينة . وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة ، وآية بجانب آية ، كالسور توضع كل لَبِنة فيه بجانب لبنة ، ويقام كل صف منه على صف .

وإما لما فى السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية، وإما لأنها حصن وحماية لمحمد ﷺ وما جاء به من كتاب الله القرآن ، ودين الحق الإسلام، باعتبار أنها معجزة تخرس كل مكابر ، ويُحِقُّ اللهُ بها الحقَّ ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . أشبه بسور المدينة ، يُحَصِّنُها ويحميها غارةَ الأعداء ، وسطوة الأشقياء . وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً . فأقصر سورة فيه سورة الكوثر ، وهى ثلاث آيات قصار . وأطول سورة فيه سورة البقرة ، وهى خمس وثمانون أو ست وثمانون ومائتا آية . وأكثر آياتها من الآيات الطوال . بل فيها آية الدَّيْن التى هى أطول آية فى القرآن كما سبق . وبين سورة البقرة وسورة الكوثر سور كثيرة تختلف طولاً وتوسُّطاً وقِصَراً . ومرجع الطول

والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع ، إلى الله وحده ، لحكم سامية ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

حكمة تسوير السور .

لتجزئة القرآن إلى سُوَر فوائد وحكم :

« منها : التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وتحفُّظه ، لأنه لو كان سبيكةً واحدة لا حاقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه ، وأعياهم أن يخوضوا عُباب هذا البحر الخِضَمّ الذى لا يشاهدون فيه عن كَثَبٍ مرافئ ولا شواطئ .

ومنها : الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام ، فإن فى كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه ، كسورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة النمل ، وسورة الجن .

ومنها : الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطاً فى إعجازها ، بل هى معجزة وإن بلغت الغاية فى القصر كسورة الكوثر .

قال صاحب الكشاف فى فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سُوَراً كثيرة مانصه : منها (أى الفوائد) أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف ، كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً .

ومنها : أن القارئ إذا أتم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ فى آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمرّ على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً نفَّس ذلك عنه ونشط للسير ، ومن ثَمَّ جُزِّئ القرآن أجزاء وأخماساً .

ومنها : أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم عنده ماحفظه ، ومنه حديث أنس : « كَانَ الرَّجُلُ

إذَ قَرَأَ الْبقرةَ وآلَ عمرانَ جدَّ فينا » . ومن ثمَّ كانت القراءة فى الصلاة بسورة أفضل

ومنها: أن التفصيل بحسب تلاحُق الأَشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحق المعانى والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد » اهـ .

أقسام السور :

قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام ، خصُّوا كلا منها باسم معين ، وهى : الطوال ، والمئين ، والمثانى ، والمفصّل . فالطوال سبع سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأَنعام ، والأعراف . فهذه ستة ، واختلفوا فى السابعة أهى الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة أم هى سورة يونس ؟ ؟ .

والمئون : هى السور التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

والمثانى : هى التى تلى المئين فى عدد الآيات . وقال الفرّاء : هى السور التى آيها أقل من مائة آية لأنها تثنى (أى تكرر) أكثر مما تُثنى الطوال والمئون .

والمفصل : هو أواخر القرآن ، واختلفوا فى تعيين أوله على اثنى عشر قولا ، فقيل أوله « قٓ » ، وقيل غير ذلك ، وصحح النووى أن أوله الحجرات . وسمى بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمى المحكم أيضاً ، كما روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : « إنَّ الذى تدعونهُ المفصلَ هوَ المحكم » .

والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأوساط ، وقصار . فطواله من « أول الحجرات » إلى سورة « البروج » . وأوساطه من سورة « الطارق » إلى سورة « لم يكن » . وقصاره من سورة « إذا زلزلت » إلى آخر القرآن .

المذاهب فى ترتيب السور :

اختلف فى ترتيب السور على ثلاثة أقوال : (الأول) أن ترتيب السور على ماهو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبى ﷺ ؛ إنما كان باجتهاد من الصحابة . وينسب هـذا القول إلى جمهور العلماء ، منهم مالك والقاضى أبو بكر فيما اعتمده من قوليه . وإلى هذا المذهب يشير ابن فارس فى كتاب المسائل الخمس بقوله : « جمع القرآن على ضربين : أحدهما تأليف السور ، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين ، فهذا هو الذى تولته الصحابة رضى الله عنهم . وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات فى السور ، فذلك شىء تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل » .

وقد استدلوا على رأيهما هذا بأمرين : (أحدهما) أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة فى ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن فى عهد عثمان ، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولا عن النبى صلى الله عليه وسلم ماساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذى تصوِّره لنا الروايات . فهذا مصحف أبى بن كعب ، روى أنه كان مبدوءاً بالفاتحة ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام . وهذا مصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران الخ على اختلاف شديد . وهذا مصحف علىٍّ كان مرتباً على النزول ، فأوله « اقرأ » ثم المدثر ثم « قٓ » ، ثم المزمل ، ثم « تبت » ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكى والمدنى .

(الدليل الثانى) : ما أخرجه ابن أشته فى المصاحف من طريق إسماعيل بن عباس عن حبان بن يحيى عن أبى محمد القرشى قال : « أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال فجعل سورة الأنفال وسورة التوبة فى السبع ، ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم » اه ولعله يشير بهذ إلى مارواه أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان ماحملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من

المثين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضعوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يذكرُ فيها كذا وكذا » . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها . فقُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما . ولم أكتب بينهما سطر « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحمن الرحيمِ » ووضعتهما في السبع الطوال » اهـ .

ويمكن أن يناقش هذا المذهب بالأحاديث الدالة على التوقيف وستأتيك في الاحتجاج للقول الثاني . ويمكن أيضاً مناقشة دليلهم الأول باحتمال أن اختلاف من خالف من الصحابة في الترتيب ، إنما كان قبل علمهم بالتوقيف ، أو كان في خصوص ما لم يرد فيه توقيف دون ما ورد فيه . ويمكن مناقشة دليلهم الثاني بأنه خاصٌ بمحل وروده ، وهو سورة الأنفال والتوبة ويونس ، فلا يصح أن يصاغ منه حكم عام على القرآن كله .

القول الثـــاني :

أن ترتيب السور كلها توقيفي بتعليم الرسول ﷺ كترتيب الآيات وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه ﷺ . واستدلَّ أصحاب هذا الرأى بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد . وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذى أجمعوا عليه عن توقيف ، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم . لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم ، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها ، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً . ثم ساقوا روايات لمذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع .

منها مارواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي قال : « كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف . إلى أن جاء في هذه الرواية مانصه :

فقال لنا رسول ﷺ : طرأ عليَّ حزبٌ منَ القرآنِ فأردتُ ألَّاأخرُجَ حتى أقضيه فسألنا أصحابَ رسولِ الله ﷺ قلنا : كيفَ تحزبونَ القرآنَ ؟ قالوا : نحزبه ثلاثَ سورٍ ، وخمسَ سور ، وسبعَ سور ، وتسعَ سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من « ق » حتى نختم . قالوا : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ماهو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

لكن هذه الدلالة غير ظاهرة فيما نفهم ، اللهم إلا في ترتيب حزب المفصل خاصة بخلاف ماسواه .

واحتجوا لمذهبهم أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء ، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل دائماً ، لكن ذلك لم يكن ، بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله . بل فصل بين سورها بسورة « قد سمع » والممتحنة والمنافقين ، وبدليل أن (طسمٓ الشعراء وطسمٓ القصص) لم يتعاقبا مع تماثلهما ، بل فصل بينهما بسورة أقصر منهما وهي « طسٓ » .

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس فقال : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسولِ الله ﷺ لحديث واثلة : أعطيتُ مكانَ التوراةِ السبعَ الطوالَ » .

وكذلك انتصر أبو بكرٍ الأنباري لهذا المذهب فقال : أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرّقه في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمرٍ يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، ويقف جبريلُ النبيَّ ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف . كله من النبي صلى الله عليه وسلم فمن قدم سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن » .

وأخرج ابن أشته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد أنزل قبلهما بضع وثمانون

سورة بمكة ، وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا وألّف القرآن على علم ممن ألّفه به. إلى أن قال : فهذا مما يُنْتَهَى إليه ولا يُسأل عنه اه .

ويمكن مناقشة هذا المذهب (أولاً) : بأن الرواية التي ساقوها وأمثالها خاصّة بمحالها ، فلا ينسحب حكم التوقيف على الكل . ثم هي ظنية في إفادة كون الترتيب عن توقيف .

(ثانياً) : أن حديث ابن عباس السابق في القول الأول صريح في أن عثمان كان قد اجتهد في ترتيب الأنفال والتوبة ويونس .

(ثالثاً) : أن الإجماع الذي استندوا إليه لايدل على توقيف في ترتيب جميع السور ؛ لأنه لا يشترط أن يستند الإجماع إلى نص في ترتيب جميع السور ، فحسب الصحابة أن يحملهم الاجتهاد الموفّق على أن يُجمعوا على ترتيب عثمان للسور ويتركوا ترتيب مصاحفهم ، توحيداً لكلمة الأمة ، وقطعاً لعرق النزاع والفتنة ، إذا تُرِكَ كلٌّ ورأيه في هذا الترتيب .

القول الثالث :

أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ ، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحل من العلماء . ولعله أمثل الآراء، لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأي الثاني القائل بالتوقيف ، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف . بل وردت آثار تصرح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد كالحديث الآنف في القول الأول المروى عن ابن عباس .

بَيْدَ أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهادٍ . فقال القاضي أبو محمد بن عطية : « إن كثيراً من السور

قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصَّل . وأما ماسوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده » .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجرى فيه الخلاف كقوله ﷺ « اقرءوا الزَّهْراوَيْنِ : البقرة وآلَ عِمْران » رواه مسلم .

وكحديث سعيد بن خالد : « قرأ رسولُ الله ﷺ بالسَّبْعِ الطِّوَالِ فى ركعةٍ » رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه . وفيـه « أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصَّل فى ركعة » وروى البخارى عن ابن مسعود أنه قال صلى الله عليه وسلم قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنَّهُنَّ من العِتَاقِ الأُوَلِ ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِى » [1]

(١) العِتاق : جمع عَتِيق، وهو القديم من كل شىء ، والمراد بالعتاق هنا مانزل أولا. والتِّلاد ـ بكسر التاء وفتحها ـ ضدُّ الطارف وهو المستحدَثُ من المال ونحوه . والمراد بالتلاد هنا . مانزل أولا أيضاً . قال فى المختار : وفى الحديث « هُنَّ من تِلادى » يعنى السور ، أى من الذى أخذته من القرآن قديما .

فذكرها نَسَقاً كما استقرَّ ترتيبها. وفى صحيح البخارى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوَى إلى فراشـه كلَّ ليلة جَمَعَ كَفَّيْهِ ثم نَفَثَ فيهما فقـرأ : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ .

وقال السيوطى ما نصـه : الذى ينشرح له الصـدر ما ذهب إليـه البيهقى ، وهو أن جميع السور ترتيبهـا توقيفى إلا براءة والأنفال . ولا ينبغى أن يُستـدل بقراءة سـورٍ أوّلاً على أن ترتيبها كذلك . وحينئذ فلا يرد حـديث قراءة النساء

قبل آل عمران ، لأن ترتيب السور فى القراءة ليس بواجب . ولعله فعل ذلك لبيان الجواز » اﻫ .

والأمر على كل حال سهل ، حتى لقد حاول الزركشى فى البرهان أن يجعل الخلاف من أساسه لفظياً فقال : والخلاف بين الفريقين ـ أى القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد ، والقائلين بأنه عن توقيف ـ لفظى ، لأن القائل بالثانى يقول : إنه رمز إليهم ذلك ، لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم ، فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولى ، أو بمجرد إسناد فعلى ، بحيث يبقى لهم فيه مجالٌ للنظر ، وسبقه فى ذلك جعفر بن الزبير » اﻫ .

احترام هذا الترتيب

وسواءاً كان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً فإنه ينبغى احترامه ، خصوصاً فى كتابة المصاحف ، لأنه عن إجماع الصحابة ، والإجماعُ حجة . ولأن خلافه يجرُّ إلى الفتنة ، ودَرْء الفتنة وسدُّ ذرائع الفساد واجب .

أما ترتيب السور فى التلاوة ، فليس بواجب ، إنما هو مندوب . وإليك ما قاله الإمام النووى فى كتابه التبيان إذ جاء فى هذا الموضوع بما نصه : « قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة . ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء أقرأ فى الصلاة أم فى غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ فى الركعة الأولى سورة « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ » يقرأ فى الثانية بعد الفاتحة من البقرة .

قال بعض أصحابنا : ويستحبُّ إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها . ودليل هذا أنَّ ترتيب المصحف إنما جُعل هكذا لحكمة ، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه ، كصلاة الصبح يوم الجمعة ، يقرأ في الأولى سورة السجدة ، وفي الثانية « هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَانِ » . وصلاة العيد في الأولى « ق » ، وفي الثانية « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » . وركعتي الفجر في الأولى « قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ » وفي الثانية « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » . وركعات الوتر في الأولى « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » وفي الثانية « قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ » وفي الثالثة « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » وَٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ .

ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها ، جاز فقد جاءت بذلك آثار كثيرة . وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفي الثانية بيوسف .

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف . وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف . وبإسناده الصحيح عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً فقال : « ذلك منكوس القلب » .

وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً متأكداً ، لأنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ، ويزيل حكمة ترتيب الآيات . وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل وعن الإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك ، وأن مالكاً كان يعيبه ويقول : هذا عظيم . . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ، وليس هذا من الباب ، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة ، على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم » اهـ رحمه الله .

شبهتان خفيفتان

(الشبهة الأولى) ، يقولون : كيف كان ترتيب القرآن توقيفيًا مع أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة ؟ .

والجواب أن هـذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور كلها اجتهادى أما القائلون بأن منه اجتهاديًا ومنه توقيفيًا ، فمن السهل الجواب عنهم بأن الاختلاف بين الصحابة وقع فى القسم الاجتهادى لا التوقيفى . وأما القائلون بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فيمكن الجوابِ عنهم بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه . ولما جمع عثمان القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمونه ، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم ، وأخذوا بترتيب عثمان . ويهوِّن الأمرَ فى اختـلاف مصاحفهم أنهـا كانت مصاحف فردية ، لم يكونوا يكتبونها للناس إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فبدَهىٌ أن الواحد منهم لم يُثبت فيها إلا ماوصل إليه بمجهوده الفردى ، وقد يفوته مالم يفت سواه من تحقيق أدقّ أو علم أوسع . ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تـكون منسوخة ، وربما لم يبلغ صاحب ذاك المصحف نسخها . وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات ، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم تكن به الفاتحة . وقد يكتب صاحب المصحف مايرى أنه بحاجه إليه من غير القرآن فى نفس المصحف كما تقدّم ذلك فى قنوت الحنفيـة الذى روى أن بعض الصحابة كان قد كتبه بمصحفه وسماه سورة الخلع والحفْد .

(الشبهة الثانية) يقولون : كيف يكون ترتيب القرآن توقيفيًا على حين أن رواية ابن عباس السابقة تصرح بأن عثمان لم يسمع فى شأن ترتيب الأنفال مع براءة شيئًا إنما هو اجتهاد ونظر منه ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القول بأن الترتيب اجتهادى ، ولا على القول بأن منه اجتهاديا ومنه توقيفيا . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن اجتهاد عثمان كان فيما لم يرد فيه توقيف من الشارع .

أما القول بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فقد أجابوا على هذه الشبهة بجوابين :

(أولهما) : أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذى — وهو راويه — قال فى تخريجه إنه حسن غريب لا يُعرف إلا من طريق يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن .

(ثانيهما) : أنه على فرض صحته يجوز أن جواب عثمان لابن عباس كان قبل أن يعلم بالتوقيف ثم علمه بعد ذلك . لكن يرد على هذا الجواب أن الرواية تفيد أن جواب عثمان هذا كان بعد جمع القرآن وترتيب سوره ، فكيف كان توقيفيًا وعثمان هو الجامع والمرتِّب ولا يعلم دليل التوقيف ؟ .

المبحث العاشر

فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه وما يتعلق بذلك

١ — الكتابة

معروف أن الأمة العربية كانت موسومةً بالأمية مشهورةً بها لا تدرى ما الكتابة ولا الخط . وجاء القرآن يتحدث عن أميتها هذه فقال : « هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ولم يشذَّ عن هذه القاعدة إلا أفرادٌ قلائل فى قريش ، تعلَّموا الخط ودرسوه قُبيل الإسلام ،

وكأن ذلك كان إرهاصاً من الله وتمهيداً لمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وتقرير دين الإسلام، وتسجيل الوحى المنزل عليه بالقرآن ، لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه، وأبعد عن ضياعه ونسيانه .

وكادت تتفق كلمة المؤرخين على أن قريشاً فى مكة لم تأخذ الخط إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس . لكنهم اختلفوا فيمن أخذ عنه حرب . فرواية أبى عمرو الدانى تذكر أنه تعلم الخط من عبدالله بن جدعان ، وفيها يقول زياد بن أنعم : « قلت لابن عباس : معاشرَ قريش هل كنتم تكتبون فى الجاهلية بهذا الكتاب العربى تجمعون فيه ما اجتمع ، وتفرقون فيه ما افترق ، هجاء بالألف واللام والميم ، والشكل والقطع ، وما يكتب به اليوم ؟ قال ابن عباس نعم . قلت : فمن علمكم الكتابة ؟ قال حرب بن أمية ، قلت : فمن علم حرب بن أمية ؟ قال عبدالله بن جدعان ، قلت : فمن علم عبدالله بن جدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ قال طارىء طرأ عليهم من أهل اليمن من كندة ، قلت : فمن علم ذلك الطارئ ؟ قال الخلجان بن الموهم كان كاتب هود نبى الله عز وجل » .

أما رواية الكلبى فتقص علينا أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك ؛ وفيها يقول عوانة: « أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم ، مرامر بن مرة ، وأسلم ابن سدرة، وكذا عامر بن جدره ، وهم من عرب طيئ تعلموه من كاتب الوحى لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق والحيرة وغيرهما. فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دُومةِ الجندَل وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة » اه .

ومن هنا وجد عدد يحذق الخط والكتابة قبيل الإسلام ، ولكنهم نزر يسير بجانب تلك الكثرة الغامرة من الأميين . وفى ذلك يمتن رجل من أهل دومة الجندل على قريش فيقول :

« لاتجحدوا نعماء بشرٍ عليكموا فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم(١) حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتموا عن مسند الحىّ حميرٍ وما زبرتْ فى الصحف أقلامُ حميرا »

أولئك أهل مكة . أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود ، وقد دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها يهودى يعلم الصبيان الكتابة ، وكان فيها بضعة عشر رجلاً يحذقون الكتابة ، منهم المنذر بن عمرو ، وأبى بن وهب ، وعمرو بن سعيد ، وزيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر من النبى صلى الله عليه وسلم .

شأن الكتابة فى الإسلام :

ثم جاء الإسلام ، فحارب فيما حارب أمِّيـــة العرب ، وعمل على محوها ، وطفق يرفع من شأن الكتابة ويعلى من مقامها . وإن كنت فى شك ، فهذه أوائل آيات نزلن من القرآن الكريم ، يشيد الحق فيها بالقلم ، وما يعلم الله عباده بوساطة القلم ، إذ يقول جلت حكمته : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » إلى أن قال : « وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وهذه سورة « ن » يحلف العلى الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون ، إذ يقول . « نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . » وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى جلال الخط والكتابة ومزاياهما .

---

(١) سمى بالجزم لأنه جزم — أى قطع — من الخط المسمى بالمسند ، وهو خط حمير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه دفعاً إلى أن يتعلموا الخطّ ويحذقوا الكتابة ، ويهيئ لهم السبل بكل مايستطيع من وسيلة مشروعة .

حتى لقد ورد أن المسلمين فى غزوة بدر أسروا ستين مشركاً فكان مما يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم فى فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخط . وهكذا أعلن الرسول بعمله هذا أن القراءة والكتابة عديلان للحرية ، وهذا منتهى ماتصل إليه الهمم فى تحرير شعب أمى من رقّ الأمية .

وبمثل هذه الطريقة أخذت ظلمات الأمية تتبدّد بأنوار الإسلام شيئاً فشيئاً ، وحلّ محلها العلم والكتابة والقراءة . وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية .

النبي ﷺ يقرأ ويكتب

حتى لقد قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم عرف القراءة والكتابة فى آخر أمره بعد أن قامت حجته . وعلت كلمته ، وعجز العرب فى مقام التحدّى عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الذى جاء به ، وكأن الحكمة فى ذلك هى الإشارة إلى شرف الخط والكتابة. وأن أمّية الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول أمره إنما كانت حالاً وقتية اقتضاها إقامة الدليل والإعجاز واضحاً على صدق محمد فى نبوته ورسالته ، وأنه مبعوث الحق إلى خليقته، ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً وهم أميون ، لراجت شبهتهم فى أن ماجاء به نتيجة اطلاع ودرس ، وأثرُ نظر فى الكتب وبحث .

وفى هذا المعنى يقول سبحانه :

« وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * » .

قال العلامة الألوسي بعد تفسيره لهذه الآية مانصه : واختلف فى أنه صلى الله عليه وسلم أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوى فى التهذيب ، وقال : إنه الأصح . وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب[1] تعرف الكتابة حينئذ . وروى ابن أبى شيبة وغيره : « ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ » ونقل هذا للشعبى فصدّقه وقال : سمعت أقواماً يقولونه وليس فى الآية ماينافيه . وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال ﷺ : « رأيتُ ليلةَ أسرىَ بى مكتوباً على بابِ الجنةِ : الصدقةُ بعشرِ أمثالها والقرضُ بثمانيةَ عشرَ » .

ثم قال : ويشهد للكتابة أحاديث فى صحيح البخارى وغيره ، كما ورد فى صلح الحديبية : « فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ الكتابَ وليسَ يحسنُ يكتبُ فكتبَ : هذا ما قاضى عليهِ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ » الحديث .

وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروى ، وأبو الفتح النيسابورى ، وأبو الوليد الباجى من المغاربة ، وحكاه عن السمنانى . وصنف فيه كتاباً ، وسبقه إليه ابن منية . ولما قال أبو الوليد ذلك طُعنَ فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مُدّعاه ، وكتب به إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتاب بعد أميته صلى الله عليه وسلم لاتنافى المعجزة ، بل هى معجزة أخرى لكونها من غير تعليم .

---

(١) لعل مراده بهذه الكلمة ، ظهور فساد الارتياب وأنه لاقيمة له

وقد ردَّ بعض الأجلة كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح : « إنا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نكتُبُ ولا نحسُبُ » . وقال : كل ما ورد فى الحديث من قوله « كتب » فمعناه أمر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلانٍ . وتقديم قوله تعالى : « مِنْ قَبْلِهِ » على قوله سبحانه : « وَلَا تَخُطُّهُ » كالصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا . وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطَّرِد . وظنَّ بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده ، فقال : يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ، ولو لا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلواً عن الفائدة . وأنت تعلم أنه لو سُلِّمَ ما ذكره من الرجوع ، لا يتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بحجِّيَّة المفهوم ، والظانُّ ممن لا يقول بحجيته » .

ثم قال الألوسى فى تفنيد هذه الردود ما نصه :

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ليس نصّاً فى استمرار نفى الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وأكثر من بعث إليهم وهو بين ظَهْرَانَيْهِم من العرب أُميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية فى الأكثر بعد . وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالمكاتبة ، فخلاف الظاهر . وفى شرح صحيح مسلم للنووى عليه الرحمة نقلاً عن القاضى عياض ، إن قوله فى الرواية التى ذكرناها : « ولا يحسن يكتب فكتب » كالنصِّ فى أنه ﷺ كتب بنفسه ، فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه . ثم قال : « وقد طال كلام كل فرقة فى هذه المسألة ، وشنَّعت كل فرقة على الأخرى فى هذا . فالله تعالى أعلم » اهـ .

وأقول إن التشنيع ليس من دأب العلماء ولا من أدب الباحثين . والمسألة التى نحن بصددها مسألة نظرية . والحكم فى أمثالها يجب أن يكون لما رجح من الأدلة لا للهوى

والشهوة . ونحن إذا استعرضنا حُجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أن أدلة أميته ﷺ قطعية يقينية . وأن أدلة كونه كتب وخط بيمينه ظنية غير يقينية ، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية . ثم إن التعارُض ظاهر فيما بين هذه وتلك . غير أنه تعارض ظاهري يمكن دفعه بأن نحمل أدلة الأمية على أولى حالاته صلى الله عليه وسلم ، وأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته ؛ وذلك جمعاً بين الأدلة . ولا ريب أن الجمع بينها أهدَى سبيلا من إعمال البعض وإهمال البعض ، ما دام في كلٍّ منها قوة الاستدلال ، وما دام الجمع ممكناً على أية حال . أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حينئذ في قبول القطعي ورد الظني ؛ لأن الأول أقوى من الثاني « وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » . . . هذا هو الميزان الصحيح ، لدفع التعارض والترجيح ، فاحكم به عند الاختلاف والاشتباه ، « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

كتابة القرآن

بعد ما قصصنا عليك من تلك الفذلكة التاريخية ، في الخطوط والكتابة العربية ، نلفت نظرك إلى أن كتابة القرآن ، وَفيناها بحثها في مبحث جمع القرآن (من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٥٦) وذكرنا هناك كيف كُتب القرآن ؟ وفيمَ كُتب ؟ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم على عهد أبي بكر ، ثم على عهد عثمان (رضى الله عنهما) .

ومنه تعلم أن عناية الرسول ﷺ وأصحابه بكتابة القرآن ، كانت عناية فائقة . يدلك على هذه العناية أن النبي ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون الوحى ، منهم الأربعة الخلفاء ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت ابن قيس ، وأرقم بن أبي ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم . فكان ﷺ إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كُتَّابه هؤلاء ، ويأمره بكتابة ما نزل عليه ، ولو كان كلمة ، كما روى أنه

لما نزل عليه قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » قال ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش : يارسولَ الله ، إنا أعميَان ، فهل لنا رُخْصةٌ ؟ فأنزل الله « غيرُ أولى الضرر » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائتونى بالكتِفِ والدَّواة » وأمَرَ زيْداً أن يكتبها فكتبها . فقال زيد « كأنى أنظرُ إلى موضعها عند صَدْع الكتف » . ورواية البخارى اقتصرت هنا على عبد الله بن أم مكتوم وليس فيها ابن جحش .

ولعلك لم تنس حديث ابن عباس : « كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعضَ مَنْ يكتب ،فقال : « ضعوا هذه فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا » . وقوله صلى الله عليه وسلم « من كتبَ عنى شيئاً غير القرآن فليمْحُه » وقول أبى بكر لزيد ابن ثابت : إنك رجُلٌ شابٌ لا نتهمُكَ . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ .

أضف إلى ذلك أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن فيما يتيسّر لهم حتى فى العظام والرقاع وجريد النخل ورقيق الحجارة ونحو ذلك ، مما يدلُّ على عظيم بلائهم فى هذا الأمر الجلل ! (رضى الله عنهم أجمعين) .

ب . رسم المصحف

رسم المصحف يراد به الوضع الذى ارتضاه عثمان رضى الله عنه فى كتابة كلمات القرآن وحروفه . والأصل فى المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا تبديل ولا تغيير . لكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل ، فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق ، وذلك لأغراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد .

وقد عُنِىَ العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التى جاء خطُّها على غير مقياس لفظها . وقد أفرده بعضهم بالتأليف منهم الإمام أبو عمرو الدانى إذ ألَّف فيه كتابه المسمى « المقنع » . ومنهم العلامة أبو عباس المراكشى إذ ألف كتاباً أسماه : « عنوان الدليل فى رسوم خطِّ التنزيل » . ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولى إذ نظم أرجوزة سماها « اللؤلؤ المنظوم فى ذكر جملة من المرسوم » ثم جاء العلامة المرحوم الشيخ محمد خلف الحسينى شيخ المقارئ بالديار المصرية ، فشرح تلك المنظومة ، وذيَّل الشرح بكتاب سماه « مرشد الحيران إلى معرفة مايجب اتباعه فى رسم القرآن » .

قواعد رسم المصحف

وللمصحف العثمانى قواعد فى خطِّه ورسمه ، حصرها علماء الفن فى ست قواعد ، وهى الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبدل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان فقرئ على إحداهما . وهاك شيئاً عنها بالإجمال ، ليكون الفرق بينها وبين مصطلح الخطوط فى عصرنا على بال منك : —

(قاعدة الحذف) : خلاصتها أن الألف تحذف من ياء النداء نحو « يـأيها النَّاس »

ومن ها التنبيه نحو « هأنتم » ومن كلمة « نا » إذا وليها ضمير نحو « أنجيناكم »[1] ومن لفظ الجلالة « الله » ، ومن كلمة « إله » ، ومن لفظى « الرحمٰن ، وسبحان » ، وبعد لام نحو كلمة « خَلائف » وبين اللامين فى نحو « الكَلاَلَة » ومن كل مُثنَّى نحو « رجلان » ، ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو لمؤنث نحو « سَمَّاعُونَ ، المؤمنات » ، ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو « المساجد ، والنصارى » ، ومن كل عدد نحو « ثلاث » . ومن البسملة ، ومن أول الأمر من سأل ، وغير ذلك ، (إلا ما استثنى من هذا كله) .

وتحذف الياء من كل منقوص منوَّن رفعاً وجرًّا ، نحو « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » .

ومن هذه الكلمات . « أَطِيعُونِ ، اتَّقُونِ ، خَافُونِ ، ارْهَبُونِ ، فَأَرْسِلُونِ ، وَاعْبُدُونِ » ، (إلا ما استثنى) .

وتحذف الواو : إذا وقعت مع واو أخرى فى نحو : « لا يَسْتَوُونَ ، فَأْوُوا إِلَى الكهف » .

وتحذف اللام : إذا كانت مدغمة فى مثلها نحو « الليل ، والذى » (إلا ما استثنى).

وهناك حذف لا يدخل تحت قاعدة كحذف الألف من كلمة « مالك » وكحذف الياء من « إبراهيم » ، وكحذف الواو من هذه الأفعال الأربعة: « وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ ، وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ، سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ » .

(قاعدة الزيادة) . خلاصتها أن الألف تزاد بعد الواو فى آخر كل اسم مجموع أو فى حكم المجموع ، نحو : « مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، بَنُوا إِسْرَاءِيلَ ، أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ » وبعد الهمزة المرسومة واواً نحو « تَاللَّهِ تَفْتَؤُا » فإنها ترسم هكذا : « تَاللَّهِ تَفْتَؤُا » . وفى كلمات « مِائَة ، ومِائَتَيْنِ ، والظنون ، والرَّسُول ، والسَّبِيلِ » ، فى قوله تعالى: « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » . « وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا » . « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » .

---

(١) كل هذه الأمثلة ترسم بدون ألف هكذا : أنجينكم . الله . إله . الرحمٰن . الخ.

وتزاد الياء فى هذه الكلمات: « نَبأَ ، آناء ، مِنْ تِلقاءِ . بِأَيِّكُمْ المَفْتُون ، بِأَيْدِ » من قوله تعالى : « والسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ » .

وتزاد الواو فى نحو « أُولو ، أُولَئِكَ ، أُولَاء ، أُولَاتِ » .

(قاعدة الهمز) خلاصتها أن الهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ماقبلها نحو « ائْذَنْ ، اؤْتمِنَ ، الْبأْساء » ، (إلا ما استثنى) . أما الهمزة المتحركة ، فإن كانت أول الكلمة واتصل بها حرف زائد ، كتبت بالألف مطلقاً ، سواء أكانت مفتوحة أم مكسورة نحو « أيوب ، أُولو ، إذا ، سأصرف ، سأُنزل ، فَبِأَيِّ » (إلا ما استثنى) .

وإن كانت الهمزة وسطاً ، فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها ، نحو « سَأَلَ ، سُئِلَ ، تَقْرَؤُهُ » (إلا ما استثنى) . وإن كانت متطرفة كُتبت بحرف من جنس حركة ماقبلها نحو « سبأ ، شاطىء ، لُؤْلُؤ » (إلا ما استثنى) وإن سكن ماقبلها حذفت[١] نحو « مِلْءُ الأرض ، يُخْرِجُ الخبْءَ » (إلا ما استثنى) . والمستثنيات كثيرة فى الكل .

(قاعدة البدل) : خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم فى مثل الصلاة والزكاة والحياة ، (إلا ما استثنى) وترسم ياء إذا كانت منقلبة عن ياء نحو « يَتَوَفَّاكُمْ ، يَاحَسْرَتَا يَاأَسفَا » . وكذلك ترسم الألف ياء فى هذه الكلمات : « إلى ، على ، أَنَّى ـ بمعنى كيف؟ ـ مَتَى ، بَلَى ، حتى ، لَدَى » ماعدا « لدى البَابِ » فى سورة يوسف ، فإنها ترسم ألفاً .

وترسم النون ألفاً فى نون التوكيد الخفيفة ، وفى كلمة « إذن » .

وترسم هاء التأنيث تاء مفتوحة فى كلمة « رحمت » بالبقرة والأعراف ، وهود ومريم ، والروم ، والزخرف . وفى كلمة « نعمة » بالبقرة ، وآل عمران ، والمائدة ، وإبراهيم ، والنحل ، ولقمان ، وفاطر ، والطور . وفى كلمة « لعنة الله » . وفى كلمة

---

(١) أى حذفت من الحرف ورسمت مفردة .

معصية » بسورة قد سمع . وفى هذه الكلمات : « إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، قُرَّةَ عَيْنٍ ، جَنَّةَ نَعِيمٍ ، بَقِيَّةُ اللهِ » وفى كلمة امرأة أضيفت إلى زوجها نحو « امْرَأَةُ عِمْرَانَ ، امْرَأَةُ نُوحٍ » وفى غير ذلك .

(قاعدة الوصل والفصل) : خلاصتها أن كلمة « أَنْ » بفتح الهمزة توصل بكلمة « لا » إذا وقعت بعدها . ويستثنى من ذلك عشرة مواضع . منها : « أَنْ لَا تَقُولُوا ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ » .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « ما » ، إذا وقعت بعدها . ويستثنى « مِنْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فى النساء والروم ، « وَمِنْ مَارَزَقْنَاكُمْ » فى سورة المنافقين .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « مَنْ » مطلقا .

وكلمة « عن » توصل بكلمة « ما » . إلا قوله سبحانه « عَنْ مَانُهُوا عَنْهُ » .

وكلمة « إنْ » بالكسر توصل بكلمة « ما » التى بعدها ، إلا قوله سبحانه : « وَإِنْ مَانُرِيَنَّكَ » .

وكلمة « أن » بالفتح توصل بكلمة « ما » مطلقاً من غير استثناء .

وكلمة « كل » توصل بكلمة « ما » التى بعدها ، إلا قوله سبحانه « كُلَّ مَارُدُّوا إلى الْفِتْنَةِ ، مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ » .

وتوصل كلمات « نِعِمَّا ، وربما ، وكأنما ، وَيْكَأَنَّ » . ونحوها .

(قاعدة مافيه قراءتان) خلاصتها أن الكلمة إذا قُرئت على وجهين ، تكتب برسم أحدهما ، كما رُسمت الكلمات الآتية بلا ألف فى المصحف وهى : مالِكِ يوم الدِّينِ ، يُخَادِعُونَ اللهَ ، وَوَاعَدْنَا مُوسَى ، تُفَادُوهُمْ » ، ونحوها ، وكلها مقروءة بإثبات الألف وحذفها . وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالتاء المفتوحة ، وهى غَيَابَةِ الْجُبِّ ، أُنزِلَ عليه آيَةٌ » فى العنكبوت « ثَمَرَةٍ من أكمامها » فى فُصِّلَتْ ، « وهم فى الغُرْفَةِ آمنون »

فى « سبأ » . وذلك لأنها جمعاء مقروءة بالجمع والإفراد . وغير هذا كثير ، وحسبنا ما ذكرناه للتمثيل والتنوير .

مزايا الرسم العثمانى .

لهذا الرسم مزايا وفوائد :

(الفائدة الأولى) : الدلالة فى القراءات المتنوعة فى الكلمة الواحدة بقدر الإمكان ، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر ، كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر . فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذى هو خلاف الأصل ، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذى هو الأصل . وإذا لم يكن فى الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رُسمت به . مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى : « إِنْ هٰذَٰانِ لَسَاحِرَانِ » رُسمت فى المصحف العثمانى هكذا : « إن هدٰں لسحرٰں » من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف فى نونى إن وهذان ، ومن غير ألف ولا ياء بعد الذال من هذان .

ومجىء الرسم كما ترى ، كان صالحاً عندهم لأن يُقرأ بالوجوه الأربعة التى وردت كلها بأسانيد صحيحة . (أولها) قراءة نافع ومن معه إذ يشدِّدون نون « إن » ويخففون « هذان » بالألف .

(ثانيها) : قراءة ابن كثير وحده إذ يخفِّف النون فى « إن » ويشدد النون فى « هذان » .

(ثالثها) قراءة حفص إذ يخفف النون فى « إن » و « هذان » بالألف .

(رابعها) : قراءة أبي عمرو بتشديد « إن » وبالياء وتخفيف النون في « هذين » .

فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظراً وأهدى سبيلاً .

القاعدة الثانية :

إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة، وذلك نحو قطع كلمة « أمْ » في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » ووصلها في قوله تعالى: « أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إذ كتبت هكذا « أمن » بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتهما ميماً واحدة مشددة ، فقطع أمْ الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أمْ المنقطعة التي بمعنى بل. ووصل أمْ الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك .

الفائدة الثالثة :

الدلالة على معنى خفيٍّ دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة « أيدٍ » من قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » إذ كتبت هكذا « بأييدٍ » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي :

« وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ ، وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ ، سَنَدْعُوا الزَّبَانِيَةَ » فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا : « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع .

قالوا : والسرُّ فى حذفها من « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ » هو الدلالة على أن هـذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير ! بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير . والسرُّ فى حذفها من « وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ » الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

والسرُّ فى حذفها من « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين . والسرُّ فى حذفها من « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش ! ويجمع هذه الأسرار قول المراكشى :

« والسرُّ فى حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدَّة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود » اه .

الفائدة الرابعة :

الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء فى قوله سبحانه « وإيتاء ذى القربى » إذ تكتب هكذا « وإيتاى ذى القربى » ومثل كتابة الضمة واواً فى قوله سبحانه : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » إذ كتبت هكذا (سأوريكم) ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو الصلاة والزكاة إذ كتبا هكذا : « الصلوة ، الزكوة » ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو . (من غير نقط ولا شكل كما سبق) .

الفائدة الخامسة :

إفادة بعض اللغات الفصيحة ، مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيىء ، وقد تقدَّمت الأمثلة لهذا النوع . ومثل قوله سبحانه : « يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » كتبت بحذف الياء هكذا « يأتِ » للدلالة على لغة هذيل .

الفائدة السادسة :

حملُ الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ، ولا يتّكلوا على هذا الرسم العثمانى الذى جاء غير مطابق للنطق الصحيح فى الجملة . وينضوى تحت هذه الفائدة مزيتان : (إحداهما) التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده . فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف ، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته . فقد تخطئُ المطبعة فى الطبع ، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده ، كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوها ، فضلاً عن خفاء تطبيقها .

ولهذا قرّر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها . بل لا بدّ من التثبُّت فى الأداء والقراءة ، بالأخذ عن حافظٍ ثقةٍ . وإن كنت فى شكٍّ فقل لى بربك : هل يستطيع المصحف وحده بأىِّ رسم يكون ، أن يدل قارئاً أيًّا كان على النطق الصحيح بفواتح السور الكريمة ؟ مثل « كهيعصٓ ، حمٓ عسقٓ ، طسٓمٓ » ؟؟؟ ومن هذا الباب الروم والإشمام فى قوله سبحانه « مالكَ لا تأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » من كلمة « لا تَأْمَنَّا » !

(المزية الثانية) اتصال السند برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتلك خاصّة من خواصٍّ هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم .

قال ابن حزم : « نَقْلُ الثقة عن الثقة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم مع الاتّصال ، خصَّ الله به المسلمين دون سائر الملل . وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد فى كثير من كتب اليهود ، ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد صلى الله عليه وسلم . بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً . إنما يبلغون إلى شمعون ونحوه . ثم قال : وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق . وأما

النقل المشتمل على طريق فيه كذّاب أو مجهول العين ، فكثير فى نقل اليهود والنصارى . وأما أقوال الصحابة والتابعين ، فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبى أو تابعياً ، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولس » . اهـ

هل رسم المصحف توقيفى ؟

للعلماء فى رسم المصحف آراء ثلاثة :

(الرأى الأول) : أنه توقيفى لا تجوز مخالفته . وذلك مذهب الجمهور . واستدلوا بأن النبى ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون الوحى ، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم وأقرّهم الرسول على كتابتهم ، ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكَتْبَة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكُتَّاب الوحى فى رسم القرآن وكتابته . ومن ذلك قوله لمعاوية وهو من كَتَبَة الوحى : « أَلِقِ الدَّوَاةَ ، وَحَرِّفْ القلمَ ، وأَنْصِبِ الباءَ ، وفَرِّقِ السِّينَ ، ولا تُعَوِّرِ الميمَ ، وَحَسِّنِ اللهَ ، ومُدَّ الرَّحمن ، وجَوِّدِ الرَّحِيم ، وضَعْ قلمكَ عَلَى أُذُنِكَ اليُسْرَى ، فإنَّهُ أَذْكَرُ لكَ » .

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم فى صحف ، ثم حذا حَذْوَه عثمان فى خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف فى مصاحف على تلك الكتبة وأقر أصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم عمل أبى بكر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعى التابعين ، فلم يخالف أحد منهم فى هذا الرسم ، ولم ينقل أن أحداً منهم فكّر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التى حدثت فى عهد ازدهار التأليف ، ونشاط التدوين ، وتقدم العلوم . بل بقى الرسم العثمانى محترماً متبعاً فى كتابة المصاحف لا يُمسّ استقلاله ، ولا يُباح حِماه !.

وملخّص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ، ظفر بأمورٍ كل واحد منها يجعله

جديراً بالتقدير ووجوب الاتباع . تلك الأمور هي إقرار الرسول ﷺ عليه ، وأمره بدستوره . وإجماع الصحابة ـ وكانوا أكثر من اثني عشر ألف صحابي ـ عليه، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين !

وأنت خبير بأن اتباع الرسول واجب فيما أمر به أو أقر عليه لقوله تعالى: « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » والاهتداء بهدى الصحابة واجب خصوصاً الخلفاء الراشدين ، لحديث العِرْبَاض بن سَارِيَةَ وفيه يقول صلى الله عليه وسلم « فإنهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى ٱخْتِلافاً كَثِيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسنةِ ٱلْخُلفاءِ ٱلرَّاشدين مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذِ » ولا ريب أن إجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع ، خصوصاً العصر الأول . قال تعالى . « وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً » .

وممن حكى إجماع الأمة على ما كَتَبَ عثمان ، صاحبُ المقنع إذ يروى بإسناده إلى مصعب بن سعد قال : « أدركتُ الناسَ حين شقَّق عثمان رضى الله عنه المصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم يَعِبْهُ أحدٌ » وكذلك يروى شارح العقيلة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن عثمان أرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين مصحفاً ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذى أُرسل إليهم . ولم يُعرف أن أحداً خالف في رسم هذه المصاحف العثمانية .

وانعقادُ الإجماع على تلك المصطلحات في رسم المصحف دليل على أنه لا يجوز العدول عنها إلى غيرها . ويرحم الله الإمام الخراز إذ يقول :

« وبعده جرَّده الإمامُ   في مُصحفٍ ليقتدى الأَنامُ
ولا يكون بعده اضطرابُ   وكان فيما قد رَأَى صوابُ

وقصةُ اختلافِهِمْ شهيرهْ كقصةِ اليمامةِ العسيرهْ
فينبغى لأَجْلِ ذا أن نقتَفِى مرسُومَ ماأصَّلَهُ فى المصحف
ونقْتدِى بفعله وما رأى فى جمله لمن يخطُّ مَلْجَأً »

أقوال العلماء فى التزام الرسم العثمانى

روى السخاوىُ بسنده ، أن مالكاً رحمه الله سئل : أرأيت من استكتب مصحفاً أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ فقال : لا أرى ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الأولى . قال السخاوى : والذى ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأَحرى بعد الآخرى . إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية مافى الطبقة الأولى .

وقال أبو عَمْرو الدانى : لا مخالف لمالك من علماء الأُمة فى ذلك . وقال أبو عمرو الدانى أيضاً : سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا . قال أبو عمر : يعنى الألف والواو المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو « أُولوا » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك .

وجاء فى حواشى المنهج فى فقه الشافعية مانصه : « كلمة الربا تكتب بالواو والألف كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة » .

وجاء فى المحيط البرهانى فى فقه الحنفية مانصه « إنه ينبغى ألّا يكتب المصحف بغير الرسم العثمانى » .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى مانصه : «وقال جماعة من الأئمة إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف ؛ فإنه رسم زيد بن ثابت ،وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه » .

وقال البيهقى فى شعب الإيمان : « من كتب مصحفاً ينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً ؛ فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولسانا وأعظم أمانة ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدرا كا عليهم » اهـ .

ويمكن مناقشة هذا الرأى الأول بأن الأدلة التى ساقوها لاتدل على تحريم كتابة القرآن بغير هذا الرسم ؛ إذ ليس فيها زجر الإثم ووعيده ، ولانهى الحرام وتهديده . إنما قُصاراها الدلالة على جواز الكتابة بالرسم العثمانى ووجاهته ودقَّته . وذلك محلُّ اتفاق وتسليم .

الرأى الثانى :

أن رسم المصاحف اصطلاحى لاتوقيفى ، وعليه فتجوز مخالفته . وممن جنح إلى هذا الرأى ابن خلدون فى مقدمته . وممن تحمَّس له القاضى أبو بكر فى الانتصار إذيقول مانصه :

« وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذ لم يأْخذ على كُتَّاب القرآن وخُطَّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وتركَ ماعداه ، إذ وجوب ذلك لايدرك إلا بالسمع والتوقيف . وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه ، أن رسم القرآن وضبطه لايجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لايجوز تجاوزه ، ولا فى نص السنة مايوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى إجماع الأمة مايوجب ذلك ، ولا دلّت عليه القياسات الشرعية .

بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال . ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تُعوَّج الألِفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ؛ وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حدٌّ محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان .

والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دالّ على الكلمة مفيدٍ لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادَّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه . وأنَّى له ذلك ؟ » اه بتلخيص .

ونوقش هذا المذهب :

(أولاً) : بالأدلة التى ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم . وها هى بين يديك عن كَثَب ، بعضها من السنة وبعضها من إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم .

(ثانياً) : أن ما ادعاه من أنه ليس فى نصوص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه مردود بما سبق من إقرار الرسول كتّاب الوحى على هذا الرسم ، ومنهم زيد بن ثابت الذى كتب

المصحف لأبى بكر وكتب المصاحف لعثمان، والحديث الآنف ، وفيه يقول الرسول لمعاوية: « ألقِ الدَّوَاةَ وحرِّفِ القَلَمَ الخ ». فإنه حجة على أنه ﷺ كان واضع دستور الرسم لهم.

(ثالثاً) أن قول القاضى أبى بكر : « ولذلك اختلفت خطوط المصاحف » الخ لا يُسلَّمُ له بعد قيام الإجماع وانعقاده ومعرفة الناس بالرسم التوقيفى وهو رسم عثمان على ماقرروه هناك .

ونزيدك هنا ماذكره العلامة ابن المبارك نقلا عن العارف بالله شيخه عبدالعزيز الدباغ إذ يقول فى كتابه الإبريز ما نصه : « رسم القرآن سرٌّ من أسرار الله المشاهدة وكمال الرفعة » قال ابن المبارك فقلت له: هل رسم الواو بدل الألف فى نحو « الصلاة ، والزكاة، والحياة ، ومِشْـكَاة » . وزيادة الواو فى «سَأُورِيكُم ، وأُولَئِكَ ، وأُولاَءِ ، وأُولات». وكالياء فى نحو « هُدَيهُمْ ، وملائه ، وبِأَييِّـكُمْ ، وبِأَيْيدٍ » . هذا كله صادر من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو من الصحابة ؟ فقال : « هو صادر من النبى ﷺ وهو الذى أمر الـكتَّاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة ، فما نقصوا ولا زادوا على ماسمعوه من النبى » فقلت له : إن جماعة من العلماء ترخَّصوا فى أمر الرسم وقالوا : إنما هو اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قريش تـكتب عليه فى الجاهلية . وإنما صدر ذلك من الصحابة ، لأن قريشاً تعلموا الـكتابة من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة ينطقون بالواو فى الربا ، فـكتبوا على وَفْق منطقهم . وأما قريش فإنهم ينطقون فيه بالألف ، وكتابتهم له بالواو على منطق غيرهم وتقليد لهم، حتى قال القاضى أبو بكر الباقلانى: كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، فإنه ليس فى الـكتاب ولا فى السنة ولا فى الإجماع مايدل على ذلك ؟ . فقال : —

« ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبى ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار

لا تهتدى إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار خصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز ، فرسمه أيضاً معجز ! وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى « مائة » دون « فئة » . وإلى سر زيادة الياء فى « بِأَيْيدٍ وبِأَيِّيكم » ؟ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى « سَعَوْا » بالحج ، ونقصانها من « سَعَوْ » بسبأ ؟ وإلى سر زيادتها فى « عَتَوْا » حيث كان ، ونقصانها من « عَتَوْ » فى الفرقان ؟ وإلى سر زيادتها فى « آمنُوا » . وإسقاطها من « بَاؤُ ، جاؤُ ، تَبَوَّؤُ ، فاؤُ » بالبقرة ؟ وإلى سر زيادتها فى « يَعْفُوَا الذى » ، ونقصانها من « يعفو عنهم » فى النساء ؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض ، كحذف الألف من « قُرْءاناً » بيوسف والزخرف ، وإثباتها فى سائر المواضع ؟ وإثبات الألف بعد واو « سموات » فى فصلت وحذفها من غيرها . وإثبات الألف فى « الميعاد » مطلقاً ، وحذفها من الموضع الذى فى الأنفال ، وإثبات الألف فى « سِرَاجاً » حيثما وقع ، وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها فى بعض ؟ فكل ذلك لأسرار إلٰهية ، وأغراض نبوية . وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الربانى ، فهى بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطِّعة التى فى أوائل السور ، فإن لها أسراراً عظيمة ، ومعانى كثيرة . وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعانى الإلهية التى أشير إليها ! فكذلك أمر الرسم الذى فى القرآن حرفاً بحرف .

وأما قول من قال : إن الصحابة اصطلحوا على أمر الرسم المذكور ، فلا يخفى ما فى كلامه من البطلان ، لأن القرآن كتب فى زمان النبى ﷺ وبين يديه . وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة ، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها فإن كان عينها

يطل الاصطلاح ،لأن أسبقية النبي ﷺ تنافى ذلك وتوجب الاتباع وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي ﷺ كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسى مثلاً ، والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لوجهين : (أحدهما) نسبة الصحابة إلى المخالفة، وذلك محال . (ثانيهما) : أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف فى القرآن ولا نقصان حرف منه. وما بين الدفتين كلام الله عز وجل، فإذا كان النبي ﷺ أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلاً، ولم يزد الألف فى «مائة» ولا فى «ولأوضعوا» ولا الياء فى «بأيد» ونحو ذلك، والصحابة عاكسوه فى ذلك وخالفوه ، لزم أنهم — وحاشاهم من ذلك — تصرفوا فى القرآن بالزيادة والنقصان، ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على مالا يحل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين، لأنا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على مافى علم النبي ﷺ وعلى ماعنده وأنها ليست بوحى ولا من عند الله ولا نعلمها بعينها ، شككنا فى الجميع. ولئن جوزنا لصحابى أن يزيد فى كتابته حرفاً ليس بوحى، لزمنا أن نجوز لصحابى آخر نقصان حرف من الوحى، إذ لافرق بينهما ، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية ! .

ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له : فإن كان الرسم توقيفياً بوحى إلى النبي ﷺ وأنه كألفاظ القرآن فلم لم ينقل تواتراً حتى ترتفع عنه الريبة وتطمئن به القلوب كألفاظ القرآن ؟ فإنه مامن حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب . وأما الرسم فإنه إنما نقل بالآحاد ، كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه . وما نقل بالآحاد وقع الاضطراب بين النقلة فى كثير منه . وكيف تضيع الأمة شيئاً من الوحى ؟ . فقال : « ماضيعت الأمة شيئاً من الوحى ، والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسماً. فأهل العرفان والشهود والعيان ، حفظوا ألفاظه ورسمه، ولم يضيعوا منها شعرة واحدة ، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذى هو فوق التواتر. وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر. واختلافهم

فى بعض حروف الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضيعة ، كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه » اه .

الرأى الثالث :

يميل صاحب التبيان ومن قبله صاحب البرهان ، إلى مايفهم من كلام العز ابن عبد السلام،من أنه يجوز بل يجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثمانى الأول ، لئلا يوقع فى تغيير من الجهال.ولكن يجب فى الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثمانى ، كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين ، بل يبقى فى أيدى العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض . وهاك عبارة التبيان فى هذا المقام إذ يقول مانصه :

وأما كتابته (أى المصحف) على ما أحدث الناس من الهجاء ، فقد جرى عليه أهل المشرق ، بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتحاماه أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك وقد سئل . هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : « لا : إلا على الكتبة الأولى » . قال فى البرهان : قلت : وهذا كان فى الصدر الأول ، والعلم حىٌّ غضٌّ . وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة،لئلا يوقع فى تغيير من الجهال . ولكن لا ينبغى إجراء هذا على إطلاقه ، لئلا يؤدى إلى دروس العلم . وشىء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاةً لجهل الجاهلين . « ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة » اه .

أقول : وهذا الرأى يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن من ناحيتين : ناحية كتابته فى كل عصر بالرسم المعروف فيه ، إبعاداً للناس عن اللبس والخلط فى القرآن ، وناحية إبقاء

رسمه الأول المأثور ، يقرؤه العارفون ومن لا يخشى عليهم الالتباس . ولا شك أن الاحتياط مطلب دينى جليل ، خصوصاً فى جانب حماية التنزيل .

جـ - الشبهات التى أثيرت

حول كتابة القرآن ورسمه

الشبهة الأولى :

يقولون : روى عن عثمان أنه حين عرض عليه المصحف قال : « أحسنتم وأجملتم ، إن فى القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها » .

ويقولون . روى عن عكرمة أنه قال : « لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال : ستعربها بألسنتها . لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف .

أورد أعداء الإسلام هاتين الروايتين وقالوا : إنهما طعنان صريحان فى رسم المصحف ، فكيف يكون مصحف عثمان وجمعه للقرآن ، موضع ثقة ، وإجماع من الصحابة ؟ وكيف يكون توقيفياً ؟ وهذا عثمان نفسه يقول بملء فيه : « إن فيه لحناً » .

ونجيب على هذه الشبهة أولاً : بأن ماجاء فى هاتين الروايتين ضعيف الإسناد ، وأن فيهما اضطراباً وانقطاعاً . قال العلامة الألوسى فى تفسيره : « إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلاً » اهـ ولعلك تلمح معى دليل سقوط هاتين الروايتين ماثلاً فيهما

من جراء هـذا التناقض الظاهر بين وصفهما نسّاخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجملوا ، ووصفهما المصحف الذى نسخوه بأن فيه لحناً . وهل يقال للذين لحنوا فى المصحف : أحسنتم وأجملتم ؟ .

اللهم إلا إذا كان المراد معنى آخر .

ثانياً : أن المعروف عن عثمان فى دقته وكمال ضبطه وتحرِّيه يجعل صـدور أمثال هاتين الروايتين من المستحيل عليـه . انظر إلى ماسبق من دستوره فى جمع القرآن . ثم انظر إلى ماأخرجه أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانئ مولى عثمان قال : كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شـاة إلى أُبىٍّ بن كعب فيهـا « لم يتَسَنَّ » وفيها « لاَ تبْدِيلَ لِلْخَلْق » وفيها « فَـأَمْهِلِ الْـكَافِرِينَ » فدعا بدواة فمحا أحد اللامين وكتب « لخلق اللهِ » ومحا « فأمهل » وكتب « فمهلْ » وكتب « لم يتسنهْ » فألحق فيها الهاء .

قال ابن الأنبارى : فـكيف يدعى عليه أنه رأى فساداً فأمضاه ؟ وهو يوقف على ما يكتب ويرفع الخـلاف الواقع من الناسخين فيـه ، فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده اه .

ثالثاً على فرض صحة ما ذكر يمكن أن نؤوله بما يتفق والصحيح المتواتر عن عثمان فى نسخ المصاحف وجمع القرآن ، ومن نهاية التثبت والدقة والضبط .

وذلك بأن يراد بكلمة « لحناً » فى الروايتين المذكورتين قراءةً ولغةً . والمعنى أن فى القرآن ورسم مصحفه وجهاً فى القراءة لاتلين به ألسنة العرب جميعاً ، ولـكنها لاتلبث أن تلين به ألسنتهم جميعاً بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه . وقد ضرب بعض أجلاء العلماء لذلك مثلا كلمة (الصراط) بالصاد المبدلة من السين فتقرأ العرب بالصاد عملاً بالرسم ، وبالسين عملاً بالأصل .

الشبهة الثانية :

يقولون : روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ « والمقيمِينَ الصَّلَاةَ » ويقول « هوَ مِنْ لَحَنِ الْكُتَّابِ » .

والجواب : على غِرار ما سبق ، أى أن ابن جبير لا يريد بكلمة « لحن » الخطأ . إنما يريد بها اللغة والوجه فى القراءة على حد قوله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ » . والدليل على هذا التوجيه أن سعيد بن جبير نفسه كان يقرأ : « وَالْمُقِيمِينَ الصلاة » ، فلو كان يريد باللحن الخطأ ما رضى لنفسه هذه القراءة . وكيف يرضى ما يعتقد أنه خطأ ؟

وهذه الكلمة فى آية من سورة النساء ونصها : « لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ ، مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً » فكلمة « والمُقيمين الصلاةَ » قرأها الجمهور بالياء منصوباً كما ترى . وقرأها جماعة بالواو ، منهم أبو عمرو فى رواية يونس وهارون عنه . ولكل من القراءتين وجه صحيح فصيح فى اللغة العربية ، فالنصب مخرّج على المدح ، والتقدير « وأمدح المقيمين الصلاة » . والرفع مخرّج على العطف ، والمعطوف عليه مرفوع كما ترى .

الشبهة الثالثة :

يقولون : ألا يكفى فى الطعن على جمع القرآن ورسمه ما رُوى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا » أنه قال : إن الكاتب أخطأ والصواب : « حتى تَسْتَأْذِنُوا » .

ونجيب (أولا) بما أجاب به أبو حيان إذ يقول ما نصه : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك . فهو طاعن فى الإسلام ملحد فى الدين ، وابن عباس برىء من ذلك القول اهـ .

(ثانيا) بما أخرجه ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه فسَّر « تَسْتَأْنِسُوا » فقال : أى تستأذنوا من يملك الإذن من من أصحابها يعنى أصحاب البيوت .

(ثالثا) أن القراء لم يرووا غير قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » فلو كان ذاك النقل صحيحا عن ابن عباس لنقلوا عنه أنه قرأ « تَسْتَأْذِنُوا » .

(رابعاً) إذا سلمنا للحاكم أن هذا الخبر صحيح عن ابن عباس ، فإننا نرده برغم دعوى هذه الصحة ، لأنه معارض للقاطع المتواتر وهو قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » والقاعدة أن معارض القاطع ساقط ، وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف فهى شاذَّة لا يلتفت إليها ولا يُعَوَّل عليها .

الشبهة الرابعة :

يقولون : ألا يكفى فى الطعن على جمع القرآن ورسمه ، ما روى عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » . فقيل له : إنها فى المصحف « أَفَلَمْ يَيْأَسِ ٱلَّذِينَ آمنوا » فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس .

ونجيب : بأنه لم يصح ذلك عن ابن عباس . قال أبو حيان : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزمخشرى : ونحن ممن لا يصدق هذا فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى هذا ؟ حتى يبقى ثابتاً بين دفتى الإمام (أى المصحف الإمام) وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام ، المحتاطين

لدين الله المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أُقيم عليها البناء ؟ هذا والله فِرْية ، مافيها مِرْية اهـ . وقال الفراء : لا يتلى إلا كما أُنزل : « أَفَلَمْ يَيأَس » اهـ . وعلى ذلك تكون رواية ذلك فى الدر المنثور وغيره عن ابن عباس رواية غير صحيحة . ومعنى « أفلم ييأس الَّذِينَ آمنُوا » : أفلم يعلموا. قال القاسم بن معن : هى لغة هوازن . وجاء بها الشعر العربى فى قول القائل :

« أَقولُ لهمْ بالشِّعْبِ إذْ يَأْسِرُونَنى أَلَمْ تيأْسوا أَنّى أبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ [١] »

أى ألم تعلموا .

الشبهـة الخامسة :

يقولون : من وجوه الطعن أيضاً ماروى عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » إنما هى « ووصَّى رَبُّكَ » التزقت الواو بالصاد . وكان يقرأ : ووصى ربك ، ويقول : أَمَرَ رَبُّكَ ، إنهما واوان التصقت إحداهما بالصاد . وروى عنه أنه قال : أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم . ووصى ربك أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ . فلصقت إحدى الواوين بالصاد ، فقرأ الناس : « وقضَى ربُّكَ » ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد .

ونجيب : عن ذلك كله (أولا) بما أجاب به ابن الأنبارى إذ يقول : « إن هذه الروايات ضعيفة » .

---

(١) قال فى القاموس : زَهْدَم كجعفر : فرس لعنترة ، وفرس لِبشر بن عَمْرو الرِّياحى — إلى أن قال — والزَّهْدَمَان أخوان من عَبْس : زَهْدَمٌ ، وَ كَرْدَمٌ .

(ثانيا) أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع ، وهو قراءة « وقضى » ومعارض القاطع ساقط .

(ثالثا) أن ابن عباس نفسه ، وقد استفاض عنه أنه قرأ : « وقضى » وذلك دليل على أن مانسب إليه فى تلك الروايات من الدسائس الرخيصة التى لفقها أعداء الإسلام . قال أبو حيان فى البحر : والمتواتر هو « وَقَضَى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وَصَّى » اهـ إذن رواية « وقضى » هى التى انعقد الإجماع عليها من ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد ، ولا يرفع عقيرته بها إلا عدوٌّ من أعداء الإسلام .

الشبهة السادسة :

يقولون : إن ابن عباس روى عنه أيضا أنه كان يقرأ : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً[1] » ويقول ، خذوا هذه الواو ، واجعلوها فى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ . » وروى عنه أيضاً أنه قال : انزعوا هذه الواو ، واجعلوها فى « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات ضعيفة ؟ لم يصح شيء منها عن ابن عباس.

(ثانياً) أنها معارضة للقراءة المتواترة المجمع عليها ، فهى ساقطة .

(ثالثاً) أن بلاغة القرآن قاضية بوجود الواو لا بحذفها ، لأن ابن عباس نفسه فسر الفرقان فى الآية المذكورة بالنصر ، وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة . فالمقام للواو لأجل هذا التغاير .

---

(١) الآية فى سورة الأنبياء ـ لكن اتصال الواو بكلمة « ضِيَاءً » . ونصُّ الآية الكريمة : « ولقد آتينا موسى وهرونَ الفرقانَ وضياءً وذِكراً لِلْمُتَّقِينَ » .

الشبهة السابعة

يقولون : روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ » أنه قال : هى خطأ من الكاتب . هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة . إنما هى . « مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ كَمِشْكَاةٍ » .

ونجيب (أولا) بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر ، فهى ساقطة .

(ثانياً) أنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ . مَثَلُ نورِ الْمُؤْمِنِ ، فكيف يقرأ رضى الله عنه بما يعتقد أنه خطأ ، ويترك مايعتقد أنه صواب ؟ ألا إنها كذبة مفضوحة ! ولو أنهم نسبوها لأُبىٍّ بن كعب ، لكان الأمر أهون ، لأنه روى فى الشواذ أن أبى ابن كعب قرأ . مثلُ نورِ الْمُؤمنِ . والذى ينبغى أن تحمل عليه هذه الروايات أن أبياً رضى الله عنه . أراد تفسير الضمير فى القراءة المعروفة المتواترة وهى مثل نوره . فهى روايات عنه فى التفسير لا فى القراءة ، بدليل أنه كان يقرأ : « مَثَلُ نورِهِ » .

دفعٌ عامٌ عن ابن عباس

كل ماروى عن ابن عباس فى تلك الشبهات ، يمكن دفعه دفعاً عاماً بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأُبىٍّ بن كعب ، وهما كانا فى جمع المصاحف . وزيد بن ثابت كان فى جمع أبى بكر أيضاً . وكان كاتب الوحى ، وكان يكتب ما يكتب بأمر النبى ﷺ وإقراره . وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به ، فمحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسم القرآن ! وإلا فكيف يأخذ عن زيد وابن كعب ثم يعترض على جمعهما ورسمهما ؟ .

الشبهة الثامنة !

يقولون : روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : سألت عائشة عن لحن القرآن ، عن قوله تعالى : « إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ » وعن قوله تعـالى : » وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » وعن قوله تعـالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ » . فقالت . يابن أخى هذا من عمل الكُتَّاب ، قد أَخْطَئُوا فى الكتاب .

قال السيوطى فى هذا الخبر : إسناده صحيح على شرط الشيخين . ويقولون أيضاً . روى عن أبى خَلَفٍ مولى بنى جُمَحٍ أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة فقال : جئت أسألك عن آية فى كتاب الله ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟ قالت . أيَّةُ آيةٍ ؟ قال : « الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » أو « الذينَ يَأْتون ما أتوا » . قالت . أيهما أحبُّ إليْكَ؟ قلتُ والذى نفسى بِيَدِهِ لَإِحْدَاهُما أحبُّ إلىَّ مِنَ الدُّنيا جميعاً . قالتْ . أيُّهُمَا ؟قلتُ : « الَّذِينَ يَأتونَ ماأَتَوْا » . فقالت : أشهدأَنَّ رسولَ الله ﷺ كذلك كان يَقرؤُها، وكذلك أُنزلت ، ولـكن الهجاء حرف .

ونجيب (أولا) بأن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحاً ، فإنها مخالفة للمتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود ، فلا يلتفت إليها ، ولا يعمل بها .

(ثانياً) أنه قد نص فى كتاب إتحاف فضلاء البشر ، على أن لفظ « هذان » قـد رسم فى المصحف من غير ألف ولا ياء ، ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها ، كما شرحنا ذلك سابقاً فى فوائد رسم المصحف . وإذن فلا يعقل أن يقال أخطأ الـكاتب ، فإن الـكاتب لم يكتب ألفاً ولا ياء .ولو كان هناك خطأ تعتقده عائشة ما كانت تنسبه للـكاتب، بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إنَّ) وبالألف لفظاً فى (هـذان) . ولم ينقل عن عائشة ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بما ذكر ، وكيف تنكر هذه القراءة وهى متواترة مجمع عليها ؟ ، بل هى قراءة الأكثر ، ولها وجه فصيح فى العربية لا يخفى على مثل عائشة . ذلك هو إلزام المثنى الألف فى جميع حالاته . وجاء منه قول الشاعر العربى :-

« واهاً لسلمى ثم واهاً واهاً ... ياليتَ عيناها لنـا وفاها
وموضعَ الخلخال من رجلاها ... بثمن يَرْضَى به أباها
إنَّ أباها وأبَا أباها ... قد بلغا في المجدِ غايتاها »

فبعيدٌ عن عائشة أن تنكر تلك القراءة ، ولو جاء بها وحدها رسم المصحف .

(ثالثاً) أن ما نسب إلى عائشة رضى الله عنها من تخطئة رسم المصحف فى قوله تعالى : « والمقيمينَ الصلاةَ » بالياء ، مردود بما ذكره أبو حيان فى البحر إذ يقول ما نصه : « وذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف . ولا يصح ذلك عنهما ، لأنهما عربيان فصيحان ، وقطع النعوت مشهور فى لسان العرب . وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره . وقال الزمخشرى : لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ فى خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب « يريد كتاب سيبويه » ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان ، وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعدَ همةً فى الغيرة على الإسلام ، وذبِّ المطاعن عنه ، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمةً يسدوها من بعدهم ، وخرقاً يرفوهُ من يلحقهم » .

(رابعاً) أن قراءة « والصابئون » بالواو ، لم ينقل عن عائشة أنها خطّأت من يقرأ بها ، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو . فلا يعقل أن تكون خطّأت من كتب بالواو .

(خامساً) أن كلام عائشة فى قوله تعالى : « يؤتونَ ما آتوا » لا يفيد إنكار هذه القراءة المتواترة المجمع عليها . بل قالت للسائل : أيهما أحبُّ إليك ؟ ولا تحصر المسموع عن رسول الله ﷺ فيما قرأت هى به . بل قالت : إنه مسموع ومنزل فقط ؛

وهـذا لا ينافى أن القراءة الأخرى مسموعة ومنزلة كتلك . خصوصاً أنها متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم . أما قولها : ولـكن الهجاء حرف ، فـكلمة حرف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة واللغة ، والمعنى أن هـذه القراءة المتواترة التى رسم بها المصحف ، لغة ووجه من وجوه الأداء فى القرآن الـكريم .ولا يصح أن تـكون كلمة حرف فى حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذى هو الخطأ ،وإلا كان حديثا معارضاً للمتواتر،ومعارض القاطع ساقط .

الشبهة التاسعة :

يقولون : روى عن خارجـة بن زيد بن ثابت أنه قال : قالوا لزيد يا أبا سعيد « أوهمتَ » إنما هى « ثمانية أزواج من الضأن اثنين (١) اثنين ، ومن المعز اثنين اثنين ومن الإبل اثنين اثنين،ومن البقر اثنين اثنين » . فقال : لا . إن الله تعالى يقول « فجعلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ » فهما زوجان ، كل واحد منهما زوج . الذكر زوج ، والأنثى زوج اه . قال أعداء الإسلام . فهذه الرواية تدل على تصرُّف نساخ المصحف واختيارهم ماشاءوا فى كتابة القرآن ورسمه .

والجواب أن كلام زيد هـذا لا يدل على مازعموا . إنما يدل على أنه بيان لوجه ماكتبه وقرأه سماعاً وأخذاً عن النبى صلى الله عليه وسلم لاتصرُّفاً وتشهياً من تلقاء نفسه . وكيف يتصور هذا من الصحابة فى القرآن وهم مضرب الأمثال فى كمال ضبطهم وتثبتهم فى الـكتاب والسنة . لاسيما زيد بن ثابت ، وقد عرفت فيما سبق من هو زيد فى حفظه

---

(١) يريدون آية سورة الأنعام ونصها : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ » الخ .

وأمانته ودينه وورعه ؟ ! وعرفت دستوره الدقيق الحكيم في كتابة الصحف والمصاحف ! « فأنى يؤفكون » ؟ .

الشبهة العاشرة :

يقولون : إن مروان هو الذى قرأ « ملك يوم الدين » من سورة الفاتحة بحذف الألف من لفظ « مالك » . ويقولون : إنه حذفها من تلقاء نفسه دون أن يرد ذلك عن النبى ﷺ، فضلاً عن أن يتواتر عنه قراءةً ولفظاً ، أو يصح كتابةً ورسماً .

والجواب أن هذا كذب فاضح (أولاً) لأنه ليس لهم عليه حجة ولا سند .

(ثانياً) أن الدليل قام ، والتواتر تم ، والإجماع انعقد ، على أن النبى ﷺ قرأ لفظ « مالك يوم الدين » بإثبات الألف وحذفها ، وأخذ أصحابه عنه ذلك . فممن قرأ بهما على وابن مسعود وأبيُّ بن كعب . وممن قرأ بالقصر أى حذف الألف أبو الدرداء وابن عباس وابن عمر . وممن قرأ بالمد أى إثبات الألف أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء كلهم كانوا قبل أن يكون مروان ، وقبل أن يولد مروان ، وقبل أن يقرأ مروان . وقصارى ما فى الأمر أن مروان اتفق أن روايته كانت القصر فقط . وذلك لا يضرنا فى شىء . كما اتفق أن رواية عمر بن عبد العزيز كانت المد فقط .

(ثالثاً) أن كلمة « مالك » رسمت فى المصحف العثمانى هكذا « ملك » كما سبق .

خلاصة الدفاع :

والخلاصة أن تلك الشبهة وما ماثلها ، مدفوعة بالنصوص القاطعة ، والأدلة الناصعة ، على أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثباته ورسمه ؛ ولم ينسخه ناسخ فى تلاوته ، هو هذا الذى حواه مصحف عثمان بين الدفتين ، لم ينقص منه شىء ، ولم يزد فيه شىء ، بل

إن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على مانظمه الله سبحانه وتعالى ورتبه رسوله ﷺ من آى وسور . لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولم يؤخر منه مقدم . وقد ضبطت الأمة عن النبى ﷺ ترتيب آى كل سورة ومواقعها ، كما ضبطت منه نفس القراءات وذات التلاوة . على ماسبق وما سيجىء فى الكلام على القراءات إن شاء الله .

فليلاحظ دائماً فى الرد على أمثال تلك الشبهات أمران : (أولهما) تلك القاعدة الذهبية التى وضعها العلماء : وهى أن خبر الآحاد إذا عارض القاطع سقط عن درجة الاعتبار ، وضرب به عرض الحائط ، مهما تكن درجة إسناده من الصحة .

(ثانيهما) خطُّ الدفاع الذى أقمناه فى المبحث الثامن حصناً حصيناً دون النيل من الصحابة واتهامهم بسوء الحفظ أوعدم التثبت والتحرى ، خصوصاً فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا العصر

يقولون : إن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن ولا يحسنون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى . فلماذا نتقيد بهذا الرسم ولا نكتب المصاحف اليوم باصطلاح الكتابة المعروف ، تسهيلاً على الناشئة ، وتيسيراً على الناس ؟ .

والجواب (أولا) أن للعلماء آراء فى ذلك بالجواز ، بل قال بعضهم — وهو المعز بن عبدالسلام — بوجوب كتابة المصحف للعامة باصطلاح كتابتهم الحديث خشية الالتباس كما يجب كتابته بالرسم العثمانى محافظةً على هذا التراث العزيز . وقد سبق شرح آراء العلماء قريباً . وما هى منك ببعيد .

(ثانياً) أن فى الرسم العثمانى مزايا وفوائد ، ذكرناها سابقاً .

(ثالثاً) أن مذهب الجمهور قائم على أدلة متوافرة على وجوب التزام هذا الرسم عندهم . وقد تقدمت تلك الأدلة أيضاً .

(رابعاً) أن مصطلح الخط والكتابة فى عصرنا ، عرضة للتغيير والتبديل . ومن المبالغة فى قداسة القرآن حمايته من التغيير والتبديل فى رسمه .

(خامساً) أن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ، ربما يجرُّ إلى فتنة ، أشبه بالفتنة التى حدثت أيام عثمان ، وحملته على أن يجمع القرآن . فربما يقول بعض الناس لبعض ، أو بعض الشعوب لبعض ، عند اختلاف قواعدهم فى رسم المصحف : رسمى خيرٌ من رسمك ، أو مصحفى خيرٌ من مصحفك ، أو رسمى صواب ورسمك خطأ . وقد يجر ذلك إلى أن يؤثِّم بعضهم بعضا ، أو يقاتل بعضهم بعضا . ومن المقرَّر أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح .

(سادساً) أن الرسم العثمانى أشبه بالرسم العام الذى يجمع الأمة على كتابة كتاب ربها فى سائر الأعصار والأمصار ، كاللغة العربية ، فإنها اللسان العام الذى يجمع الأمة على قراءة كتاب ربها فى سائر الأعصار والأمصار . وما يكون لنا أن نفرط فى أمر هذا شأنه يجمع الشتات ، وينظم الأمة فى سلك واحد لافرق بين ماض وحاضر وآت ! .

(سابعاً) أنه يمكن تسهيل القراءة على الناس بإذاعة القرآن كثيراً إذاعة مضبوطة دقيقة ، وبإذاعة فن التجويد فى المدارس وفى أوساط المتعلمين ، وأخيراً يمكن — كما قالت مجلة الأزهر — أن ننبِّه فى ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على مايكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف ، والاصطلاح المألوف . لاسيما أن رسم المصاحف العثمانية لايخالف قواعدنا فى الخط والإملاء إلا قليلا ، وفى كلمات معدودة . أضف إلى ذلك أن الفرق بين الرسمين لايوقع القارئ اليقظ فى لَبْس عند تأمله وإمعانه غالبا .

ولقد مرت على الأمة أجيال وقرون، وماشعرت بغضاضة فى التزامها الرسم العثمانى على أن المعوّل عليه أولا وقبل كل شىء هو التلقى من صدور الرجال . وبالتلقى يذهب الغموض من الرسم كائناً ما كان . وليس بعد العيان بيان .

د — المصاحف تفصيلا

لعلك لم تنس ماذكرناه فى المباحث السابقة عن نشأة المصاحف العثمانية وكتابتها ورسمها ، وتحريق عثمان ماسواها من المصاحف الفردية التى كانت لبعض الصحابة ، والتى كان يخالف بعضها بعضا ، على مقدار ماوصل إليه علم الواحد منهم بأحرف القراءات ، وبما نسخ ومالم تنسخ تلاوته فى العرضة الأخيرة . ولأجل الإحاطة بما يتّصل بالمصاحف العثمانية ، يجدر بنا أن نتحدث عما يأتى :

الحروف السبعة فى المصاحف العثمانية :

المصاحف التى نسخها عثمان رضى الله عنه كان مجموعها مشتملا على الحروف السبعة التى نزل عليها القرآن ، كما بينا ذلك أو فى بيان تحت عنوان خاص فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ، فارجع إليه إن شئت . ويؤيده هنا أن هذه المصاحف نسخت من الصحف التى جمعت على عهد أبى بكر وكانت عند حفصة .

ومن المتفق عليه أن هذه الصحف كتب فيها القرآن بحروفه السبعة التى نزل عليها ولم يرد أن عثمان أمرهم أن يتركوا ستة أحرف منها ويبقوا حرفاً واحدا كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء . فلنستمسك بالمتفق عليه حتى يثبت لدينا ماينفيه . فما يكون لنا أن نترك اليقين للشك . ثم إن دفع الفتنة ، وتوحيد الكلمة بين المسلمين لايتوقف على ترك ستة

أحرف وإبقاء حرف واحد من الأحرف التى نزل عليها القرآن ، بل إن الذى يدفع الفتنة ويوحّد الكلمة ، هو إقرار النازل كما نزل ، من تعدُّد حروفه إلى سبعة ، رحمةً بهذه الأمة . غاية ما يجب فى هذا الباب ، هو إحاطة المسلمين علماً بهذه الحروف ، حتى يتركوا ما عداها ، ولا يعتمدوا سواها ؛ وحتى يعتمد كل منهم صواب قراءة غيره ما دامت قراءته لا تتعداها . ومن هنا تجتمع كلمتهم وتنطفئ فتنتهم ، على نمط ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين اشتعلت مثل هذه الفتنة بين بعض الصحابة ، فعالجهم بأن أفهمهم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وقرر فيهم هذا المعنى ، وحكم بأن كلاًّ من المختلفين على صواب فى قراءته وأنها هكذا أنزلت . وما كان لعثمان وجمهور الصحابة وجميع الأمة أن يتركوا هدى الرسول فى هذا « وإنَّ خَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم » .

بقى أن نفسر لك معنى قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا » فقد فهم بعضهم من هذه الجملة أن عثمان أمر أن يتركوا ستة أحرف ، ويقتصروا فى نسخ المصاحف على حرف قريش ولغتهم وحدهم . وهذا مردود بوجوه :

(أحدها) أن اللفظ لا يؤدى ذلك المعنى .

(ثانيها) أن القرآن فيه كلمات كثيرة من لغات قبائل أخرى وليست من لغة قريش : انظر فى ذلك ماقدمناه فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضا ، وماذكره السيوطى فى الإتقان فى النوع السابع والثلاثين .

(ثالثها) أن المصاحف العثمانية كانت مشتملة على الأحرف السبعة كما بينا آنفا .

(رابعها) أنه لم ينقل إلينا نقلا صحيحاً صريحاً أنهم تركوا من الأحرف السبعة شيئاً

فضلا عن أن يتركوها ما عدا واحدا ، ولو أنهم فعلوا ذلك لنقل متواتراً ، لأن هذا الأمر الجلل ، مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره . وقصارى ما وصلنا من بعض الطرق أنهم اختلفوا فى كلمة « التابوت » فى قوله تعالى من سورة البقرة : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » الخ أيكتبونها بالتاء المفتوحة ؛ أم بالهاء ، فأمرهم عثمان أن يكتبوها بالتاء المفتوحة ، لأنها كذلك فى لغة قريش .

وهذا يوضح لنا أن عثمان فى كلمته تلك ، إنما يريد الاختلاف فى الكتابة والرسم لا فى الألفاظ واللغات والحروف . أو يريد أن لغة قريش متوافر فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا الغرض وحده ، وهو التواتر الذى شرطوه فى دستور كتابتهم وجمعهم . أضف إلى ذلك أن المصاحف نقلت من الصحف التى جمع أبو بكر رضى الله عنه القرآن فيها ، والتى ظفرت بالتواتر وإجماع الأمة كما قدمنا . فهل يرضى عثمان ويوافقه الصحابة جميعاً على أن يخرقوا هذا الإجماع ، ويعبثوا بذلك التواتر ، فى أمر جعل الله تعدُّد الوجوه والحروف فيه رحمة بالأمة إلى هذا اليوم ؟ ذلك فهم بعيد .

الصحف والمصاحف

قلنا : إن أبا بكر رضى الله عنه جمع القرآن فى صحف ، وإن عثمان جمعه ونسخه فى مصاحف . والفرق بين الصحف والمصاحف فى الأصل أن الصحف جمع صحيفة ، وهى القطعة من الورق أو الجلد يكتب فيها .

أما المصحف فهو بزِنَةِ اسم المفعول من أصحفه أى جمع فيه الصحف . فكأن المصحف ملحوظ فى معناه اللغوى دفتاه ، وهما جانباه أو جِلداه اللذان يُتخذان جامعاً لأوراقه ، ضابطاً لصحفه ، حافظاً لها .

ولا يلحظ هذا فى معنى الصحف ، وإن كان يصح استعمال كلا اللفظين فى كلا المعنيين استعمالا متوسعاً فيه .

هذا فى أصل اللغة ، أما فى الاصطلاح فالمراد بالصحف الأوراق المجردة التى جمع فيها القرآن فى عهد أبى بكر ، وكانت سوراً مرتبة آياتُها فقط ؛ كل سورة على حدة ، لكن لم يترتب بعضها إثر بعض . والمراد بالمصحف اصطلاحاً الأوراق التى جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذى أجمعت عليه الأمة أيام عثمان رضى الله عنه . وقد أطلق بعضهم لفظ المصحف على صحف أبى بكر ، وتوجيهه لا يخفى .

ولقد بقيت الصحف عند أبى بكر حتى حضرته الوفاة فدفعها إلى عمر لأنه وصّى له بالعهد ، ولما مات عمر انتقلت إلى ابنته أم المؤمنين حفصة بوصية من عمر ، ثم طلبها عثمان ونسخ المصاحف منها وردها إليها وبقيت عندها حتى توفيت رضى الله عنها .

وقد حضر جنازتها مروان والى المدينة وقتئذ ورغب إلى أخيها عبد الله بن عمر أن يبعث إليه بالصحف ، فبعثها إليه ، وكان مروان قد طلبها من السيدة حفصة من قبل فأبت رضى الله عنها . أخرج ابن أبى داود فى رواية أن مروان أحرق هذه الصحف ؛ وفى رواية أنه غسلها ، وفى رواية أنه شققها . ولا مانع من الجمع بين هذه الروايات الثلاث بأنه غسلها أولا ، ثم شققها ثانيا ، ثم أحرقها أخيرا ، مبالغةً فى التكريم والمحو ، كما روى أنه قال : إنما فعلت هذا لأنى خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب ، أى يظن أن فيها ما يخالف المصاحف ، فإنها كانت صحفاً منثورة ، لا تأخذ شكل المصاحف المجموعة المنظومة .

عدد المصاحف

اختلفوا فى عدد المصاحف التى استنسخها عثمان رضى الله عنه ، فصوّبَ ابن عاشر

أنها ستة : المكى، والشامى ، والبصرى ، والكوفى ، والمدنى العام الذى سيره عثمان رضى الله عنه من محل نسخه إلى مقره ، والمدنى الخاص به الذى حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام. وقال صاحب زاد القراء : لما جمع عثمان القرآن فى مصحف سماه الإمام ونسخ منه مصاحف فأنفذ منها مصحفاً إلى مكة ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، ومصحفاً إلى الشام ، وحبس مصحفاً بالمدينة ،وهذا القول كسابقه فى أنها ستة ، وذهب السيوطى وابن حجر إلى أنها خمسة . ولعلهما أرادا بالخمسة ماعدا المصحف الإمام فيكون الخلاف لفظيا بينه وبين سابقيه .

وقيل إنها ثمانية ، خمسة متفق عليها وهى الكوفى والبصرى والشامى والمدنى العام والمدنى الخاص ، وثلاثة مختلف فيها وهى المكى ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن . وقيل إن عثمان رضى الله عنه أنفذ إلى مصر مصحفا .

ولعل القول بأن عددها ستة ، هو أولى الأقوال بالقبول . والمفهوم على كل حال أن عثمان رضى الله عنه ، قد استنسخ عدداً من المصاحف يفى بحاجة الأمة وجمع كلمتها وإطفاء فتنتها . ولا يتعلق بتعيين العدد كبير غرض . فيختلفوا فى هذا التعيين ماوسعتهم أدلة ذاك الاختلاف . والله تعالى أعلم بالحقيقة .

كيف أنفذ عثمان المصاحف العثمانية ؟

كان الاعتماد فى نقل القرآن - ولا يزال - على التلقى من صدور الرجال ثقةً عن ثقةٍ وإماماً عن إمام إلى النبى ﷺ . لذلك اختار عثمان حُفَّاظًا يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أُصولا ثوانى مبالغة فى الأمر ، وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين . فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته فى الأكثر الأغلب روى أن عثمان رضى الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدنى ، وبعث عبدالله بن السائب

مع المكى ، والمغيرة بن شهاب مع الشامى ، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، وعامر ابن عبد القيس مع البصرى . ثم نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما فى مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم النبى ﷺ فقاموا فى ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه من فم النبى ﷺ . ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط ، حتى صاروا فى هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقى قراءتهم واعتماد روايتهم . ومن هنا نسبت القراءة إليهم ، وأجمعت الأمة ـ وهى معصومة من الخطأ فى إجماعها ـ على مافى هذه المصاحف ، وعلى ترك كل ماخالفها من زيادة ونقص وإبدال ، لأنه لم يثبت عندهم ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن .

أين المصاحف العثمانية الآن ؟

ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلا عن تعيين أمكنتها. وقصارى ماعلمناه عنها أخيراً أن ابن الجزرى رأى فى زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى فى مصر مصحفاً أيضاً .

أما المصاحف الأثرية التى تحتويها خزائن الكتب والآثار فى مصر ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيراً فى صحة هذه النسبة إلى عثمان رضى الله عنه ، لأن بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور ، ولبيان أعشار القرآن، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم إن المصحف المحفوظ فى خزانة الآثار بالمسجد الحسينى والمنسوب إلى عثمان رضى الله عنه ، مكتوبٌ بالخط الكوفى القديم ، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً. ورسمه يوافق رسم المصحف المدنى أو الشامى حيث رسم فيه كلمة «منْ يرتددْ» من سورة المائدة بدالين اثنين

مع فكّ الإدغام ، وهى فيها بهـذا الرسم . فأكبر الظن أن هـذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها . وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة ويقال إن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كتبه بخطه، يلاحظ فيه أنه مكتوب بذلك الخط الكوفى القديم . بيد أنه أصغر حجما ، وخطه أقل تجويفا من سابقه ، ورسمه يوافق غير المدنى والشامى من المصاحف العثمانية ، حيث رسمت فيه الكلمة السابقة « منْ يرتدّ » بدال واحدة مع الإدغام ، وهى فى غيرهما كذلك . فمن الجائز أن يكون كاتبه عليا ؛ أو يكون قد أمر بكتابته فى الكوفة.

ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئاً مادام المعول عليه هو النقل والتلقى ثقة عن ثقة، وإماماً عن إمام، إلى النبى ﷺ . وذلك متواتر مستفيض على أكمل وجه فى القرآن حتى الآن .

على أن المصاحف العثمانية نسخت على غرارها الآلاف المؤلفة فى كل عصر ومصر ، مع المحافظة على الرسم العثمانى ؛ كما سيجىء إن شاء الله ، فاصبر « وما صبرك إلّا بالله » .

المصاحف فى دور التجويد والتحسين :

كانت المصاحف العثمانية أشبه بماء نزل من السماء ، فأصاب أرضاً خصبة صالحة ، ولكنها ظامئة متعطشة . فما كاد يصل إليها الماء حتى اهتزّت وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ! كذلك المصاحف الشريفة ، ما كاد عثمان يرسلها إلى الآفاق الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة من كل صوب وحدب ، وحتى اجتمعت عليها الكلمة فى الشرق والغرب ، وحتى نسخت على غرارها آلاف مؤلفة من المصاحف المقدسة فى كل جيل وقبيل .

ومما يلفت النظر أن يد التجويد والصَّقل والتحسين أخذت تتناول المصاحف على ألوان شتى وضروب متنوعة ، فهناك تحسينات مادية أو شكلية ترجع إلى النسخ والطبع والحجم والورق والتجليد والتذهيب ونحو ذلك. وهذه لا تعنينا كثيراً، لأن أمرها هيِّن، وإن كان فيها بعض التيسير أو التشويق إلى القرآن الكريم . وهناك تحسينات معنوية أو جوهرية ترجع إلى تقريب نطق الحروف وتمييز الكلمات وتحقيق الفروق بين المتشابهات عن طريق الإعجام والشكل ونحوهما . وفى هذه نسوق الحديث .

الإعجام

إعجام الكتاب : نَقْطه . قال فى القاموس: « أَعْجَمَ فُلَانٌ الْكَلَامَ . ذَهَبَ به إلى الْعُجْمَةِ ، والكتابَ : نَقَطَهُ كعجَمَهُ وعجَّمَهُ (أى بتخفيف العين وتضعيفها) » .

والمعروف أن المصحف العثمانى لم يكن منقوطاً ، وذلك للمعنى الذى أسلفناه ، وهو بقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها . بيد أن المؤرخين يختلفون ، فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفاً قبل الإسلام ولكن تركوه عمداً فى المصاحف للمعنى السابق . ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف إلا من بعدُ على يد أبى الأسود الدؤَلِىّ .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن إعجام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا فى عهد عبدالملك بن مروان إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت ، واختلط العرب بالعجم، وكادت العجمة تمسُّ سلامة اللغة ، وبدأ اللبس والإشكال فى قراءة المصاحف يُلِحُّ بالناس حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهى غير معجمة . هنا لك رأى بثاقب نظره أن يتقدم للإنقاذ ، فأمر الحجاج أن يُعنى بهذا الأمر الجلَل ، وندب الحجاجُ ــ طاعةً لأمير المؤمنين ــ رجلين جليلين يعالجان هذا المشكل ، هما نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدوانى . وكلاهما كفء قدير على ما نُدب له ،

إذ جمعا بين العلم والعمل ، والصلاح والورع ، والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن . وقد اشتركا أيضاً فى التلمذة والأخذ عن أبى الأسود الدؤلى .

ويرحم الله هذين الشيخين ، فقد نجحا فى هذه المحاولة ، وأعجما المصحف الشريف لأول مرة ، ونقطا جميع حروفه المتشابهة ، والتزما ألا تزيد النقط فى أىّ حرف على ثلاث . وشاع ذلك فى الناس بعد ، فكان له أثره العظيم فى إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف .

وقيل : إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ، وإن ابن سيرين كان له مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر . ويمكن التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية ، ثم تبعه ابن سيرين ، وأن عبدالملك أول من نقط المصحف ، ولكن بصفة رسمية عامة ، ذاعت وشاعت بين الناس ، دفعاً للبس والإشكال عنهم فى قراءة القرآن .

شكل المصاحف .

شكل الكتاب فى اللغة رديف لإعجامه . وقد عرفت أن الإعجام هو النقط . قال صاحب القاموس مانصه : « .. والكتابَ (أى وشَكَلَ الكتابَ) أَعْجَمهُ ، كأَشْكَلَهُ كأنه أزال عنه الإشكال) » اه . ثم شاع استعمال الشكل فى خصوص مايعرض للحروف من حركة أو سكون . والمناسبة بين المعنيين ظاهرة ، لأن فى كل منهما إزالة لإشكال الحرف ودفعاً للبس عنه .

واتفق المؤرخون على أن العرب فى عهدهم الأول ، لم يكونوا يعرفون شكل الحروف والكلمات فضلاً عن أن يشكلوها . ذلك لأن سلامة لغتهم ، وصفاء سليقتهم وذلاقة ألسنتهم

كل أولئك كان يغنيهم عن الشكل . ولكن حين دخلت الإسلام أمم جديدة ؛ منهم العجم الذين لا يعرفون العربية ، بدأت العجمة تحيف على لغة القرآن . بل قيل إن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » . فقرأها بجر اللام من كلمة « رسوله » . فأفزع هذا اللحنُ الشنيع أبا الأسود وقال : عزَّ وجهُ الله أن يبرأ من رسوله . ثم ذهب إلى زياد والى البصرة وقال له وقد أجبتك إلى ماسألت . وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث . وهنا جَدَّ جِدُّه ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسر نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين .

طفق الناس ينهجون منهجه ، ثم امتدَّ الزمان بهم فبدءوا يزيدون ويبتكرون ، حتى جعلوا للحرف المشدَّد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرَّة فوقها أو تحتها أو وسطها ، على حسب ماقبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة . ودامت الحال على هذا حتى جاء عبد الملك ابن مروان ، فرأى بنافذ بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها ، وأن يتخذ سبيله إلى ذلك التمييز بالإعجام والنقط ، على نحو ماتقدم تحت العنوان السابق . وهنالك اضطرَّ أن يستبدل بالشكل الأول الذى هو النقط ، شكلاً جديداً هو مانعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون . والذى اضطره إلى هذا الاستبدال ، أنه لو أبقى العلامات الأولى على ماهى عليه نقطًا ، ثم جاءت هذه الأخرى نقطًا كذلك لتشابها واشتبه الأمر . فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة . وَنِعِمَّا فَعَلَ ! .

حكم نقط المصحف وشكله

كان العلماء فى الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله ، مبالغةً منهم فى المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفًا من أن يؤدى ذلك إلى التغيير فيه .

ومن ذلك ماروى عن ابن مسعود أنه قال : جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء . وما روى عن ابن سيرين أنه كره النقط والفواتح والخواتم إلى غير ذلك .

ولكن الزمان تغيّر ـ كما علمت ـ فاضطر المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله لنفس ذلك السبب أى للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدى تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فيه .

فمعقولٌ حينئذ أن يزول القول بكراهة ذينك الإعجام والشكل ، ويحلّ محلّه القول بوجوب أو باستحباب الإعجام والشكل . لما هو مقرر من أن الحكم يدور مع علّته وجوداً وعدماً . قال النووى فى كتابه التبيان مانصه : قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فإنه صيانة من اللحن فيه . وأما كراهة الشعبي والنخعى النقط ، فإنما كرهاه فى ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه . وقد أُمن ذلك اليومَ فلا يمنع من ذلك لكونه محدَثاً ، فإنه من المحدَثات الحسنة ، فلا يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك . والله أعلم اه .

تجزئة القرآن :

كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة التى نذكرها ، كما كانت مجردة من النقط والشكل . ولما امتدّ الزمان بالناس جعلوا يَفْتَنُّونَ فى المصاحف وتجزئتها عدّة تجزئات ، مختلفة الاعتبارات . فمنهم من قسم القرآن ثلاثين قسماً ، وأطلقوا على كل قسم منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره ، حتى إذا قال قائل : قرأت جزءاً من القرآن ، تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التى قسموا المصحف إليها . وجرى على ذلك أصحاب الربَعات ، إذ طبعوا كل جزء فى نسخة مستقلة ، ومجموع النسخ الجامعة للقرآن كله يسمونه (ربْعة) . ويوجد من هذا القبيل أجزاء مستقلة بالطبع بأيدى صغار التلاميذ فى المدارس وغيرهم

ومن الناس مَنْ قسموا الجزء إلى حزبين، ومَنْ قسموا الحزب إلى أربعة أجزاء سموا كل واحد منها رُبُعاً .

ومن الناس مَنْ وضعوا كلمة خمس ، عند نهاية كل خمس آيات من السورة، وكلمة عشر عند نهاية كل عشر آيات منها ، فإذا انقضت خمس أخرى بعد العشر أعادوا كلمة خمس، فإذا صارت هذه الخمس عشراً أعادوا كلمة عشر وهكذا دواليك إلى آخر السورة. وبعضهم يكتب فى موضع الأخماس رأس الخاء بدلًا من كلمة خمس ، ويكتب فى موضع الأعشار رأس العين بدلاً من كلمة عشر . وبعض الناس يرمز إلى رءوس الآى برقم عَدَدِها من السورة أو من غير رقم . وبعضهم يكتب فواتح للسور كعنوان ينوِّه فيه باسم السورة وما فيها من الآيات المكية والمدنية إلى غير ذلك .

وللعلماء فى ذلك كلام طويل، بين الجواز بكراهة والجواز بلا كراهة، ولكن الخطب سهل على كل حال ، مادام الغرض هو التيسير والتسهيل ، ومادام الأمر بعيداً عن اللبس والتزيُّد والدخيل . « وَعَلَى ٱللهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ » .

احترام المصحف :

ليس فيما نرى ونسمع ، كتابٌ أُحيط بهالةٍ من الإجلال والتقديس ، كالقرآن الكريم . حتى لقد وصفه الحق جل شأنه بأنه كتاب مكنون ، وحكم بأنه لا يمسُّه إلا المطهرون، وأقسم على ذلك إذ يقول : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ » .

وحتى نهى الرسول ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو ، إذا خيف وقوع المصحف فى أيديهم . والحديث مَرْوِىٌّ فى الصحيحين .

وحتى أفتى العلماء بكفر من رمى به فى قاذروة ، وبحرمة من باعه لـكافر ولو ذِمِّيًّا ، وقالوا بوجوب الطهارة لمسه وحمله ، وكذلك مايتصل به من خريطة وغُلاف وصندوق على الصحيح .

واستحبوا تحسين كتابته ، وإيضاحها ، وتحقيق حروفها .

قال النووى : ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قُدِمَ به عليه ، لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار ، فالمصحف أولى اه .

رزقنا الله الأدب معه ومع كتابه ، ومع كافَّة من اصطفاهم من عباده ، آمين .

المبحث الحادى عشر

فى القراءات، والقُرَّاء، والشبهات التى أثيرت فى هذا المقام

---

١ — القراءات

القراءات جمع قراءة، وهى فى اللغة مصدر سماعى لقرأ. وفى الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره فى النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة فى نطق الحروف أم فى نطق هيئاتها. قال السيوطى عند كلامه على تقسيم الإسناد إلى عالٍ ونازل مانصه: ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه. فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم؛ واتفقت عليه الروايات والطرق عنه، فهو قراءة. وإن كان للراوى عنه، فرواية. أو لمن بعده فنازلا، فطريق. أولا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارئ فيه، فوجه. اهـ.

وفى منجد المقرئين لابن الجزرى مانصُّه: «القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعَزْو النّاقلة... والمُقرِئ: العالم بها رواها مشافهة، فلو حفظ التيسير مثلا ليس له أن يُقرِئ بما فيه إن لم يُشافهه من شُوفِهَ به مسلسلا، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة. والقارئ المبتدئ من شرع فى الإفراد إلى أن يُفرد ثلاثاً من القراءات. والمنتهى مَنْ نقل من القراءات أكثرها وأشهرها» اهـ.

نشأة علم القراءات

قلنا غير مرة: إن المعوّل عليه فى القرآن الكريم إنما هو التلقى والأخذ، ثقةً

---

(١) قال فى القاموس: «الناقلة: ضد القاطنين».

عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى النبى ﷺ ، وإن المصاحف لم تكن ولن تكون هى العمدة فى هذا الباب . إنما هى مرجع جامع للمسلمين ، على كتاب ربهم ، ولكن فى حدود ما تدلُّ عليه وتعيِّنه ، دون ما لا تدل عليه ولا تعيِّنه . وقد عرفت أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة ، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه فى مصحف ، ثم كتبت فى مصحف آخر بوجه آخر وهلم جرا . فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقى هو العمدة فى باب القراءة والقرآن .

وقلنا : إن عثمان رضى الله عنه حين بعث المصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته فى الأكثر الأغلب ، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع فى القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أَخْذهم عن رَسُول الله ﷺ ، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا فى البلاد وهم على هذه الحال ، فاختلف بسبب ذلك أَخْذُ التابعين عنهم ، وأخذُ تابع التابعين عن التابعين ، وهلم جراً حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القرّاء المشهورين الذين تخصَّصوا وانقطعوا للقراءات يضْبِطونها ويُعْنَوْنَ بها وينشرونها كما يأتى. هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الاختلاف يرجع فى الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم . لكنه — على كل حال — اختلافٌ فى حدود السبعة الأحرف التى نزل عليها القرآن كلُّها من عند الله ، لا من عند الرسول ولا أحدٍ من القراء أو غيرهم .

وللنويرى كتاب مخطوط بدار الكتب فى مصر ، وضعه شرحاً للطيِّبة فى القراءات العشر ، يجمل بى أن أنقل إليك منه هنا الكلمة الآتية :

« والاعتماد فى نقل القرآن على الحفّاظ . ولذلك أرسل (أى عثمان رضى الله عنه) كل مصحف مع مَنْ يوافق قراءته فى الأكثر وليس بلازم . وقرأ كل مصرٍ بما فى مصحفهم ، وتلقوا مافيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ . ثم تجرّد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم فى ضبطها ، وأتعبوا نهارهم فى نقلها ، حتى صاروا فى ذلك أئمةً للاقتداء ، وأنجماً للاهتداء ، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ، ولم يختلف عليهم اثنان فى صحة روايتهم ودرايتهم . ولتصدّيهم للقراءة نُسبت إليهم ، وكان المعوّل فيها عليهم .

« ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا ، وفى البلاد انتشروا ، وخلفهم أمم بعد أمم ، وعرفت طبقاتهم ، واختلفت صفاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدراية ، ومنهم المحصِّل لوصف واحد . ومنهم المحصل لأكثر من واحد ، فكثر بينهم لذلك الاختلاف ، وقلّ منهم الائتلاف .

فقام عند ذلك جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبالغوا فى الاجتهاد بقدر الحاصل ، وميّزوا بين الصحيح والباطل ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعَزَوْا الأوجه والروايات ، وبيّنوا الصحيح والشاذّ ، والكثير والفاذّ ، بأصول أصّلوها ، وأركان فصّلوها ، الخ » اهـ .

طبقات الحفّاظ المقرئين الأوائل .

ولقد اشتهر فى كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقرائه .

فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن عثمان ، وعلى ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية .

والمشتهرون من التابعين : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز وسليمان ابن يسار ، وأخوه عطاء ، وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهرى ،

وعبد الرحمن بن هُرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارىء . (وكل هؤلاء كانوا بالمدينة) .

وعطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وابن أبي مُلَيكة ، وعبيد بن عُمَير ، وغيرهم . (وهؤلاء كانوا بمكة) .

وعامر بن عبد القيس ، وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يَعمَر (١) وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وغيرهم . (وهؤلاء كانوا بالبصرة) .

وعلقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعُبَيدة ، والربيع بن خُثَيم ، والحارث بن قيس وعمر بن شُرَحبيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وزِرّ بن حبيش ، وعبيد ابن فَضَلة ، وأبو زُرعة بن عمرو ، وسعيد بن جبير ، والنخعى ، والشعبى . (وهؤلاء كانوا بالكوفة) .

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومى صاحب مصحف عثمان ، وخُلَيد بن سعيد صاحب أبي الدرداء ، وغيرهما . (وهؤلاء كانو بالشام) .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويُعنَوْنَ بها . فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نِصَاح (٢) ، ثم نافع بن أبي نعيم .

وكان بمكة عبد الله بن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن مُحَيْصن .

وكان بالكوفة يحيي بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائى .

---

(١) قال فى القاموس : « يَعْمَرُ كيَفْعَل أسماء » .

(٢) قال فى القاموس : وَنِصَاحَةُ وَالدُّشَيْبَةَ القارى » هكذا بالتاء المربوطة . ولكن الذى فى كتب القراء كالنشر وطبقات القراء « نِصاح » من غير تاء مربوطة .

وكان بالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمرو ، وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجَحْدَرى ، ثم يعقوب الحضرمى .

وكان بالشام عبد الله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلابى ، وإسماعيل بن عبد الله ابن المهاجر . ثم يحيى بن الحارث الذِّمارى ، ثم شريح بن يزيد الحضرمى .

وقد لمع فى سماء هؤلاء القراء نجوم عدّة مهروا فى القراءة والضبط حتى صاروا فى هذا الباب أئمة يُرحل إليهم ، ويُؤخذ عنهم .

أعداد القراءات :

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات فقيل : القراءات السبع ، والقراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة .

وأحْظَى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن ، القراءاتُ السبع .

وهى القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم : نافع ، وعاصم ، وحمزة ، وعبد الله بن عامر ؛ وعبد الله بن كثير ؛ وأبو عمرو بن العلاء ، وعلى الكسائى . والقراءات العشر هى هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة : أبى جعفر ، ويعقوب ، وخلَف .

وعلم القراءات أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . ثم أهَلَّ عهد التدوين للقراءات ولم يكنْ لهذه السبعة بهذا العنوان وجود أيضاً ، بل كان أول من صنّف فى القراءات أمثال أبى عبيد القاسم بن سلاّم ، وأبى حاتم السجستانى ، وأبى جعفر الطبرى ، وإسماعيل القاضى . وقد ذكروا فى القراءات شيئاً كثيراً ، وعرضوا روايات تُرْبِى على أضعاف قراءة هؤلاء السبعة .

ثم اشتهرت قراءات هؤلاء السبعة بعد ذلك على رأس المائتين فى الأمصار الإسلامية . فكان الناس فى البصرة على قراءة أبى عمرو ويعقوب ، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم ، وبالشام على قراءة ابن عامر ، وبمكة على قراءة ابن كثير ، وبالمدينة على قراءة نافع .

ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دون أن تأخذ مكانها من التدوين حتى خاتمة القرن الثالث، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس فجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائى وحذف يعقوب.

وجاء اقتصاره على هؤلاء السبعة مصادفة واتفاقاً، من غير قصد ولا عمد. ذلك أنه أخذ على نفسه ألا يروى إلا عمن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة، واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقى منه. فلم يتم له ما أراده هذا إلا عن هؤلاء السبعة وحدهم. وإلا فأئمة القراء لا يحصون كثرة، وفيهم من هو أجلُّ من هؤلاء قدراً، وأعظم شأناً.

وإذن فليس اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة بحاصرٍ للقراء فيهم، ولا بملزم أحداً أن يقف عند حدود قراءاتهم. بل كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة للضابط المشهور وجب قبولها(١).

ومن هنا كانت القراءات العشر. بزيادة قراءات يعقوب، وأبى جعفر، وخلف. على قراءات أولئك السبعة.

وكانت القراءات الأربع عشرة، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة، وهى قراءات الحسن البصرى، وابن مُحَيصن، ويحيى اليزيدى، والشنبوذى.

---

(١) أى إن وجدتْ الآن. ولكن هيهات أن توجد، بعد أن استقر الأمر فى الواقع وعرف أنه ليس بعد القراءات العشر التى بين أيدينا قراءة أخرى متواترة. وسيستقبلك تحقيقه فيما بعدُ فانتظره.

فوائد اختلاف القراءات

استوفينا هذه النقطة بياناً فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف (من ص١٣٨ — ص ١٤٢) .

أنواع اختلاف القراءات

تكلمنا على هذا الموضوع فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً (من ص ١٧٨ — ص ١٨٠) .

ضابط قبول القراءات

لعلماء القراءات ضابط مشهور ، يزنون به الروايات الواردة فى القراءات فيقول: كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً، ووافقت العربية ولو بوجه ، وصح إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء ، فهى القراءة الصحيحة التى لايجوز ردُّها، ولايحل إنكارها ، بل هى من الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن .

وهذا الضابط نظمه صاحب الطِّيبة فقال :

« وكلُّ ماوافقَ وجهَ النحوِ وكان للرسم احتمالاً يحوى
وصحَّ إسناداً ، هو القرآنُ فهذه الثلاثةُ الأركانُ
وحيثما يختلُّ ركنٌ أثبتِ شذوذَهُ لوَ أنه فى السبعةِ »

والمراد بقولهم : « ماوافق أحد المصاحف العثمانية » أن يكون ثابتاً ولو فى بعضها دون بعض . كقراءة ابن عامر : « قالوا اتخذَ اللهُ ولداً » من سورة البقرة ، بغير واو . وكقراءته : « وبالزبر وبالكتابِ المنيرِ » بزيادة الباء فى الاسمين ، فإن ذلك ثابتٌ فى

المصحف الشامى . وكقراءة ابن كثير : « جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » فى الموضع الأخير من سورة التوبة ، بزيادة كلمة « منْ » فإن ذلك ثابتٌ فى المصحف المكى .

والمراد بقولهم : « ولو تقديراً » أنه يكفى فى الرواية أن توافق رسم المصحف ، ولو موافقة غير صريحة ، نحو : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ، فإنه رسم فى جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة « مالك » . فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتب « مَلِكِ النَّاسِ » ، وقراءة الألف تحتمله تقديراً كما كتب : « مَالِكَ الْمُلْكِ » » ، فتكون الألف حذفت اختصاراً ، كما حذفت فى حالات كثيرة ألمعنا إليها سابقاً فى قواعد رسم المصحف . أما الموافقة الصريحة فكثيرة نحو قوله سبحانه : « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا » فإنها كتبت فى المصحف بدون نقط . وهنا وافقتْ قراءةَ « نُنْشِزُهَا » بالزاى وقراءة « نُنْشِرُهَا » بالراء .

ومن بعد نظر الصحابة فى رسم المصحف أن الكلمة التى رُويت على الأصل وعلى خلاف الأصل كانوا يكتبونها بالحرف الذى يخالف الأصل ، ليتعادل مع الأصل الذى لم يكتب فى دلالة الصورة الواحدة على القراءتين ، إذ يدل على إحداهما بالحرف وعلى الثانية بالأصل . نحو كلمتى (الصراط ، والمصيطرون) بالصاد المبدلة بالسين ، فإنهم كتبوهما بالصاد وعدلوا عن السين التى هى الأصل ، لتكون قراءة السين وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام أيضاً محتملة . ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات هذا الاحتمال وعدَّت قراءة غير السين مخالفةً للرسم والأصل كليهما . ولذلك كان الخلاف المشهور فى بصطة الأعراف دون بسطة البقرة ؛ لكون حرف البقرة كتب بالسين وحرف الأعراف كتب بالصاد

وللعلامة النويرى على الطيبة كلمة نفيسة فى هذا الموضوع إذ يقول مانصه :

« اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها. والعثمانى هو الذى رُسم فى المصاحف العثمانية . وينقسم إلى قياسيٍ ، وهو ما وافق اللفظ ، وهو معنى قولهم : تحقيقاً . وإلى سماعيٍ وهو ما خالف اللفظ ، وهو معنى قولهم : تقديراً وإلى احتمالى وسيأتى .

ومخالفةُ الرسم اللفظَ محصورةٌ فى خمسة أقسام ، وهى الدلالة على البدل نحو: «الصراطَ» وعلى الزيادة نحو : « ملاك » ، وعلى الحذف نحو : « لـكنا هو » ، و على الفصل نحو : «فمالِ هؤلاء» ، وعلى أن الأصل الوصل نحو : «ألّا يسجدوا» فقراءة الصاد والحذف والإثبات والفصل والوصل خمستها وافقها الرسم تحقيقاً ،وغيرها تقديراً ، لأن السين تبدل صاداً قبل أربعة أحرف منهـا الطـاء كما سيأتى ، وألف مالك عند المثبت زائدة ، وأصل « لـكنَّا » الإثبات ، وأصل « فمالِ » الفصل ، وأصل « ألّا يسجدوا » الوصل . فالبدل فى حكم المبدل منه ، وكذا الباقى . وذلك ليتحقق الوفاق التقـديرى ، لأن اختلاف القراءتين إذا كان بتغايرُ دون تضادٍ ولا تناقض فهو فى حكم الموافق ، وإذا كان بتضادٍ أو تناقض ففى حكم المخالف. والواقع الأول فقط ، وهو الذى لا يلزم من صحة أحد الوجهين فيه بطلان الآخر .

وتحقيقه : أن اللفظ تارة يكون له جهة واحدة ، فيرسم على وفقها ، فالرسم هنا حصر جهة اللفظ ، فمخالفه مناقض . وتارة يكون له جهات فيرسم على إحداها ، فلا يحصر جهة اللفظ، فاللافظ به موافق تحقيقـاً ، وبغيره تقـديراً ، لأن البدل فى حكم المبـدَل منـه . وكذا بقية الخمسة .

والقسم الثالث ما وافق الرسم احتمالا . ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيـه بالحركة والسكون نحو « القدُس » ، وبالتخفيف والتشديد نحو « ينشركم » بيونس ، وبالقطع والوصل للمعبر عنه بالشكل نحو « ادخلوا » بغافر ، وباختلاف الإعجام نحو « يعلمون » و « يفتح » ، وبالإعجام والإهمال نحو « ننشِزُها » وكذا المختلف فى كيفيـة لفظهـا

كالمدغَم والمسهَّل والمُمَال والمرقّق والمدوَّر ، فإن المصاحف العثمانية هكذا كلها ، لتجردها عن أوصافها .

فقول الناظم : «وكان للرسم احتمالاً» دخل فيه ماوافق الرسم تحقيقاً بطريق الأولى، وسواء وافق كل المصاحف أو بعضها، كقراءة ابن عامر « قالوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً » «وبالزُّبُرِ وبالكتابِ » فإنه ثابت بالشامى ، وكابن كثير فى « جنَّاتٍ تجرِى من تحتِهَا ٱلأَنْهَارُ » بالتوبة ، فإنه ثابت فى الكوفى ، إلى غير ذلك .

وقوله « احتمالاً » يحتمل أن يكون جعله مقابلاً للتحقيق . فتكون القسمة عنده ثنائية ، وهو التحقيق والاحتمالى ، ويكون قد أدخل التقديرى فى الاحتمالى ، وهو الذى فعله فى نَشْره . ويحتمل أن يكون ثلَّث القسمة ، ويكون حكم الأوَّلين ثابتاً بالأولويَّة .

ولولا تقدير موافقة الرسم للزم الكل مخالفة الكل فى نحو « السَّمٰوات والصَّالحات واللّيل » .

ثم إن بعض الألفاظ يقع فيه موافقة إحدى القراءتين أو القراءات تحقيقاً والأخرى تقديراً ، نحو « مَلِك » ، وبعضها يقع فيه موافقة القراءتين أو القراءات تحقيقاً ، نحو « أنْصَاراً لِلّهِ ، فَنَادته ٱلملائِكَةُ ، ويَغفرْ لكم ، وهيتَ لك » .

واعلم أن مخالف صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك ، لا يُعدُّ مخالفاً إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة . ألا ترى أنهم يعدُّون إثبات ياءات الزوائد وحذف ياء « تَسْأَلْنِى » بالكهف ، وقراءة « وَأَكُونَ مِنْ الصَّالحينَ » ونحو ذلك من مخالف الرسم غيرَ مردود ، لرجوعه لمعنى واحد ، وتمشيه مع صحة القراءة وشهرتها . بخلاف زيادة كلمة ونقصانها ، وتقديمها وتأخيرها ، حتى ولوكانت حرف معنى، فإن له حكم الكلمة ، ولا نسوغ مخالفة الرسم فيه . وهذا هو الحدُّ الفاصل فى حقيقة اتباع الرسم ومخالفته » اهـ

وقولهم فى الضابط المذكور : « وافق العربية ولو بوجه » يريدون وجهاً من وجوه قواعد اللغة سواء أكان أفصح أم فصيحاً ، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح وهـذا هو المختار عند المحققين فى ركن موافقة العربية .

هاك الحافظ أبا عمرو والدانى فى كتابه جامع البيان بعد ذكره إسكان كلمة « بَارِئْكُمْ » و « يأمُرْكُمْ » فى قراءة أبى عمرو ، وبعد حكاية إنكار سيبويه لذلك ، يقول ما نصه : « والإسكان أصحُّ فى النقل وأكثر فى الأداء . وهو الذى أختاره وآخذ به ، إلى أن قال : وأئمة القراء لا تعتمد فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقْيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأَثر والأَصح فى النقل . والروايةُ إذا ثبتت عندهم لا يردُّها قياس عربية ولا فُشوُّ لغة لأن القراءة سُنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » اه

(قلت) وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعده من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحَكَم على علماء النحو وما قعَّدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا هم بقواعدهم إليه ، لا أن نرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة نحكِّمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية ، وإهمالاً للأَصل فى وجوب الرعاية !

وقولهم فى ذلك الضابط : «وصحّ إسناده» يريدون به أن يروى تلك القراءةَ عدلٌ ضابط عن مثله وهكذا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من غير شذوذ ولا علة قادحة . بل شرطوا فوق هذا أن تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، ولا مما شذَّ به بعضهم . والمحقق ابن الجزرى يشترط التواتر ويصرح به فى هذا الضابط ، ويعتبر أن ما اشتهر واستفاض موافقاً الرسم والعربية فى قوة المتواتر فى القطع بقرآنيته ، وإن كان غير متواتر .

منطوق هذا الضابط ومفهومه :

يدل هذا الضابط بمنطوقه ، على أن كل قراءة اجتمع فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بقبولها ، بل لقد حكموا بكفر من جحدها[1] . سواء أكانت تلك القراءة مروية عن الأئمة السبعة ، أم عن العشرة ؛ أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين . ويدل هذا الضابط بمفهومه على أن كل قراءة لم تتوافر فيها هذه الأركان الثلاثة . يحكم بعدم قبولها . وبعدم كفر من يجحدها . سواء أكانت هذه القراءة مروية عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم ، ولو كان أكبر منهم مقاماً ، وأعظم شأناً . هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف ، كما صرح به الدانى ، ومكى ، والمهدوى ، وأبو شامة . وناهيك بهؤلاء الأربعة أنهم أئمة فى قراءات القرآن وعلوم القرآن .

قال أبو شامة فى كتابه المرشد الوجيز ما نصه : « فلا ينبغى أن يغترّ بكل قراءة تُعزى إلى واحدٍ من هؤلاء الأئمة السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة ، وأنها كذلك أنزلت ، إلا إذا دخلت فى ذلك الضابط . وحينئذ فلا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره ؛ ولا يختصُّ ذلك بنقلها عنهم ، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة ؛ فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تُنسب إليه . والقراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم ، منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ . غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه فى قراءاتهم ، تركن النفس إلى ما نُقل عنهم فوق ما نُقل عن غيرهم » اه . لكن رأى أبى شامة وأضرابه فى القراءات السبع غير سديد كما سيجئ .

---

(١) قد يقال : لا يسلم لهم ذلك إلا إن كانت القراءة متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ويمكن أن يجاب بأن هذه الأركان الثلاثة أمارة التواتر والعلم من الدين بالضرورة . كما يأتى تفصيله . وإذن يكون الحكم صحيحاً .

ثم إن مفهوم هـذا الضابط المحـكوم عليه بما ترى تنضوى تحته بضع صور يخالف بعضها حكم بعض تفصيلاً ، وإن اشتركت كلها فى الحـكم عليها إجمالاً بعدم قبولها كما علمت .

ذلك أن الضابط المذكور يصدق مفهومه بنفى الأركان الثلاثة ، ويصدق بنفى واحد واثنين منها . ولـكل حالة حكم خاصٌ تعلمه من عبارة الإمام مكى التى نسوقها إليك ونصها : ـ « فإن سأل سائل : ما الذى يقبل من القراءات الآن فيقرأ به ؟ وما الذى يقبل ولا يقرأ به ؟ وما الذى لا يقبل ولا يقرأ به ؟ فالجواب أن جميع ما روى من القراءات على أقسام : قسم يقرأ به اليوم : وذلك ما اجتمع فيـه ثلاث خلال ، وهن أن ينقل عن الثقات عن النبى ﷺ ، ويكون وجهـه فى العربية التى نزل بها القرآن سائغاً ، ويكون موافقـاً لخط المصحف .

فإذا اجتمعت فيه هـذه الخلال الثلاث قرئ به وقطع على تعينه وصحته وصدقه ، لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفر من جحده . قال : والقسم الثانى : ماصحّ نقـله عن الآحاد وصحّ وجهـه فى العربيـة وخالف لفظه خط المصحف . فهـذا يُقبل ولا يُقرأ به[(١)] لعلتين : إحداهما أنه لم يُؤخذ عن إجماع ، إنما أُخذ أخبار الآحاد ، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد والعلة الثانية أنه مخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع على تعينه وصحته ، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ولا يكفر من جحده ،

---

(١) ومعنى هذا أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعى يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية ، ولا يقرأ به على أنه قرآن ، ولا ليوهم القارئ أحـداً أنه قرآن . قال النويرى : « اعـلم الذى استقرّت عليـه المذاهب وآراء العلمـاء أن من قرأ بها (أى الشواذ) غير معتقد أنها قرآن ولا موهم أحداً ذلك بل لمافيهامن الأحكام =

ولبئس ماصنع إذا جحده . قال : والقسم الثالث : هو مانقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له فى العربية فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف . قال : ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصاراً » اهـ .

ثم انبرى المحقق ابن الجزرى لذاك التمثيل الذى تركه مكى اختصاراً فقال : —

(مثال القسم الأول) : ملك ومالك ، ويخدعونَ ، ويخادعون ، وأوصى ووصى ، ويطوّعَ ، وتطوّع ونحو ذلك من القراءات المشهورة .

(ومثال الثانى) قراءةُ ابن مسعود وأبى الدرداء : « والذكر والأنثى » فى قوله تعالى : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » بحذف لفظ « ماخلقَ » . وقراءةُ ابن عباس : « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالحةٍ غَصْباً » ، بإبدال كلمة أمام من كلمة وراء ، وبزيادة كلمة صالحة « وأما الغلامُ فكانَ كافراً » بزيادة كلمة « كافراً » ونحو ذلك مما ثبت برواية الثقات إلى أن قال :

(ومثال القسم الثالث) مما نقله غير ثقة كثيرٌ كما فى كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف كقراءة ابن السميفع وأبى السّمّال وغيرهما فى « نُنَجِّيكَ[1] بِبَدَنِكَ » بالجيم المعجمة « ولمنْ خَلَفَكَ آيةً » بفتح اللام أى من قوله « خلفكَ » بسكونها . وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه والتى جمعها أبو الفضل محمد ابن جعفر الخزاعى ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى وغيره « إِنَّما يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ

= الشرعية عند من يحتجُّ بها أو الأحكام الأدبية ؛ فلا كلام فى جواز قراءتها . وعلى هذا يحمل حال من قرأ بها من المتقدمين . وكذلك أيضاً يجوز تدوينها فى الكتب والتكلم على مافيها . وإن قرأها باعتقاد قرآنيتها أو لإيهام قرآنيتها حرم ذلك . ونقل ابن عبد البر فى تمهيده إجماع المسلمين عليه » اهـ .

(١) هنا سقط . والصواب « ننجيكَ » بالحاء المهملة فى « نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ » الخ .

العُلَمَاءُ » برفع الهـاء ونصب الهمزة ، يعنى برفع لفظ الجلالة ونصب لفظ العلماء .

وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه فتكلف توجيهها، فإنها لا أصل لها، وإن أبا حنيفة لبرىء منها .

ومثال مانقله ثقة ولا وجه له فى العربية — ولا يصدر هـذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط ، يعرفه الأئمة المحقِّقون والحفَّاظ الضابطون ، وهو قليل جداً بل لا يكاد يوجد .

وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع « مَعَائِشَ » بالهمز ثم قال : ويدخل فى هـذين القسمين مايذكره بعض المتأخرين من شراح الشاطبية فى وقف حمزة نحو : « أَسْمَايِهِمْ ، وَأُولَيِكَ » بياء خالصة ، ونحو « شرَ كَاوُهُمْ ، وأَحِبَّاوُهم » بواو خالصة . ونحو « بَدَأَ كُمْ ، وَأَخَاهُ » بألف خالصة، ونحو « رَا فى رَأَى، وترى فى ترَاءى، واشْمَزَّت فى اشمأَزَّتْ ، وفادَّارَتُمْ فى فادَّارَأْتُمْ » بحذف الهمزة فى ذلك كله مما يسمونه التخفيف الرسمى ولايجوز فى وجه من وجوه العربية، فإنه إما أن يكون منقولاً عن ثقة — ولا سبيل إلى ذلك — فهو مما لا يقبل، إذ لا وجه له. وإما أن يكون منقولا عن غير ثقة، فمنعه أَحْرَى وردُّه أولى . مع أنى تتبعت ذلك فلم أجده منصوصاً لحمزة لا بطريق صحيحة ولا ضعيفة .

ثم قال : ويبقى قسم مردود أيضاً ، وهو ما وافق العربيـة والرسم ولم ينقل ألبتة . فهذا ردُّه أحق ، ومنعه أشد ؛ ومرتكبه مرتـكب لعظيم من الكبائر . وقد ذكر جواز ذلك عن محمد بن الحسن بن مقسم البغدادى المقرى النحوى وكان بعد الثلثمائة .

قال الإمام أبو طاهر بن أبى هاشم فى كتابه البيان : وقد نبغ نابغ فى عصرنا فزعم أن كل ماصح عنده وجه فى العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف فقراءته جائزة فى الصلاة وغيرها . فابتدع بدعة ضلَّ بها قصد السبيل (قلت) : وقد عُقد له بسبب ذلك

مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقرّاء ، وأجمعوا على منعه ، وأوقف للضرب ، ورجع ، وكتب عليه محضر بذلك . كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد ، وأشرنا إليه فى الطبقات » اهـ

ملاحظة :

إنما اكتفى القُرّاء فى ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين ولم يشترطوا التواتر : مع أنه لابدّ منه فى تحقُّق القرآنيّة لأسباب ثلاثة : —

أحدها : أن هذا ضابط لاتعريف ، والتواتر قد لوحظ فى تعريف القرآن على أنه شطر أو شرط على الأقل . ولم يُلحظ فى الضابط لأنه يغتفر فى الضوابط مالا يغتفر فى التعاريف . فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة .

ثانيها : التيسير على الطالب فى تمييز القراءات المقبولة من غيرها ، فإنه يسهل عليه بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة . أما إذا اشترط التواتر فإنه يصعب عليه ذلك التمييز ، لأنه يضطر فى تحصيله إلى أن يصل إلى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الرواية . وهيهات أن يتيسر له ذلك .

ثالثها : أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر فى إفادة العلم القاطع بالقراءات المقبولة . بيان هذه المساواة أن مابين دفتى المصحف متواتر ومجمع عليه من الأمة فى أفضل عهودها وهو عهد الصحابة ، فإذا صحّ سند القراءة ووافقت قواعد اللغة ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر ، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحاداً .

ولا تنس ماهو مقرر فى علم الأثر من أن خبر الآحاد يفيد العلم إذا احتفَّت به قرينة توجب ذلك .

فكأن التواتر كان يطلب تحصيله فى الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة بالقرآن . أما بعد وجود هذا المصحف المجمع عليه ، فيكفى فى الرواية صحّتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف ولسان العرب .

قال صاحب الكواكب الدرية نقلاً عن المحقق ابن الجزرى ما نصه : « قولنا : وصحَّ سندها » نعنى به أن يروى تلك القراءة العدلُ الضابط عن مثله ، وهكذا حتى ينتهى ، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذَّ به بعضهم .

وقد شرط بعض المتأخرين التواتر فى هذا الركن ولم يكتف بصحة السند وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر[1] . وأن ما جاء مجىء الآحاد لا يثبت به قرآن . وهذا مما لا يخفى مافيه ، فإن التواتر إذا ثبت لا يُحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من موافقة الرسم وغيره . إذ ماثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبى ﷺ وجب قبوله وقُطع بكونه قرآناً ، سواء وافق الرسم أم خالفه » اه .

وبهذا التوجيه الذى وجَّهنا به الضابط المذكور ، يهون اعتراض العلامة النويرى فى شرحه على الطيِّبة ، إذ يقول ما نصُّه : وقوله : « وصحَّ إسناداً » ظاهره أن القرآن يكتفى فى ثبوته مع الشرطين المتقدمين بصحَّة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر . وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، كما ستراه إن شاء الله تعالى . ولقد ضلَّ بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفاً لا يصح لها سندٌ أصلاً ، ويقولون : التواتر

---

(١) أى فى هذا الضابط الذى لوحظ فيه وجود الركنين الآخرين مع هذا الركن . وإنما فسرنا كلامه بذلك لأن التواتر مجرد شرط أو شطر فى القرآن كما هو التحقيق . ولأن موضوع حديثه هنا إنما هو اشتراط التواتر فى هذا الركن الذى هو جزء من الضابط ، كما صرح به أولا ، وكما يرشد إليه كلامه آخراً .

ليس بشرط . وإذا طولبوا بسند صحيح لا يستطيعون ذلك . ولا بدَّ لهذه المسألة من بعض بسط ، فلذلك لخصت فيها مذاهب القراء والفقهاء الأربعة المشهورين وما ذكر الأصوليون والمفسرون وغيرهم . رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكرت فى هذا التعليق المهمَّ من ذلك ، لأنه لا يحتمل التطويل ، فأقول :

« القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة منهم الغزالى وصدر الشريعة وموفق الدين المقدسى وابن مفلح والطوفى ، هو ما نقل بين دفَّتى المصحف نقلاً متواتراً . وقال غيرهم : هو الكلام المنزل على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه . وكل من قال بهذا الحدِّ اشترط التواتر كما قال ابن الحاجب رحمه الله تعالى ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله . والقائلون بالأول لم يحتاجوا للعادة ، لأن التواتر عندهم جزء من الحد ، فلا تتصور ماهية القرآن إلا به . وحينئذ فلا بدَّ من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة ، ولم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد الفحص الزائد . وصرح به جماعات لا يُحْصَوْنَ ، كابن عبد البر وابن عطية وابن تيمية والتونسى فى تفسيره والنووى والسبكى والإسنوى والأذرعى والزركشى والدميرى وابن الحاجب والشيخ خليل وابن عرفة وغيرهم ، رحمهم الله تعالى .

وأما القراء فأجمعوا فى أول الزمان على ذلك ، وكذلك فى آخره ، لم يخالف من المتأخرين إلا أبو محمد مكى ، وتبعه بعض المتأخرين . وهذا كلامهم . . الخ » اهـ . ثم ساق نقولاً كثيرة عزاها إليهم يقصر المقام هنا عن عرضها . وفيما ذكرناه كفاية . وهذا التوجيه الذى وجَّهنا به الضابط السالف يجعل الخلاف كأنه لفظى ، ويسير بجماعات القرَّاء على جدَد الطريق فى تواتر القرآن « وَمَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ أَمِنَ العِثَار » .

أنواع القراءات من حيث السند

ينقل السيوطى عن ابن الجزرى أن أنواع القراءات ستة :ـ

(الأول المتواتر) . وهو مارواه جمع عن جمع لايمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم . مثاله مااتفقت الطرق فى نقله عن السبعة . وهذا هو الغالب فى القراءات .

(الثانى المشهور) : هوماصحَّ سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق العربية ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين ، واشتهر عند القراء فلم يعدُّوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر . مثاله : مااختلفت الطرق فى نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض . ومن أشهر ماصنف فى هذين النوعين التيسير للدانى ، والشاطبية ، وطيبة النشر فى القراءات العشر . وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إنكار شىء منهما .

(النوع الثالث) ماصحَّ سنده ، وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور . وهذا النوع لايقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ماأخرجه الحاكم من طريق عاصم الجَحْدرى عن أبى بكرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرِىَّ حِسَانٍ » . ومنه قراءة « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ » بفتح الفاء .

(الرابع الشاذُّ) وهو مالم يصح سنده ، كقراءة ابن السَّمَيْفَع : « فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ » بالحاء المهملة « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً » بفتح اللام من كلمة « خَلْفَكَ » .

(الخامس الموضوع) وهو مانسب إلى قائله من غير أصل . مثال ذلك القراءات التى جمعها محمد بن جعفر الخزاعى ، ونسبها إلى أبى حنيفة . وقد سبق الكلام عليها فى شرح الضابط الآنف .

(النوع السادس) مايشبه المُدْرَج من أنواع الحديث . وهو مازيد فى القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبى وقاص : « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمٍّ » بزيادة لفظ « من أمٍّ » . وقراءة : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ » بزيادة لفظ « فى مواسم الحجّ » وقراءة الزبير : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » بزيادة لفظ « وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » .

وإنما كان شبيهاً ولم يكن مُدْرَجاً ، لأنه وقع خلاف فيه . قال عمر رضى الله عنه : « فما أدرى أ كانت قراءاته (يعنى الزبير) « أم فسّر » أخرجه سعيد بن منصور ، وأخرجه ابن الأنبارى وجزم بأنه تفسير . وكان الحسن يقرأ : « وَإِنَّ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » قال ابن الأنبارى : قوله « الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » ، تفسير من الحسن لمعنى الورود . وغلط فيه بعض الرواة فأدخله فى القرآن .

قال ابن الجزرى فى آخر كلامه : « وربما كانوا يدخلون التفسير فى الكلام إيضاحاً ، لأنهم متحققون لما تلقوه عن رسول الله ﷺ قرآناً . فهم آمنون من الالتباس » انتهى بتصرف تبعنا فيه صاحب الكواكب الدرية .

تواتر القرآن :

أكتفى فى هذا الموضوع بأن أسوق إليك نقولاً ثلاثة فوق ما نقلته عن النويرى من قبل :

أولها : يقول الإمام الغزالى فى المستصفى ما نصه : « حدُّ الكتاب : ما نقل إلينا بين دفّتى المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلا متواتراً . ونعنى بالكتاب القرآن المنزل. وقيّدناه بالمصحف لأن الصحابة بالغوا فى الاحتياط فى نقله ، حتى كرهوا التعاشير والنقط ،

وأمروا بالتجريد ؛ كيلا يختلط بالقرآن غيره ؛ ونقل إلينا متواتراً ، فنعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن، وأن ماهو خارج عنه فليس منه؛ إذ يستحيل في العرف والعادة مع توافر الدواعي على حفظه أن يهمل بعضه فلا ينقل ، أو يخلط به ماليس منه . ثم قال : فإن قيل : لم شرطتم التواتر ؟ قلنا ليحصل العلم به ، لأن الحكم بما لا يُعلم جهل وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقي ليس بوضعي حتى يتعلق بظننا، فيقال : إذا ظننتم كذا فقد حرمنا عليكم فعلا ، أو حللناه لكم ، فيكون التحريم معلوماً عند ظننا ، ويكون ظننا علامة لتعلق التحريم به . إلى أن قال :

ويتشعب عن حد الكلام مسألتان : « (إحداهما) مسألة التتابع في صوم كفارة اليمين : فإنه ليس بواجب على قول، وإن قرأ ابن مسعود «فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام مُتَتَابِعَاتٍ» لأن هذه الزيادة لم تتواتر ، فليست من القرآن ، فتحمل على أنه ذكرها في معرض البيان، لما اعتقده مذهباً ، فلعله اعتقد التتابع حملا لهذا المطلق على المقيد بالتتابع في الظهار . وقال أبو حنيفة : يجب التتابع ، لأنه وإن لم يثبت كونه قرآناً ، فلا أقل من كونه خبراً، والعمل يجب بخبر الواحد . وهذا ضعيف، لأن خبر الواحد لا دليل على كذبه ، وهو[1] إن جعله من القرآن فهو خطأ قطعاً ، لأنه وجب على رسول الله ﷺ أن يبلغه طائفة من الأمة تقوم الحجة بقولهم، وكان لا يجوز له مناجاة الواحد به . وإن لم يجعله من القرآن ، احتمل أن يكون ذلك مذهباً له لدليل قد دله عليه، واحتمل أن يكون خبرا . وماتردد بين

(١) كذا بالأصل الذي نقلت عنه. ولعل الواو في لفظ « وهو » زادتها المطبعة خطأ. وجملة « لا دليل على كذبه » حالية من لفظ « الواحد » ، والمعنى هكذا : لأن خبر الواحد هنا حال كونه لا دليل على كذبه ، ولفظ هو ضمير فصل أو عائد على خبر الواحد، إن جعله (أي أبو حنيفة) من القرآن الخ . ويمكن أن تكون كلمة « وهو » كلها مدرجة في الطبع أو النسخ فتدبر .

أن يكون خبراً أو لا يكون، فلا يجوز العمل به، وإنما يجوز العمل بما يصرح الراوي بسماعه من رسول الله ﷺ .

(أما المسألة الثانية) فهي أن البسملة آية من القرآن لكن هل هي آية من أول كل سورة ؟ فيه خلاف. وميل الشافعي - رحمه الله - إلى أنها آية من سورة الحمد وسائر السور، لكنها في أول كل سورة آية برأسها، أو هي مع أول آية من سائر السور آية هذا مما نقل عن الشافعي فيه تردد . وهذا أصح من قول مَنْ حمل تردد قول الشافعي على أنها هل هي من القرآن في أول كل سورة ؟ بل الذي يصح أنها حيث كتبت مع القرآن بخط القرآن، فهي من القرآن » اهـ ما أردنا نقله بتصرف طفيف .

ثانيها : يقول صاحب مُسلم الثبوت وشارحه مانصه : « مانُقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً؛ ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب، واستدل بأن القرآن مما تتوافر الدواعي على نقله ، لتضمنه التحدي ، ولأنه أصل الأحكام، باعتبار المعنى والنظم جميعا، حتى تعلق بنظمه أحكام كثيرة ، ولأنه يتبرك به في كل عصر بالقراءة والكتابة ، ولذا علم جهد الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع. وكل ماتتوافر دواعي نقله ، ينقل متواترا عادة. فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر، انتفى الملزوم قطعا . والمنقول آحادا ؛ ليس متواتراً فليس قرآنا » اهـ .

ثالثها : يقول الحافظ جلال الدين في الإتقان مانصه : لا خلاف أن كل ماهو من القرآن يجب أن يكون متواترا في أصله وأجزائه . وأما في محله ووضعه وترتيبه، فكذلك عند محققي أهل السنة ، للقطع بأن العادة تقضي بالتواتر في تفاصيل مثله ، لأن هذا المعجز العظيم ، الذي هو أصل الدين القويم ، والصراط المستقيم ؛ مما تتوافر الدواعي على نقل جمله وتفاصيله ، فما نقل آحاداً ولم يتواتر يُقطع بأنه ليس من القرآن .

« وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط فى ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله . وليس بشرط فى محله ووضعه وترتيبه . بل يكثر فيها نقل الآحاد . قيل وهو الذى يقتضيه صنع الشافعى فى إثبات البسملة من كل سورة . وردّ هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضى التواتر فى الجميع ، ولأنه لو لم يشترط لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر ، وثبوت كثير مما ليس بقرآن منه . أما الأول فلأنا لو لم نشترط التواتر فى المحل ، جاز ألا يتواتر كثير من المكررات الواقعة فى القرآن . مثل « فبأىّ آلاء ربكما تكذبان » . وأما الثانى فلأنه إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل ، جاز إثبات ذلك البعض فى الموضع بنقل الآحاد . وقال القاضى أبو بكر فى الانتصار : « ذهب قوم من الفقهاء والمتكلمين إلى إثبات قرآنٍ حكماً لا علماً بخبر الواحد دون الاستفاضة . وكره ذلك أهل الحق وامتنعوا منه . وقال قوم من المتكلمين : إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءة وأوجه وأحرف ، إذا كانت تلك الأوجه صواباً فى العربية ، وإن لم يثبت أن النبى ﷺ قرأ بها . وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه وخطئوا من قال به » . اه

وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بإنكار البسملة قولهم على هذا الأصل ، وقرروا أنها لم تتواتر فى أوائل السور ، وما لم يتواتر فليس بقرآن . وأجيب من قبلنا بمنع كونها لم تتواتر ؛ فربّ متواتر عند قوم دون آخرين ، وفى وقت دون آخر . ويكفى فى تواترها إثباتها فى مصاحف الصحابة فمن بعدهم بخط المصحف مع منعهم أن يكتب فى المصحف ما ليس منه ، كأسماء السور وآمين والأعشار . فلو لم تكن قرآنا لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز ، لأن ذلك يحمل على اعتقاد كونها قرآناً . فيكونون مغرّرين بالمسلمين حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً ، وهذا مما لا يجوز اعتقاده فى الصحابة . فإن قيل : لعلها أثبتت للفصل بين السور . أجيب : بأن هذا فيه تغرير ،

ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل ، ولو كانت له لكتبت بين براءة والأنفال » . اه كلام السيوطى .

وهذه النقول الثلاثة كافية فى الموضوع كما ترى لأن عبارتى المستصفى ومسلّم الثبوت يقيمان الدليل واضحاً على تواتر القرآن وإن اختلف طريقهما فى الاستدلال . وعبارة السيوطى تذكر الخلاف فى عموم هذا التواتر لما كان أصلا وغير أصل، وتؤيد هذا العموم وتردُّ على من قصر التواتر على أصل القرآن دون محله ووضعه وترتيبه .

الآراء فى القراءات السبع

هنا يجد الباحث نفسه فى معترك ملىء بكثرة الخلافات واضطراب النقول واتساع المسافة بين المختلفين إلى حد بعيد .

وإليك صورةً مصغرة تشهد فيها حرب الآراء والأفكار مشبوبةً بين الكاتبين فى هذا الموضوع :

(١) يبالغ بعضهم فى الإشادة بالقراءات السبع ويقول : من زعم أن القراءات السبع لا يلزم فيها التواتر فقوله كفر ، لأنه يؤدى إلى عدم تواتر القرآن جملة . ويعزى هذا الرأى إلى مفتى البلاد الأندلسية الأستاذ أبى سعيد فرج بن لب ، وقد تحمس لرأيه كثيراً وألف رسالة كبيرة فى تأييد مذهبه والرد على من رد عليه .

ولكن دليله الذى استند إليه لا يسلم له . فإن القول بعدم تواتر القراءات السبع لا يستلزم القول بعدم تواتر القرآن . كيف ؟ وهناك فرق بين القرآن والقراءات السبع بحيث يصح أن يكون القرآن متواتراً فى غير القراءات السبع ، أو فى القدر الذى اتفق عليه القراء جميعاً ، أو فى القدر الذى اتفق عليه عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب قرّاء كانوا

أو غير قراءة ، بينما تـكون القراءات السبع غير متواترة ، وذلك فى القدر الذى اختلف فيه القراء ولم يجتمع على روايته عدد يؤمن تواطؤهم على الـكذب فى كل طبقة ، وإن كان هذا احتمالًا ينفيه الواقع كما هو التحقيق الآتى .

(٢) يبالغ بعضهم فى توهين القراءات السبع والغضِّ من شأنها، فيزعم أنه لا فرق بينها وبين سائر القراءات ، ويحكم بأن الجميع روايات آحاد . ويستدل على ذلك بأن القول بتواترها أمر منكر يؤدى إلى تـكفير من طعن فى شىء منها ، مع أن الطعن وقع فعلًا من بعض العلماء والأعلام .

ونناقش هذا الدليل بأنا لا نسلم أن إنـكار شىء من القراءات يقتضى التـكفير على القول بتواترها . وإنما يحكم بالتـكفير على من علم تواترها ثم أنـكره . والشىء قد يكون متواتراً عند قوم غير متواتر عند آخرين ، وقد يكون متواتراً فى وقت دون آخر فطعن منْ طعن منهم يحمل على مالم يعلموا تواتره منها ، وهـذا لا ينفى التواتر عند من علم به ، « وفوقَ كلِّ ذى علم عليمٌ » .

ويمكن مناقشة هذا الدليل أيضاً بأن طعن الطاعنين إنما هو فيما اختلفَ فيه وكان من قبيل الأداء . أما ما اتفقَ عليه فليس بموضع طعن . ونحن لا نقول إلا بتواتر ما اتفق عليه دون ما اختلف فيه .

(٣) يقول ابن السبكى فى جمع الجوامع وشارحه ومحشيه : « القراءات السبع متواترة تواتراً تاماً أى نقلها عن النبى ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الـكذب لمثلهم، وهلم جرا ولا يضر كون أسانيد القراء آحاداً ، إذ تخصيصها بجماعة لا يمنع مجىء القراءات عن غيرهم ، بل هو الواقع ، فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجمُّ الغفير عن مثلهم؛ وهلم جرًّا . وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين فى أسانيدهم، لتصدِّيهم

لضبط حروفها وحفظ شيوخهم الكمل فيها » اه .

وقد يناقش هذا بأنها لو تواترت جميعاً ، ما اختلف القراء فى شىء منها لكنهم اختلفوا فى أشياء منها ، فإذاً لا يسلم أن تكون كلها متواترة .

ويجاب عن هذا بأن الخلاف لا ينفى التواتر بل الكل متواتر وهم فيه مختلفون ، فإن كل حرف من الحروف السبعة التى نزل بها القرآن بلّغه الرسول ﷺ إلى جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب حفظاً لهذا الكتاب ، وهم بلغوه إلى أمثالهم وهكذا . ولا شك أن الحروف يخالف بعضها بعضاً ، فلا جرم تواتر كل حرف عندمن أخذ به وإن كان الآخر لم يعرفه ولم يأخذ به . وهنا يجتمع التخالف والتواتر . وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات السبع بل القراءات العشر كما يأتى .

(٤) ويذهب ابن الحاجب إلى تواتر القراءات السبع ، غير أنه يستثنى منها ما كان من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة . قال البنانى على جمع الجوامع : « وكأن وجه ذلك أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق اللفظ بدونها ، كزيادة المدّ على أصله وما بعده من الأمثلة ، وما كان من هذا القبيل لا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزيادة والنقصان ؛ بل هو أمر اجتهادى . وقد شرطوا فى التواتر ألا يكون فى الأصل عن اجتهاد . فإن قيل قد يتصور الضبط فى الطبقة الأولى للعلم بضبطها ماسمعته منه ﷺ على الوجه الذى صدر منه من غير تفاوت بسبب تكرر عرضها ماسمعته منه ﷺ . قلنا إن سلم وقوع ذلك لم يفد ، إذ لا يأتى نظيره فى بقية الطبقات ، فإن الطبقة الأولى لا تقدر عادة على القطع بأن ماتلقته الثانية جارٍ على الوجه الذى نطق به النبى ﷺ . وبما تقرر علم أن الكلام فيما زاد على أصل المد وما بعده لا فى الأصل فإنه متواتر :

والحاصل أنه إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتره باعتبار أصله ، كأن يراد تواتر المد من غير نظر لمقداره ، وتواتر الإمالة كذلك ، فالوجه خلاف ماقال

ابن الحاجب ، للعلم بتواتر ذلك . وإن أريد تواتر الخصوصيات الزائدة على الأصل ، فالوجه ماقاله ابن الحاجب . قاله ابن قاسم » اهـ بقليل من التصرف .

لكننا إذا رجعنا لعبارة ابن الحاجب نجدها كما يقول فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه » اهـ وهذا زعمٌ صريحٌ منه بأن المدّ والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوها من قبيل الأداء وأنها غير متواترة . وهذا غير صحيح ، كما يأتيك نَبَؤُه فى مناقشة ابن الجزرى له طويلاً .

(٥) يذهب أبو شامة إلى أن القراءات السبع متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء ، أما مااختلفت الطرق فى نقله عنهم فليس بمتواتر ، سواء أكان الاختلاف فى أداء الكلمة كما ذهب ابن الحاجب أم فى لفظها . فالاستثناء هنا أعم مما استثناه ابن الحاجب . وعبارة أبى شامة فى كتابه المرشد الوجيز نصها ما يأتى : « ماشاع على ألسنة جماعة من متأخرى المقرئين وغيرهم من أن القراءات السبع متواترة ، نقول به فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة ، دون مااختلفت فيه ، بمعنى أنه نفيت نسبته إليهم فى بعض الطرق . وذلك موجود فى كتب القراءات ، لاسيما كتب المغاربة والمشارقة ، فبينهما تباين فى مواضع كثيرة . والحاصل أنا لانلتزم التواتر فى جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء . أى بل منها المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم ، وغير المتواتر وهو ما اختلفتْ فيه بالمعنى السابق . وهذا بظاهره يتناول ماليس من قبيل الأداء وما هو من قبيله » اهـ . نقلاً عن الجلال المحلى فى شرح جمع الجوامع بتذييل منه .

ورأى أبو شامة هذا كنت أقول فى الطبعة الأولى إنه أمثل الآراء فيما أرى ، وذلك لأمور أربعة :

أولها : أنه رأى سليم من التوهينات التى نوقشت بها الآراء السابقة .

ثانيها : أنه يستند إلى الواقع فى دعواه وفى دليله . ذلك أن القراءات السبع وقع اختلاف بعضها حقيقة فى النطق بألفاظ الكلمات تارة ، وبأداء تلك الألفاظ تارة أخرى. ومن هنا كانت الدعوى مطابقة للواقع . ثم إن دليله يقوم على الواقع أيضاً فى أن بعض الروايات مضطربة فى نسبتها إلى الأئمة القراء ، فبعضهم نفاها وبعضهم أثبتها . وذلك أمارة انتفاء التواتر ، لأن الاتفاق فى كل طبقة من الجماعة الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لازمٌ من لوازم التواتر . وقد انتفى هذا الاتفاق هنا فينتفى التواتر ، لما هو معلوم من أنه كلما انتفى اللازم انتفى الملزوم .

ثالثها : أن هذا الرأى صادر عن إخصائى متمهر فى القراءات وعلوم القرآن وهو أبو شامة « وصاحب الدار أدرى بما فيها » .

رابعها : أن هذا الرأى يتفق وما هو مقرر لدى المحققين من أن القراءات قد تتوافر فيها الأركان الثلاثة المذكورة فى ذلك الضابط المشهور ، وقد تنتفى هذه الأركان الثلاثة كلا أو بعضاً ، لافرق فى هذا بين القراءات السبع وغير السبع على نحو ماتقدم . ويتفق هذا الرأى أيضاً وما صرحوا به من تقسيم القراءات باعتبار السند إلى ستة أقسام كما سبق .

استدراك

لكنى بعد معاودة البحث والنظر ، واتساع أفق اطلاعى فيما كتب أهل التحقيق فى هذا الشأن ، تبيّن لى أن أبا شامة أخطأه الصواب أيضاً فيمن أخطأ ، وأننى أخطأت فى مشايعته وتأييده .

ويضطرنى إنصاف الحق أن أكُرَّ على الوجوه التى أيَّدْتُه بها بين يديك ، فأنقضها وجهاً وجهاً . « والرجوع إلى الحق فضيلة » .

١ — فرأى أبى شامة المسطور لم يسلم من مثل تلك التوهينات التى نوقشت بها الآراء السابقة ، وسترى قريباً شدة مناقشته الحساب فى كلام ابن الجزرى .

٢ — ثم إن الغطاء قد انكشف عن أن القراءات السبع بل القراءات العشر كلها متواترة فى الواقع ، وأن الخلاف بينها لا ينفى عنها التواتر ، فقد يجتمع التواتر والتخالف ، كما بينا عند عرض رأى ابن السبكى ، وكما يستبين لك الأمر فيما يأتى من تحقيق ابن الجزرى .

٣ — أما أن أبا شامة إخصائى متمهر ، فسبحان من له العصمة ، والكمال لله تعالى وحده . على أن الذى رد عليه واخترنا رأيه — وهو ابن الجزرى — إخصائى متمهر أيضاً ، وإليه انتهت الزعامة فى هذا الفن ، حتى إذا أطلق لقب المحقق لم ينصرف إلا إليه « وكم ترك الأول للآخر » .

٤ — وأما ماقرره المحققون من تقسيم القراءات إلى متواتر وغير متواتر ، فهو تقسيم لا يغنى عن أبى شامة شيئاً فى رأيه هذا ، لأن كلامهم هناك كان فى مطلق القراءات ، أما كلامنا وكلام أبى شامة هنا فهو فى خصوص القراءات السبع . وبينهما برزخ لا يبغيان .

الآراء فى القراءات الثلاث المتممة للعشر .

لقد علمت فيما سبق ماقيل فى القراءات السبع من أنها متواترة أو غير متواترة . أما القراءات الثلاثة المكملة للعشر ، فقيل فيها بالتواتر ، ويعزى ذلك إلى ابن السبكى . وقيل فيها بالصحة فقط ، ويعزى ذلك إلى الجلال المحلى . وقيل فيها بالشذوذ ، ويعزى ذلك إلى الفقهاء الذين يعتبرون كل ماوراء القراءات السبع شاذاً .

التحقيق تواتر القراءات العشر كلها

والتحقيق الذى يؤيده الدليل ، هو أن القراءات العشر كلها متواترة ، وهو رأى المحققين من الأصوليين والقراء كابن السبكى وابن الجزرى والنويرى ، بل هو رأى أبى شامة فى نقل آخر صححه الناقلون عنه ، وجوّزوا أن يكون الرأى الآنف مدسوساً عليه ، أو قاله أول أمره ثم رجع عنه بعد . ولعل من الصواب والحكمة أن أترك الكلام هنا للمحقق ابن الجزرى ، يصول فيه ويجول ، ويسهب ويطرب ، واضعاً للحق فى نصابه ، دافعاً للخطأ وشبهاته . فاقرأه واصبر على الإكثار والتطويل ، فإن المقام دقيق وجليل « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

قال — رحمه الله — فى كتابه منجد المقرئين ، ابتداء من الصفحة السابعة والخمسين ما نصه :

(الفصل الثانى فى أن القراءات العشر متواترة فرشاً وأصولاً ، حال اجتماعهم وافتراقهم ، وحلِّ مشكل ذلك) اعلم أن العلماء بالغوا فى ذلك نفياً وإثباتاً ، وأنا أذكر أقوال كلٍّ ثم أبين الحق من ذلك . أما من قال بتواتر الفرش [1] دون الأصول فابن الحاجب . قال فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمدِّ والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه » اه . فزعم أن المد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات ونقل الحركة وتسهيل الهمزة ، من قبيل الأداء وأنه غير متواتر . وهذا قول غير صحيح كما سنبينه .

---

(١) يراد بالفرش الجزئيات التى يقع الخلاف فى قراءتها ولا يقاس عليها . كقراءة « يَخْدَعُونَ » فى سورة البقرة لا يقاس عليها ما جاء فى سورة النساء من كلمة « يُخَادِعُونَ اللهَ » مع أن الخلاف وقع فى قراءة الأولى . ويراد بالأصول الكليات التى تندرج تحتها جميع الجزئيات المماثلة ، كقواعد المد والهمز والإمالة .

أما المدُّ فأطلقه وتحته مايسكب العبرات ، فإنه إما أن يكون طبيعياً أو عرضياً . والطبيعى هو الذى لا تقوم ذات حروف المد بدونه ، كالألف من قال ، والواو من يقول، والياء من قيل . وهذا لا يقول مسلم بعدم تواتره ، إذ لا تمكن القراءة بدونه . والمدُّ العرضىُّ هو الذى يعرض زيادة على الطبيعى لموجب إما سكون أو همز . فأما السكون فقد يكون لازماً كما فى فواتح السور وقد يكون مشدَّداً نحو « الٓمٓ ، ق ، ن ، ولا الضالين » ونحوه ، فهذا يلحق بالطبيعى لا يجوز فيه القصر ؛ لأن المدَّ قام مقام حرف توصلاً للنطق بالساكن . وقد أجمع المحققون من الناس على مدِّه قدراً سواءً . وأما الهمز فعلى قسمين : (الأول) إما أن يكون حرف المد فى كلمة والهمز فى أخرى وهذا تسميه القرَّاء منفصلا ، واختلفوا فى مده وقصره ، وأكثرهم على المد . فادعاؤه عدم تواتر المد فيه ترجيح بلا مرجح، ولو قال العكس لكان أظهر لشبهته ، لأن أكثر القراء على المد . (الثانى) أن يكون حرف المد والهمز فى كلمة واحدة ، وهو الذى يسمى متصلاً . وقد أجمع القراء سلفاً وخلفاً من كبير وصغير وشريف وحقير ، على مده ، لا خلاف بينهم فى ذلك إلا ماروى عن بعض من لا يعوَّل عليه بطريق شاذَّة فلا تجوز القراءة به . حتى إن إمام الرواية أبا القاسم الهذلى ـ الذى دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلاثمائة وخمسة وستين شيخاً ، وقال : رحلت من آخر المغرب إلى فرغانة يميناً وشمالاً ، وجبلاً وبحراً ، وألف كتابه الكامل الذى جمع فيه بين الذرَّة وأذن الجرَّة ، من صحيح وشاذ ومشهور ومنكر ـ قال فى باب المدِّ فى فصل المتصل : « لم يختلف فى هذا الفصل أنه ممدود على وتيرة واحدة ، فالقرَّاء فيه على نمط واحد ، وقدَّروه بثلاث ألفات ـ إلى أن قال ـ وذكر العراقى أن الاختلاف فى مد كلمة واحدة كالاختلاف فى مد كلمتين ، ولم أسمع هذا لغيره . وطالما مارست الكتب والعلماء فلم أجد من يجعل مدَّ الكلمة الواحدة كمدِّ الكلمتين إلا العراقى » . قلت : والعراقى هو منصور بن أحمد المقرئ كان بخراسان . ولقد أخطأ

فى ذلك ، وشيوخه الذين قرأ عليهم نعرفهم : الإمام أبو بكر بن مهران ، وأبو الفرج الشنبوذى ، وإبراهيم بن أحمد المروزى، ولم يرو عنهم شىء من ذلك فى طريق من الطرق.

فإذا كان ذلك يجسر ابن الحاجب أو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع عليه فيقول : هو غير متواتر ، فهذه أقسام المد العرضى أيضاً متواترة ، لا يشكُّ فى ذلك إلا جاهل . وكيف يكون المد غير متواتر وقد أجمع عليه الناس خلفا عن سلف ؟

فإن قيل : قد وجدنا القراء فى بعض الكتب كالتيسير للحافظ الدانى وغيره، جعل لهم فيما مُدَّ للهمز مراتب فى المد إشباعاً وتوسطاً وفوقه ودونه ، وهذا لا ينضبط ؛ إذ المد لا حدّ له . وما لا ينضبط كيف يكون متواتراً ؟ قلت : نحن لا ندّعى أن مراتبه متواترة، وإن كان قد ادّعاه طائفة من القراء والأصوليين . بل نقول : إن المد العرضىّ من حيث هو متواتر مقطوع به قرأ به النبى ﷺ ، وأنزله الله تعالى عليه ، وأنه ليس من قبيل الأداء، فلا أقل من أن نقول : القدر المشترك متواتر . وأما مازاد على القدر المشترك كعاصم وحمزة وورش ، فهو إن لم يكن متواتراً فصحيح مستفاض[1] متلقى بالقبول . ومن ادعى تواتر الزائد على القدر المشترك فليبين .

وأما الإمالة على نوعيها ، فهى وضدها لغتان فاشيتان من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، مكتوبتان فى المصاحف ، متواترتان ، وهل يقول أحد فى لغة أجمع الصحابة والمسلمون على كتابتها فى المصاحف إنها من قبيل الأداء ؟ وقد نقل الحافظ الحجة أبو عمرو الدانى فى كتابه إيجاز البيان الإجماع على أن الإمالة لغة لقبائل العرب ، دعاهم إلى الذهاب إليها التماس الخفة . وقال الإمام أبو القاسم الهذلى فى كتاب الكامل : إن الإمالة والتفخيم لغتان ليست إحداهما أقدم من الأخرى : بل نزل القرآن بهما جميعا — إلى أن قال — والجملة

---

(١) كذا بالأصل . ولعل صوابه « مستفيض » .

بعد التطويل أن من قال : إن الله تعالى لم ينزل القرآن بالإمالة أخطأ وأعظم الفِرْية على الله تعالى ، وظنَّ بالصحابة خلاف ما هم عليه من الورع والتُّقى .

قلت : كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة فى المصاحف نحو « يحيى ، وموسى ، وهدى ، ويسمى ، والهدى ، وَيَغْشَيهَا ، وَجَلَّيهَا ، وَآتَى ، وَآتَينَـٰكُمْ » وما أشبه ذلك مما كتبوه بالياء على لغة الإمالة ، وكتبوا مواضع تشبه هذا بالألف على لغة الفتح ، منها قوله عز وجل فى سورة إبراهيم : « وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » حتى إنهم كتبوا « تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَيٰهُمْ » فى البقرة بالياء ، وكتبوا « سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » بالألف. وأىُّ دليل أعظم من ذلك ؟ .

قال الهذلى : وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتفخيم. وذكر أشياء ، ثم قال: وما أحد من القراء إلا رويتُ عنه إمالة قلَّتْ أو كثرت – إلى أن قال – وهى (يعنى الإمالة) لغة هوازن ، وبكر بن وائل ، وسعد بن بكر .

وأما تخفيف الهمزة ونحوه من النقل والإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات فمتواتر قطعا ، معلوم أنه منزل من الأحرف السبعة ، ومن لغات العرب الذين لا يحسنون غيره ، وكيف يكون غير متواتر أو من قبيل الأداء ؟ وقد أجمع القراء فى مواضع على الإدغام فى مثل « مُدَّكِرٍ ، أَثْقَلَتْ(١) دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ، مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وكذلك أجمع القراء فى مواضع على تخفيف الهمز نحو « آلْآنَ ، آللَّهُ ، آلذَّكَرَيْنِ » فى الاستفهام ، وفى مواضع على النقل نحو « لَـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي » ، و « يرى ، ونرى » . وعلى ترقيق الراءات فى مواضع نحو « فِرْعَوْنَ ، وَمِرْيَةٍ » وعلى تفخيم اللامات فى مواضع نحو اسم الجلالة بعد الضمة والفتحة .

---

(١) لعله يريد إدغام التاء فى الدال .

وأجمع الصحابة - رضوان الله عليهم - على كتابة الهمزة الثانية من قوله تعالى فى آل عمران : « أَؤُنَبِّئُكُمْ » بواو . قال أبو عمرو الدانى وغيره : إنما كتبوا ذلك على إرادة تسهيل الهمزة بين بين اهـ . وكيف يكون ما أجمع عليه القراء أمماً عن أمم غير متواتر . وإذا كان المدّ وتخفيف الهمز والإدغام غير متواتر على الإطلاق، فما الذى يكون متواترا ؟ أقصر « الم ، ودابة، وأولئك » الذى لم يقرأ به أحد من الناس ؟ أم تخفيف همزة « آلذَّكَرَيْنِ، آللَّهُ » الذى أجمع الناس على أنه لا يجوز وأنه لحن ؟ أم إظهار « مُدَّكِر » الذى أجمع الصحابة والمسلمون على كتابته وتلاوته بالإدغام ؟ فليت شعرى مَن الذى تقدمه قبلُ بهذا القول، فقفَّى أثره، والظاهر أنه لما سمع قول الناس : إن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء، ظن أن المد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه من قبيل الأداء، فقال غير مفكر فيه . وإلا فالشيخ أبو عمرو لو فكر فيه، لما أقدم عليه، أو لو وقف على كلام إمام الأصوليين من غير مدافعة القاضى أبى بكر بن الطيب الباقلانى فى كتاب الانتصار، حيث قال : « جميع ما قرأ به قراء الأمصار مما اشتهر عنهم استفاض نقله . ولم يُدخله فى حكم الشذوذ، بل رآه سائغاً جائزاً من همز وإدغام ومدٍّ وتشديد وحذف وإمالة، أو ترك ذلك كله أو شىء منه، أو تقديم أو تأخير، فإنه كله منزل من عند الله تعالى، ومما وقف الصحابة على صحته، وخُيِّر بينه وبين غيره، وصوَّب للجميع القراءة به . قال : ولو سوَّغنا لبعض القراء إمالة مالم يُمِلْهُ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة أو غير ذلك، لسوَّغنا لهم مخالفة جميع قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أطال - رحمه الله - الكلام على تقدير ذلك، وجوَّز أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم أقرأ واحداً بعض القرآن بحرف وبعضه بحرف آخر، على ماقد يراه أيسر على القارئ » اهـ .

قلتُ : وظهر من هذا أن اختلاف القراء فى الشىء الواحد مع اختلاف المواضع قد أخذه الصحابى كذلك من رسول الله ﷺ، وأقرأه كذلك، إلى أن اتصل بالقراء . نحو قراءة حفص « مَجْرَيهَا » بالإمالة فقط، ولم يُمِلْ فى القرآن غيره، وقراءة ابن عامر

« إبْرَاهَام » فى مواضع محصورة ، وقراءة أبى جعفر « يُحْزِن » فى الأنبياء فقط بضم الياء وكسر الزاى ، وفى باقى القرآن بفتح الياء وضم الزاى ، وقراءة نافع عكسه فى جميع القرآن بضم الياء وكسر الزاى إلا فى الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاى ، وشبه ذلك مما يقول القراء عنه : جمع بين اللغتين .

وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها ، كما أخلى غيره كتبهم منها . وإذ قد ذكرها فليته لم يتعرّض إلى ما كان من قبيل الأداء . وإذ قد تعرّض فليته سكت عن التمثيل ، فإنه إذا ثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواترا عن النبى ﷺ ، كتقسيم وقف حمزة وهشام وأنواع تسهيله ، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز فى الوقف عن رسول الله ﷺ فلم يتواتر أنه وقف على موضع بخمسين وجها ولا بعشرين ولا بنحو ذلك . وإنما إن صحّ شىء منها فوَجْهٌ ، والباقى لاشك أنه من قبيل الأداء(١) .

ولما قال ابن السبكى فى كتابه جمع الجوامع : « والسبع متواترة ، قيل : فيما ليس من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه » وسُئِل عن زيادته على ابن الحاجب « قيل » المقتضية لاختياره أن ماهو من قبيل الأداء كالمد والإمالة إلى آخره متواترٌ فأجاب — رحمه الله — فى كتابه منع الموانع : اعلم أن السبع متواترة ، والمدّ متواتر ، والإمالة متواترة ، كل هذا بيّن لاشك فيه . وقول ابن الحاجب : « فيما ليس من قبيل الأداء » صحيح لو تجرّد عن قوله : كالمدّ والإمالة . لكن تمثيله بهما أوجب فساده كما سنوضحه من بعد ، فلذلك قلنا : « قيل » ، ليتبين أن القول بأن المد والإمالة والتخفيف غير متواترة

---

(١) لعلك فهمت أن مرادهم بكلمة « من قبيل الأداء » مايتصل بتقدير الأصول المتواترة . مثلا المدّ للهمز أصل جاء متواتراً . أما تقديره بأربع حركات أو ست فليس بمتواتر ، لأنه لايسهل ضبطه . وقيل فيه بالتواتر أيضاً .

ضعيف عندنا ، بل هي متواترة . ثم أخذ بذكر المد والإمالة والتخفيف — إلى أن قال — فإذا عرفت ذلك فكلامنا قاض بتواتر السبع . ومن السبع مطلق المد والإمالة وتخفيف الهمز بلا شك .

أما من قال : إن القراءات متواترة حال اجتماع القراء لا حال افتراقهم ، فأبو شامة قال في المرشد الوجيز في الباب الخامس منه : « فإن القراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح في قراءتهم تركن النفس إلى مانقل عنهم فوق مانقل عن غيرهم . فما نُسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة وغيرهم ، الجمع بين الساكنين في تاءات البَزّيِّ وإدغام أبي عمرو ، وقراءة حمزة « فما استطاعوا » وتسكين من أسكن « بارئكم » ونحوه « وسبأ ، ويابنى ، ومكر السيئ » وإشباع الياء في « يرتقى ، ويتقى ، ويبصر[1] وأفئدة من الناس » وقراءة « ملائكة » بفتح الهمزة ، وهمز « ساقها[2] » وخفض « والأرحام » في أول النساء ، ونصب « كن فيكون » والفصل بين المتضايفين في الأنعام ، وغير ذلك ، إلى أن قال : فكل ذلك محمول على قلة ضبط الرواة فيه ، ثم قال : وإن صحّ النقل فيه فهو من بقايا الأحرف السبعة التي كانت القراءة المباحة عليه على ما هو جائز في العربية ، فصيحاً كان أو دون ذلك . وأما بعد كتابة المصاحف على اللفظ المنزل ، فلا ينبغي قراءة ذلك اللفظ إلا على اللغة الفصحى من لغة قريش وما نسبها ، حملا لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم والسادة من أصحابه على ما هو اللائق ، فإنهم إنما كتبوه على لغة قريش ، فكذا قراءتهم به . قال : وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين : أن القراءات السبع كلها متواترة ؛ أي في

(١) كذا بالأصل فتأمله .

(٢) لعل الصواب « سوقِهِ » من قوله سبحانه : فاستوَى عَلَى سُوقِهِ » فتدبر .

كل فرد فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة . قالوا: والقطع بأنها منزلة من عند الله تعالى واجب . قال : ونحن بهذا نقول ، لكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق ، واتفقت عليه الفرق من غير نكير له ، مع أنه شاع واشتهر واستفاض ، فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر فى بعضها » .

فانظر يا أخى إلى هذا الكلام الساقط ، الذى خرج من غير تأمل ، المتناقض فى غير موضع فى هذه الكلمات اليسيرة ! أوقفت عليه شيخنا الإمام ولى الله تعالى أبا محمد ابن محمد بن محمد الجمالى رضى الله عنه ، فقال : ينبغى أن يُعدم هذا الكتاب من الوجود ولا يظهر أَلْبَتَّة ، وإنه طعن فى الدين . قلت : ونحن – يشهد الله – أننا لا نقصد إسقاط الإمام أبى شامة ، إذ الجواد قد يعثر ، ولا يجهل قدره . بل الحقُّ أحقُّ أن يُتبع . ولكن نقصد التنبيه على هذه الزلَّة المزلة ، ليحذر منها من لا معرفة له بأقوال الناس ولا اطلاع له على أحوال الأئمة .

أما قوله : « فما نُسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة الخ » فغير لائق بمثله أن يجعل ماذكره منكراً عند أهل اللغة . وعلماء اللغة والإعراب الذين عليهم الاعتماد سلفاً وخلفاً ، يوجِّهونها ويستدلون بها . وأنَّى يسعهم إنكار قراءة تواترت أو استفاضت عن رسول الله ﷺ ؟ إلا نُوَيْسٌ لا اعتبار بهم لا معرفة لهم بالقراءات ولا بالآثار ، جمدوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحها ، حتى لو قيل لأحدهم شىء من القرآن على غير النحو الذى أنزل الله يوافق قياساً ظاهراً عنده ولم يقرأ بذلك أحد ، لقطع له بالصحة . كما أنه لو سئل عن قراءة متواترة لا يعرف لها قياساً لأنكرها ولقطع بشذوذها ، حتى إن بعضهم قطع فى قوله عزَّ وجلَّ : « مَالَكَ لا تَأْمَنَّا » بأن الإدغام الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم والمسلمون لحن وأنه لا يجوز عند العرب ، لأن الفعل الذى هو تَأمن مرفوع ، فلا وجه لسكونه حتى يدغم فى النون التى تليه !.

فانظر — يا أخى — إلى قلة حياء هؤلاء من الله تعالى يجعلون ما عرفوه من القياس أصلا والقرآن العظيم فرعاً ! حاشا العلماء المقتدى بهم من أئمة اللغة والإعراب من ذلك . بل يجيئون إلى كل حرف مما تقدم ونحوه ، يبالغون فى توجيهه والإنكار على من أنكره . حتى إن إمام اللغة والنحو أبا عبدالله محمد بن مالك قال فى منظومته الكافية الشافية فى الفصل بين المتضايفين :

« وعُمْدتِى قِرَاءةُ ابنِ عامرِ   فكَمْ لهَا مِنْ عاضدٍ وناصرِ »

ولولا خوف الطول وخروج الكتاب عن مقصوده ، لأوردت مازعم أن أهل اللغة أنكروه ، وذكرت أقوالهم فيها ، ولكن إن مدّ اللهُ فى الأجل ، لأضعنّ كتاباً مستقلاً فى ذلك ، يشفى القلب ويشرح الصدر ، أذكر فيه جميع ما أنكره من لا معرفة له بقراءة السبعة والعشرة .

ولله در الإمام أبى نصر الشيرازى حيث حكى فى تفسيره عند قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » كلامَ الزجاجى فى تضعيف قراءة الخفض . ثم قال : ومثل هذا الكلام مردودٌ عند أئمة الدين ، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن ردّ ذلك فقد ردّ على النبى ﷺ واستقبح ما قرأ به . وهذا مقام محظور لا يقلّد فيه أئمة اللغة والنحو . ولعلهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه ، فإنا لا ندّعى أن كل ما فى القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة .

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الدانى فى كتابه جامع البيان ، عند ذكر إسكان « بارِئْكُمْ وَيأمركم » لأبى عمرو بن العلاء : « وأئمة القراء لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية . بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى

النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ولا فشوّ لغة ، لأن القراءة سُنّة متّبعة ، فلزم قبولها والمصير إليها » .

قلت : ثم لم يكف الإمام أبا شامة حتى قال : « فـكل ذلك (يعنى ماتقدم) محمول على قلّة ضبط الرواة » لا والله . بل كله محمول على كثرة الجهل ممن لا يعرف لها أوجهاً وشواهد صحيحةً تخرَّج عليها ، كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى فى الـكتاب الذى وعدنا به آنفاً ، إذ هى ثابتة مستفاضة ؛ ورواتها أئمة ثقات . وإن كان ذلك محمولاً على قلة ضبطهم ، فليت شعرى أكان الدين قد هان على أهله ؟ حتى يجىء شخص فى ذلك الصدر يُدخل فى القراءة بقلة ضبطه ماليس منها ، فيسمع منه ويؤخذ عنه ، ويقرأ به فى الصلاة وغيرها ، ويذكره الأئمة فى كتبهم ، ويقرءون به ويستفاض ، ولم يزل كذلك إلى زماننا هذا لا يمنع أحد من أئمة الدين القراءة به ، مع أن الإجماع منعقد على أن من زاد حركة أو حرفاً فى القرآن أو نقص من تلقاء نفسه مُصرًّا على ذلك يكفر ؛ والله جلّ وعلا تولّى حفظه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » .

وأعظم من ذلك تنزله ؛ إذ قال : « وعلى تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، لا ينبغى قراءتها ، حملاً لقراء النبى ﷺ وأصحابه على ما هو اللائق بهم » . فإذا كان النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقرءوا بها مع تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، فمَنْ أوصلها إلى هؤلاء الذين قرءوا بها ؟ .

ثم يقول : « فلا أقل من اشتراط ذلك » يعنى اشتراط الشهرة والاستفاضة . قلت : ألا تنظرون إلى هذا القول ؟ ثم أأحد فى الدنيا يقول : إن قراءة ابن عامر وحمزة وأبى عمرو ومن اجتمع عليه أهل الحرمين والشام أبى جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر ، وقراءة

البزى وقنبل وهشام ، إن تلك غير مشهورة ولا مستفاضة وإن لم تكن متواترة ؟ !
هذا كلام مَنْ لم يدر ما يقول ، حاشا الإمام أبا شامة منه . وأنا من فرط اعتقادى فيه أكاد أجزم بأنه ليس من كلامه فى شىء . ربما يكون بعض الجهلة المتعصبين ألحقه بكتابه ، أو أنه ألَّف هذا الكتاب أول أمره ، كما يقع لكثير من المصنفين . وإلا فهو فى غيره من مصنفاته كشرحه على الشاطبية ، بالغ فى الانتصار والتوجيه لقراءة حمزة « والأرحامِ » بالخفض ، والفصل بين المتضايفين . ثم قال فى الفصل : ولا التفات إلى قول من زعم أنه لم يأت فى الكلام مثله ، لأنه ناف ، ومن أسند هذه القراءة مثبت . والإثبات مرجَّح على النفى بالإجماع . قال : ولو نقل إلى هذا الزاعم عن بعض العرب أنه استعمله فى النثر لرجع عن قوله . فما باله ما يكتفى بناقلى القراءة من التابعين عن الصحابة رضى الله عنهم ثم أخذ فى تقرير ذلك . قلت : هذا الكلام مباين لما تقدم ، وليس منه فى شىء . وهو الأليق بمثله ، رحمه الله .

ثم قال أبو شامة فى المرشد بعد ذلك القول : « فالحاصل أنا لسنا ممن يلتزم التواتر فى جميع الألفاظ المختلف فيها » . قلت : ونحن كذلك ؛ لكن فى القليل منها ، كما تقدم فى الباب الثانى (١) .

قال : « وغاية ما يبديه مدعى تواتر المشهور منها ، كإدغام أبى عمرو ، ونقل الحركة لورش ، وصلة ميم الجمع وهاء الكناية لابن كثير ، أنه متواتر عن ذلك الإمام الذى نُسبت تلك القراءة إليه ، بعد أن يجهد نفسه فى استواء الطرفين والواسطة ، إلا أنه بقى عليه التواتر

(١) يشير بذلك إلى مثل قراءة هشام « أفئدة » بياء بعد الهمز . فإنه اعتبره صحيحا مقطوعاً به وإن لم يتواتر ، لأن استفاضته وموافقته الرسم والعربية قرائن مثلها يفيد العلم فى غير المتواتر . انظر المنجد ص ١٩ .

من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كل فرد فرد من ذلك . ومن ثمَّ تسكب العبرات ، فإنها من ثمَّ لم ينقلها إلا آحادٌ ، إلا اليسير منها » .

قلت هذا من جنس ذلك الكلام المتقدم . أوقفت عليه شيخنا الإمام واحد زمانه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب بيبرود الشافعي ، فقال لي : معذورٌ أبو شامة ، حيث إن القراءات كالحديث ، مخرجها كمخرجه ، إذا كان مدارها على واحد كانت آحادية ؛ وخفي عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً ؛ وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرءونها أخذوها أمماً عن أمم . ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلده لم يوافقه على ذلك أحد ، بل كانوا يجتنبونها ويأمرون باجتنابها .

قلت : صدق . ومما يدلُّ على هذا ماقال ابن مجاهد : قال لي قنبل : قال القواس في سنة سبع وثلاثين ومائتين : الْقَ هذا الرجل (يعني البزي) فقل له : هذا الحرف ليس من قراءتنا . يعني « ومَا هوَ بميت » مخففاً . وإنما يخفف من الميت من قد مات ، ومن لم يمت فهو مشدَّد . فلقيت البزي فأخبرته ، فقال له : قد رجعت عنه ...وقال محمد بن صالح: سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو: كيف تقرأ «لا يعذبُ عذابه أحدٌ . ولا يوثقُ وثاقهُ أحدٌ » ؟ فقال : « لا يعذِّبُ » بالكسر . فقال له الرجل : كيف ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « لا يعذبُ » بالفتح . فقال له أبو عمرو : لو سمعت الرجل الذي قال : سمعت النبي ﷺ ما أخذته عنه . أو تدري ماذاك ؟ لأني أتهم الواحد الشاذَّ إذا كان على خلاف ماجاءت به العامة . قال الشيخ أبو الحسن السخاوي : وقراءة الفتح أيضاً ثابتة بالتواتر . قلت : صدق ؛ لأنها قراءة الكسائي . قال السخاوي: وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم . وإنما أنكرها أبو عمرو ؛ لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .

قلت : وهذا كان من شأنهم على أن تعيين هؤلاء القراء ليس بلازم ، ولو عين غير

هؤلاء لجاز . وتعيينهم إما لكونهم تصدوا للإقراء أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شيوخ المعين كما تقدم . ومن ثمَّ كره من كره من السلف أن تنسب القراءة إلى أحد . روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعى قال : كانوا يكرهون سند فلان وقراءة فلان . قلت : وذلك خوفاً مما توهمه أبو شامة من القراءة إذا نسبت إلى شخص تكون آحادية . ولم يدر أن كل قراءة نسبت إلى قارئ من هؤلاء كان قراؤها زمن قارئها وقبله أكثر من قرائها فى هذا الزمن وأضعافهم . ولو لم يكن انفراد القراء متواترا لكان بعض القرءان غير متواتر ، لأنا نجد فى القرآن أحرفا تختلف القراء فيها ، وكلٌّ منهم على قراءة لا توافق الآخر ، كأرجه وغيرها ، فلا يكون شيء منها متواتراً . وأيضاً قراءة من قرأ « مالك ويخادعون » فكثير من القرآن غير متواتر ، لأن التواتر لا يثبت باثنين ولا بثلاثة .

قال الإمام الجعبرى فى رسالته : وكل وجه من وجوه قراءته كذلك (يعنى متواتراً) لأنها أبعاضه . ثم قال : فظهر من هذا فساد قول من قال : هو متواتر دونها ، إذ هو عبارة عن مجموعها .

ثم قال ابن الجزرى : ومما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم أن الإمام الشافعى رضى الله عنه جعل البسملة من القرآن مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضى عدم كونها من القرآن ، لأنه من أهل مكة وهم يثبتون البسملة بين السورتين ويعدُّونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط عن ابن كثير ، فلم يعتمد فى روايته عن مالك فى عدم البسملة ، لأنها آحاد ، واعتمد على قراءة ابن كثير لأنها متواترة . وهذا لطيف فتأمله ، فإننى كنت أجد فى كتب أصحابنا يقولون : إن الشافعى رضى الله عنه روى حديث عدم البسملة عن مالك ولم يعوِّل عليه ، فدلَّ على أنه ظهرت له فيه علة ، وإلا لما ترك العمل به . قلت : ولم أر أحداً من أصحابنا

بين العلة ، فبينما أنا ليلة مفكر ، إذ فتح الله تعالى بما تقدّم — والله تعالى أعلم — أنها هى العلة . مع أنى قرأتُ القرآن برواية إمامنا الشافعى عن ابن كثير كالبزى وقنبل . ولما علم بذلك بعض أصحابنا من كبار الأئمة الشافعية قال لى : أريد أن أقرأ عليك القرآن بها .

ومما يزيدك تحقيقاً ما قاله أبو حاتم السجستانى ، قال : أول من تتبع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتتبَّع الشاذَّ منها هارون بن موسى الأعور . قال : وكان من القراء . فكره الناس ذلك ، وقالوا : قد أساء حين ألفها . وذلك أن القراءة إنما يأخذها قرون وأمة عن أفواه أمة ، ولا يلتفت منها إلى ما جاء من راوٍ راوٍ . قلت : يعنى آحاداً آحاداً .

وقال الحافظ العلامة أبو سعيد خليل كيكلدى العلائى فى كتابه المجموع المذهب : وللشيخ شهاب الدين أبى شامة فى كتابه المرشد الوجيز وغيره كلام فى الفرق بين القراءات السبع (١) والشاذَّة منها . و (٢) كلام غيره من متقدمى القراء ما يوهم أن القراءات السبع ليست متواترة كلها ، وأن أعلاها ما اجتمع فيه صحة السند وموافقة خط المصحف الإمام والفصيح من لغة العرب ، وأنه يكفى فيها الاستفاضة ، وليس الأمر كما ذكر هؤلاء . والشبهة دخلت عليهم مع انحصار أسانيدها فى رجال معروفين ، وظنوها كاجتهاد الآحاد (٣) .

---

(١) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « المتواتر » ، ولعل كلمة « والشاذة » أصلها « والشاذ » بدون تاء مربوطة . فتدبر .

(٢) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « فى » ويكون الصواب : « وفى كلام غيره » فتأمل .

(٣) لعل أصله . « فظنوها كأخبار الآحاد » .

قلت : وقد سألت شيخنا إمام الأئمة أبا المعالى رحمه الله تعالى عن هذا الموضع فقال : انحصار الأسانيد فى طائفة ، لا يمنع مجىء القرآن عن غيرهم . فلقد كان يتلقاه أهل كل بلد ، يقرؤه منهم الجم الغفير عن مثلهم، وكذلك دائماً . والتواتر حاصل لهم . ولكن الأئمة الذين تصدوا لضبط الحروف وحفظوا شيوخهم منها وجاء السند من جهتهم [(١)] . وهذه الأخبار الواردة فى حجة الوداع ونحوها أجلى [(٢)] ، ولم تزل حجة الوداع منقولة ، فمن [(٣)] يحصل بهم التواتر عن مثلهم فى كل عصر ، فهذه كذلك . وقال : هذا موضع ينبغى التنبه له . انتهى والله أعلم . »

ذلك ما قاله العلامة ابن الجزرى فى هذا المقام من كتابه المنجد ، ولعله فصلُ الخطاب فى هذا الموضوع ، ولذلك آثرنا أن ننقله إليك محاولين حسن عرضه وضبطه والتعليق عليه مختصراً بقدر الإمكان . ولقد كنت أود أن تكون النسخة التى نقلتُ منها أكثر تحريراً مما رأيت ، ولكن ما الحيلة ؟ وهى أول طبعة عن نسخة مخطوطة برواق المغاربة من الأزهر الشريف ، ومن شأن البدايات أن يكون فيها نقص ، ثم تصير إلى الكمال فى النهاية إن شاء الله .

---

(١) (٢) لعل فى هذين الموضعين سقطا .

(٣) لعل صواب هذه الفاء أن تكون عيناً أو ميماً أو باءً .

ب — القراء

القراء جمع قارئ وهو فى اللغة اسم فاعل من قرأ . ويطلق فى الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين تنسب إليهم القراءات السابقة . وقد سردنا عليك أسماءهم . ونتحفك هنا بنبذة قصيرة عن كل واحد من مشهوريهم وعن بعض من اشتهر بالرواية عنه ، لتطّلع على لمحة من فضلهم ، ولتتّصل اتصالا علمياً بهذه الفئة الكريمة التى لها هذا الأثر الرائع فى المحافظة على أداء القرآن الكريم بتلك الطرق المدوّنة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى مدى تلك القرون الطويلة .

ونحن لا نريد بهذه الكلمات استقصاء تاريخهم ولا الأدوار التى مرّت على قراءاتهم .فذلك شوط واسع. أفرده بالتأليف جماعة،منهم الذهبى وابن الجزرى فى طبقات القراء (١) .

القراء السبعة رحمهم الله :

١ — ابن عامر

اسمه عبد الله اليحصُبى ، نسبة إلى يَحصُب ، وهو فَخِذ من حمير ويكنى أبا نعيم ، وأبا عمران . وهو تابعى جليل ، لقى واثلة بن الأسقَع والنعمان بن بشير ، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبى شهاب المخزومى ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله ﷺ وقيل إنه

(١) طبقات القراء لابن الجزرى عوّلت عليها فى تراجم القراء خصوصاً عند الاختلاف بين المراجع ، لأنه هو المعروف بالمحقق ! . وبهذه المناسبة أريد أن تقضى العجب أو الأسف معى على أن الذى عُنِيَ بطبع هذا الكتاب ونشره هو المستشرق الألمانى (ج . برجستراسر) كما سمعت أنه طبع كتاباً بمصر أيضاً فى القراءات لابن خالَوَيه، ثم نقله إلى بلاده ، ومصر كلها محرومة منه ! !

قرأ على عثمان نفسه ، وقد توفى بدمشق سنة ١١٨ ثمانى عشرة ومائة ، وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان ، ولكن بواسطة أصحابه .

(فأما هشام) فقد أخذ القراءة عن عِراك بن خالد المزى ، عن يحيى بن الحارث الذّمارى ، عن ابن عامر . وكان هشام قاضياً فقيهاً محدِّثاً ثقةً ضابطاً ، توفى بدمشق سنة ٢٤٥ خمس وأربعين ومائتين .

(وأما ابن ذكوان) فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى ، الدمشقى . أخذ القراءة عن أيوب بن تميم ، عن يحيى بن الحارث الذمارى، عن ابن عامر: يقول أبو زرعة فيه : « إنه الحافظ الدمشقى ، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان فى زمن ابن ذكوان عندى أقرأ منه » ، توفى سنة ٢٤٢ اثنتين وأربعين ومائتين .

وفى ابن عامر وراوِيَيْه يقول صاحب الشاطبية : —

« وأما دِمَشْقُ الشامِ دَارُ ابْنِ عامرٍ فتلكَ بِعَبْــــدِ اللهِ طَابَتْ مُحَلَّلاَ
هشامٌ ، وعبدُ اللهِ ، وهـو انتسابُهُ لِذَكْوانَ بالإِسْنَادِ عنـــهُ تَنَقَّلاَ »

٢ — ابن كثير

هو أبو محمد ، أو أبو معبد ، عبد الله بن كثير الدارى . كان إمام الناس فى القراءة بمكة تحفه السكينة ويحوطه الوقار . لقى من الصحابة عبد الله بن الزبير ، وأبا أيوب الأنصارى ، وأنس بن مالك .

وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبَيِّ بن كعب عن رسول الله ﷺ . وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومى . وقرأ عبدالله هذا على أُبَيِّ بن كعب وعمر بن الخطاب. وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ . وتوفى سنة ١٢٠ عشرين ومائة بمكة المكرمة .

وقد اشتهر بالرواية عنه — ولكن بواسطة أصحابه — الْبَزِّىُّ وقُنْبُلٌ .

(أما البَزِّىُّ) فهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبى بَزَّة . فالبزى نسبة إلى بَزَّة هذا وهو جدُّه الأعلى . كان إماماً ضابطاً ثقةً انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة روى عن عكرمة بن سليمان عن شبل بن عباد وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير . وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه توفى سنة ٢٥٠ خمسين ومائتين .

(وأما قُنْبُل) فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد المخزومى المكى يكنى أبا عمر ، ويلقب بقنبل لشدته[1] . كان إماماً فى القراءة ضابطاً ثقةً يؤمه الناس من أقطار الأرض . أخذ القراءة عن أبى الحسن أحمد القواس عن وهب ، عن القسط ، عن شبل ومعروف ، وكلاهما قرأ على ابن كثير . توفى سنة ٢٩١ إحدى وتسعين ومائتين .

وفى ابن كثير وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« ومكةُ عبدُ اللهِ فيها مُقامُهُ هو ابنُ كثيرٍ كاثرُ القومِ مُعْتَلاَ
روى أحمـــدُ البزِّى له ومحمدٌ عَلَى سَنَدٍ وَهْوَ الملقَّبُ قُنْبُلاَ

٣ — عاصم

هو أبو بكر عاصم بن أبى النَّجود الأسدى (والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من نجدت الثياب إذا سويت بعضها ببعض) .

كان قارئاً متقناً ، آية فى التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن قرأ على زِرِّ بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ . وقرأ أيضاً على أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى ، معلم الحسن والحسين .

وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام علىّ ، وأخذ الإمام علىٌّ قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفى بالكوفة أو بالسماوة سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة .

روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة .

---

(١) قُنْبُل كقُنْفُذ : الغلامُ الحادُّ الرأس الخفيف الروح . ذلك أصل معناه ، ثم سمى به محمد بن عبد الرحمن القارئُ . انظر القاموس إن شئت .

(أما شعبة) فهو المشهور بابن عيّاش بن سالم الأسدى وقيل اسمه محمد، وقيل مطرق، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين أبى بسطاط شعبة بن الحجاج البصرى . كان إماما عالمًا كبيرا . توفى بالكوفة سنة ١٩٣ ثلاث وتسعين ومائة .

(وأما حفص) فهو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزّاز . كان ربيب عاصم : تربى فى حجره، وقرأ عليه، وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلاجرم كان أدقّ إتقانًا من شعبة . توفى سنة ١٨٠ ثمانين ومائة .

وفى عاصم وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« وبالكوفة الغرّاء منهم ثلاثةٌ — أذاعُوا فقد ضاعت شذًى وقَرَنفُلا
فأما أبو بكر وعاصِمٌ اسمــهُ — فَشُعْبَةُ رَاوِيهِ المبرِّزُ أفْضَلا
وذاكَ ابنُ عَيّاشٍ أبو بكرِ الرضا — وحَفْصٌ وبالإتقانِ كانَ مُفَضَّلا

٤ — أبو عمرو

هو أبو عمرو زَبَّان بن العلا بن عمار البصرى . كان من أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة فى الدين . روى عن مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ . واقرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القَعْقَاعِ والحسن البصرى . وقرأ الحسن على حطان وأبى العالية . وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب . توفى سنة ١٥٤ أربع وخمسين ومائة .

وممن اشتهر بالرواية عنه الدورى والسوسى، ولكن بواسطة اليزيدى أبى محمد يحيى بن المبارك العدوى المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين . وسمى باليزيدى نسبة إلى يزيد ابن منصور خال الخليفة المهدى، لأنه كان يؤدب ولده .

(أما الدورى) فهو أبو عمر حفص بن عمر المقرى الضرير ، ولقب بالدورى نسبة إلى الدور ، وهو موضع بالجانب الشرقى من بغداد ، كان ثقة ضابطاً ؛ أول من جمع القراءات. روى عن اليزيدى عن أبى عمرو ، وتوفى سنة ٢٤٦ ست وأربعين ومائتين .

(وأما السوسى) فهو أبو شعيب صالح بن زياد ، روى عن اليزيدى عن أبى عمرو . وكان ثقة ضابطاً . توفى سنة ٢٦١ إحدى وستين ومائتين .

وفى أبى عمرو وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« وَأَمَّا ٱلْإِمَامُ ٱلْمَازِنِيُّ صَرِيحُهُمْ ... أَبُو عَمْرٍو الْبَصْرِى فَوَالِدُهُ الْعَلَا
أَفَاضَ عَلَى يَحْيَى الْيَزِيدِىِّ سَيْبَهُ ... فَأَصْبَحَ بِالْعَذْبِ الْفُرَاتِ مُعَلَّلَا
أَبُو عُمَرَ ٱلدُّورِى وَصَالِحُهُمْ أَبُو ... شُعَيْبٍ هُوَ السُّوسِىُّ عَنْهُ تَقَبَّلَا »

٥ — حمزة

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفى مولى عكرمة بن ربيع التيمى . قرأ على أبى محمد سليمان بن مهران الأعمش ، على يحيى بن وثاب ، على زر بن حبيش ، على عثمان وعلى وابن مسعود ، على النبى ﷺ . كان ورعاً عالماً بكتاب الله ، مجوداً له عارفاً بالفرائض والعربية ، حافظاً للحديث . توفى بحلوان سنة ١٥٦ ست وخمسين ومائة .

وممن اشتهر بالرواية عنه خلف وخلاد ، لكن بواسطة أبى عيسى سُلَيم بن عيسى الحنفى الكوفى المتوفَّى سنة ١٨٨ ، ثمان وثمانين ومائة .

(أما خلف) فهو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار . كان زاهداً عابداً . روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة . وتوفى سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين .

(وأما خلاد) فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفى . روى عن سليم بن

عيسى عن حمزة . وكان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عرفاناً وتحقيقاً . توفى بالكوفة سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

وفى ذلك يقول صاحب الشاطبية :

« وَحَمْزَةُ مَا أَزْكَاهُ مِنْ مُتَوَرِّعٍ إماماً ، صبوراً ، لِلْقُرَانِ مُرَتِّلَا

روى خَلَفٌ عنه وخَلَّادٌ الَّذِي رواهُ سُلَيْمٌ مُتْقِناً وَمُحَصِّلَا »

٦ — نافع

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى . أخذ القراءة عن أبى جعفر القارى وعن سبعين من التابعين ، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبى هريرة ، عن أبى بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة . توفى سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة .

وممن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش :

(أما قالون) فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوى . ولقب بقالون لجودة قراءته لأن قالون معناه الجيِّد فى أصل وضعها . قرأ على نافع واختصّ به كثيراً ، وقال : قرأت على نافع غير مرة ، وكتبت عنه . توفى سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

(وأما ورش) فهو عثمان بن سعيد المصرى ، يكنى أبا سعيد ، ويلقب بورش لشدة بياضه[1] . رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ختمات سنة ١٥٥ خمس وخمسين ومائة ، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الإقراء بها ، وكان حسن الصوت جيد القراءة . توفى سنة ١٩٧ سبع وتسعين ومائة .

وفى ذلك يقول صاحب الشاطبية :

---

(١) الوَرْشُ فى أصل اللغة : يطلق على شىء يصنع من اللبن . فيصح أن يضرب به المثل فى البياض . انظر القاموس .

«فأمَّا الكريمُ السِّرِّ في الطِّيبِ[1] نافعٌ ... فذاكَ الَّذي اختارَ المَدِينَةَ مَنْزِلاَ
وَقالُونُ عيسى ثُمَّ عثمانُ وَرْشُهُمْ ... بِصُحْبَتِهِ المَجْدَ الرَّفيعَ تَأَثَّلاَ»

٧ — الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة الكسائى النحوى. لقب بالكسائى لأنه كان فى الإحرام لابساً كساء، قال أبو بكر الأنبارى: اجتمعت فى الكسائى أمور: كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم بالغريب، وكان أوحد الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه، حتى يُضطر أن يجلس على الكرسى ويتلو القرآن من أوله إلى آخره؛ وهم يسمعون منه ويضبطون عنه. توفى سنة ١٨٩ تسع وثمانين ومائة.

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدورى.

(أما أبو الحارث) فهو الليث بن خالد المروزى. كان من أجلاء أصحاب الكسائى ثقة وضبطاً. توفى سنة ٢٤٢ أربعين ومائتين.

(وأما الدورى) فهو أبو عمر حفص بن عمر الدورى الذى ألمعنا إليه فى الرواية عن أبى عمرو.

وفى الكسائى وراوييه يقول صاحب الشاطبية:

«وأَمَّا عَلِيٌّ فَالْكِسَائِيُّ نَعْتُهُ ... لِمَا كَانَ فِي الْإِحْرامِ فيهِ تَسَرْبَلاَ
رَوَى لَيْثُهُمْ عنهُ أَبُو الْحَارِثِ الرِّضَا ... وحَفْصٌ هوَ الدُّورِي وفي الذِّكْرِ قَدْ خَلاَ»

---

(١) يشير بهذه الكلمة إلى ماروى عنه أنه كان إذا تكلم يشم من فيه ريح المسك بسبب قراءة النبى ﷺ فى فيه مناماً؛ كما أخبر نافع بذلك.

تمام القراء العشرة :

وهاك كلمة عن الثلاثة الذين إذا أُضيفوا إلى السبعة السابقين ، تكمل بهم عدّة القراء العشرة أصحاب القراءات العشر المعروفة ، والتى سبق الكلام عليها قريباً .

٨ — أبو جعفر

هو يزيد بن القعقاع القارى ، نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى : قارا . وقد سبق أنه أخذ عن عبدالله بن عباس وأبى هريرة ، عن أُبىّ بن كعب ، عن رسول الله ﷺ . توفى أبو جعفر سنة ١٣٠ ثلاثين ومائة ، وكان تابعيًّا جليل القدر ، رفيع المنزلة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الحذّاء ، وأبو الربيع سليمان بن مسلم بن جَمّاز .

(أما ابن وردان) فهو أبو موسى عيسى بن وردان ، المدنى ، الحذاء ، من أصحاب نافع فى القراءة على أبى جعفر . كان مقرئاً ضابطاً ثقة . وتوفى سنة ١٦٠ ستين ومائة .

(وأما ابن جَمّاز) فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جَمّاز . قرأ على أبى جعفر وشيبة بن نصاحة ونافع . وتوفى بعد سنة ١٧٠ سبعين ومائة بالمدينة المنورة .

٩ — يعقوب

هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمى . قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل . وقرأ سلاّم على عاصم وعلى أبى عمرو . توفى يعقوب سنة ٢٠٥ خمس ومائتين .

وممن اشتهر بالرواية عنه رَوْحُ بن عبد المؤمن ، ومحمد بن المتوكل اللؤلؤى الملقب بِرُوَيْس وغيرهما .

(أما روْح) فهو أبو الحسن روْحُ بن عبد المؤمن بن عبدة بن مسلم الهذلى النحوى ، قرأ على إمام البصرة أبى محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، وكان إماماً جليلاً ثقة روى عنه البخارى . وتوفى سنة ٢٣٤ أربع أو خمس وثلاثين ومائتين .

(وأما روَيس) فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى ، المعروف برويس . كان من أحذق أصحاب يعقوب . وتوفى بالبصرة سنة ٢٣٨ ثمان وثلاثين ومائتين .

١٠ — خلف

هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب ، قرأ على سليم عن حمزة ، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى ، وعلى أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى صاحب المفضل الضبى ، وعلى أبان العطار ، وهم عن عاصم . وتوفى خلف سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين كما سبق فى ترجمة حمزة .

وممن اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبد الله ، المروزى ، ثم البغدادى ، الورّاق ، المتوفى سنة ٢٨٦ ست وثمانين ومائتين .

وممن اشتهر بالرواية عنه أيضاً أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحدّاد البغدادى ، المتوفى سنة ٢٩٢ اثنتين أو ثلاث وتسعين ومائتين .

تمام القراء الأربعة عشر

وهاك كلمة مختصرة عن الأربعة الذين إذا أضيفوا إلى العشرة السابقين كملت عدة القراء الأربعة عشر الذين تنسب إليهم القراءات المعروفة بالقراءات الأربع عشرة :

١١ — الحسن البصرى

هو السيد الإمام الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد البصرى الغنىّ بشهرته عن تعريفه . المتوفى سنة ١١٠ عشر ومائة .

١٢ — ابن محيصن

هو محمد بن عبد الرحمن السهمى المكى ، مقرئ أهل مكة مع ابن كثير . المتوفى سنة ١٢٣ ثلاث وعشرين ومائة .

١٣ — يحيي اليزيدى

هو يحيي بن المبارك بن المغيرة الإمام أبو محمد العدوى البصرى المعروف باليزيدى . المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين .

١٤ — الشنبوذى

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنبوذى الشطوى البغدادى . المتوفى سنة ٣٨٨ ثمان وثمانين وثلاثمائة .

هؤلاء الأئمة وأضرابهم هم الذين خدموا الأمة والملة ، وحافظوا على الكتاب والسنة ، وفيهم يقول السيوطى بإتقانه : « ثم لما اتسع الخرق ، وكاد الباطل يلتبس بالحق ، قام جهابذة الأمة وبالغوا فى الاجتهاد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الوجوه والروايات ، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ ، بأصول أصّلوها ، وأركانٍ فصلوها . فأول من صنف فى القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم أحمد بن جبير الكوفى ، ثم إسماعيل

ابن إسحاق المالـكى صاحب قالون ، ثم أبو جعفر بن جرير الطبرى ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجونى ، ثم أبو بكر مجاهـد ، ثم قام الناس فى عصره وبعـده بالتأليف فى أنواعها ، جامعاً ومفرداً ، موجزاً ومسهباً . وأئمة القراءات لاتحصى . وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبى ، ثم حافظ القرآن أبو الخير بن الجزرى » اه .

أسأل الله تعالى أن يغمر الجميع بواسع رحماته ، وأن يجزيهم أفضل الجزاء على خدمتهم لـكتابه . آمين .

حكم ما وراء العشر

وقع الخلاف أيضاً فى القراءات الأربع التى تزيد على العشر وتـكمل الأربع عشرة: فقيل بتواتر بعضها . وقيل بصحتها . وقيل بشذوذها ، إطلاقاً فى الـكل . وقيـل : إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولاأعداد ، بل هى قواعد ومبادئ . فأيما قراءة تحققت فيها الأركان الثلاثة لذلك الضابط المشهور فهى مقبولة ، وإلا فهى مردودة . لا فرق بين قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة عشر وغيرهم فالميزان واحد فى الـكل . والحق أحقُّ أن يتبع .

قال صاحب الشافى : « التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشروا . ووهم من قال : إنه لاتجوز الزيادة على ذلك . وذلك لم يقل به أحد » اه بشىء من التصرف .

وقال الـكواشى : « كل ماصح سنده ، واستقام وجهه فى العربيـة ، ووافق خطَّ المصحف الإمام ، فهو من السبعة المنصوصة . (يريد السبعة الأحرف فى الحديث النبوى المعروف) ثم قال : وقد اشتدَّ إنـكار أئمة هـذا الشأن على منْ ظنَّ انحصار القراءات المشهورة فى مثل مافى التيسير والشاطبية » اه .

وهـذا رأى قريب من الصواب ، لولا أنه لم يقصر نظره على ماهو الواقع القائم بيننا اليوم من القراءات ، ولم يطبق الحـكم ولم يفصله فيـه ، بل ساق الـكلام عامًّا كما ترى .

والتحقيق هو ماذهب إليه أبو الخير بن الجزرى ، من أن القراءات العشر التى بين أيدينا اليوم متواترة دون غيرها . قال فى منجد المقرئين مايفيد أن الذى جمع فى زمننا هذه الأركان الثلاثة (أى فى ذلك الضابط المشهور مع ملاحظة إبدال شرط صحة الإسنـاد بتواتره) هو قراءة الأئمة العشرة التى أجمع الناس على تلقيها بالقبول . أخذها الخلف عن السلف إلى أن وصلت إلى زماننا . فقراءة أحدهم كقراءة الباقين فى كونها مقطوعاً بها . أما قول من قال : إن القراءات المتواترة لاحدَّ لها فإن أراد القراءات المعروفة فى زماننا فغير صحيح ؛ لأنه لايوجد اليوم قراءة متواترة وراء القراءات العشر . وإن أراد مايشمل قراءات الصدر الأول فمحتمل .

ثم إن غير المتواتر من القراءة على قسمين :

(القسم الأول ماصحَّ سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ووافق العربية والرسم . وهـذا ضربان : ضرب استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول ، كما انفرد به الرواة وبعض الـكتب المعتبرة ، أو كمراتب القراء فى المدِّ ونحو ذلك ، فهذا صحيح مقطوع به وبأنه منزل من عنـد الله على النبى ﷺ من الأحرف السبعة . وهـذا الضرب يلحق بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ مبلغها ، لأنه من قبيل أخبار الآحاد التى احتفت بها قرائن تفيد العلم . والضرب الثانى لم تتلقه الأمة بالقبول ولم يستفض . وهذا فيه خلاف العلماء : منهم من يجوِّز القراءة والصلاة به ، ومنهم من يمنع القراءة بما وراء العشرة منع تحريم لا كراهة . قال ابن السبكى فى جمع الجوامع : « ولا تجوز القراءة بالشاذّ : والصحيح أن ماوراء العشرة فهو شاذ ، وفاقا للبغوى والشيخ الإمام » . ويريد بالشيخ الإمام والده مجتهـد العصر أبا الحسن على بن عبد الـكافى السبكى .

(القسم الثانى) من القراءة الصحيحة ما وافق العربية وصح سنده وخالف الرسم ، كالذى يرد عن طريق صحيح من زيادة ونقص ، وإبدال كلمة بأخرى ، مما جاء عن أبى الدرداء وعمر وابن مسعود وغيرهم ، فهذه القراءة تسمى اليوم شاذّة لكونها شذّت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنادها صحيحاً . فلا تجوز القراءة بها لا فى الصلاة ولا فى غيرها . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد : « وقال مالك إن من قرأ فى صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يُصَلّ وراءه . وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً شذّوا لا يعرّج عليهم » .

وحكى ابن عبد البر الإجماع أيضاً على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ .

وقال ابن الجزرى قال أصحابنا من الشافعية وغيرهم : لو قرأ بالشاذ فى صلاته بطلت صلاته إن كان عالماً . وإن كان جاهلا لم تبطل ولكن لا تحسب له تلك القراءة .

واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شنبوذ واستتابته على قراءته وإقرائه بالشاذ . ذلك كله فيما صح فيه النقل والعربية ولكنه خالف الرسم .

أما ما لم يصح فيه نقل فهو أقل من أن يسمى شاذا ، ولو وافق العربية والرسم . بل هو قراءة مكذوبة يكفر متعمدها .

حكى المحقق ابن الجزرى أن استفتاء رُفع من العجم إلى دمشق فى حدود الأربعين والسبّمائة صورته : هل تجوز القراءة بالشاذ ؟ وهل يجوز أن يقرأ القارئ عشراً كل آية بقراءة ورواية ؟ . فأجاب عليه الإمامان : أبو عمرو بن الصلاح وأبو عمرو ابن الحاجب :

أما ابن الصلاح فقال : يشترط أن يكون المقروء به تواتر نقله عن رسول الله ﷺ قرآنا ، واستفاض نقله كذلك . وتلقته الأمة بالقبول ، كهذه القراءات السبع ، لأن المعتبر

فى ذلك اليقين والقطع ، على ما تقرر وتمهّد فى الأصول . فما لم يوجد فيه ذلك كما عدا السبع أو كما عدا العشر فممنوع من القراءة به منع تحريم لامنع كراهة ، فى الصلاة وخارج الصلاة ، وممنوعٌ مَنْ عرف المصادر والمعانى ومن لم يعرف ذلك ، وواجب على من قدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك . وإنما نقلها من نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلق بعلم العربية لا للقراءة بها . هذا طريق مَنِ استقام سبيله . — ثم قال — والقراءة الشاذة ما نقل قرآناً من غير تواتر ولا استفاضة متلقّاة بالقبول من الأمة كما اشتمل عليه المحتسب لابن جنى وغيره . وأما القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآناً فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلا . والمجترئ على ذلك مجترئ على عظيم ، وضالٌّ ضلالاً بعيداً ، فيُعزَّر ويمنع بالحبس ونحوه ، ولا يُخلَّى ذو ضلالة ، ولا يحلُّ للمتمكن من ذلك إمهاله . ويجب منع القارئ بالشاذ وتأثيمه بعد تعريفه ، وإن لم يمتنع فعليه التعزير بشرطه .

وإذا شرع القارئ بقراءة ينبغى ألا يزال يقرأ بها ما بقى للكلام تعلُّقٌ بما ابتدأ به . وما خالف هذا ففيه جائز وممتنع . وعذر المرض مانع من بيانه بحقه . والعلم عند الله تعالى . اه .

وأما ابن الحاجب فقال : لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة فى صلاة ولا غيرها ، عالمًا كان بالعربية أو جاهلا . وإذا قرأ بها قارئ ، فإن كان جاهلا بالتحريم عُرِّفَ به وأمر بتركها ، وإن كان عالمًا أُدِّب بشرطه ، وإن أصرّ على ذلك أُدِّب على إصراره وحبس إلى أن يرتدع عن ذلك . وأما تبديل آتنا بأعطنا ، وسَوَّلَتْ بزيَّنت ، ونحوه ، فليس هذا من الشواذّ ، وهو أشدُّ تحريماً ، والتأديب عليه أبلغ ، والمنع منه أوجب اه .

فذلكة البحث .

يخلص لنا من هذا البحث بعد تحقيق وجوه الخلاف فيه أمور مهمّة ؛ يجدر بنا أن نوليها الالتفات والانتباه الخاص :

أولها — أن القراءة ، لا تكون قرآناً إلا إن كانت متواترة ، لأن التواتر شرط فى القرآنية .

ثانيها — أن القراءات العشر الذائعة فى هذه العصور متواترة على التحقيق الآنف . وإذَن هى قرآن . وكل واحدة منها يطلق عليها أنها قرآن .

ثالثها — أن ماوراء القراءات العشر ممـا صحّت روايته آحاداً ولم يستفض ولم تتلقّه الأمة بالقبول ، شاذٌّ وليس بقرآن ، وإن وافق رسم المصحف وقواعد العربية .

رابعها — أن ركن صحة الإسناد المذكور فى ضابط القرآن المشهور ، لا يراد بالصحة فيه مطلق صحّة ، بل المراد صحّةٌ ممتازة تصل بالقراءة إلى حدِّ الاستفاضة والشهرة وتلقِّى الأمة لها بالقبول ، حتى يكون هـذا الركن بقرينة الركنين الآخرين فى قوة التواتر الذى لابد منه فى تحقُّق القرآنية . كما فصّلنا ذلك من قبل.

خامسها — أن القراءة قد تكون متواترةً عند قوم ، غـير متواترة عند آخرين . والمأمور به ألاَّ يقرأ المسلم إلا بماتواتر عنده ، ولا يكتفى بما رُوِىَ له آحاداً وإن كان متواتراً عند الراوى له ، كما رَدَّ الشافعى رواية مالك مع صحّتها ، لمخالفتها ماتواتر عنده . ولا تنس ماقاله ابن الجزرى فى ذلك آنفاً .

سادسها — أن هذا الذى رُوى من طريق الآحاد المحضة ولم يصل إلى حد الاستفادة والشهرة ، هو أصـل الداء ، ومثار كثير من الشبهات والخلافات . أما الشبهات فقد مرَّ عليك منها نماذج ، وأما الخلافات فقد شاهدت منها فى هذا البحث ماشاهدت ، وستشاهد ماتشاهد ؛ وإنى أسترعى نظرك إلى أمرين :

أولهما أن طريق الآحاد المحضة هذا هو الذى فتح باب المطاعن لبعض الأئمة فى بعض الروايات الواردة فى القراءات السبع ، كابن جرير الطبرى الذى ذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك ، وألّف كتاباً كبيراً فى القراءات وعللها ، وضمّنه بعض تلك المطاعن .

وثانيهما — أن وجود هذه الروايات على ندرتها جعل البعض يشتطّ ويسرف ، فسحب حكمها على الجميع وقال : إن القراءات السبع وغيرها كلها قراءة آحاد . وهذا قول فى نهاية الإسفاف والخطر : أما إسفافه فلأنه لا يليق مطلقاً أن يسحب حكم الأقل الضئيل على الأكثر الجليل ، وأما خطره فلأنه يؤدى إلى نقض تواتر القرآن ، أو إلى عدم وجود القرآن الآن مادام القرآن مشروطاً فيه التواتر ولا تواتر على رأيهم . ولا يعقل أن يكون القرآن المفروض فيه التواتر موجوداً على حين أن وجوه قراءاته كلها غير متواترة ، ضرورةَ أنه لا يتحقق قرآن بدون أوجه للقراءة .

ذلك ما وصلنا إليه بعد إعادة النظر فى هذا الموضوع . والحمد لله الذى هدانا لهذا « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ » .

ج — نقض الشبهات التى أثيرت فى هذا المقام

هناك شبهات أثيرت حول القراءات فى اختلافها وتعددها ثم فى صحتها وتواتر المتواتر منها ، وفى القرآن الكريم وتواتره وإجماع الأمة عليه . من تلك الشبهات ما تجده مذكوراً فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف . ومنها ما تجده مذكوراً فى مبحث جمع القرآن . فارجع إليها — إن شئت — ولا داعى إلى التطويل بإعادتها .

بيد أن الرواية التى نسبوها لابن مسعود فى إنكاره قرآنية المعوّذتين تكاد تكون أقوى هذه الشبهات ، من جهة أنها وردت بأسانيد صحّحها بعض

أعلام الحديث كابن حجر . وقد سبق عرضها من توجيهها وتمحيصها حتى على هذا الاحتمال .

ونزيدك هنا فى توهين هذه الشبهة أموراً :

(أولها) أن عاصماً وهو أحد القراء السبعة ، قرأ القرآن كله وفيه المعوِّذتان بأسانيد صحيحة ، بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه . ذلك أن عاصماً قرأ على أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب ، وقرأ على أبى مريم زِر بن حبيش الأسدى ، وعلى سعيد بن عياش الشيبانى .

وقرأ هؤلاء على ابن مسعود نفسه ، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ .

(ثانيها) : أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضاً ، قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة وفيه المعوِّذتان عن ابن مسعود نفسه . ذلك أن حمزة قرأ على الأعمش أبى محمد سليمان ابن مهران . وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى على علقمة الأسود ، وعبيد ابن نضلة الخزاعى ، وزر بن جيش ، وأبى عبد الرحمن السلمى . وهم قرءوا على ابن مسعود ، على النبى ﷺ .

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضاً . ذلك أنه قرأ على أبى إسحاق السبيعى ، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ؛ وعلى الإمام جعفر الصادق . وهؤلاء قرءوا على علقمة بن قيس ، وعلى زرّ بن حبيش ، وعلى زيد بن وهب ، وعلى مسروق . وهم قرءوا على المنهال وغيره وهم على بن مسعود وأمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه وهما على النبى ﷺ .

(ثالثها) أن الكسائى قرأ القرآن وفيه المعوذتان بسنده إلى ابن مسعود أيضا . ذلك أنه قرأ على حمزة الذى انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين .

(رابعها) أن خلفاً يقرأ المعوِّذتين فى ضمن القرآن الكريم بسنده إلى ابن مسعود أيضاً . ذلك أنه قرأ على سليم وهو على حمزة .

وهذه القراءات كلها التى رويت بأصح الأسانيد وبإجماع الأمة فيها المعوذتان والفاتحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أجزاء من القرآن وداخلة فيه .

فالقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه . وكل مافى الأمر أنه لم يكتب الفاتحة فى مصحفه اتكالا على شهرتها وعدم الخوف عليها من النسيان حتى تكتب . وكذلك القول فى المعوذتين . وقيل : إنه لم يكن يعلم أول الأمر أن المعوذتين من القرآن ، بل كان يفهم أنهما رُقْيَةٌ يعوِّذ بهما الرسولُ الحسنَ والحسينَ .

ومن هنا جاءت روايات إنكاره أنهما من القرآن . ثم علم بعد ذلك قرآنيتهما .ومن هنا جاءت الروايات عنه بقرآنيتهما . كما سُقْناه بين يديك عن أربعة من القراء السبعة بأسانيد هى من أصح الأسانيد المؤيدة بما تواتر واستفاض ، وبما أجمعت الأمة عليه من قرآنية الفاتحة والمعوذتين ، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا .

أما بعد فيصح أن نعتبر ماكتب فى هذا الموضوع هنا كلاماً على الشبهة الأولى التى أثيرت فيه .

الشبهة الثانية :

يقولون : إن التواتر فى جميع القرآن غير مسلم ، لأن الدواعى التى ذكرتموها فى دليل تواتره ، لا تتوافر فى جميع أجزاء القرآن . وآية ذلك أن البسملة على رأى من يجعلها من القرآن لا يجرى فيها التحدى ، ولا يتحقق فيها أنها أصلٌ لأحكام ، حتى يكون ذلك من الدواعى المتوافرة على نقلها وتواترها .

ونجيب (أولا) بأن التحدى يجرى فيها باعتبار انضمامها إلى غيرها من آيتين أخريين، ليتألف من الجميع ثلاث آيات يقوم بهن الإعجاز . وذلك كاف في أن يكون من دواعى الاعتناء بها ونقلها تواتراً .

(ثانياً) أنه يتعلق بنظمها تلك الأحكام المعروفة من أن لقارئها أجراً عظيماً إن كان طاهراً ، ووعيداً شديداً إن كان جنبا وقرأها بقصد القرآنية أو مسها ، ونحو ذلك . وهذا من الدواعى المتوافرة على نقلها وتواترها .

الشبهة الثالثة :

يقولون : لو كان القرآن متواتراً لوقع التكفير فى البسملة ، على معنى أن من يقول بقرآنيتها يحكم بكفر منكرها ، ومن لا يقول بقرآنيتها يحكم بكفر مثبتها . وعلى ذلك يكفر المسلمون بعضهم بعضاً .

والجواب : أن قرآنية البسملة فى أوائل السور اجتهادية مختلف فيها . وكل ما كان من هذا القبيل لا يكفر منكره ولا مثبته ، شأن كل أمر اجتهادى . إنما يكفر من أنكر متواتراً معلوما من الدين بالضروة . وقرآنية البسملة فى أوائل السور ليست متواترة معلومة من الدين بالضرورة .

أما منكر البسملة التى فى قصة كتاب سليمان من سورة النمل . فهو كافر قطعا ، لأن قرآنيتها متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ولا خلاف بين المسلمين فى قرآنيتها حتى يكفر بعضهم بعضا كما يزعم أولئك المعترضون .

الشبهة الرابعة :

يقولون : إن استدلالكم على تواتر القرآن بتوافر الدواعى على نقله ، منقوض

بالسنّة النبوية ، فإنها غير متواترة ، ومع ذلك تتوافر الدواعى على نقلها ، فإنها أصل الأحكام ، كما أن القرآن أصل الأحكام .

ونجيب (أولاً) بأن توافر الدواعى على نقل القرآن متواترا ، لم يجئ من ناحية أصالة الأحكام فحسب . بل جاء منها ومن نواحى الإعجاز والتحدى والتعبد بتلاوته والتبرك به فى كل عصر وقراءته فى الصلاة ونحو ذلك .

والسنة النبوية لايجتمع فيها كل هذا . بل يوجد فيها بعضه فقط . وذلك لايكفى فى توافر الدواعى على نقلها متواترة .

(ثانياً) أن المراد بأصالة الأحكام الفرد الكامل الذى لايوجد إلا فى القرآن . ذلك لأن أصالة الأحكام فيه ترجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً . أما المعنى فواضح . وأما اللفظ فمن ناحية الحكم بإعجازه ، وبثواب من قرأه . وبالوعود الكريمة والعطايا العظيمة لمن حفظه ، وبالوعيد الشديد لمن نسيه بعد حفظه ولمن مسه أو قرأه جنباً ، إلى غير ذلك . والسنة النبوية ليس للفظها شىء من هذه الأحكام . ولهذا تجوز روايتها بالمعنى . أما معناها فإن كان مما تتوافر الدواعى على نقله وجب تواتره وإلا فلا . ولهذا يقطع بكذب نقل الروافض مانسبوه إلى رسول الله ﷺ من أنه نص على أن الإمامة العظمى من بعده ، محصورة فى علىّ وولده . رضى الله عنهم . بيان ذلك أنه لو صحّ مازعموه لنقل متواتراً ، فإنه مما تتوافر الدواعى على نقله ، لتعلقه بأمر يتصل بمستقبل الحكم الأعلى والولاية العظمى فى الإسلام لجميع بلاد الإسلام .

الشبهة الخامسة :

يقولون : إن تواتر القرآن منقوض بأن ابن مسعود وهو من أجلاء الصحابة لم يوافق على مصحف عثمان بدليل الروايات الآتية وهى :

(١) أن شقيق بن سلمة يقول : « خطبنا عبدالله بن مسعود على المنبر فقال : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . غلوا مصاحفكم . « أى أخفوها حتى لا تحرق » وكيف تأمروننى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، وقد قرأت مِن فِي رسول الله ﷺ مثله ؟ » رواه النسائى وأبو عوانة وابن أبى داود .

(٢) أن خير بن مالك يقول : « لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبدالله بن مسعود فقال : من استطاع أن يغلّ مصحفه « أى يخفيه حتى لا يحرق » فليفعل . وقال فى آخره : أفأترك ما أخذت من فى رسول الله ﷺ ؟

(٣) أن الحاكم يروى من طريق أبى ميسرة قال : « رحتُ فإذا أنا بالأشعرى وحذيفة وابن مسعود . فقال ابن مسعود: « والله لا أدفعه يعنى مصحفه . أقرأنى رسول الله ﷺ » فذكره .

ونجيب (أولاً) بأن هذه الروايات لا تدل أبداً ، على عدم تواتر القراءات ولا على عدم تواتر ما جاء فى مصحف عثمان . غاية ما تدل عليه أن ابن مسعود لم يوافق أول الأمر على إحراق مصحفه . وهذا لا ينقض تواتر ما جاء فى مصحف عثمان . لأنه ليس من شرط التواتر على ما فى مصحف عثمان أن يحرق ابن مسعود مصحفه ، ولا أن يحرق أحد مصحفه . بل المحقق للتواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة .وهذا موجود فى مصحف عثمان ، لأن ما فيه رواه ووافق عليه جموع عظيمة من الصحابة محال أن تكذب. وحسبك عثمان ودستوره فى جمع القرآن . فارجع إليه إن شئت.

(ثانياً) أنه على فرض مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ، فإن هذه المخالفة لا تذهب بتواتر القرآن. لأن أركان التواتر متحققة فى المصحف العثمانى على رغم هذه المخالفة المفروضة ولم يقل أحد فى الدنيا: إن من شرط التواتر ألا يخالف فيه مخالف حتى تكون مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ناقضة لتواتر القرآن .

(ثالثاً) أن هذه الروايات التى ساقوها طعنا فى تواتر القرآن ، لا تدل على أن ابن مسعود يخالف فى القراءة بمصحف عثمان . بل هو يقرأ به كما يقرأ بروايته التى انفرد بها وسمعها وحده من فم النبى ﷺ . ألا ترى إلى قوله : « وقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله » فإن كلمة « مثله » فيها اعتراف منه بأن زيد بن ثابت قرأ مثله من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن ما انفرد ابن مسعود به تعتبر روايته آحادية . وأنت خبير بأن رواية الآحاد لا تكفى فى ثبوت القرآنية . لذلك لم يوافق الصحابة على ما انفرد به ابن مسعود، بخلاف مصحف عثمان فقد وافقه عدد التواتر، وظفر بإجماع الأمة، ولم يكتب فيه إلا ما استقر فى العرضة الأخيرة من غير نسخ لتلاوته ، على ما سبق بيانه هناك فى مبحث جمع القرآن .

(رابعاً) أن عدم دفع ابن مسعود مصحفه ليحرق كان توقفاً منه فى أول الأمر . ثم عاد بعد ذلك وحرقه حين بلغه أن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا ذلك فى مقالته ، كما جاء فى حديث شقيق من رواية ابن أبى داود عن طريق الزهرى . وبهذا اتحدت الصفوف ، واتفقت الكلمة ، وتم للمصاحف العثمانية الظفر من كل وجه بإجماع الأمة حتى ابن مسعود . والحمد لله على هذا الكرم والجود . حمداً يوافى نعمه ، ويكافئ مزيده ، ويستنزل رضاه ، آمين .

المبحث الثانى عشر

فى التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما

١ — التفسير

التفسير فى اللغة: الإيضاح والتبيين. ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان: « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » .

والتفسير فى الاصلاح : علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

(والمراد بكلمة علم) المعارف التصورية . قال عبد الحكيم على المطول : إن علم التفسير من قبيل التصورات ، لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظه ، وذلك من قبيل التعاريف ، لكن أكثرها بل كلها من قبيل التعاريف اللفظية . وذهب السيد إلى أن التفسير من قبيل التصديقات ، لأنه يتضمن حكماً على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى التى تذكر بجانبها فى التفسير .

(وخرج بقولنا : يبحث فيه عن أحوال القرآن) العلوم الباحثة عن أحوال غيره .

(وخرج بقولنا : من حيث دلالته على مراد الله تعالى) العلوم التى تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته ، كعلم القراءات فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها . ومثل علم الرسم العثمانى فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه .

وخرج بهذه الحيثية أيضاً المعارف التى تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق ، فإنها من علم الكلام . وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها . فإنها من علم الفقه .

(وقولنا بقدر الطاقة البشرية) لبيان أنه لا يقدح فى العلم بالتفسير عدم العلم بمعانى المتشابهات ، ولا عدم العلم بمراد الله فى الواقع ونفس الأمر .

وعرفوا علم التفسير أيضاً بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقه بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام .

(والمراد بكلمة نزوله) مايشمل سبب النزول ومكانه وزمانه .

(والمراد بكلمة سنده) مايشمل كونه متواتراً أو آحاداً أو شاذاً .

(والمراد بكلمة أدائه) مايشمل كل طرق الأداء كالمدّ والإدغام .

(والمراد بكلمة ألفاظه) مايتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازاً أو مشتركاً أومرادفاً أو صحيحاً أو معتلاً أو معرباً أو مبنيًا .

(والمراد بمعانيه المتعلقة بألفاظه) مايشبه الفصل والوصل .

(والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه) ماهو من قبيل العموم والخصوص ، والإحكام والنسخ .

وهذا التعريف كما ترى يشمل كثيراً من جزئيات مايندرج فى قواعد علم القراءات وعلم الأصول وعلم قواعد اللغة من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع .

وعرفوا التفسير تعريفاً ثالثاً بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حال التركيب ، وغير ذلك كمعرفة النسخ وسبب النزول وما به توضيح المقام كالقصة والمثل .

وهـذا تعريف وسط بين التعريفين ، ومن السهل رجوعه إلى التعريف الأول ، لأن ماذكر هنا بالتفصيل ، يُعتبر بياناً لمراد الله من كلامه بقدر الطاقة البشرية فى شىء من التفصيل .

التأويل :

والتأويل مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية . قال صاحب القاموس :

« أَوَّلَ الـكلامَ تأويلاً وتأوَّلَهُ : دبَّرَهُ وقدَّرَهُ وفسَّرَهُ » . ومنه قوله تعالى : « فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ » . وكذلك جاءت آيات كثيرة فيها لفظ التأويل ، ومعناه فى جميعها البيان والـكشف والإيضاح .

أما التأويل فى إصطلاح المفسرين[١] فإنه يختلف معناه . فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير . وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوى . ويشيع هذا المعنى عند المتقدمين . ومنه قول مجاهد : « إن العلماء يعلمون تأويله (يعنى القرآن) وقول ابن جرير فى تفسيره : القول فى تأويل قوله تعالى كذا ... واختلف أهل التأويل فى هذه الآية . . . »

وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط ، ويجعل التفسير أعم مطلقا . وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل . ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً ، أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر .

وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل . فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع . وهذا هو قول الماتريدى . أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية ، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية . أو التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة . وقد اشتهر هذا عند المتأخرين كما نبَّه إليه العلامة الألوسى إذ قال بعد استعراضه للآراء فى هذا الموضوع ما نصه : كل ما قيل مما ذكرنا وما لم نذكر مخالف للعرف اليوم . إذ قد تُعورِف عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معانٍ قدسية ، ومعارف ربانية ، تنهلُّ من سحب الغيب على قلوب العارفين . والتفسير غير ذلك » اه بتصرف . فأنت ترى أنه جعل التأويل خاصًّا بما كان مأخوذاً بالإشارة ، والتفسير بما كان مفهوماً من العبارة .

---

(١) وإنما قلنا فى اصطلاح المفسرين ليخرج اصطلاح المتكلمين ومن جاراهم ، فإنهم يريدون من التأويل ماذهب إليه الخلف من صرف نصوص ماتشابه من الكتاب والسنة عن ظاهره إلى معان تتَّفق وتنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة . بخلاف ماذهب إليه السلف من التفويض والإمساك عن تعيين معنى خاص .

التفسير تفسيران

لكن التفسير على نوعين بالإجمال (أحدهما) تفسير جافٌّ لا يتجاوز حلّ الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان ما يحتويه نظم القرآن الكريم من نكات بلاغية وإشارات فنية . وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته .

(النوع الثانى) تفسير يجاوز هذه الحدود ، ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن وحكمة الله فيما شرع للناس فى هذا القرآن ، على وجه يجتذب الأرواح ، ويفتح القلوب ، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله . وهذا هو الخليق باسم التفسير. وفيه يُساق الحديث إذا تكلمنا عن فضله والحاجة إليه .

فضل التفسير والحاجة إليه :

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ، ولا سهلة متيسرة ، ولا رائعة مدهشة . إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التى روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشرى على ما أحاط به علم خالقه الحكيم . وبَدَهِىٌّ أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره ، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد ، والإلمام بمادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التى يحملها أسلوبه البارع المعجز . وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن . « وهو ما نسميه بعلم التفسير » خصوصا فى هذه العصور الأخيرة التى فسدت فيها ملكة البيان العربى ، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم .

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر ، وإنقاذ الناس ، وإعزاز العالم .

وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر ، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن ، وتوافروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها .

وهنا تلمح السرّ في تأخر مُسْلِمَةِ هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الحفّاظ بين ظهرانيهم ، وعلى رغم كثرة عددهم ، واتساع بلادهم . في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحاً مدهشاً كان ومازال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين . مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد ، وضيق من الأرض ، وخشونة من العيش ، ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ، ومع أن حُفّاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة .

أجل إن السرّ في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية ، وبما يشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وعلى ذلك كان همهم الأول هو القرآن الكريم يحفظونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقّة ، ويهتدون بهديه في يقظة .

بهذا وحده صفت أرواحهم ، وطَهُرَت نفوسهم ، وعَظُمَتْ آثارهم ؛ لأن الروح الإنساني هو أقوى شيء في هذا الوجود . فمتى صفي وتهذّب ، وحسن توجيهه وتأدّب ، أتى بالعجب العجاب ، « وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » .

وكذلك أتت الأمة العربية بالعجب العاجب ، في الهداية والإرشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر والتأييد والدولة والظفر ، حتى على أقوى الدول

المعادية لدعوة الحق والإصلاح فى ذلك العهد : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب . تلك مَحَوْها من لوح الوجود بهدم طغيانها وإسلام شعبها ، وهذه سلبوها ما كان فى حَوْزتها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة . ثم دانت لهم الدنيا فاستولوا على بعض بلاد أورُبَّةَ ، وأقاموا فيها دولة عربية شامخة البنيان ، كانت بهجة الدنيا وزينة الحياة ، ومنها شعّ النور على الشعوب الأوربية ، وكانت النواة الناجحة فى نهضتهم الحديثة الحاضرة. (تلك هى فردوس الأندلس المفقود) ! !

أما غالب مُسْلِمَةِ اليوم . فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يردِّدونها . وأنغام يُلَحِّنُونها ، فى المآتم والمقابر والدور . وبمصاحف يحملونها أو يودعونها بركة فى البيوت . ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هى فى تدبُّره وتفهمه ؛ وفى الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه ، ثم فى الوقوف عند أوامره ومراضيه ، والبعد عن مساخطه ونواهيه . والله تعالى يقول : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ، ويقول سبحانه : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ويقول جلّ ذكره : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه ، وبالحيوان يهلك من الإعياء والنورُ من حوله يهديه السبيل لو فتح عينيه . « ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشد ، ويستمنحونه الهدى ، ويحكمونه فى نفوسهم وفى كل مايتصل بهم كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حق تلاوته بتدبر وتفكر فى مجالسهم ومساجدهم وأنديتهم وبيوتهم ، وفى صلواتهم المفروضة والنافلة ، وفى تهجدهم بالليل

والناس نيام ، حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلةً فيهم . فرفع نفوسهم وانتشلها من حضيض الوثنية ، وأعلى هممهم وهذّب أخلاقهم ، وأرشدهم إلى الانتفاع بقُوَى الكون ومنافعه . وكان من وراء ذلك أن مهروا فى العلوم والفنون والصناعات كما مهروا فى الأخلاق والآداب والإصلاح والإرشاد ، ووصلوا إلى غاية بزُّوا فيها كل أمم الدنيا . حتى قال بعض فلاسفة الغرب فى كتابه (تطوُّر الأمم) مانصه : « إن ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخَضْرَمَة ، وجيل الاستقلال . وشذَّ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون فى جيل واحد » اهـ .

قال السيوطى فى بيان الحاجة إلى التفسير ماملخصه : « القرآن إنما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب ، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه .

أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبى ﷺ مثل قولهم : « وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » حينما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » . ففسَّره النبى ﷺ بالشرك ، واستدلَّ بقوله سبحانه : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

وكذلك حين قال النبى ﷺ : « مَنْ نُوقِش الحساب عُذِّبَ » سألته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن قوله تعالى : « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً » فقال ﷺ « ذَلِكَ الْعَرْضُ » وكقصة عدىّ بن حاتم فى الخيط الأبيض والخيط الأسود . ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه . بل نحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير ، لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم » اهـ .

مما تقدم يتبين أن فائدة التفسير هى التذكر والاعتبار ، ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ليفوز الأفراد والمجاميع بخير العاجلة والآجلة .

ويتبين أيضاً أن هذا العلم من أشرف العلوم الدينية والعربية ، إن لم يـكن أشرفها جميعاً . وذلك لسُمُوِّ موضوعه ، وعظم فائدته .

وسمى علم التفسير لما فيه من الـكشف والتبيين . واختصَّ بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنها كلها مشتملة على الـكشف والتبيين ، لأنه لجلالة قدره ، واحتياجه إلى زيادة الاستعداد ، وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه ، كان كأنه هو التفسير وحده دون ماعداه .

ب — أقسام التفسير

وردعن ابن عباس رضى الله عنهما أن التفسير أربعة: حلال وحرام لايعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها ، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لايعلمه إلا الله اه :

قال الزركشى فى البرهان ما ملخصه : « هـذا تقسيم صحيح . فأما الذى تعرفه العرب بألسنتها فهو مايرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب. فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسمَّيات أسمائها . ولا يلزم ذلك القارىء . ثم إن كان مايتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم ، كفى فيه خبر الواحـد والاثنين ، والاستشهاد بالبيت والبيتين . وإن كان يوجب العلم (أى الاعتقاد) لم يكف ذلك ، بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ وتـكثر شواهـده من الشعر . وأما الإعراب فما كان اختلافه مُحيلاً للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ، ليوصل المفسر إلى معرفة الحـكم ،ويسلم القارئ من اللحن . وإن لم يكن محيلاً للمعنى ، وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه .

وأما مالا يُعذر أحـــد بجهله فهو ماتبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحـكام ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً يعلم

أنه مراد الله تعالى . فهذا القسم لا يلتبس تأويله ، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ » أنه لا شريك له فى الألوهية ، وإن لم يعلم أن « لا » موضوعة فى اللغة للنفى « وإلا » موضوعة للإثبات ، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » ونحوه ، طلب إيجاب المأمور به ، وإن لم يعلم أن صيغة افعل للوجوب .

وأما مالا يعلمه إلا الله تعالى ، فهو مايجرى مجرى الغيوب ، كالآيات التى تذكر فيها الساعة . والروح ، والحروف المقطعة . وكل متشابه فى القرآن عند أهل الحق ، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره . ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف ، بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

وأما مايعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذى يغلب عليه إطلاق التأويل . وذلك استنباط الأحكام ، وبيان المجمل ، وتخصيص العموم . وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه اعتماداً على الدلائل والشواهد دون مجرد الرأى » اهـ المقصود منه . لكنه لم يلتزم فيه ترتيب الأقسام على ماروى عن ابن عباس ولا ضير فى ذلك مادام أنه قد استوعب عدتها الأربعة كما رأيت .

وقسم بعضهم التفسير باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام : « تفسير بالرواية » ويسمى التفسير بالمأثور ، وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى ، وتفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشارى ، وسنتحدث عن كل واحد منها إن شاء الله .

ج — التفسير المأثور

هو ماجاء فى القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه

(١) مثال ماجاء فى القرآن قوله سبحانه : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » فإن كلمة « من الفجر » بيان وشرح المراد من كلمة « الْخَيْطِ الْأَبْيَضِ » التى قبلها . وكذلك قوله سبحانه : « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فإنها بيان للفظ « كلماتٍ » من قوله تعالى : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ » على بعض وجوه التفاسير . وقوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ » الآية ، فإنها بيانٌ للفظ « مَا يُتْلَى عليكُمْ » من قوله سبحانه: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » وقوله تعالى : « لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » الآية فإنها بيان للعهدين فى قوله سبحانه : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » الأول للأول ، والثانى للثانى . وقوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ » . فإن كلمة « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » بيان لكلمة « الطَّارِق » التى قبلها . وغير ذلك كثير يعلم بالتدبُّر لكتاب الله تعالى .

(٢) ومثال ماجاء فى السنة شرحاً للقرآن،أنه صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك فى قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » وأيَّد تفسيره هذا بقوله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » وفسَّر صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعَرْضِ حين قال : « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » فقالت له السيدة عائشة:أَوَ لَيْسَ قد قال الله تعالى:« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ

حِسَاباً يَسِيراً، وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً» فقال ﷺ : « ذَٰلِكِ الْعَرْضُ » بياناً للحساب اليسير . وكذلك فسر الرسول ﷺ القوة بالرمى فى قوله سبحانه : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » . وفى صحيح كتب السنة من ذلك شيء كثير .

وكلا هذين القسمين لاشك فى قبوله . أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره ، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى . وأما الثانى فلأن خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، ووظيفته البيان والشرح ، مع أننا نقطع بعصمته وتوفيقه . قال تعالى : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(٣) بقى القسم الثالث وهو بيان القرآن بما صحّ وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم : قال الحاكم فى المستدرك : « إن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع » كذلك أطلق الحاكم . وقيده بعضهم بما كان فى بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأى فيه ؛ وإلا فهو من الموقوف .

ووجهة نظر الحاكم ومن وافقه، أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل، وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب ، ولهم من سلامة فطرتهم ، وصفاء نفوسهم ، وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان ، ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله ، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه .

أما ماينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء : منهم من اعتبره من المأثور . لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً . ومنهم من قال : إنه من التفسير بالرأى .

وفى تفسير ابن جرير الطبرى كثير من المنقول عن الصحابة والتابعين فى بيان القرآن الكريم .

بَيْدَ أن الحافظ ابن كثير يقول : إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرُّواة من

زنادقة اليهود والفرس ومُسْلِمَةِ أهل الكتاب . قال بعضهم: وجُلُّ ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم ، ومايتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ،ومدينة إرَمَ ذاتِ العماد ، وسحر بابل ، وعَوْج بن عُنُق ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتهاوما يكون فيها وبعدها. وجُلُّ ذلك خرافات ومفتريات ، صدَّقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة رضى الله عنهم . ولذلك قال الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير، والمَلَاحِمُ ، والمَغَازِى »[1] وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة ، كبعض كتب الحديث ، وبيان قيمة أسانيدها ، ثم يذكر فى التفسير مايصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه ، لكن يعزى إلى مخرجه اه ما أردنا نقله .

د — المفسرون من الصحابة

قال السيوطى فى الإتقان : « اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس . وأُبىُّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من رُوى عنه منهم ، علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه . والرواية عن الثلاثة قليلة جداً . وكأن السبب فى ذلك تقدُّم وفاتهم » اه .

ومعنى هذا السبب فى إقلال الثلاثة : أبى بكر وعمر وعثمان من التفسير ، أنهم كانوا فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله،واقفون على أسرار التنزيل ،عارفون بمعانيه وأحكامه ؛ مكتملة فيهم خصائص العروبة .أما الإمام علىٌّ رضى الله عنه ، فقد عاش بعدهم حتى كثرت حاجة الناس فى زمانه إلى من يفسر لهم القرآن ، وذلك من اتساع رقعة الإسلام ، ودخول عجم فى هذا الدين الجديد كادت تذوب بهم خصائص العروبة ، ونشأة جيل من

---

(١) لعل مراد الإمام أحمد المبالغةُ تنبيهاً للأذهان إلى أن الصحيح قليل بالنسبة إلى غير الصحيح . وليس مراده عموم النفى ، فإن هناك روايات فى التفسير صحيحة ؛ ولا ريب. وسيأتى مانقل عن الإمام أحمد نفسه فى صحيفة التفسير التى رواها علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس .

أبناء الصحابة كان فى حاجة إلى علم الصحابة . فلا جرم كان ما نقل عن علىّ أكثر مما نقل عن غيره ، أضف إلى ذلك ما امتاز به الإمام من خصوبة الفكر ، وغزارة العلم ، وإشراق القلب : ثم أضف أيضاً سبقَ اشتغالهم بمهامّ الخلافة وتصريف الحكم دونه .

روى مَعْمَر عن وهب بن عبد الله بن أبى الطُّفَيْل قال : شهدت علياً رضى الله عنه يخطب ويقول : سَلُونى ، فوَ اللهِ لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم . وسَلُونِى عن كِتَابِ اللهِ ، فوَ اللهِ ما من آيةٍ إلّا وأنا أعلمُ أبِلَيْلٍ نزَلَتْ أمْ بِنهارٍ ؟ أفى سهلٍ أمْ فى جبَلٍ ؟ » .

وفى رواية عنه قال: « وَاللهِ مانزَلَتْ آيةٌ إلاَّ وقد علمتُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ؟ وأين أنزلت؟ إنَّ رَبِّى وَهَبَ لى قلباً عَقُولاً ، ولساناً سَؤُولا » اه . .

وقد كثرت الروايات أيضاً عن ابن مسعود . وحسبك فى معرفة خطره وجلالة قدره ما رواه أبو نعيم عن أبى البحترى قال : قالوا لعلى : أخبرنا عن ابن مسعود ؟ قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ! .

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن بشهادة رسولِ اللهِ ﷺ . فعن مجاهد قال : قال ابن عباس ، قال لى رسول الله ﷺ . « نِعْمَ تَرْجُمَانُ القرآنِ أنْتَ » ! وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « نِعْمَ تَرْجُمَانُ القرآنِ عَبدُ اللهِ ابن عباس . وقد دعا له النبي ﷺ بقوله : اللهم فَقِّهْهُ فى الدين وعَلِّمْهُ التَّأويل » ورُوى أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن السموات والأرض كانتا رَتقاً ففتقناهما . أى من قوله تعالى : « أوَلَمْ يرَ الَّذِينَ كَفرُوا أنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا » فقال : اذهب إلى ابن عباس ، ثم تعال أخبرنى . فذهب ، فسأله فقال : « كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات » فرجع

إلى ابن عمر فأخبره فقال : « قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت أنه أوتي علماً » اهـ .

لكن يجب الحيطة فيما عُزِيَ إلى ابن عباس من التفسير ، فقد كثر عليه فيه الدّسُّ والوضْع ، كما سيأتي .

وكذلك أُبَيُّ بن كعب — رضي الله عنه — بن قيس الأنصاري أحد كتّاب الوحي . فقد كان رضي الله عنه من المكثرين في التفسير المبرّزين فيه ، كما اشتهر في القراءة وبرّز فيها . روى له في التفسير أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب . وإسناده صحيح .

وأما الباقي من العشرة ، وهم زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبدالله بن الزبير ، فمع شهرتهم في التفسير كانوا أقل من الأربعة الذين قبلهم .

وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة ، شيء من التفسير ، بَيْدَ أنه قليل . منهم أنس ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وعمرو بن العاص ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين .

هـ — تفسير ابن عباس

الرواية عنه واختلاف الرواة فيها

أكثر الصحابة تفسيراً ابن عباس . ذلك لما عرفت من أنه ترجمان القرآن ، ولتأخر الزمان به حتى اشتدّت حاجة الناس إلى الأخذ عنه بعد اتساع الإسلام ، واستبحار العمران ، ولانقطاعه وتفرغه للنشر والدعوة والتعليم ، دون أن تشغله خلافة ، أو تصرفه سياسة وتدبير لشئون الرعية ، غير أن الرواية عنه مختلفة الدرجات .

قال السيوطي في الإتقان : «ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة بروايات

وطرق مختلفة ، فمن جيِّدها طريق على بن أبى طلحة الهاشمى عنه . قال أحمد بن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيراً » أسنده أبو جعفر النحاس .

قال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب اللَّيث ، رواها عن معاوية ابن أبى صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس . وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه كثيراً فيما يعلق عن ابن عباس . وقال قوم : لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير ، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير . ثم قال ابن حجر : بعد أن عُرفت الواسطة وهو ثقة ، فلا ضير فى ذلك اه .

وأخرج منها ابن جرير الطبرى ، وابن أبى حاتم ، وابن المنذر كثيراً ، ولكن بوسائط بينهم وبين أبى صالح .

ومن جيِّد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين . وكذا طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير عنه . هكذا بالترديد ، وإسنادها حسن . وقد أخرج فيها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً .

وأوهى طرقه طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . وكذا طريق مقاتل بن سليمان وطريق الضحَّاك بن مُزاحِم عن ابن عباس منقطعة ، فإن الضحاك لم يلقه . وبالجملة فقد روى عن الشافعى أنه قال : لم يَثْبُتْ عن ابن عباسٍ فى التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث » .

و – الرواية عن غير ابن عباس من الصحابة

نحدثك عن ثلاثة أعلام من الصحابة فى التفسير ، غير ابن عباس :

(أولهم) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، كان سادس ستة ما على وجه الأرض مسلم سواهم ، وكان خادم رسول الله ﷺ يلبسه نعليه ، ويمشى معه وأمامه ، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقف ومؤدب . لذلك عدّوه من أعلم الصحابة بكتاب الله ومعرفة محكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه . قال فى الإتقان : قد روى عن ابن مسعود فى التفسير أكثر مما روى عن علىّ كرم الله وجهه . وأخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والله الذى لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ؟؟ . ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » . روى عنه كثيرون ، ولكن تتبعهم العلماء بالنقد والتجريح .

(ثانيهم) على بن أبى طالب رضى الله عنه . هو ابن عم رسول الله ﷺ ؛ وصهره على ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، والخليفة الرابع من بعده . ولد رضى الله عنه وشبّ ودرج فى الإسلام ؛ فلم يسجد لصنم قط . وكان لصلته الوثيقة برسول الله ﷺ أثر عظيم فى استنارة نفسه ، وغزارة مادته ، وسعة علمه ، بله ما وهبه الله من فطرة صافية ، وذكاء نادر ، وعقل موهوب . حتى ضرب به المثل فى حل المشاكل فقيل : « قضيةٌ ولا أبا حسن لها » . قال ابن عباس « ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب » اهـ وحسبك هذه الشهادة من ترجمان القرآن .

لكن ابتلى علىّ رضى الله عنه بشيعة أسرفوا فى حبه ؛ وجاوزوا الحد فى تقديره ، فنسبوا إليه ما هو منه برىء ، وقوّلوه ما لم يقل ، لذلك يلاحظ أن المروى عن على فيه دسٌ

كثير ، تصدّى له صيارفة النقد من رجال الرواية ، حتى مازوا ماصحّ مما لم يصح « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

(ثالثهم) أبى بن كعب الأنصارى . كان من أعلام القراء ، ومن كتاب الوحى ، وممن شهد بدراً . ورد فيه : « وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبى بن كعب » روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب نسخة كبيرة فى التفسير ، أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم منها كثيراً وكذا أخرج الحاكم فى مستدركه ، وأحمد فى مسنده .

ز — المفسرون من التابعين

طبقاتهم ، ونقد المروى عنهم

نستطيع أن نعتبر التابعين طبقات ثلاثاً : طبقة أهل مكة ، وطبقة أهل المدينة ، وطبقة أهل العراق .

طبقة أهل مكة

أما طبقة أهل مكة من التابعين ، فقد كانوا أعلم الناس بالتفسير . نقل السيوطى عن ابن تيمية أنه قال : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس . كمجاهد وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاووس » .

(أما مجاهد) فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس . ولذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أقطاب العلم وأئمة الدين ، قال النووى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وقال الفضيل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة . وعنه أيضاً قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقف

عند كل آية منه ، أسأله عنها : فيم أنزلت ؟ وكيف كانت ؟ .

ولا تعارض بين هاتين الروايتين ، فالإخبار بالقليل لا ينافى الإخبار بالكثير . ويحتمل أن عرضه القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة كان طلباً لضبطه وتجويده وحسن أدائه . وأما عرضه إياه ثلاث مرات فكان طلباً لتفسيره ومعرفة أسراره وحكمه وأحكامه . كما يدل عليه قوله : أقف عند كل آية منه أسأله عنها : فيم أنزلت وكيف أنزلت ؟ ؟ .

(وأما عطاء وسعيد) فقد كان كل منهما ثقة ثبتاً فى الرواية عن ابن عباس . قال سفيان الثورى : خذوا التفسير عن أربعة : عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك . وقال قتادة : أعلم التابعين أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير الخ . وقال أبو حنيفة : ما لقيت أحداً أفضل من عطاء .

(وأما عكرمة مولى ابن عباس) فقد قال الشافعى فيه : ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة اه . وقال عكرمة : كان ابن عباس يجعل فى رجلى الكبل (١) ويعلمنى القرآن والسنة . وكان يقول : لقد فسرت ما بين اللوحين (لعله يريد ما بين دفتى المصحف) . وكل شىء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس اه .

(وأما طاووس بن كيسان اليمانى) فقد كان من رجال العلم والعمل . وأدرك من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نحو الخمسين . ورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة وكان مجاب الدعوة . قال فيه ابن عباس : إنى لأظن طاووساً من أهل الجنة اه . رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) الكبل « بفتح الكاف وكسرها مع سكون الباء » : القيد ، انظر القاموس .

طبقة أهل المدينة :

(منهم) زيد بن أسلم . وقد أخذ عنه ابنه عبد الرحمن ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة .

(ومنهم) أبو العالية ، وهو من رواة أُبى بن كعب . وقد روى عنه الربيع ابن أنس .

(ومنهم) محمد بن كعب القرظى الذى قال فيه ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظى .

طبقة أهل العراق :

(منهم) مسروق بن الأجدع . كان ورعاً زاهداً صحب ابن مسعود . قال ابن معين فيه : « ثقة لا يسأل عنه » . وكان القاضى شريح يستشيره فى معضلات المسائل . روى عنه الشعبى وأبو وائل وآخرون لصدق روايته وأمانته .

(ومنهم) قتادة بن دعامة . هو من رواة ابن مسعود ، شهد له ابن سيرين بالضبط والحفظ . وقال فيه ابن المسيب : مارأيت عراقياً أحفظ من قتادة . غير أنه كان يخوض فى القضاء والقدر ، فتحرَّج بعض الناس من الرواية عنه . وقد احتجَّ به أرباب الكتب الصحيحة .

(ومنهم) أبو سعيد الحسن البصرى . قال ابن سعد فيه: كان ثقة مأموناً وعالماً جليلاً ، وفصيحاً جميلاً ، وتقياً نقيا . حتى قيل إنه سيد التابعين .

(ومنهم) عطاء بن أبى مسلم الخراسانى . أصله من البصرة لكنه أقام بخراسان بعد أن دخلها . لذلك نسب إليها . كان من أجلاء العلماء ، غير أنه كان مصاباً بسوء الحفظ ، لذلك اختلفوا فى توثيقه .

(ومنهم) مرة الهمذانى الكوفى . لكثرة عبادته قيل له : مرة الطيب ، ومرة الخير ،

أخذ عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة ، وروى عنه الشعبي وغيره .

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين ، استمدوا آراءهم وعلومهم مما تلقوه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وعنهم أخذ تابعو التابعين ، وهكذا ، حتى وصل إلينا دين الله وكتابه وعلومه ومعارفه سليمة كاملة ، عن طريق التلقي والتلقين ، جيلاً عن جيل ، مصداقاً لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولقوله ﷺ « يَحمِلُ هذا ٱلْعِلْمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عنهُ تَحْرِيفَ ٱلْغَالِينَ ، وَٱنْتِحَالَ ٱلْمُبْطِلِينَ ، وَتَأوِيلَ ٱلْجَاهِلِينَ » .

نقد المروى عن التابعين :

يلاحظ على ما روى عن التابعين اعتبارات مهمة ، تثير الطعن فيه ، وتوجِّه النقد إليه :

(منها) أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة ، ولم يتشرفوا بأنوار الرسول ، فيغلب على الظن أن ما يُروى عنهم من تفسير القرآن ، إنما هو من قبيل الرأى لهم ، فليس له قوة المرفوع إلى النبي ﷺ .

(ومنها) أنه يندر فيه الإسناد الصحيح .

(ومنها) اشتماله على إسرائيليات وخرافات انسابت إليه تارةً من زنادقة الفرس ، وأخرى من بعض مُسْلِمَةِ أهل الكتاب ، إما بحسن نية وإما بسوء نية .

ح - ضعف الرواية بالمـــأثور وأسبابه

علمنا أن الرواية بالمأثور، تتناول ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن . وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو التابعين على رأى .

أما تفسير بعض القرآن ببعض ، وتفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ ، فلا خلاف فى وجاهته وقبوله. وأما تفسير القرآن بما يعزى إلى الصحابة والتابعين فإنه يتطرق إليه الضعف عن وجوه :

(أولها) مادسّه أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود والفرس، فقد أرادوا هدم هذا الدين المتين عن طريق الدسّ والوضع ، حينما أعيتهم الحيل فى النيل منه عن طريق الحرب والقوة، وعن طريق الدليل والحجة .

(ثانيها) مالفقه أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجاً لتطرفهم ، كشيعة علىّ المتطرفين الذين نسبوا إليه ماهو منه برىء . وكالمتزلفين الذين حطبوا فى حبل العباسيين، فنسبوا إلى ابن عباس مالم تصح نسبته إليه ، تملقاً لهم واستدراراً لدنياهم .

(ثالثها) اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، ونقل كثير من الأقوال المعزوّة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسنادٍ ولا تحرٍّ ، مما أدّى إلى التباس الحق بالباطل . زد على ذلك أن من يرى رأياً صار يعتمده دون أن يذكر له سنداً ، ثم يجىء من بعده فينقله على اعتبار أن له أصلاً ، ولا يكلف نفسه البحث عن أصل الرواية ، ولا من يرجع إليه هذا القول .

(رابعها) أن تلك الروايات مليئة بالإسرائيليات، ومنها كثير من الخرافات التى يقوم الدليل على بطلانها . ومنها مايتعلق بأمور العقائد التى لايجوز الأخذ فيها بالظن ولا برواية

الآحاد، بل لابد من دليل قاطع فيها، كالروايات التي تتحدث عن أشراط الساعة، وأهوال القيامة، وأحوال الآخرة، تذكرُ على أنها اعتقاديات في الإسلام.

(خامسها) أن مانقل نقلاً صحيحاً عن الكتب السابقة التي عند أهل الكتاب كالتوراة والإنجيل، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوقف فيه، فلا نصدقهم لاحتمال أنه مما حرفوا في تلك الكتب، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوه منها، فقد قال تعالى فيهم: إنهم «أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والاختلاف في التفسير على نوعين: منه مامستنده النقل فقط، ومنه مايعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره، ومنه مايمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه مالا يمكن ذلك. وهذا القسم (أي الذي لايمكن معرفة صحيحه من ضعيفه) عامته مالا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته. وذلك كاختلافهم في لون كلب أهل الكهف واسمه، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، وفي قدر سفينة نوح وخشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل. فما كان منها منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قبلَ. ومالا بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب وقفَ عن تصديقه وتكذيبه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثكم أهلُ الكتابِ فلاَ تصدقوهمْ ولاَ تكذبوهمْ». وكذا مانقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب. فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. ومانقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقلُّ من نقل التابعين. ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم؟.

وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجودٌ كثيراً. ولله الحمد،

وإن قال الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير وَالْمَلَاحِمُ والمغَازى » ، وذلك لأن الغالب عليها المراسيل .

وأما ما يُعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ... ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ فقال: (إحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معانٍ اعتقدوها ؛ لتأييدها به . (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عزّ وجل ، والمنزل عليه ؛ والمخاطب به » اه ما أردنا نقله بتصرف قليل .

قال بعضهم : « هذا وإن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد ، فإنه لم يَعْنِ به أنه لا يوجد فى تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . وإنما يَعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل ، وما صحّ سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتجُّ به .

إلى أن قال : ثم إن أكثر مارُوى فى التفسير المأثور أو كثيره ، حجابٌ على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكّية للأنفس ، المنوِّرة للعقول . فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً » اه ما أردنا نقله .

وكلمة الإنصاف فى هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان : (أحدهما) ماتوافرت الأدلة على صحتّه وقبوله ، وهذا لا يليق بأحد ردُّه ، ولا يجوزُ إهماله وإغفاله ، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هَدْى القرآن ، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن .

(ثانيهما) مالم يصح لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها . وهذا يجب ردُّه ولايجوز قبوله ولا الاشتغال به ؛ اللهم إلا لتمحيصه والتنبيه إلى ضلاله وخطئه حتى لا يغتر به أحد . ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّوْن الصحة فيما ينقلون ، ويزّيفون ماهو باطل أو ضعيف ولا يحابون ولا يجبنُون .

ولعل الذين أطلقوا القول فى رد المأثور إنما أرادوا المبالغة ؛ كما علمت فى توجيه كلمة الإمام أحمد بن حنبل . وعذرهم أن الصحيح منه قليل نادر ونزرٌ يسير ، حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث » أى مع كثرة ماروى عنه . وقد أشار ابن خلدون إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وإنما غلبت عليهم البداوة والأُمية . وإذا تشوّفوا إلى معرفة شىء مما تتشوف إليه النفوس البشرية فى أسباب المكوّنات وبَدْءِ الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستفيدون منهم . إلى أن قال : وهؤلاء مثل كعب الأحبار ؛ ووهب ابن منبِّه ، وعبد الله بن سلام . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم وتُلُقِّيَتْ بالقبول ، لما كان لهم من المكانة السامية . ولكن الراسخين فى العلم قد تحرّوا الصحة ، وزيفوا مالم تتوافر أدلّة صحته اه بتصرف .

ملحوظة :

إياك أن تفهم هنا من عبارة ابن خلدون أو ابن تيمية أو غيرهما مايجعلك تخوض مع الخائضين فى هؤلاء الأعلام الثلاثة : عبد الله بن سلام ، ووهب بن منبِّه ، وكعب الأحبار . فقد ضلّ بعض الأدباء والمؤرخين من كبار الكتاب فى هذا العصر ، حين زعموا ذلك ، حتى لقد سلكوا عبد الله بن سلام الصحابى الجليل فى سلكٍ واحد مع عبد الله بن سبأ اليهودى الخبيث : الذى تظاهر بالإسلام ثم كاد له شر الكيد ، فتشيَّع لعلىٍّ ، وزعم أن الله حلّ فيه ، وطعن على عثمان ، وأظهر الرفض عند حكم الحكمين بصفِّين ، ودعا الناس إلى ضلاله الأثيم ، حتى نُفى مراراً .

والحقيقة أن ثلاثتنا هؤلاء عدول ثقات :

أما ابن سلام فحسبك أنه صحابى من خيرة الصحابة ، ومن المبشرين بالجنة ، يروى الترمذى عن معاذ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنهُ

عاشرُ عشرةٍ فى الجنةِ » وفيه نزلت آية : « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ » وآية : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » على ماجاء فى بعض الروايات .

وأما وهب بن مُنَبِّه فقد كان تابعاً ثقةً واسع العلم . روى عن أبى هريرة كثيراً وله حديث فى الصحيحين عن أخيه همّام . بلغ من تنسكه وصلاحه أنه لبث عشرين سنة يصلى الفجر بوضوء العشاء رضى الله عنه .

وأما كعب فقد كان تابعاً جليلا ، أسلم فى خلافه أبى بكر . وناهيك أن الصحابة أخذوا عنه ، كما أخذ هو عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مُرسلا . وله شيء فى صحيح البخارى وغيره .

ولكن يجب أن نفرق فى هذا المقام بين ما يصحُّ أن يقال فيهم وما يصح أن ينقل عنهم فأما ما يصح أن يقال فيهم فهو الثقة والتقدير على نحو ما ألمعنا . وأما الذى ينقل عنهم فمنه الصحيح وغير الصحيح . لكن عدم صحة مالم يصح لا يعلل باتهامهم وجرحهم؛ فقد علمت مَنْ هُمْ ؟ إنما يعلل بأحد أمرين :

(أولهما) رجال السند الذين ينقلون عنهم ، فقد يكون بينهم مُتهم فى عدالته أو ضبطه ، ولهذا يجب النظر فى سلسلة الرُّواة عنهم ، رجُلاً رجلا . ولدينا من كتب الجرح والتعديل ما يفى بهذه الغاية . ولا يكفى الاعتماد على ذكر السند فى كتاب كبير كتفسير ابن جرير ، فقد يذكر ابن جرير أو غيره أشياء غير صحيحة ، ويسوق أسانيدها ثم لا يبين المجروح من رجال السند ولا المعدَّل فيهم . وعذره فى ذلك أن أحوال الرجال كانت معروفة لأهل ذلك الزمان فيستطيعون أن يحكموا فى ضوء هذه المعرفة بقبول الخبر أو برده . أما نحن فى هذا الزمان المتأخِّر فقد أهملنا هذا الميزان ، ولم نُعْنَ بمعرفة حال الأسانيد والرجال ، فاللوم علينا لا على أولئك الأعلام ، ولا مَعْدَى لنا عن الاسترشاد بكتب الجرح والتعديل فى هذا المقام .

(الأمر الثانى) أن يكون أولئك الثلاثة قد رَوَوْا ما رووه على أنه مما كان فى

الاسرائيليات ، فتقبّلها الآخذون على أنها من الإسلاميات . ولهذا يجب النظر فى هذه المرويّات ، فإن كانت مما يقرره الإسلام قبلناها . وإن كانت مما يردّه رددناها ، وإن كانت مما سكت عنه سكتنا عنها عملاً بقوله ﷺ : « إذا حدّثكم أهلُ الكتابِ فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » . رواه البخارى بهذا اللفظ . ورواه أحمد والبزار من حديث جابر بلفظ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله لو كان موسى بين أظهركم ما حلّ له إلا اتباعى » . وسبب هذا الحديث أن النبى ﷺ علم أن عمر كتب شيئاً من التوراة عن اليهود ، فغضب ﷺ وقاله .

ط — تدوين التفسير بالمأثور
وخصائص الكتب المؤلفة فى ذلك

جاء قرن تابعى التابعين ، وفيه أُلِّفَتْ تفاسير كثيرة ، جمعت من أقوال الصحابة والتابعين . كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وعلى بن أبى طلحة ، والبخارى وآخرين . ومن بعدهم ألَّف ابن جرير الطبرى كتابه المشهور ، وهو من أجلّ التفاسير ثم ابن أبى حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، وابن حبان ، وغيرهم .

وليس فى تفاسير هؤلاء إلا ماهو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ماعدا ابن جرير فإنه تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح ، بعضها على بعض . وذكر الإعراب والاستنباط .

(١) تفسير ابن جرير

ابن جرير هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى . ولد سنة ٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين . وتوفى سنة ٣١٠ عشر وثلاثمائة . كان فريد عصره ، ووحيد دهره ، علماً وعملاً ، وحفظاً لكتاب الله ، وخبرة بمعانيه ، وإحاطة بالآيات ناسخها ومنسوخها ، وبطرق الرواية صحيحها وسقيمها ، وبأحوال الصحابة والتابعين .

لذلك كان تفسيره من أجلّ التفاسير بالمأثور وأصحها وأجمعها . لما ورد عن الصحابة والتابعين . عرضَ فيه لتوجيه الأقوال ، ورجح بعضها على بعض ، وذكر فيه كثيراً من الإعراب واستنباط الأحكام . وقد شهد العارفون بأنه لا نظير له فى التفاسير :

قال النووى فى تهذيبه : كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله . وقال أبو حامد الاسفراييني شيخ الشافعية : لو رحلَ أحد إلى الصين ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه .

ومن مزاياه أنه حرّر الأسانيد وقرّب البعيد ؛ وجمع ما لم يجمعه غيره ، غير أنه قد يسوق أخباراً بالأسانيد غير صحيحة ثم لا ينبه على عدم صحتها . وقلنا إن عذره فى ذلك هو ذكر السند فى زمن توافر الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تنبيه منه . وهذا التفسير موجود إلى اليوم ومنتشر مطبوع ، وهو عمدة لأكثر المفسرين .

(٢) تفسير أبى الليث السمرقندى

هو تفسير بالمأثور . يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين ، غير أنه لا يذكر الأسانيد . وهو مخطوط فى مجلدين . وموجود فى مكتبة الأزهر .

(٣) الدر المنثور فى التفسير بالمـأثور

هو للإمام جلال الدين السيوطى ، قال فى مقدمته : إنه لخصه من كتاب ترجمان القرآن ، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ ، وهو مطبوع بمصر ، وقد ذكر فى كتابه الإتقان أنه شرع فى تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة ، والأقوال المعقولة ، والاستنباط والإشارات ، والأعاريب واللغات ، ونكت البلاغة ومحاسن البديع . وسماه مجمع البحرين ، ومطلع البدرين . وذكر أنه جعل كتاب الإتقان مقدمة له . وذكر فى خاتمة كتاب الإتقان نبذة صالحة من التفسير بالمأثور المرفوع إلى النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى سورة الناس .

(٤) تفسير ابن كثير

ابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر ، القرشى الدمشقى الشافعى المولود سنة ٧٠٥ المتوفى سـنة ٧٧٤ . وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً . نقل فيه عن النبى ﷺ وكبار الصحابة والتابعين . وقد أخرجته مطبعة المنار بمصر فى تسعة أجزاء . ومعه بأسفل الصفحات تفسير البغوى الآتى ذكرهُ ، وبآخره كتاب فضائل القرآن الذى يعتبر متمماً له .

(٥) تفسير البغوى

هو العلامة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى الفقيه الشافعى . كان إماماً فى التفسير والحديث . له التصانيف المفيدة ، ومنها معالم التنزيل . أتى فيه بالمـأثور ، ولكن مجرداً عن الأسانيد .

(٦) تفسير بقىّ بن مخلد

ذكر الإمام السيوطى فى طبقات المفسرين أن بقىّ بن مخلدِ بن يزيد بن عبد الرحمن

الأندلسى القرطبى أحد الأعلام وصاحب التفسير والسند . أخذ عن يحيى بن يحيى الليثى . ورحل إلى المشرق . ولقى الكبار بالحجاز ومصر وبغداد . وسمع من أحمد بن حنبل وسمع بالكوفة أبا بكر بن أبى شيبة . وسمع بمصر يحيى بن بكير . وسمع بالحجاز أبا مصعب الزهرى . وسمع بدمشق هشام بن عمار . وشيوخه مائتان وأربعة وثمانون رجلاً . وكان إماماً ، زاهداً ، صواماً ، صادقاً ، مجاب الدعوة ، قليل المثل ، بحراً فى العلم ، مجتهداً لا يقلد أحداً ، عُنِىَ بالأثر ، وليس لأحد مثل سنده فى الحديث ولا فى التفسير .

قال ابن حزم : أقطع أنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير ابن جرير ولا غيره. ولد سنة ٢٠٤ أربع ومائتين للهجرة . وتفسيره الموصوف بما ترى يؤسفنا أنه لم يكتب له البقاء ، ولم يظفر بما ظفر به تفسير ابن جرير من هذا الخلود .

« وكم فى الخدرِ أبهى منْ عروس ولكنْ للعروس الدهرُ ساعدْ »

(٧) أسباب النزول للواحدى :

هو أبو الحسن علىّ بن أحمد الواحدى النيسابورى : اقتصر فى تفسيره على بيان أسباب النزول بالمأثور ، وهذا نوع من التفسير لا مجال للتأويل فيه . وهو من أعظم ما ألف فى موضوعه ، على رغم توسط حجمه .

(٨) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس :

هو كتاب نفيس . تحدّث فيه مؤلفه عن الناسخ والمنسوخ وذكر أقوال العلماء فى ذلك مسندةً . وقد استوعب ماقيل فى النسخ ولو لم يكن عنده صحيحاً . وهذا نوع لا مجال للرأى فيه أيضاً ، بل سبيله الوحيدة هى الرواية . وهو معدود هنا من التفسير بالمأثور ، على ضرب من التوسع كما لا يخفى .

طرق المفسرين بعد العصر الأول

ثم إن كتب التفسير بالمأثور موسوعات كبيرة ، لا نستطيع الإحاطة بها ولا بأسماء

جميع مؤلفيها ، ولا بطريقة كل مؤلف فيها . غير أنا نستطيع أن نجمل القول فى طرق المفسرين بعد العصر الأول فنقول :

بعد عصر الأولين الذين ألفوا فى التفسير بالمأثور ، والتزموا ذكر السند بجملته ، جاء قوم صنفوا فى التفسير ؛ واختصروا الأسانيد ، ولم ينسبوا الأقوال لقائليها . فالتبس بذلك الصحيح وغيره . وصار الناظر فى تلك الكتب يظنها كلها صحيحة . بينما هى مفعمة بالقصص وبالإسرائيليات على وجه لا تمييز فيه كأنها كلها حقائق . ومن هنا استهدفت رواياتهم للتجريح والطعن . ولولا ما يقوم به المحققون فى كل عصر من إحقاق الحق ودحض الباطل ، لانطمست المعالم ، واختلط الحابل بالنابل ، ولكان ذلك مثار مطاعن توجه بلا حساب إلى الإسلام والمسلمين . فقد ذكروا فى قصص الأنبياء ، وفى بدء الخليقة ، والزلازل ، ويأجوج ومأجوج ، وبرودة الماء الذى فى الآبار زمن الصيف ، وحرارته فى الشتاء . ذكروا فى ذلك كله ما يندى له الجبينُ خجلاً ، وما لا يتفق والحقائق العلمية أبداً . ويا ليتهم نبهوا على وضعه ! لو أنهم فعلوا لكان الأمر هيناً . ولكنهم لم يذكروا السند كما ذكر الأولون ليستطيع المطلع عليه نقده بالرجوع إلى كتب الجرح والتعديل . ثم لم يكلفوا أنفسهم الحكم على السند بعد محاكمته إلى كتب العدل والتجريح . « وتلك ثالثة الأثافى » .

وقد عنى بعض المفسرين بأن يسرد شتات الأقوال ، حتى إنه ذكر فى تفسير قوله سبحانه : « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلَا الضَّالِّينَ » نحو عشرة أقوال ، مع أن الوارد الصحيح تفسير المغضوب عليهم باليهود ، وتفسير الضالين بالنصارى . ولكن الولوع بكثرة النقول ، نأى بهم عن الاقتصار على التفسير المقبول .

وكذلك نلاحظ أن كل بارع فى فن يقتصر غالباً فى تفسيره على الفن الذى برع فيه . فالمبرِّز فى العلوم العقلية كالفخر الرازى ، أغرمَ باستعراض أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها فى تفسيره . والمبرز فى الفقه كالقرطبى ، أولعَ بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد على المخالفين . والمبرز فى النحو كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر ، يهتم أعظم الاهتمام بالإعراب ووجوهه ، ونقل قواعد النحو وفروعها .

وأصحاب المذاهب المتطرفة ، والنحل الضالة ، يقصدون إلى تأويل الآيات على ما يروّج مذاهبهم فى التطرف والضلال .

والأخباريون يعنيهم أن يستقصوا القصص والأخبار عمن سلف ، صحيحة كانت أو باطلة .

والإشاريون وأرباب التصوف تهمهم ناحية الترغيب والترهيب والزهد والقناعة والرضا . فيفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم . وعلى الإجمال نرى كل نابغة فى فن . أو داعية إلى مذهب أو فكرة ، يجتهد فى تفسير الآيات بما يوافق فنه ، ويلائم مشربه ، ويناصر مذهبه ، ولو كان بعيداً كل البعد عن المقصد الذى نزل من أجله القرآن .

ولقد غالى بعضهم فجعل القرآن مشتملا على العلوم الكونية ، كالطبيعة ، والكيمياء ، والحساب ، والجبر . وما إلى ذلك . وقد سبق أن حققنا ذلك فى المبحث الأول فارجع إليه إن شئت . وربما نعود إلى القول فى هذا الموضوع مرةً أخرى .

والخلاصة هنا : أنه يجب على المفسر ملاحظة أن القرآن كتاب هداية وإعجاز ، وأن يجعل هدفه الأعلى ، ومقصده الأسمى ، إظهار هدايات الله من كلامه ، وبيان وجوه إعجازه فى كتابه : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

التفسير المحمود والتفسير المذموم

تفسير الصحابة والتابعين ، وتفسير الذين اعتمدوا على أقوال الصحابة والتابعين بالأسانيد الصحيحة ، وتفسير أهل الرأى الموفَّق الذين جمعوا بين المأثور الصحيح مع حذف

أسانيده وبين آرائهم العلمية المعتدلة ، كل هذه الثلاثة من التفسير المحمود . ويغلب هذا النوع الثالث فى عصرنا الحاضر ؛ إذ تجمع التفاسير لدينا بين معانٍ مأثورة ، ومعان توسعوا فى ذكرها عن طريق الرأى والاجتهاد المعتمد على العلم والاعتدال .

وهناك نوع رابع ، هو تفسير أهل الأهواء والبدع وحكمه أنه مذموم قالوا : وأشهر الغارقين فى هذا الضلال الرمانى والجُبَّائى والقاضى عبد الجبار . ثم اختلفوا فى الزمخشرى ، فمنهم من عدّ تفسيره من هذا النوع لما فيه من مناحى الاعتزال . ومنهم من قال : إن فيه فوائد مهمة . يريد بذلك أن يلتمس له المعاذير وأن يُغَلِّب جانب الفوائد التى فيه على جانب الاعتزال الذى يحتويه . ولكن عدالة الأحكام تقضى بأن نسوى بين جميع التفاسير وأن نحاكمها إلى مبدأ واحد ، فما وافق منها وجه الصواب وكان بمنأى عن البدع والأهواء فهو محمودٌ . وما تورَّط منها فى الخطأ وتخبَّط فى الهوى والبدعة فهو مذموم ، لا فرق بين الزمخشرى وغير الزمخشرى ، ولا بين معتزلى وغير معتزلى .

ميزان المدح والذم

ثم إن هناك ميزاناً لما يحمد من التفسير وما يذمّ ، وهو الفيْصَل الذى يجب أن نحكِّمه ونزن كل تفسير به ، فما رجح فى هذا الميزان قبلناه وحمدناه ، وما طاش رفضناه وذممناه . والمدح والذم درجات بعضها فوق بعض ، على حسب استيفاء التفسير لوجوه المدح والذم أو نقصها قليلا أو كثيراً . وسنضع هذا الميزان بين يديك تحت عنوان « منهج المفسرين بالرأى » . فانتظره رويداً .

غير أنا نسترعى نظرك هنا إلى كلمة أهل البدع والأهواء ، ونريد أن تكون موفقاً فى حكمك على أية طائفة أو أى شخص ببدعة أو هوى ، وإلا خيف عليك أن تكون أنت صاحب البدعة والهوى فى حكمك . « وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن

سَبِيلِ ٱللهِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ » .

غلطة التعصُّب للرأى

واعلم أن هناك أفراداً بل أقواماً تعصَّبوا لآرائهم ومذاهبهم ، وزعموا أن من خالف هذه الآراء والمذاهب كان مبتدعاً متَّبعاً لهواه ، ولو كان متأوِّلاً تأويلاً سائغاً يتسع له الدليل والبرهان . كأن رأيهم ومذهبهم هو المقياس والميزان ، أو كأنه الكتاب والسنة والإسلام . وهكذا استزلَّهم الشيطان وأعماهم الغرور .

ولقد نجم عن هذه الغلطة الشنيعة أن تفرَّق كثير من المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وكانوا حرباً على بعضهم وأعداء . وغاب عنهم أن الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم ، وأن مذاهبهم وآراءهم أضيق من الكتاب والسنة والإسلام ، وأن فى ميدان الحنيفية السمحة متسعاً لحرية الأفكار ، واختلاف الأنظار ، مادام الجميع معتصما بحبل من الله . ثم غاب عنهم أن الله تعالى يقول : « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » ويقول جلَّ ذكره : « إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » ويقول تقدَّست أسماؤه : « وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ . وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » .

لمثل هذا أربأ بنفسى وبك أن نتهم مسلماً بالكفر أو البدعة والهوى لمجرد أنه خالفنا فى رأى إسلامى نظرى ، فإن الترامى بالكفر والبدعة من أشنع الأمور . ولقد قرَّر علماؤنا أن الكلمة إذا احتملت الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ثم احتملت الإيمان من وجه واحد ، حُملت على أحسن المحامل وهو الإيمان . وهذا موضوع

مفروغٌ منه ومن التدليل عليه . لكن يفتُّ فى عضدنا غفلة كثير من إخواننا المسلمين عن هذا الأدب الإسلامى العظيم ، الذى يحفظ الوحدة ، ويحمى الأخُوَّة ، ويُظهر الإسلامَ بصورته الحسنة ووجهه الجميل من السماحة واليسر ، واتساعه لكافة الاختلافات الفكرية والمنازع المذهبية ، والمصالح البشرية ، ما دامت معتصمة بالكتاب والسنة على وجه من الوجوه الصحيحة التى يحتملها النظر السديد والتأويل الرشيد .

ولقد حدث مثل هذا الاختلاف على عهد رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فما تنازعوا من أجله ، بل أخذ كلٌّ برأيه وهو يحترم الآخر ورأيه ، وأقرَّهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يَعِب أحداً منهم ، على رغم أنه يترتَّب على بعض هذه الاختلافات أن ترك بعضهم الصلاة فى وقتها اجتهاداً منه ، إذ قال الرسول ﷺ يوماً لفئة من أصحابه « لا يصلين أحدُكم العصرَ إلا فى بَنى قُرَيْظَةَ » فسافروا وجدُّوا ، ولكن الغزالة تدلَّت للغروب وهم لا يزالون ضاربين فى الأرض . ولمَّا يَصلوا . هنالك اجتهدوا ، فمنهم من وقف عند ظاهر النص فترك العصر حتى خرج وقته ما دام لم يَصِلْ إلى بنى قريظة . ومنهم من تأوَّل النصَّ وحمله على الكناية فى الإسراع فصلَّى حين خاف على الوقت من قبل أن يصل إلى بنى قريظة .

نقول : إن مثل هذا الخلاف حدث على عهد صاحب الرسالة وأقرَّه ، تيسيراً على المسلمين وإعلاماً بأن الإسلام دين الكافة ، يسع جميع البشر فى كل العصور والأحوال . وشهد المسلمون بعد ذلك عصراً سعيداً كان أئمة الدين فيه يختلفون فيما بينهم كثيرا ، ولكنهم كانوا بجانب هذا يتكارمون ويتعاونون ويتراحمون كثيرا .

وإن كنت فى شك فاسأل التاريخ عن إكرام مالك للشافعى ، واحترام الشافعى لأحمد بن حنبل حتى ورد أنه كان يتبرَّك بغُسالة قميصه ، أى يتبرك الأستاذ الإمام

بغسالة قميص تلميذه المخالف له فى الرأى والاجتهاد ! ثم سَل التاريخ عن معاونة صاحب أبى حنيفة للشافعى ، ودفعه إليه كتبه فى كرم وحسن ضيافة وصدق محبة ! ولا تنسَ إباء مالك على الرشيد أن يحمل الناس فى بلاد الإسلام كلها على مُوَطَّئِهِ ومذهبه ، ويعتذر إليه بأن الإسلام أوسع من موطئه ومذهبه ، وأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرَّقوا فى البلاد وَلِكلٍّ وجْهَةٌ » .

أرأيتَ هذا النُّبل والطُّهر : أَجَلْ أَجَلْ ! ! . ولكنك ستقضى الأسف حين ترى بجانبه فئات من المسلمين أيضاً تراشقوا بالكفر ، وتراموا بالشرك ، وتقاذفوا بالتبدُّع والهوى ، لمجرد تأويل يستسيغه النظر ، ويتَّسع له صدر الاستدلال . ثم اتسع الخرق على الراقع فى بعض الظروف حتى دارت معارك طاحنة بين صفوفٍ كلُّها مسلمة ، وأُريقت دماء زكية كلها إسلامية ! ولا نزال نشهد من مثل هذا الصراع القائم على التنطع مشاهدَ ما كان أغنانا عنها ، وما كان أحرانا بالحذر منها ، خصوصاً بعد ما سمعنا من الآيات ، وبعد أن أقر الرسول أمثال هذه الخلافيات ، وبعد أن قال فى حديث واحد ثلاث مرات : « هَلَكَ ٱلْمُتَنَطِّعُونَ » . وهى كلمة صغيرة ولكنها كبيرة ، تُحَذِّر وتنذر ، وتمثِّل الهلاك جاثماً فى التنطُّع بأشكاله وألوانه ، فى الأنفس والأعراض والأموال ، وفى الجماعات والأفراد على سواء .

لا أريد أن أطيل فى هذا ، ولكنى أريد أن أقرِّر وأ كرِّر ، أن الحكم على فرد أو جماعة بالبدعة والهوى ، لا يجوز أن يكون مبنيًّا على غير بدعة أو هوى .

ونرى أن من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى ، أن يرمى بعض المغالين فى الاعتزال إخوانهم من أهل السنة بأنهم حمير فى جهالتهم ، وبأنهم على هَوًى فى عقيدتهم ، ولم يكفهم أن يقولوا ذلك نثراً ، بل ردَّدوه شعراً : وأنشدوا ـ سامحهم الله ـ :

« لجماعةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً وَجماعةٌ حُمُرٌ ـ لعمرى ـ مُوكَفه » الخ

وكذلك نرى من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى أن يرمى بعض المغالين من أهل السنة إخوانهم المعتزلة بالشرك والوثنية ، لاعتقادهم أن العبد خالق لأفعال نفسه الاختيارية .

ونعتقد أن كلتا الطائفتين لو أنصتت إلى وجهة نظر صاحبتها فى هدوء ونَصفة ، لاجتمعتا على الإنسانية التى تجمع الجميع ، وعلى الإسلام الذى يؤلف بين الجميع ، وعلى الاحترام الذى يجب أن يسود الجميع ، فإن لكلٍّ شِرْعَةً ومنهاجاً فى حدود الإسلام وأدلة الاسلام .

ولنقف برهةً بجانب هذا المثال ، مثال خلق الأفعال ، ليتّضح الحال ، ولنقيس عليه النظائر والأشباه عند الاختلاف والاشتباه ، ولنعلم أن المتخالفين فى ذلك مازالوا مع خلافهم إخواناً مسلمين ، تظلُّهم راية القرآن ، ويضمهم لواء الإسلام .

فى القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شىء ، وأن مرجع كل شىء إليه وحده ، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه . مثل قوله عزّ وجلّ : « اَللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ . هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ . وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ . مَنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا . وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ . إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ . فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ . لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ . وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَى »

وكذلك يقول النبى ﷺ : « إِنْ أَصَابَكَ شيء فلا تَقُلْ لو أَنِّى فعلتُ كذا كانَ كذا وكذا . ولـٰكن قل : قَدَّرَ ٱللَّهُ وما شاءَ فعلَ » ويقـول : « ٱلْإِيمَانُ أن تؤمنَ باللهِ وملائـكتِهِ وكتُبِهِ ورُسـلِهِ واليومِ ٱلْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » ويقول : « يَامُقَلِّبَ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » . إلى غير ذلك .

هذه النصوص وأمثالها ، إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يردَّ الأمور كلها إلى الله معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له فى ملـكه ولا فى ناحية من ملـكه ، وهى أفعـال التـكاليف من عباده ، وكأن نسبة الأفعال إلى العباد هى الأخرى محض فضل من الله، على حدِّ ماقال ابن عطاء الله : « من فضلهِ وكرمه عليك ، أن خلق العمل ونسبه إليك » .

ويُظاهِر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية ، ناطقة بوحدانية الله فى كل شىء ، وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختاره من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لهـا لـكان عالمـاً بتفاصيلها ، ولـكنه يشعر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جداً من عمله الاختيارى دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشى وحركات المضغ فى الأ كل ونحوها . وإذاً فليس العبد هو الخالق لها . « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ؟ » .

بجانب هذا توجد نصوص كثيرة أيضاً من الـكتاب والسنة ، تنسب أعمـال العباد إليهم ، وتعلن رضوان الله وحبَّه للمحسنين فيهـا ، كما تعلن غضبـه وبغضه المسيئين منهم . من ذلك قوله سبحانه : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ

يَسْبِقُونَا أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ . وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وكذلك نقرأ في السنة النبوية : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له * بادِرُوا بالأعمال فِتَناً كقِطَعِ الليل المظلم . الكَيِّسُ مَنْ دانَ نفسه وعمل لما بعدَ الموتِ * ياعباسُ بن عبدِ المطلب اعمَلْ لا أُغني عنك مِنَ اللهِ شيئاً ، يافاطمةُ بنتَ محمدٍ اعمَلِي لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً » إلى غير ذلك .

وهذه نصوصٌ إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يردَّ أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسنوا وعقابها إن أساءوا . ويُظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بعدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موجداً لما اختار من أعماله لما كان ثمَّةَ وجهٌ لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة . وكيف يُثاب أو يعاقب على ماليس له ولم يصدر منه .

غيري جنى وأنا المُعذَّبُ فيكمُ فكأنني سَبَّابةُ المتندِّمِ

أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التى بجانبها ، فرجّحوها وقالوا : إن العبد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، إنما هى خلق الله وحده . وإذا قيل لهم : كيف يُثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجده هو ؟ وكيف يتفّق هذا وما هو مقرّر من عدالة الله وحكمته فى تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد – وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم – كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع للمكلفين .

وهكذا حملوا النصوص الأولى على الخلق ، وحملوا الثانية على الكسب ، جمعاً بين الأدلّة . ثم إذا قيل لهم : ما هذا الكسب اختلف الأشعرى والماتريدى فى تحديده : أهو مقارنة القدرة القديمة للحادثة أم هو العزم المصمّم ؟ ولكلٍّ وجهةٌ نظر يطول شرحها وتوجيهها .

أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما يظاهرها من برهان العقل ، فرجّحوها وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية . وإذا قيل لهم : أليس الله خالق كل شىء ومنها أعمال العباد ؟ قالوا : بلى إنه خالق كل شىء حتى أعمال عباده الاختيارية بَيْدَ أنه خلق بعض الأشياء بلا واسطة وخلق بعضها الآخر بواسطة ، وأعمال المكلَّفين من القبيل الثانى . خلقها الله بوساطة خلق آلاتها فيه ، وآلاتها هى القدرة الكلية والإرادة الكلية الصالحتان للتعلق بكلٍّ من الطرفين . وليس لنا من حوْل ولا قوة سوى أننا استعملناها على أحد وجهيها إما بحسن الاختيار وإما بسوء الاختيار . ثم لا مانع عندنا من القول بأنه سبحانه خالق لأفعال عباده ولكن على سبيل المجاز ، باعتبار أنه خالق أسبابها ووسائلها .

وإذا قيل لهم : إن مذهبكم يستلزم أن يكون لله شركاء كثيرون فى فعله ، وهم عباده المكلفون . وهذا يناقض عقيدة التوحيد وبرهان الوحدانية . قالوا : لا نسلم هذا

ولا نقول به ، فإن الوحدانية ليس معناها نفى وجود ذوات أو صفات أو أفعال لغيره . إنما معناها نفى أن يكون لغيره شبه به فى ذاته أو صفاته أو أفعاله . وأنتم يا أهل السنة لا تمنعون وجود ذوات لا تشبه ذاته ، ولا تمنعون وجود صفات لا تشبه صفاته ، فلم تمنعون وجود أفعال من العباد لا تشبه أفعاله ؟ وهو ما نقول به فى خلق العباد لأعمالهم ، فإنها لا تشبه أفعال الله بحال .

هكذا تجد لكلتا الطائفتين وجهة نظر قوية وتأويلاً سائغاً فيما تؤوِّله من النصوص المقابلة للنصوص التى بهرتها فرجحتها . ونجد أيضاً أن كلتا الطائفتين لا تلتزم المحظور التى تحاول الأخرى أن تُلزمها إياه فى مقام الحِجاج والجدال ، بل توجِّه رأيها توجيهاً يَنْأَى بها عن الوقوع فى المحظور . ثم نجد كلتا الطائفتين يتلاقيان أخيراً بعد طول المطاف عند نقطة الاعتقاد السديد بوحدانية الله وحكمة الله ، ولكن على الوجه الذى استبان لها وراج عندها .

فكيف يرضَى منصفٌ إذاً بتجريح إحداهما ورميها بأشنع التهم من كفر أو شرك أو هوى ؟ وماذا علينا أن نرجِّح ما نرجح من غير تسفيه للجانب الآخر ؟ بل ماذا علينا أن نلوذ بالصمت ونعتصم بالسكوت فلا نخوض فى أمثال هذه الدقائق العويصة ، والمسالك الملتوية البعيدة ؟ لا سيما أن الرحمن الرحيم لم يكلِّفنا بها ولم يفرضها علينا .

ولقد كان سلفنا الصالح يؤمنون بوحدانية الله وعدله . ويؤمنون بقدره وأمره . ويؤمنون بهذه النصوص وتلك النصوص . ويؤمنون بأن العبد يعمل ما يعمل وأن الله خالق كل شىء . ويؤمنون بأنه تعالى تنزَّه فى قدره عن أن يكون مغلوباً أو عاجزاً وتنزَّه فى أمره وتكليفه عن أن يكون ظالماً أو عابثاً . ثم بعد ذلك يصمتون فلا يخوضون فى تحديد نصيب عمل الإنسان الاختيارى من قدرة الله ونصيبه من قدرة العبد . ولا يتعرضون لبيان مَدَى ما يبلغ فعل الله فى قدَره ، ولا لبيان مَدَى ما يبلغ

فعل العبد فى أمثال أمره . ذلك مالم يعلموه ولم يحاولوه ، لأنهم لم يكلفوه . وكان سبحانه أرحم بعباده من أن يكلفهم إياه لأنه من أسرار القدر أو يكاد ، والعقل البشرى محدود التفكير ضعيف الاستعداد . ومن شرَهِ العقول طلبُ مالا سبيل لها إليه . « وما أوتيتم منَ العلم إلاّ قليلاً » .

« لمْ يمتحنَّا بما تعيا العقولُ بهِ حرصاً علينا فلمْ نرتب ولم نهمِ »

واجبنا إزاء الخلافيات

ليس من شأنى هنا أن أفصل القول فى هـذه المسألة ولا فى أشباهها ، فلهذا التفصيل علم آخر . إنما هو ضربٌ من التمثيل ، نجتزئ فيه بالقليل ، لنخلص منـه بعظة مهمة : هى أن المسلمين لا يجوز لهم أن ينقسموا شيعاً وأحزاباً لأمر ليس من الدين ، فضلاً عن أن يـكون من أصول الدين ، وإذا التمسنا المعاذير لخوض من خاضوا أو يخوضون فيـه دفعاً لشبهات المشتبهين أو ضلال المضللين ، فلن نستطيع التماس عذر واحـد لمن شنوها حرباً شعواء بينهم وبين إخوانهم فى الدين . وما كان لهم أن يخرجوا من مثل هذا البحث أعداء متخاذلين ، وقد كانوا بالأمس إخواناً متفاهمين متعاونين .

وإذاً فلنستمسك بالعروة الوثقى ، ولنفسح صدورنا للخلافيـات مادام صدر الإسلام قد وسعها . ولنعلم أنَّ الإسلام أوسع من المذاهب والآراء . ولئن ضقتَ ذرعاً برأى أخيك اليوم فقد ترى أنت رأيه غداً عندما تقتنع بوجهة نظره . فقد رجع كثير من أعلام الأئمة عن آراء رأوها ، بل عن مذاهب كانوا قد ذهبوا إليها . ولعلك لا تجهل أن للشافعى مذهبا قديما ومذهبا جديداً ، وأن الخلاف فى لواحق العقائد والأصول ، كثير الشبه بالخلاف فى الأحكام والفروع .

لهـذا كله ترانى لا أذهب مع الذاهبين فى تضليل المعتزلة وتسفيه أحلامهم ونبزهم

بألقاب الكفر والفسوق ، كما لا أذهب مع الذاهبين فى تجهيل أهل السنة وتحقيرهم ونبزهم بالجهالة والجمود والهوى . « وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا . سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

تحذير :

وأحبُّ ألَّا يفهم القارئ الكريم أننى أريدها فوضى لكل متأوِّل فى القرآن ، متلاعب بالنصوص ، عابث بتعاليم الدين . بل الذى أريده وأرجوه هو أن نفرق بين متأوِّل ومتأوِّل ، ثم ننظر أهذا التأويل سائغ أم غير سائغ ؟ أى تساعد عليه قوانين اللغة العربية ، ومقررات الإسلام المقطوع بها ، المعلومة من الدين بالضرورة ، وبراهين العقل والمنطق أم لا ؟

فالسائغ نقبله ونرحب به وإن خالف رأينا ، وغير السائغ نردُّه فى غير تردُّد ، ونحاربه فى غير هوادة ، لأن تاريخ الإسلام لم يشهد أعداء كانوا أخطر عليه من أولئك العابثين الذين تلاعبوا بنصوصه ، وعبثوا بمقرَّراته . سواء منهم من ذهب به الماضى كالباطنية ، ومن برم به الحاضر كالبهائية . وقد تسمع قريباً شيئاً عن أمثالهم .

سماحة الإسلام ويسر تعاليمه

بان لك مما ذكرنا أن الإسلام دين سمح ، وأن الله تعالى لم يكلف الخلق من تعاليم دينه إلا ما جاء به كتابه الكريم ، وشرحه نبيه العظيم ، على تلك الطريقة السهلة الواضحة ، البعيدة عن التدقيقات الفلسفية ، والتعقيدات الفنية .

ولعل من تمام الفائدة فى هذا الموضوع الخطير أن نقتطف لك كلمة قالها حُجَّة

الإسلام الغزالى فى الإحياء ، عند بيانه لمـا بدّل الناس من ألفاظ العلوم إذ قال تغمّده الله برحمته :

« اللفظ الثالث ـ أى من الأسماء المحمودة التى نُقلت بالأغراض الفاسدة إلى معـان غير ماأراده السلف الصالح والقرن الأول ـ التوحيد . وقد جُعـل الآن عبارةً عن صناعة الـكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقـدرة على التشدق فيهـا بتـكثير الأسئلة ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى لقّب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمى المتـكلمون بعلماء التوحيد . مع أن جميع ماهو خاصّة هذه الصناعة لم يكن يُعرف منها شىء فى العصر الأول . بل كان يشتدّ منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة . فأما ما يشتمل عليه القرآنُ من الأدلة الظاهرة التى تستبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع ، فلقد كان ذلك معلوماً للـكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين . وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عزّ وجلّ رؤيةً تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جلّ جلاله ، إلى أن قال :

والتوحيد جوهر نفيس ، وله قشران ، أحدهما أبعد عن اللُّب من الآخر ، فخصّص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر ، وأهملوا اللُّبّ بالـكلية . فالقشر الأول هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله . وهـذا يسمى توحيـداً مناقضاً للتثليث الذى صرّح به النصارى ، ولـكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سرُّه جهره . والقشر الثانى ألّا يكون فى القلب مخـالفة وإنـكار لمفهوم هـذا القول ، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقـاده والتصديق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتـكلمون كما سبق حُرّاس هذا القشر عن

تشويش المبتدعة . والثالث وهو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤيةً تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبده عبادةً يُفرده بها ، فلا يُعبد غيره . ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال تعالى : «أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم(١) : « أبغضُ إلهٍ عُبِدَ في الأرض عند الله تعالى هُوَ ٱلْهَوَى » . وعلى التحقيق من تأمَّل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى . ويخرج من هذا التوحيد التسخُّط على الخلق والالتفات إليهم ، فإن مَن يرى الكلَّ من الله عزَّ وجلَّ كيف يتسخَّط على غيره ؟ فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام ، وهو مقام الصدِّيقين . فانظر إلى ماذا حُوِّل ؟ وبأيِّ قشر قُنِعَ منه ؟ وكيف اتخذوا هذا مُعْتَصَماً في التمدُّح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى ؟ وذلك كإفلاس من يصبح بُكْرَةً ويتوجَّه إلى القبلة ويقول : «وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً » وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن توجه قلبه توجهاً إلى الله تعالى على الخصوص . فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجَّهه إلا إلى الكعبة ، وما صرفه إلا عن سائر الجهات . والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجِّه إليها متوجِّهاً إليه تعالى عن أن تَحُدَّه الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب التعبُّد به فكيف يصدق فى قوله ؟ وقولُه متردِّد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية ، ومتصرف فى طلب الحيَل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ومتوجِّه بالكلية إليها ، فمتى وجَّه وجهه للذى فطر السموات والأرض ؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحِّد

---

(١) قال العراقى فى تخريج هذا الحديث : رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف .

هو الذى لا يرى إلا الواحد ، ولا يوجه وجهه إلا إليه . وهو امتثال قوله تعالى : « قُلِ ٱللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » . وليس المراد به القول باللسان ، فإنما اللسان ، ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظر الله المترجم عنه وهو القلب وهو معدن التوحيد ومنبعه » اه

وإياك أن تفهم منه الغضّ من علم التوحيد ، خصوصاً بعد أن صرّح هنا بأنه يحمى قشرة العقيدة عن تشويش المبتدعة . ولكن نقده ينصبّ على الإسراف فى القشور وإهمال اللباب ، كما سمعت .

تحقيق للأستاذ الإمام

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام فى هذه المسألة ، بحاشيته على العقائد العضدية ، توسع فيه كثيراً مع الفرق المخالفة ، حين عرض لحديث الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترقُ أمتى ثلاثاً وسبعينَ فرْقةً ، كلها فى النارِ إلَّا واحدةً . قيل : ومنْ همْ ؟ قال : « الذينَ همْ عَلَى ما أنا عليهِ وأصحابى » . ثم ختم الشيخ بحثه فقال :

« والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات . ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الألفاظ ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة . ثم يأخذ طريق التحقيق فى تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة ، كان ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحرى والاجتهاد .

ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه ، فوجده بظاهره ملائماً لما حققه ، فليحمد الله على ذلك . وإلا فليطرق عن التأويل ويقول : « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا »

فإنه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا اللهُ ونبيه . على هذا المنوال يكون نسجه فيبوء من الله برضوان ؛ حيث أسس عقائده على السديد من البراهين ، واستقبل الأخبارَ الإلهية بالقبول والتسليم . وتناولها بقلب سليم .

وإن أراد التأويل لغرض ، كدفع معاند أو إقناع جاحد ، فلا بأس عليه إذا سلم برهانه من التقليد والتشويش . وهذا هو دأب مشايخنا كالشيخ الأشعر والشيخ أبي منصور ومن ماثلهم ، لا يأخذون قولاً حتى يسدِّدوه ببراهينهم القوية على حسب طاقتهم . وهذا ما يعنى باسم السنى والصوفى والحكيم . وكلُّ متحزِّب مجادل فإنما يبغى العنت وتشتيت الكلمة ، فهو فى النار . وكل مقصر فعليه العار والشنار . فاسلك سبيل السلف . واحذر فقد خلف من بعدهم خلف .

ولا بدَّ فى كمال النجاة ونيل العادة الأبدية ، من أن ينضمَّ إلى ذلك التخلى عن الرذائل ، والتحلى بالأخلاق الكاملة والأعمال الفاضلة . ومن تلك الأخلاق والأعمال تكميل قوة النظر وارتكاب طريق العدل فى كل شيء ، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه من الهمة والسداد والعدل والإنصاف ، وسلوك طريق الاستقامة فى جميع الأخلاق والأعمال ، ونور البصيرة فيما يأخذ ويعطى ، فهو فى النار . ومن كان على ما كانوا عليه فهو فى أعلى غرف الجنان .

وسالك هذا الطريق إما أن يكون سلوكه من قبل الالتفات إلى ما جاء فى الكتاب والسنة وكلام أولى الفضل من الراشدين قديماً وحديثاً ، فذلك هو الحكيم العلىّ والمؤمن المتوسط . وإما أن يكون مع ذلك قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ، ووقف على ما فى ذلك من دقائق الأسرار ، حتى جلس فى حياته هذه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فهو الصوفى ، وهو صاحب المقصد الأسنى والمطلوب الأعلى . وفى هذا مراتب لا تحصى ، ومراقٍ لا تستقصى . وهذا وما قبله يشملهما اسم المؤمن الصادق .

فمن تحقَّق بهذا النور ، فله النجاة والحبور ، كان ما كان ، فإن هذا هو المتحقِّق فيه ما كان النبي عليه وأصحابه .

ولنمسك القلم حيث إن المقصود هو الإيجاز . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب فاسلك بنفسك طريق السداد ، وانظر فيما يكون لك بعين الرشاد » اه .

وهنا أمسك أنا القلم أيضاً مؤمِّلاً أن أكون قد وفَّيت هذا المقام المهمَّ حقَّه ، وأن أكون قد نجحت فى تجلية مبدأ من المبادئ الإسلامية الرشيدة ، عند اختلاف وجهات الأنظار ، وتباين منازع الأفكار . كفانا الله شرَّ العناد والغرور والفتنة ، وجمع صفوف الأمة على حقائق الكتاب والسنة ، آمين .

ى — التفسير بالرأى

الجائز منه وغير الجائز

المراد بالرأى هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موفَّقاً أى مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم . والأمور التى يجب استناد الرأى إليها فى التفسير نقلها السيوطى فى الإتقان عن الزركشى فقال ما ملخصه : للناظر فى القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة : —

الأولى : النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرُّز عن الضعيف والموضوع .

الثانية : الأخذ بقول الصحابى ، فقد قيل إنه فى حكم المرفوع مطلقاً . وخصَّه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

الثالثة : الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدلُّ عليه الكثير من كلام العرب .

الرابعة : الأخـذ بما يقتضيه الـكلام ويدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع الرابع هو الذى دعا به النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس فى قوله : « اَللّٰهُمَّ فَقِّهْهُ فِى اَلدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » .

فمن فسر القرآن برأيه أى باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معانى كتاب الله ، كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود . ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها ، كان تفسيره ساقطاً مرذولاً خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم .

فالتفسير بالرأى الجائز يجب أن يُلاحظ فيـه الاعتماد على مانقل عن الرسـول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مماينير السبيل للمفسر برأيه . وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها . وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى يُنَزِّلَ كلام الله على المعروف من تشريعه .

أما الأمور التى يجب البعد عنها فى التفسير بالرأى فمن أهمها التهجُّم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة . ومنها حمـل كلام الله على المذاهب الفاسدة . ومنها الخوض فيما استأثر الله بعلمه . ومنها القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل. ومنها السير مع الهوى والاستحسان .

ويمكن تلخيص هذه الأمور الخمسة فى كلمتين ، هما الجهالة والضلالة .

وينبغى أن يعلم أن فى القرآن علوماً تتنوع إلى ثلاثة :

الأول : عـلم لم يطلع الله عليه أحـداً من خلقه بل استأثر به وحده كمعرفة حقيقة ذاته وصفاته وغيوبه التى لايعلمها إلا هو . وهـذا النوع لايجوز الـكلام فيـه لأحد إجماعاً .

الثانى : ماأطلع الله عليه نبيه ﷺ واختصَّ به . وهذا لايجوز الـكلام فيه إلا له عليه الصلاة والسلام ولمن أذن له الرسول . قيل : ومنه أوائل السـور .

الثالث : العلوم التى علمها الله تعالى لنبيه مما أُمر بتبليغه . وهذا النوع قسمان: (قسم) لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع كالكلام فى الناسخ والمنسوخ والقراءات، وقصص الأمم الماضية ، وأسباب النزول ، وأخبار الحشر والنشر والمعاد . (وقسم) يعرف بطريق النظر والاستدلال ، وهذا منه المختلف فى جوازه ، وهو مايتعلق بالآيات المتشابهات. ومنه المتفق على جوازه وهو مايتعلق بآيات الأحكام والمواعظ والأمثال والحكم ونحوها لمن له أهلية الاجتهاد .

العلوم التى يحتاجها المفسر

وقد بيّن العلماء أنواع العلوم التى يجب توافرها فى المفسر فقالوا : هى اللغة والنحو ؛ والصرف ، وعلوم البلاغة ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ومعرفة أسباب النزول ، والقصص ، والناسخ ، والمنسوخ ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم ، وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، ولا يناله من فى قلبه بدعة أو كبر أو حبُّ دنيا أو ميل إلى المعاصى . قال الله تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » وقال الإمام الشافعى :

«شكَوْتُ إلى وكيع سوءَ حِفظى فأرشدنى إلى تركِ المعاصى
وأخبرنى بِأنَّ العِلْمَ نُورٌ ونُورُ اللهِ لا يُهْدَى لعاصِى»

ملاحظة :

هذه الشروط التى ذكرناها ، وهذه العلوم كلها ، إنما هى لتحقيق أعلى مراتب التفسير . مع إضافة تلك الاعتبارات المهمة المسطورة فى الكلمات القيمة الآتية . أما المعانى العامة التى يستشعر منها المرء عظمة مولاه ، والتى يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم ، فهى ، هى قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامّة الناس، وهو المأمور به للتدبُّر والتذكر ، لأنه سبحانه سهله ويسره . وذلك أدنى مراتب التفسير .

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ما خلاصته : —

للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يُشْرِبُ القلبَ عظمةَ الله وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير . وهذه هى التى قلنا إنها متيسِّرة لكل أحد «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟» .

وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور :

(أحدها) : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتفٍ بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعانٍ ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . ومن ذلك لفظ التأويل . اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعانٍ أخرى كقوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » . فإن المراد به العاقبة ، وما يعد به القرآن من المثوبة والعقوبة ، أى ما يؤدى إليه الأمر فى وعده ووعيده ، فعلى المحقِّق المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره . ويحقق كيف يتفق معناه مع جملته من الآية ؟ فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها) الأساليب . فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة . وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطُّن لنكته ومحاسنه ، والوقوف على مُراد المتكلم منه . نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مُراد الله تعالى كله على وجه الكمال

والتمام . ولكن يمكننا فهم مانهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذه إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) . ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسدّدين فى النطق ، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع . أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا . وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ، لذلك صار أبناء العرب أشدّ عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم ، لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة.

(ثالثها) . علم أحوال البشر . فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه مالم يبينه فى غيره . وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه وسننه الإلهية فى البشر ، وقصّ علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلابدّ للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل وإيمان وكفر . ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه . ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة ؛ من أهمها التاريخ بأنواعه .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمالٌ صادرٌ عمن أحاط بكل شىء علماً . وأمرنا بالنظر والتفكير والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالاً ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره ، لكنّا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوّة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ماقبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة

أوما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه . . يروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « إن أجهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عرَى الإسلام عروةً عروةً » اه بالمعنى . والمراد أن من نشأ فى الإسلام ، ولم يعرف حال الناس قبله ، يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور .

ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادى ، كما ترى بعض الذين يتربونَ فى النظافة والنعيم يعدُّون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو ؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر ، وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟ .

(خامسها) : العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها » انتهى من تفسير المنار بتصرف قليل .

الاختلاف فى جواز التفسير بالرأى :

يختلف العلماء فى التفسير بالرأى بين مجيز ومانع . والتحقيق ما قدمناه بين يديك من الجواز بشروطه ، والمنع عند عدم توافر شروطه . وأن ذلك فى غير أدنى مراتب التفسير . أما هذا الأدنى فهو جائز من غير اعتبار تلك الشروط ، لأن الله يسره حتى للعامة كما أسلفنا . ونسوق إليك هنا أدلة المانعين والمجيزين لتزداد بصيرة وتنورا فى هذا الموضوع :

أدلة المانعين :

يستدل المانعون بأدلة : (الأول) أن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم منهى عنه . فالتفسير بالرأى منهى عنه .

دليل الصغرى أن المفسر بالرأى ليس متيقناً أنه مصيب ، وقُصارى أمره أنه يظن ، والقائل بالظن قائلٌ على الله بغير علم . ودليل الكبرى قوله تعالى : « وأن تقولوا عَلَى ٱللهِ مالاَ تعلمونَ » . المعطوف على ما قبله من المحرمات فى قوله سبحانه :

« قُلْ إنمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَنَ ، وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وأن تُشْرِكُوا بِاللهِ مالَمْ يُنزِّلْ بِهِ سلطاناً ، وَأَنْ تقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

لكن أجاب المجيزون عن هذا الدليل بمنع الكبرى ، لأن القائل بالظن فيما لا يوجد عليه نصٌّ قاطع ، ولا دليل عقلى ، إنما يستند إلى علم من الله أى إلى دليل قطعى منه سبحانه على صحة العمل بهذا الظن . كقوله تعالى : « لا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا » . وكقوله صلى الله عليه وسلم ما معناه « من اجتهد فأخطأ فلهُ أجرٌ ، وإنْ أَصَابَ فلهُ أجرَانِ » .

(الدليل الثانى) الحديثان الآتيان :

(١) ما يرويه الترمذى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « اتَّقوا ٱلْحدِيثَ عَلَىَّ إلَّا مَاعَلِمْتُمْ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ . وَمَنْ قالَ فى القرآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

(٢) ما يرويه أبو داود عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَال فِى القرآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ » .

وأُجيب عن هذين الحديثين بأجوبة ثلاثة :—

(أولها) أنهما محمولان على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن ومتشابهه مما لا يعلم إلا من طريق النقل عن النبى ﷺ وأصحابه .

(ثانيها) أنهما محمولان على من قال فى القرآن قولاً وهو يعلم أن الحق خلافه ، كأصحاب المذاهب الفاسدة الذين يتأولون القرآن على وفق هوام ليحتجُّوا به على صحة آرائهم .

(ثالثها) أنهما محمولان على قول من يأخذ بظاهر الكلام ، من غير أن يستند إلى نقل أو يكلف نفسه البحث عن مُبْهَمَات القرآن ومافيه من حذف وإضمار وتقديم وتأخير ونحو ذلك . . فالنقل لا بد منه لكل مفسر ، كيلا يقع فى الخطأ . أما التوسع فى الفهم واستنباط صحيح الآراء فهو خطوة أخرى بعد النقل . لأن الأخذ بظاهر العربية وحده غير كافٍ ولا سديد . تأمل قوله سبحانه : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا » فإن معناه : وآتينا ثمود الناقه معجزة واضحة ، وبينة لائحة ، تدلهم على صدقِ صالحٍ عليه الصلاة والسلام وصدق ما جاء به ، فظلموا بعقرها أنفسهم .
والواقف عند ظاهر اللغة العربية يظن أن المراد من الإبصار نظر العين ، ولا يدرى بماذا ظلموا ؟ ولا مَن ظلموا ؟ أظلموا أنفسهم أم غيرهم .

هذه احتمالات فى الحديثين . والدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال.
ويجاب عن حديث جندب زيادة على سابقه بأنه حديث لم تثبت صحته ، وعلى فرض صحته فإنه يحتمل أن يكون معناه : « فقد أخطأ طريق التماس المعنى » ذلك لأن السبيل فى معرفة ألفاظ القرآن إنما هى اللغة وعلومها . والسبيل إلى معرفة أسباب نزوله وتمييز ناسخه ومنسوخه ونحو ذلك إنما هو النقل الصحيح . والسبيل إلى القطع بمراد الله إنما هو الوارد عن النبى ﷺ . فإن لم يظفر بوارد فلا بأس من أن يقيس ويجتهد ويستدل بما ورد على مالم يرد .

الدليل الثالث : ما ورد عن الصحابة والتابعين من أنهم كانوا يتحرّجون عن القول فى القرآن بآرائهم . من ذلك ما روى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال :

« أىُّ سماء تظلنى ؟ وأىُّ أرضٍ تقلنى ؟ إذا قلتُ فى القرآن برأيى أوْ بما لا أعلمُ ؟ » .
وماورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : أنا لا أقول فى القرآن شيئاً . وروى عن الشعبى أنه قال : ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح ، والرؤى (أى تأويل الأحلام) ، إلى غير ذلك من الأخبار التى تدلُّ على امتناعهم من أن يقولوا فى القرآن بآرائهم .

وأجيب عن ذلك (أولاً) بأن إحجامهم عن القول فى القرآن كان ورعاً خشيةَ ألاَّ يصيبوا عينَ اليقين . والورع : ترك ما لا بأس به حذراً من الوقوع فيما به بأس .

(ثانياً) : أن إحجامهم يحتمل أنه مقيد بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه . أما إذا عرفوا وجه الصواب فإنهم لا يمتنعون ولو كان وجه الصواب ظنياً لا قطعياً . هذا أبو بكر نفسه يفتى فى الكلالة حين سئل عنها فى الآية الكريمة ، « يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ » الخ ويقول : أقول فيها برأيى . فإن كان صواباً فمن الله . وإن كان غير ذلك فمنى ومن الشيطان . الكلالة : كذا وكذا . ومثل هذا ورد عن على وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

(ثالثاً) أن إحجامهم يحتمل أيضا التقييد بما كان من التفسير على وجه قاطعٍ فيما لم يقم فيه دليل قاطع .

(رابعاً) : أن إحجامهم يحتمل أيضاً التقييد بما إذا قام غيرهم عنهم بواجب تفسير القرآن وبيانه . أما إذا انحصرت المسئولية فيهم فمعقول أنهم لا يمتنعون وقتئذ وإلا كانوا كاتمين للعلم وآثمين . حاشاهم من ذلك حاشاهم . رحمهم الله وأحسن جزاءهم ومثواهم .

أدلة المجيزين للتفسير بالرأى :

استدلَّ المجيزون للتفسير بالرأى استدلالات عدَّة أيضا .

(أولها) أن الله تعالى يقول : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ويقول : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ويقول : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » . وجه الاستدلال أن الله تعالى حثّ على تدبر القرآن والاعتبار بآياته ، والاتعاظ بمواعظه . وهـذا يدل على أن أولى الألباب بما لهم من العقل السليم واللب الصافى ، عليهم أن يتأولوا ما لم يستأثر الله بعلمه . إذ التدبر والاتعاظ فرع الفهم والتفقه فى كتاب الله . والآية الكريمة تدل على أن فى القرآن ما يستنبطه أى يستخرجه أولو الألباب والفهم الثاقب .

(ثانيها) : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه لابن عباس : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل للفظ التنزيل لما كان هناك فائدة لتخصيصه . فدل على أن التأويل خلاف النقل . وإذن فهو التفسير بالاجتهاد والرأى .

(ثالثها) لو كان التفسير بالرأى غير جائز لتعطل كثير من الأحكام . واللازم باطل . ووجه الملازمة أن النبى ﷺ لم يذكر تفسير كل آية . والمجتهد مأجور وإن أخطأ ، ما دام أنه قد استفرغ وسعه ، ولم يهمل الوسائل الواجبة فى الاجتهاد ، وكان غرضه الوصول إلى الحق والصواب .

ويمكن أن يجعل الخلاف لفظيًّا بأن يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى على التفسير بالرأى المستوفى لشروطه الماضية ؛ فإنه يكون حينئذ موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب . وهـذا جائز ليس بمذموم ولا منهى عنه . ثم يحمل كلام المانعين للتفسير بالرأى على ما فقدت شروطه السابقة ، فإنه يكون حينئذ مخالفاً للأدلة الشرعية واللغة العربية . وهذا غير جائز بل هو محطُّ النهى ومصبُّ الذم . وعليه

يحمل كلام ابن مسعود إذ قال : « ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم ، وإياكم والتبدُّع ، وإياكم والتقطُّع » وكذلك يحمل قول عمر أيضاً : « إنما أخاف عليكم رجلين رجلاً يتأوَّل القرآن على غير تأويله ، ورجلاً ينافس المُلْكَ على أخيه » .

وقول عمر أيضاً : ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ، ولا من فاسق بَيِّنٍ فِسْقُهُ ، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذْلَقَهُ بلسانه ثم تأوَّله على غير تأويله » .

فكل هذا محمول على ما لم يوافق تفسيره الأدلة الشرعية ولا قواعد اللغة العربية ولا يخفى أن القول فى القرآن بالرأى معناه أن الله أراد بكلامه كذا . وهذا أمرٌ له خطره الخطير ، ومسئوليته الجسيمة ، نسأل الله تعالى السلامة .

ل — منهج المفسرين بالرأى

وخلاصة مامضَى أنه يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأى أن يأخذحذره، وأن يتذرَّع بكل العلوم التى نوَّهنا بها ، ليكون قد أصاب المراد أو كاد . ووجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد ، باتباع مايأتى :

(أولاً) : أن يطلب المعنى من القرآن ، فإن لم يجده طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن ، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة ، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه ، وأسباب نزوله . شاهدوه حين نزل ، فوق ماامتازوا به من علم وعمل . « وخيرُ مافسَّرته بالوارد » .

(ثانياً) : إن لم يظفر بالمعنى فى الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتى :

١ ــ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق . ملاحظاً المعانى التى كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم .

٢ ــ إرداف ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة ، على أن يتذوّق ذلك بحاسّته البيانية .

٣ ــ تقديم المعنى الحقيقى على المجازى ، بحيث لا يُصار إلى المجاز إلا إذا تعذّرت الحقيقة .

٤ ــ ملاحظة سبب النزول . فإن لسبب النزول مدخلا كبيراً فى بيان المعنى المراد ، كما سبق تحقيقه فى مبحث أسباب النزول .

٥ ــ مراعاة التناسب بين السابق واللاحق ، بين فقرات الآية الواحدة ، وبين الآيات بعضها وبعض .

٦ ــ مراعاة المقصود من سياق الكلام .

٧ ــ مطابقة التفسير للمفسَّر من غير نقص ولا زيادة .

٨ ــ مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون ، وسنن الاجتماع ، وتاريخ البشر العام ، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن .

٩ ــ مطابقة التفسير لما كان عليه النبى ﷺ فى هَدْيه وسيرته ، لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته .

١٠ ــ ختام الأمر ببيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة منه فى حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية .

١١ ــ رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال ، وهو ما يأتى :

م — قانون الترجيح عند الاحتمال

قال السيوطى فى الإتقان مانصه : « كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا ، فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه . وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأى .

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره .

وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة ، لكن فى أحدهما لغوية أو عرفية ، وفى الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية ، كما فى قوله تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » وإن كانت فى أحدهما عرفية والآخر لغوية ، فالحمل على العرفية أولى .

وإن اتفقا فى ذلك أيضاً ، فإن تنافى اجتماعهما . ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد ، كالقرء للحيض والطهر ، اجتهد فى المراد منهما ، بالأمارات الدالة عليه . فما ظنّه فهو مراد الله تعالى فى حقه .

وإن لم يظهر له شىء فهل يتخيّر أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف ؟ أقوالٌ . وإن لم يتنافيا ، وجب الحمل عليهما عند المحققين . ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما » اهـ .

ن — أوجه بيان السنة للقرآن

سبق غير مرة أن بينّا أن السنة شارحة للقرآن ، لأن الرسول ﷺ وظيفته التبليغ والبيان ، بمثل قوله تعالى : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ (وجاء في رواية) مُتَّكِئٌ على أريكته ، يقول : « عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوهُ ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّمُوه الخ » .

ومعنى قوله ﷺ : « لقد أوتيتُ الكتابَ ومثله مَعَهُ » أنه أوتى من الوحى غير المتلو ، مثل الوحى المتلو ، تبييناً له وتوضيحاً ، وكلٌّ من عند الله . قال تعالى : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

وقوله في هذا الحديث : (يُوشِكُ رَجُلٌ الخ) يدل على أنه سيأتى قوم يتمسكون بظاهر القرآن ، كالروافض والخوارج ، ويتركون الاستدلال بالسنة المبينة للقرآن ، فضلوا وأضلوا .

والمراد بقوله على أريكَتِهِ — وهى السرير — أنه ممن أَطْغَتْهُ النعمة ، وَأَلْهَتْهُ عن السعى فى طلب العلم ، والبحث عن أحاديث الرسول ﷺ .

وهذا الحديث يدل على أن ماصح ثبوته عن النبى ﷺ قولاً أو فعلاً فهو حجة بنفسه كالقرآن الكريم .

ثم إن بيان السنة على وجوه شتى : —

(أحدها) بيان المجمل فى القرآن ، كبيان مواقيت الصلوات الخمس ، وعدد ركعاتها ، وكيفية ركوعها وسجودها وغير ذلك ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها ،

وبيان مناسك الحج ونحوها . مما ورد فى القرآن مجملاً وبينته السنة . ولذا قال ﷺ :
« خذوا عنّى مَنَاسِكَكُمْ » وقال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى » .

قال أحمد بن حنبل : « السنة تفسر الكتاب وتبينه » .

(ثانيها) بيان أحكام زائدة على ما جاء به القرآن : كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم أكل الْحُمُرِ الأهلية وكل ذى ناب من السِّباع ، والقضاء باليمين والشاهد ، وغير ذلك مما هو مقرر فى علم الأصول والفقه .

(ثالثها) بيان معنى لفظ أو متعلقه ، كتفسير « المغضوب عليهم » باليهود ، « والضالِّين » بالنصارى . وبيان قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » بأنها مطهرة من الحيض والغائط والنخامة والبزاق .. وتفسير قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ » بأنهم يزحفون على أستاههم ويقولون : حبة فى شعيرة ، بدلا من امتثال قوله تعالى لهم : « ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ » . وغير ذلك مما خُصِّص به العام ، أو قُيِّدَ به المطلق ، وهو كثير فى كتب السنة .

س — التعارض بين التفسير بالرأى

والتفسير بالمأثور وما يتبع فى الترجيح بينهما

ينبغى أن يعلم أن التفسير بالرأى المذموم ليس مراداً هنا ، لأنه ساقط من أول الأمر فلا يقوى على معارضة المأثور .

ثم ينبغى أن يعلم أن التعارض بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى المحمود معناه التنافى بينهما ؛ بأن يدل أحدهما على إثبات والآخر على نفى ، كأن كلاً من المتنافيين وقف فى عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه .

وأما إذا لم يكن هناك تناف فلا تعارض وإن تغايرا ، كتفسيرهم الصراط المستقيم

بالقرآن ، أو بالسنة ، أو بطريق العبودية ، أو طاعة الله ورسوله . فهذه المعانى غير متنافية وإن تغايرت . وكذا ماقيل فى قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخيرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ » مما هومذكور فى كتب التفسير ، فليس بمتناف، فلا يكون متعارضاً ولا متناقضاً .

قيل فى تفسير هذه الآية : الظالم هو المرْجَأُ إلى أمر الله ، والمقتصد هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والسابق للخيرات بإذن الله هو الذى تمحض للخير وقيل : السابق المخلص ، والمقتصد المرائى ، والظالم كافر النعمة غير الجاحد لها . وقيل : السابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم من رجحت سيئاته . وقيل : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ؛ والظالم الجاهل . وقيل : الظالم الذى يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق . وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد ألاّ يأخذها إلا من حلال ، والسابق من أعرض عنها جملة . وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب العُقْبى ، والسابق طالب المولى . وقيل غير ذلك . وفى دار الكتب المصرية بمصر مجلّد مخطوط لعلىّ بن محمد بن عمر التونسى اسمه : « تحفة الأحباب » فى تفسير قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » .

إذا تقرّر هذا فإن التفسير بالمأثور الثابت بالنص القطعى ، لا يمكن أن يعارَض بالتفسير بالرأى؛ لأن الرأى إما ظنى وإما قطعى أى مستند إلى دليل قطعى من عقل أو نقل ، فإن كان قطعياً فلا تعارض بين قطعيين . بل يُؤوَّل المأثور ، ليرجع إلى الرأى المستند إلى القطعى ، إن أمكن تأويله ، جمعاً بين الدليلين . وإن لم يمكن تأويله حُمِل اللفظ الكريم على ما يقتضيه الرأى والاجتهاد ، تقديماً للأرجح على المرجوح .

أما إذا كان الرأى ظنياً بأن خلا من الدليل القاطع واستند إلى الأمارات والقرائن الظاهرة فقط فإن المأثور القطعى يقدَّم على الرأى الظنى ضرورة أن اليقين أقوى من الظن .

هذا كله فيما إذا كان المأثور قطعياً . أما إذا كان المأثور غير قطعى فى دلالته لكونه ليس نصاً ، أو فى متنه لكونه خبر آحاد ، ثم عارضه التفسير بالرأى ؛ فلا يخلو الحال ، إما أن يكون ماحصل فيه التعارض مما لا مجال للرأى فيه ، وحينئذ فالمعوَّل عليه المأثور فقط ولا يقبل الرأى .

وإن كان للرأى فيه مجال ، فإن أمكن الجمع فبها ونعمت . وإن لم يمكن قدم المأثور عن النبى ﷺ أو عن الصحابة لأنهم شاهدوا الوحى ، وبعيدٌ عليهم أن يتكلموا فى القرآن بمجرد الهوى والشهوة .

أما المأثور عن التابعين فإذا كان منقولا عن أهل الكتاب قدِّم التفسير بالرأى عليه . وأما إذا لم ينقل عنهم رجعنا به إلى السمع . فما أيده السمع حُمل النظم الكريم عليه . فإن لم يترجَّح أحدهما بسمع ولا بغيره من المرجِّحات فإننا لانقطع بأن أحدها هو المراد . بل ننزل اللفظ الكريم منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمشتبه أو المبهم قبل بيانه .

ع — أهم كتب التفسير بالرأى

قد علم مما سبق أن التفسير بالرأى منه الممدوح الجائز ، ومنه المذموم غير الجائز . وهاك بياناً بأشهر من ألَّف فى القسم الأول من أهل السنة ومؤلفاتهم :

١ — الإمامان الجليلان جلال الدين محمد المحلى ، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى .

وهما صاحبا التفسير المعروف بتفسير الجلالين .

٢ ـ الإمام البيضاوى ناصر الدين بن سعيد صاحب التفسير المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » .

٣ ـ الإمام فخر الدين الرازى محمد بن العلامة ضياء الدين عمر المشهور بخطيب الرى صاحب التفسير المسمى « مفاتيح الغيب » .

٤ ـ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوى صاحب التفسير المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » .

٥ ـ العلامة شهاب الدين الألوسى صاحب التفسير المسمى : « روح المعانى » .

٦ ـ نظام الدين الحسن محمد النيسابورى صاحب التفسير المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » .

٧ ـ العلامة الشيخ محمد الشربينى الخطيب صاحب التفسير المسمى « السراج المنير فى الإعانة على معرفة كلام ربنا الخبير » .

٨ ـ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى صاحب التفسير المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

٩ ـ علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى صاحب التفسير المعروف « بتفسير الخازن » .

تفسير الجلالين :

أما تفسير الجلالين فكتاب قيّم ، سهل المأخذ إلى حدٍّ ما ، مختصر العبارة كثيراً ، يكاد يكون أعظم التفاسير انتشاراً ونفعاً ، وإن كان أصغرها أو من أصغرها شرحا وحجماً ، تداولته طبقات مختلفة من أهل العلم وغيرهم . وطبع طبعات كثيرة متنوعة .

طبع مرة وحده مجرداً ، وأخرى بحاشية المصحف ، وثالثة مع حاشية الصاوى ، ورابعة مع حاشية الجمل . وأوسع حواشيه حاشية الجمل . والعجيب أن كثيراً من فطاحل العلماء كانوا يختارونه لأعلى دراسة عرفت فى التفسير ، كمادة أساسية يدورون حولها؛ ويستلهمون وحيها. حتى إن دروس التفسير الشهيرة؛ للعلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ، كانت مادته فيها تفسير الجلالين ، على ماسمعت .

تفسير البيضاوى .

وأما تفسير البيضاوى فهو كتاب جليل دقيق ، جمع بين التفسير والتأويل على قانون اللغة العربية ، وقرر الأدلة على أصول أهل السنة . وقد التزم أن يختم كل سورة بما يروى فى فضلها من الأحاديث ، غير أنه لم يتحرّ فيها الصحيح . وأحسن حواشيه المتداولة حاشية الشهاب الخفاجى ، وإن كان له حواش أخرى كثيرة ، منها حاشية سعدى أفندى ، وحاشية الروشنى ، وحاشية الششترى ، وحاشية الشيروانى ، وحاشية السمرقندى على تفسير الفاتحة ، وحاشية الإسفراينى على جزء عم ، وحاشية ابن أمير خان على سورة الملك .

تفسير الفخر الرازى :

سيأتى الكلام عليه تحت عنوان تفاسير أهل الكلام .

تفسير أبى السعود :

تفسير رائع ممتاز ، يستهويك حسن تعبيره ؛ ويروقك سلامة تفكيره ، ويروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن ، والعناية بهذه الناحية المهمة فى بيان إعجازه ،

مع سلامة فى الذوق ، وتوفيق فى التطبيق ، ومحافظة على عقائد أهل السنة . وبعد عن الحشو والتطويل .

تفسير النيسابورى :

يمتاز بسهولة عبارته ، وبتحقيق مايحتاج إلى تحقيق ، مع قصد وخلو من الحشو . وقد عنى بأمرين يلتزمهما : الكلام على القراءات والأوقف فى أول كل مرحلة من مراحل التفسير . والكلام على التأويل الإشارى فى آخر كل مرحلة من تلك المراحل . وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير . وهو مختصر لتفسير الفخر الرازى مع تهذيب كبير .

تفسير الألوسى :

سيأتى الكلام عليه عند التفسير الإشارى .

تفسير النسفى :

كتاب جليل . متداول مشهور ، سهل ودقيق . قال فيه صاحب كشف الظنون : هو كتاب وسط فى التأويلات ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات ، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة ، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة . ليس . بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل اه .

تفسير الخطيب :

كتاب عظيم يعنى بثلاثة أشياء ، تقرير الأدلة وتوجيهها ، والكلام على المناسبات بين السور والآيات ، وسرد كثير من القصص والروايات .

تفسير الخازن .

تفسير مشهور ، يعنى بالمأثور ، بيد أنه لا يذكر السند، وله ولوع بالتوسع فى الروايات والقصص ، ومن مزاياه أنه يتبع القصة ببيان ما فيهـا من باطل ؛ حتى لا ينخدع بها غرٌّ ولا يفتتن جاهل .

ف — تفاسير الفرق المختلفة

كالتفسير الإشارى وتفاسير أهل الـكلام وأشهر الـكتب فى ذلك

منيت الأمة بأن تفترق أكثر من سبعين فرقة ، وأن يلبسها الله شيعاً ويذيق بعضها بأس بعض ، وإن كانت لا تزال طائفـة من هذه الأمة ظـاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله . وقد تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضتـه لنفسها من اعتدال أو تطرف . فظهرت مجموعة التفاسير كالمرايا المجلوة تنطبع فيهـا صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم، وتباين منازعهم . ولا غرو ، فـكل إناء بما فيه ينضح، وكلٌّ يغنِّى على ليلاه .

ومن هنا تجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة ، وتفاسير المعتزلة تظهر فيها عقيدة الاعتزال ، والشيعة تظهر فى تفاسيرهم عقيدة التشيع ، وهلم وهلم .

وقد تـكلمنا تحت العنوان السابق على نماذج من تفاسير أهل السنة، فلنتكلم هنا على نماذج من تفاسير الفرق المختلفة .

ص — تفاسير المعتزلة

ولنبدأ بكتاب الكشاف للزمخشري ، ثم كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ، وهما نموذجان من تفاسير أهل الكلام من المعتزلة .

كتاب الكشاف :

أما كتاب الكشاف فصاحبه هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر النحوي اللغوي المعتزلي الملقب بجار الله . ولد سنة ٤٦٧ هـ سبع وستين وأربعمائة . وتوفي سنة ٥٣٨ ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بعد أن برع في اللغة والأدب والنحو ومعرفة أنساب العرب حتى فاق أقرانه . ثم تظاهر بالاعتزال ودعا إليه . وكتابه خير كتاب أو من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعته الاعتزالية. وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه .

ويمتاز الكشاف بأمور : (منها) خلوه من الحشو والتطويل (ومنها) سلامته من القصص والإسرائيليات (ومنها) اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم (ومنها) عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية ، تحقيقاً لوجوه الإعجاز (ومنها) سلوكه فيما يقصد إيضاحه طريق السؤال والجواب كثيراً . ويعنون السؤال بكلمة « إن قلت » بفتح التاء . ويعنون الجواب بكلمة « قلت » بضم التاء . وللكشاف حواش كثيرة . منها حاشية ابن كمال باشا زاده ، وحاشية علاء الدين المعروف بالبهلوان ، وحاشية الشيخ حيدر ، وحاشية الرهاوي .

وإليك مواضع من كتابه ينحو فيها نحو الاعتزال ، ويقرر عقيدة القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وبأن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وبأن رؤية الله في الدار الآخرة مستحيلة .

(١) يقول عند تفسير قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ » الخ مانصه :
(فإن قلتَ) : ما الإيمان الصحيح ، (قلتُ) : أن يعتقد الحق ، ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخلّ بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق . ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر . ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق اهـ . فأنت تراه فسر الإيمان بما يثبت به المنزلة بين المنزلتين . . . وهى منزلة الفاسق بين منزلة المؤمن ومنزلة الكافر . فينفى الإيمان عن سليم العقيدة مادام أنه قد أخل بواجب العمل . وهو محجوج من أهل السنة بأن هذا التفسير لايوافق اللغة ولا الشرع . أما اللغة فلأن معنى الإيمان التصديق لاغير ؛ وكذا الشرع بدليل عطف العمل عليه . والعطف يقتضى المغايرة بين المتعاطفين .

(٢) ويقول فى تفسير قوله سبحانه « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » مانصه :
وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يُضاف إلى الله اهـ . وهذا منه إيماء ورمز إلى أن الرزق الحلال من الله ، وأن الرزق الحرام من العبد .

ويردُّ عليه أهل السنة بقوله سبحانه : « هَل مِنْ خَالِقٍ غَيرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَٱلأَرْضِ » فالله هو الخالق الرازق لاغيره . سواء أكان الرزق حلالا أم حراماً .

(٣) ويقول فى تفسير قوله تعالى : « خَتَمَ ٱللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » الخ مانصه :ـ
(فإن قلت) لم أسند الختم إلى الله تعالى ؟ وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه ، وهو قبيح . والله تعالى منزه عن فعل القبيح بدليل : « وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » . « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » . « إِنَّ ٱللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » الخ ما قال . ثم أول إسناد الختم إلى الله بأن الكلام

استعارة أو مجاز . على معنى أن الشيطان هو الحاتم أو الكافر ، وأسند إلى الله تعالى لأنه هو الذى أقدره ومكّنه . وهذا المذهب يلزمه فى نظر أهل السنة أمور كلها باطلة :

(منها) مخالفة الدليل العقلى القائم على وحدانية الله تعالى ، وأنه لاشىء من الكائنات إلا وهو أثر من آثار القادر لاغيره .

(ومنها) مخالفة الدليل النقلى كقوله تعالى : « اللهُ خَالِقُ كلِّ شَيْءٍ » .

(ومنها) القول بأن هذه الأشياء ، نفذ فيها مراد الشيطان أو الكافر ، بخلاف مراد الله . وهذا أشنع مايقال .

(ومنها) قياس الغائب على الشاهد ، إذ جعلوا المنع من قبول الحق قبيحاً من الله قياساً على قبحه منا .

(ومنها) الجهل بحقيقة الظلم . وحقيقتهُ أنه التصرف فى ملك الغير بغير إذنه . ولاملك إلا لله . « لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » . « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً » فلا ظلم فى فعله تعالى على أىِّ وجه كان .

(ومنها) أن ماتمسكوا به من أفعال العباد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها عليهم ، ولما عاقبهم بها . ولما قامت له حجة عليهم كل ذلك مبنى على قاعدتهم الخاطئة من التحسين والتقبيح العقليين ، وعلى قياسهم الغائب على الشاهد كما سبق ، وكلا هذين لايسلم لهم ، ثم يردُّ عليهم بالمثل فيقال لهم : يقبح من الشاهد أن يمكِّن غيرَه من فعل شىء ثم يعاقبه عليه ، فكذلك الغائب . وأنتم تقولون إن القدرة التى يخلق بها العبد فعله فى زعمكم ، هى مخلوقة لله تعالى مع علمه بما سيفعله العبد بها . ولا يخفى أن ذلك بمثابة إعطاء سيف لمن يبغى به على الناس ،وذلك قبيح فى الشاهد ، فهو قبيح فى الغائب . وماتجيبون به عن هذه نجيبكم به عن تلك . فالجواب هو الجواب .

(٤) ويقول فى تفسير قوله تعالى « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » مانصه : ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمدى ونيل رضوان الله والنعيم المخلد اه . وأنت ترى أن فى ذلك تعريضا بإنكار رؤية الله ؛ إذ يصرح بأن النجاة والرضوان والنعيم لا غاية للفوز وراءها ، مع أنه لم يذكر الرؤية . وقد صرح بإنكارها فى سورة الأنعام إذ قال فى تفسير قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ » مانصه : — البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركَّبه الله فى حاسة النظر ؛ به تدرك المبصرات . فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه متعالٍ عن أن يكون مبصَرا فى ذاته ، إذ الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أَصالةً أو تبعاً ، وذلك كالأجسام والهيئات اه .

ويردُّ عليه أهل السنة (أولا) بأن الإدراك المنفى عبارة عن الإحاطة . ومنه قوله تعالى « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ » أى أحاط به . وقوله سبحانه حكاية عن قوم موسى : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى مُحاطٌ بنا . فالمنفى إذن عن الأبصار إحاطتها به عزَّ وجلّ، لامجرد الرؤية . ومن المعلوم أنه تعالى لا تحيط به الأفهام ؛ وهذا لا يمنع أن تعرفه . فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للبصر . وما دون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للبصر ، ثابت غير منفى .

(ثانياً) أن الزمخشرى لم يذكر على إحاطة الرؤية عقلاً دليلاً ولا شبه دليل ، سوى أنه استبعد أن يكون المرئى لا فى جهة . وهذا نعارضه بالمثل فنقول : يلزمكم استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة ، إذ الاتباع الوهم يبعدهما جميعاً ، والانقياد للعقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معاً .

وحسبنا هذا فحبل النقاش بين أهل السنة والمعتزلة طويل . وميدان الأخذ والرد بينهما علم الكلام ، فارجع إليه إن شئت المزيد . عصمنى الله وإياك من الزلل ، ووفقنا للقصد فى الاعتقاد والعمل ، آمين .

كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن :

مؤلفه هو القاضي عبدالجبار بن أحمد بن الخليل وكنيته أبو الحسن البغدادى . برع فى علم الكلام ، وفاق أهل زمانه ، ووضع كتباً جليلة ، وإليه انتهت رياسة المعتزلة ومشيختها ، فصاروا يأخذون برأيه ، ويعتمدون على كتبه ، إلى أن توفى سنة ٤١٥ خمس عشرة وأربعمائة . وله مصنفات كثيرة ، من أهمها كتابه هذا : « تنزيه القرآن عن المطاعن » .

وهو مرتب على مسائل كل مسألة تتضمن سؤالا وجوابه ، ولم تكن همته تفسير القرآن ، بل كان كل همه موجهاً نحو تأييد مذهبه . لذلك تراه لم يفسر جميع القرآن ، بل يذكر من السورة الآية التى يستطيع أن يؤولها على مقتضى عقيدته ويؤيد بها مذهب المعتزلة على نمط مافعل الزمخشرى فى الأمثلة التى بين يديك . وهذا الكتاب يحتوى كثيراً من الفوائد على رغم تعصبه المذهبى وعدم عنايته بالتفسير كما يجب .

ق — تفاسير الباطنية

الباطنية قوم رفضوا الأخذ بظاهر القرآن وقالوا : للقرآن ظاهر وباطن ، والمرد منه باطنه دون ظاهره . ويستدلون بقوله تعالى : « فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » وهم فرق متعددة على المثال الآتى :

١ — القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط إحدى قرى واسط ، وهو الذى تزعمهم فيما ذهبوا إليه .

٢ — الإسماعيلية . نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه . وقيل إنهم سموا إسماعيلية ، لانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل

٣ ـ السبعية : نسبة إلى عدد السبعة . ذلك لأنهم يعتقدون أن فى كل سبعة إماماً يقتدى به .

٤ ـ الحرمية : نسبة إلى الحرمة . وذلك لأنهم يستبيحون الحرمات .

٥ ـ البابكية : نسبة إلى زعيمهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان .

٦ ـ المحمرة : سموا بذلك للبسهم الحمرة .

ومذهب الباطنية على عمومه وباء انتقل إليهم بطريق العدوى من المجوس . ومن تأويلاتهم الفاسدة فى القرآن أنهم يقولون فى تفسير قوله تعالى : «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ» إن الإمام علياً وَرِثَ النبى فى علمه .

ويقولون : معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السر قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديدُ العهد على من فعل ذلك . ومعنى الطهارة التبرِّى من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام . ومعنى التيمُّم : الأخذُ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى الإمام ، ومعنى الصيام : الإمساكُ عن كشف السر .

ويقولون : إن (الكعبة) هى النبى ﷺ ، (والباب) على ، (والصفا) هو النبى ، (والمروة) على ، (ونار إبراهيم) هى غضب النمروذ عليه ، (وعصا موسى) هى حجته . إلى غير ذلك من الخرافات التى لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل .

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون ؛ لأنها تؤدى إلى نقض بناء الشريعة حجراً حجرا ، وإلى الخروج من رِبقة الإسلام وحلِّ عُراه عروةً عروة ، ولأنها تجعل القرآن والسنة فوضى فاحشة يقال فيهما ما شاء الهوى أن يُقال ، كأنهما لغو من الكلام ، أو كلأ مباح للبهائم والأنعام . وأخيراً ينفرط عقد المسلمين ، ويكون بأسهم بينهم من جراء هذا العبث بتلك الضوابط الدينية الكبرى ،

والحوافظ الأدبية العظمى . وما دام لكل واحد أن يفهم من القرآن ما شاء له الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة ، ولا التزام لقواعد اللغة ، لم يعد القرآن قرآناً . وإنما هما الهوى والشهوة فحسب .

لهذا شرطنا فى التفسير ما شرطنا . وفى مقدمة شروطه التزام قوانين الشريعة والتزام قواعد اللغة العربية . أما التزام قوانين الشريعة فلكيلا تتهافت النصوص وتتناقض التعاليم .

وأما التزام قواعد اللغة فلأن القرآن نزل بلسان عربى مبين . ويقول منزله جلّ شأنه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » وقضية عروبته هذه أن يُفهم على قوانين لغة العرب ، وإلا فلا يرجى أن يعقل مافيه ، ولا أن يفهم مايحويه . وذلك معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » بعد قوله « عربياً » .

ر — تفاسير الشيعة

الشيعة طائفة كبيرة بالغت فى حبها للإمام على وتقديرها إياه ، والمبالغة والإسراف حتى فى الفضائل يعود بها إلى الرذائل .

ولهذا يقول علماء الأخلاق : الفضيلة وسط بين رذيلتين . ويقولون : إذا خرج الشيء عن حده عاد إلى ضده .

ومن هنا أمر الإسلام بالاعتدال حتى فى حب النبى ﷺ وتقديره .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ويقول النبى ﷺ لأمته : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم . ولكن قولوا عبدُ اللهِ ورسوله » .

ولكن الشيعة بالغوا وأسرفوا فى حب الإمام وتقديره . وهم فرق . فمنهم من أغرق فى نفس التشيع حتى كفر . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودى عدو الله الذى ما أظهر الإسلام إلا بقصد الكيد له والإفساد فيه . ولهذا كانت تلك الفرقة فى موقف خصومة وحرب من المسلمين . حتى ورد أن الإمام عليًّا نفسه شنّ الغارة عليهم وحاربهم وطاردهم .

ومنهم قوم معتدلون لم يسقطوا فى هاوية الكفر ، وإن خالفوا أهل السنة والجماعة فى تفضيل أبى بكر وعمر وعثمان ، وتقديمهم على الإمام على فى الخلافة رضى الله عنهم أجمعين . ولهؤلاء مذاهب ودراسات ، وكتب وتفسيرات ، وأدلة وتأويلات .

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى :

مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار

مؤلفه يدعى المولى عبد اللطيف الكازلانى من النجف . وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية السابقة . فالأرض يفسرها بالدين ، وبالأئمة عليهم السلام ؛ وبالشيعة ، وبالقلوب التى هى محل العلم وقراره ، وبأخبار الأمم الماضية الخ فيقول فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » المراد دين الله وكتاب الله . ويقول فى قوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » المراد أولم ينظروا فى القرآن الخ . فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذى لا يجهله أحد على معان غريبة من غير دليل . وما حمله على ذلك إلا مركب الهوى والتعصب الأعمى لمذهبه . وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية .

« وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »

ش — التفسير الإشارى

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً .

وقد اختلف العلماء فى التفسير المذكور ، فمنهم من أجازه ومنهم من منعه . وإليك شيئاً من أقوال العلماء لتعرف وجه الحق فى ذلك .

قال الزركشى فى البرهان : كلام الصوفية فى تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير ، وإنما هو معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة ، كقول بعضهم فى قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ » إن المراد النفس . يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هى القرب ، وأقرب شىء إلى الإنسان نفسه .

وقال ابن الصلاح فى فتاويه : وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق فى التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك منهم تنظير لما ورد به القرآن . فان النظير يذكر بالنظير . ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك . لما فيه من الإبهام والإلتباس .

وقال النسفى فى عقائده : « النصوص على ظواهرها ؛ والعدول عنها إلى معانٍ يدّعيها أهل الباطل إلحاد » اه . قال التفتازانى فى شرحه : سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها ، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم . وقصدهم بذلك نفى الشريعة

بالكلية . قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ، ومحض العرفان .

ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشارى ، وبين تفسير الباطنية الملاحدة . فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر ، بل يحضون عليه ويقولون : لا بدَّ منه أولا . إذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر ، كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يجاوز الباب .

وأما الباطنية فإنهم يقولون : إن الظاهر غير مراد أصلاً ، وإنما المراد الباطن . وقصدهم نفى الشريعة .

ونقل السيوطى فى الإتقان عن ابن عطاء الله فى لطائف المنن ما نصه : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره . ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان . ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه . وقد جاء فى الحديث : (لكل آية ظهر وبطن) . فلا يصدَّنك عن تلقى هذه المعانى منهم ، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ . فليس ذلك بإحالة . وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله ما ألهمهم اه .

ملحوظة :

لعل من المناسب هنا أن نسوق إليك عبارة عن السيوطى فى بيان معنى ظهر الآية وبطنها ، وحد الحرف ، ومطلع الحد . قال نوَّر الله ضريحه : « فإن قلت » : فقد قال الفريابى . حدثنا سفيان عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه سلم

« لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع » قلت : أما الظهر والبطن فنى معناه أوجه :

(أحدها) أنك إذا بحثت عن باطنها ، وقسته على ظاهرها ، وقفت على معناها .

(الثانى) أنه ما من آية إلا عمل بها قوم ، ولها قوم سيعملون بها ، كما قال ابن مسعود

(الثالث) أن ظاهرها لفظها ، وباطنها تأويلها .

(الرابع) قال أبو عبيدة : — وهو أشبهها بالصواب — إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين وحديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم .

وحكى ابن النقيب (قولا خامساً) : أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر ، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أرباب الحقائق .

ومعنى قوله (ولكل حرف حد) أى منتهى فيما أراد الله من معناه . وقيل لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب .

ومعنى قوله : (ولكل حد مطلع) لكل غاية من المعانى والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ، ويوقف على المراد به . وقيل : كل ما يستحق من الثواب والعقاب يطلع عليه فى الآخرة عند المجازاة . وقال بعضهم : الظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام ، والمطلع الإشراف على الوعد والوعيد . قلت : يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون لا تنقضى عجائبه ، ولا تُبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفقٍ نجا ، ومن أوغل فيه بعنفٍ هوى ، أخبار وأمثال . وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه . وظهر وبطن : فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل

فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء اه : غير أن الوجه الأول الذى نقله السيوطى فى معنى الظهر والبطن ليس بواضح . وإذا التمسنا له بعض الاحتمالات تشابه أو اتحد بما بعده من الأقوال . والقول الخامس متحد كذلك مع الثالث أو قريب منه . فتأمل

شروط قبول التفسير الإشارى

مما تقدم يعلم أن التفسير الإشارى لا يكون مقبولاً إلا بشروط خمسة وهى :

(١) ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم .

(٢) ألا يُدَّعى أنه المراد وحده دون الظاهر .

(٣) ألا يكون تأويلاً بعيداً سخيفاً ، كتفسير بعضهم قوله تعالى : « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » بجعل كلمة « لمعَ » فعلاً ماضياً . وكلمة « المحسنين » مفعوله .

(٤) ألا يكون له معارض شرعى أو عقلى .

(٥) أن يكون له شاهد شرعى يؤيده .

كذلك اشترطوا . بيد أن هذه الشروط متداخلة ، فيمكن الاستغناء بالأول عن الثالث ، وبالخامس عن الرابع . ويحسن ملاحظة شرطين بدلهما أحدهما بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أولاً . ثانيهما ألَّا يكون من وراء هذا التفسير الإشارى تشويش على المفسَّر له . وسيأتيك فى نصيحتى وفى كلام الغزالى ما يقرر هذين الشرطين .

ثم إن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه فحسب ، وليست شروطاً لوجوب اتباعه والأخذ به . ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن ، ثم إن له شاهداً يعضده من الشرع ، وكل ما كان كذلك لا يرفض . وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه ، بل هو من قبيل الإلهامات التى تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة ، ولا مقيدة بقوانين .

أهم كتب التفسير الإشارى

وأهم كتب التفسير الإشارى أربعة : تفسير النيسابورى ، وتفسير الألوسى ، وتفسير التسترى ، وتفسير محيي الدين بن عربى .

(١) أما تفسير النيسابورى : فقد تقدّم الكلام عليه ، وبقى أن نذكر لك عنه أنه بعد أن يوفى الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات يقول : قال أهل الإشارة . أو يقول : (التأويل) ثم يسوق المعنى الإشارى لتلك الآية أو الآيات تحت هذا العنوان . مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » الآيات . قال مانصه : « التأويل : ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية ، فإن فى ذبحها حياة القلب الروحانى ، وهو الجهاد الأكبر . «مُوتوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتوا » .

« اقْتُلونِي يَا ثِقَاتِي   إِنَّ فِى قَتْلِي حَيَاتِي
وَحَيَاتِى فِى مَمَاتِي   وَمَمَاتِى فِى حَيَاتِي »

مُت بالإرادة تحىَ بالطبيعة . وقال بعضهم : مُتْ بالطبيعة تَحْىَ بالحقيقة « مَاهِيَ ؟ إِنَّهَا بَقَرَةٌ » : نفسٌ تصلح للذبح بسيف الصدق ، « لافَارِضٌ » فى سن الشيخوخة ، فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية ، كما قيل : الصوفى بعد الأربعين بارد . « وَلَا بِكْرٌ » فى سن شرخ الشباب ، يستهويه سكره . « عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » لقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » . « بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ » إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضات . « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » يريد أنها صفرة زين ، لاصفرة شين . فإنها سيما الصالحين « لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ » : لاتحتمل ذلة الطمع ، ولا تثير بآلة الحرص أرض الدنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها . « ولا تسقى الحرث » ولا يسقى حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق ؛ وبماء وجاهته عند الخالق ، فيذهب ماؤه عند الحق وعند الخلق . « مُسَلَّمَةٌ » من آفات صفاتها ، ليس فيها علامة طلب غير الله « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » بمقتضى الطبيعة ،

لولا فضل الله وحسن توفيقه :

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً » يعني القلب : « فَادَّارَأْتُمْ » فاختلفتم أنه كان من الشيطان . أم من الدنيا أم من النفس الأمارة « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » ضرب لسان البقرة المذبوحة بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر ، فحيي بإذن الله ، وقال « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » .

« وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ » مراتب القلب فى القسوة مختلفة : فالتى يتفجر منها الأنهار قلوب يظهر عليها لغليان أنوار الروح بترك اللذات والشهوات بعضُ الأشياء المشبهة بخرق العادات ، كما يكون لبعض الرهبان والهنود . والتى تشقق فيخرج منها الماء ، هى التى يظهر عليها فى بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من أنوار الروح فيريه بعض الآيات والمعانى المعقولة ، كما يكون لبعض الحكماء ؛ والتى تهبط من خشية الله مايكون لبعض أهل الأديان والملل من قبول عكس أنوار الروح من وراء الحجب فيقع فيها الخوف والخشية .

وهذه المراتب مشتركة بين المسلمين وغيرهم . والفرق أنها فى المسلمين مؤيدة بنور الإيمان ، فيزيدون فى قربهم وقلوبهم ودرجاتهم . ولغيرهم ليست مؤيدة بالإيمان، فيزيدوا فى غرورهم وعجبهم وبعدهم واستدراجهم . والمسلمون مختصون بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلِّي أنوار الحق ورؤية برهانه .

فإراءة الآيات للخواصِّ « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » . « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » . لكن إرادة البرهان لأخصِّ الخواص كما جاء فى حق يوسف « لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » .

سئل الحسن بن منصور عن البرهان فقال : وارداتٌ ترد على القلوب ، فتعجز القلوب عن تكذيبها . والله أعلم اه .

(مثال ثان) قال النيسابورى أيضاً بعد تفسير قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » مانصه : « التأويل » مساجد الله التى يذكر فيها اسمه عند أهل النظر ، النفس ، والقلب ، والروح ، والسر ، والخفى وهو سر السر . وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد . فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات ، ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات . وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة ، ومنع الذكر فيه بالتمسك بالشبهات ، والتعلق بالشهوات ، فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عنى محجوبة . وذكر مسجد الروح بالشوق والمحبة ، ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمسكنات . وذكر مسجد السر المراقبة والشهود ، ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات . وذكر مسجد الخفى وهو سر السر ، بذل الوجود ، وترك الموجود . ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات » الخ ما قال .

(٢) وأما تفسير الألوسى فاسمه روح المعانى . ومؤلفه العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الألوسى البغدادى مفتى بغداد المتوفى سنة ١٢٧٠ سبعين ومائتين وألف . وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها . نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة . وألف فيه بين مايفهم بطريق العبارة ومايفهم بطريق الإشارة . رحمه الله وتجاوز عنه .

ومما قاله فى التفسير الإشارى بعد أن فسر قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى آخر الآيات بعدها . قال مانصه :

ومن مقام الإشارة فى الآيات . وإذ قلتم ياموسى القلب ، لن نؤمن الإيمان الحقيقى حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان . فأخذتكم صاعقة الموت الذى هو الفناء فى التجلى الذاتى . وأنتم تراقبون أو تشاهدون . ثم بعثناكم بالحياة الحقيقية . والبقاء بعد الفناء ،

لكى تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك فى الله عز وجل . وظللنا عليكم غمام تجلى الصفات ، لكونها حجبت شمس الذات ، الخ ماقال .

(مثال ثان) : قال بعد تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » قال مانصه :

وإذ أخذنا ميثاقكم المأخوذ بدلائل العقل ، بتوحيد الأفعال والصفات ، ورفعنا فوقكم طور الدماغ ، للتمكن من فهم المعانى وقبولها . أو أشار سبحانه بالطور ، إلى موسى القلب ، وبرفعه إلى علوه واستيلائه فى جو الإرشاد والشرائع ، لكى تتقوا الشرك والجهل والفسق ، ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك . فلولا حكمة الله بإمهاله ، وحكمه بإفضاله ، لعاجلتكم العقوبة ، ولحلَّ بكم عظيم المصيبة .

« إلى اللهِ يُدعى بالبراهينِ مَنْ أَبى
فإنْ لم يُجِبْ ، بَادَتْهُ بيضُ الصَّوارِمِ »

فهذه الإشارة إنما يعرفها ذو الوجد والمشاهدة ، وهى لأصحابها رياض يانعة ؛ وأنوار لامعة . اه

(٣) تفسير التسترى : هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى سنة ٣٨٣ ثلاث وثمانين وثلثمائة . وتفسيره هذا لم يستوعب كل الآيات ، وإن استوعب السور ، وقد سلك فيه مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر . وإليك نموذجاً منه إذ يقول فى تفسير البسملة مانصه : —

(الباء) بهاء الله عز وجل . (والسين) سناء الله عز وجل . (والميم) مجد الله عز وجل . (والله) هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها . وبين الألف واللام

منه حرف مكنى غيب إلى غيب ، وسر من سر إلى سر ، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة . لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان .

(والرحمن) اسم فيه خاصة من الحرف المكنى بين الألف واللام . (والرحيم) هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع ، والابتداء فى الأصل ، رحمة لسابق علمه القديم . قال أبو بكر : أى بنسيم روح الله اخترع من ملكه ماشاء رحمة لأنه رحيم . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : الرحمن الرحيم . اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر. فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده اه .

ومن تفسيره بما هو قريب من المعنى الظاهر قوله فى تفسير الآية الكريمة .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » الخ مانصه : —

أفكان شاكا فى إيمانه حتى سأل ربه أن يريه آية معجزة ليصح معها إيمانه ؟ فقال سهل : لم يكن سؤاله ذلك عن شك ، وإنما كان طالباً زيادة اليقين ، يقيناً فى قدرة الله وتمكينا فى خلقه . ألا تراه كيف قال : « أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى » فلو كان شاكاً لم يُجبْ ببلى . ولو علم الله منه الشك وهو أخبر ببلى وستر الشك ، لكشف الله ذلك . إذ كان مثله مما لا يخفى اه .

وهذا الكتاب صغير الحجم ، غير أنه غزير المادة فى موضوعه ، مشتمل على كثير من علاج الشبهات ، ودفع الإشكالات . يقع فى نحو من ٣١٤ أربع عشرة وثلاثمائة صفحة وهو مطبوع بمصر .

(٤) تفسير ابن عربى : هو عبد الله محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، محيي الدين بن عربى ، الحاتمى ، الصوفى ، الفقيه ، المحدث . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ ستين وخمسمائة وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٨ ثمان وثلاثين وستمائة .

ومن مصنفاته كتاب الجمع والتفصيل ، فى إبداء معانى التنزيل . ومنها إيجاز البيان فى الترجمة عن القرآن . وقد طبع تفسيره فى جزأين بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٧ سبع وثمانين ومائتين بعد الألف ، وقد قال فى خطبته ما نصه :

قد تذكرت خبراً قد أتانى فازدهانى ، مما وراء المقاصد والأمانى ، قول النبى الأمى الصادق ، عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق : « ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » . وفهمت منه أن الظهر هو التفسير ، والبطن هو التأويل ، والحدّ ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام .

وقد نُقل عن الإمام المحقق السابق ، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لا يبصرون . وروى عنه عليه السلام أنه خرّ مغشياً عليه وهو فى الصلاة ، فسُئِلَ عن ذلك فقال : « ما زلت أُردِّد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها » .

قال : فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لى فى الأوقات ، من أسرار حقائق البطون ، وأنوار شوارق الكائنات ، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود ؛ فإنها قد عين لها حدّ محدود . وقد قيل : « مَنْ فسّر القرآن برأيه فقد كفر » وأما التأويل فلا يبقى ولا يذر ، فإنه باختلاف أحوال المستمع وأوقاته ، فى مراتب سلوكه وتفاوت درجاته . وكلما ترقّى عن مقام انفتح له باب فهم جديد ، واطلع به على لطيف معنى عتيد . إلى أن قال : « وكل ما لا يقبل التأويل عندى أو لا يحتاج إليه ، فما أوردته أصلا الخ اه .

ومن تفسيره الإشارى لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » ما نصه :

« إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » هى النفس الحيوانية ، وذبحها قمع هواها الذى هو حياتها ، ومنعها من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة . وقال فى تفسير آية « وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً » إلى قوله . « وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » من سورة الأنبياء ، قال ما نصه .

« ولسليمان الرِّيحَ » أى سخرنا لسليمان العقل العملى ، والمتمكن على عرش النفس فى الصدر ، ريح الهوى « عاصفة » فى هبوبها . « تَجْرِى بِأَمْرِهِ » مطيعة له « إلى الأرض » أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب . « التى بَارَكْنَا فِيهَا » بتمييز الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة . « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ » من أسباب الكمال « عالمين » . « وَمِنَ الشَّيَاطِين » شياطين الوهم والتخييل ، « مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ » فى بحر الهيولى الجثمانية ويستخرجون درر المعانى الجزئية « وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ » من التركيب والتفصيل والمصنوعات ، وتهييج الدواعى المكسوبات وأمثالها . « وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ » عن الزيغ والخطأ والتسويل الباطل والكذب « وأَيُّوبَ » النفس المطمئنة الممتحنة بأنواع البلاء فى الرياضة ، البالغة كمال الزكاء فى المجاهدة « إِذْ نَادَى رَبَّهُ » عند شدة الكرب فى الجد ، وبلوغ الطاقة والوسع فى الجهد . « أَنِّى مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ » من الضعف والانكسار والعجز . « وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ » بالتوسعة والروح . « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ » بروح الأحوال عن كدّ الأعمال ، عند كمال الطمأنينة ونزول السكينة « وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ » من ضر الرياضة بنور الهداية . ونفَّسنا عنه ظلمة الكرب ، بإشراق نور القلب « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » القوى النفسية التى ملكناها وأمتناها بالرياضة ، بإحيائها بالحياة الحقيقية . « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » من إمداد القوى الروحانية وأنوار الصفات القلبية ، ووفرنا عليهم أسباب الفضائل الخلقية ، وأحوال العلوم النافعة الجزئية « رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » اه .

ت — نصيحة خالصة

بيد أن هذا التفسير كما ترى ، جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض لبيان المعانى الوضعية للنصوص القرآنية . وهنا الخطر كل الخطر . فإنه يخاف على مُطالعه أن يفهم أن هذه المعانى الإشارية ، هى مراد الخالق إلى خلقه فى الهداية إلى تعاليم الإسلام ، والإرشاد إلى حقائق هذا الدين الذى ارتضاه لهم .

ولعلك تلاحظ معى أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر ، فدخل فى رُوعهم أن الكتاب والسنة بل الإسلام كله ماهى إلا سوانح وواردات ، على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات . وزعموا أن الأمر ماهو إلا تخييلات ، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح ، فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة ، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية فى فهم أبلغ النصوص العربية ، كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

والأدهَى من ذلك أنهم يتخيَّلون ويخيِّلون إلى الناس ، أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية ، واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف ، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ، مادامو فى زعمهم مع رب الأرباب . وهذا — لعمر الله — هو المصاب العظيم ، الذى عمل له الباطنية وأضرابهم من أعداء الإسلام ، كيما يهدموا التشريع من أصوله ، ويأتوا بنيانه من قواعده . « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ . وَيَأْبَى ٱللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ » .

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذِّرهم الوقوع فى هذه الشباك ، ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية ، ولا يعوِّلوا على على أشباهها مما ورد فى كلام القوم بالكتب الصوفية . لأنها كلها أذواق ومواجيد ، خارجة

عن حدود الضبط والتقييد . وكثيرا مايختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل . وإذا تجردت من ذلك فقلما يظهر منها مراد القائل . وإذا ظهر فقد يكون من الكفريّات الفاحشة ، التى نستبعد صدورها من العلماء والمتصوفة بل من صادقى عامة المسلمين . والتى نرى الطعن فيها بالدس والوضع ، أقرب وأسلم من الطعن فيمن عُزِيت إليه بالكفر والفسق .

فالأحْرَى بالفَطِن العاقل ، أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق ، وأن يفرّ بدينه من هذه الشبهات . وأمامه فى الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياضٌ وجنات . « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » ؟ !.

قال ﷺ : « فمن اتّقى الشبهات فقد استَبْرَأَ لدينه وعِرْضِهِ » .

وقال ﷺ : « دَعْ مايَرِيبُكَ إلى مالا يريبك » وبالله تعالى توفيقى وتوفيقك . نسأله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام ، وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام ، آمين .

كلمة لحجّة الإسلام الغزالى

وأختتم نصيحتى هذه بكلمة قيّمة تتصل بموضوعنا اتصالا ماساً ، وهى مدبّجة بيراعة الإمام الغزالى ، حين عرض فى كتابه الإحياء للذكر والتذكير وما أدخله الناس فيهما ، فقال — بلّل الله ثراه — :

وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية :

(أحدهما) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاّج الذى صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس

ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : سبحانى سبحانى . ! وهـذا فنٌ من الكلام عظيم ضرره على العوام ، حتى لقد ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هـذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوامّ ضرره ، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله ، فلا يصح عنه مايحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عزّ وجلّ فى كلام يردِّده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : « إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى » فإنه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

(الصنف الثانى من الشطح) : كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل . وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط فى عقله ، وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه . وهـذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوِّش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانٍ ما أريدت ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ماحدَّثَ أحدكم قوماً بحديثٍ لايفقهونهُ إلا كانَ

فتنةً عليهمْ [(١)] » وقال ﷺ : « كلموا الناسَ بما يعرفونَ ، ودعوا ما ينكرونَ ، أتريدونَ ، أنْ يكذَّبَ اللهُ ورسولهُ [(٢)] » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحلُّ ذكره . وقال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء » وفى لفظ آخر : « من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم . إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلاً ، فأعطِ كلَّ ذى حقٍّ حقهُ » .

وأما الطاعات فيدخلها ماذكرناه فى الشطح ، وأمرٌ آخر يخصها، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات . فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، فإن مايسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى . وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذَّة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية .

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم فى مقدمة صحيحه ، موقوفاً على ابن مسعود . ورواه العقيلى فى الضعفاء .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى موقوفاً على علىٍّ ، ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم .

ومثال تأويل أهل الطامّات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفى قوله تعالى : « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ » أى كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ وجلّ فينبغى أن يلقيه . وفى قوله ﷺ : « تَسَحَّرُوا فإن فى السُّحورِ بَرَكَةً [1] » أراد به الاستغفار فى الأسحار ، وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء . وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنزيل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار . وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يُدرك بالحسّ حتى يتطرّق التأويل إلى ألفاظه . وكذلك حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناولُ الطعام ويقول : « تَسَحَّرُوا[2] » « وهلموا إلى الغَذَاء المباركِ [3] » . فهذه أمور يدرك بالتواتر والحسّ بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس . فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق . ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم . فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار [4] » معنى إلا هذا

(١) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى .

(٣) هذا الحديث رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية. وضعفه ابن القطان .

(٤) رواه البخارى ومسلم وقيل بتواتره .

النمط . وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه . فيستجرُّ شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية .

ولا ينبغى أن يُفهم منه أنه يجب ألا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معانٍ وستة وسبعة ، وعُلم أن جميعها غير مسموع من النبى ﷺ ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر . ولهذا قال ﷺ لابن عباس رضى الله عنه : اللهم فَقِّهْهُ فى الدِّين وعَلِّمْهُ التأويل » .

ومن يستجيز من أهل الطامّات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ، ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق ، يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع . كمن يضع فى كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبى ﷺ ، فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله ﷺ : « من كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار » . بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطمُّ وأعظم لأنه مبطل للثقة بالألفاظِ وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن القوانين المحمودة إلى المذمومة . فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى . فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ماعرف فى العصر الأول ، كنت كمن طلب شرف الحكمة باتباع من يسمى حكيماً ، فإن اسم الحكيم صار يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم فى هذا العصر . وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ .

ثم قال : « اللفظ الخامس – أى من الألفاظ التى وقع فيها التلبيس – لفظ الحكمة فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم حتى على الذى يدحرج القرعة

على أكفِّ السوادية في شوارع الطرق . والحكمة هى التى أثنى الله عزّ وجلّ عليها فقال « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » وقال ﷺ : « كلمةٌ من الحكمة يتعلمها الرَّجلُ خيرٌ له من الدنيا وما فيها (١) » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ؟ وإلى ماذا نقل ؟ وقِسْ به من بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرّج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن شر الخلق أبَى وقال : « اللهُمَّ غَفْراً (٢) » حتى كرروا عليه فقال : « هُم علماء السوءِ » .

فقد عرفت العلم المحمود والعلم المذموم ومثار الالتباس . وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبَّه بالخلف . فكل ما ارتضاه السلف من العلم قد اندرس ، وما أكبَّ الناس عليه فأكثره مبتدَع ومحدَث . وقد صحّ عن رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً . وسيعودُ غريباً كما بدأ ، فَطُوبَى للغرباءِ » فقيل : يا رسول الله ومَن الغُرَباء ؟ قال : « الذين يُصْلِحُونَ ما أفسدهُ الناسُ من سُنَّتِي . والذين يُحْيُونَ ما أماتوه من سُنَّتِي (٣) » وفى خبر آخر : « هُمْ المتمسِّكُون بما أنتم عليه اليوم (٤) » وفى حديث آخر : « الغُرَباء ناسٌ قليلٌ صالحون بينَ ناسٍ كثير . مَنْ يُبْغِضُهُمْ فى الخلق أكثرُ ممن

---

(١) هذا الحديث روى ابن المبارك فى الزهد والرقائق مثله مرسلا ، وفى مسند الفردوس بسند ضعيف .

(٢) هذا الحديث رواه البزار فى مسنده بسند ضعيف .

(٣) هذا الحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً ، وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسَّنه .

(٤) هذا الحديث يقول الحافظ العراقى فى تخريجه : لم أرَ له أصلا .

يُحِبُّهُمْ [1] » . وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث عمت ذكراها . ولذلك قال الثورى رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه » انتهى كلام الإمام الغزالى ، ضاعف الله أجره وأحسن ذُخره ، ووهبنا السلامة والعافية بمنه وكرمه ، آمين .

ت — تفاسير أهل الكلام

كل إنسان تغلب عليه نزعته فى كتابته ، وتلوح عقيدته من خلال تأليفه وتحديثه كما قلنا . وذلك هو الشأن فى علماء الكلام حين تصدَّوا لتفسير كتاب الله . فالسنىُّ لاحت على تفسيره أنوار أهل السنة . والمعتزلىُّ فاحت من جوانب بيانه روائح الاعتزال . والشيعىُّ هبَّت من نواحى تأويله ريح التشيُّع . وهكذا .

بَيْدَ أن الفرق بينهم كبير ، فى التعصُّب أو القصد ، وفى الإيجاز أو البسط .

وقد مضى بك الحديث فى تفاسير المعتزلة والشيعة . ورأيت كيف كان الزمخشرى فى اعتزاله مقتصداً مستخفياً ؟ وكيف كان القاضى عبد الجبار متعصباً مُسْتَعْلِناً ؟ وكيف كان المولى عبد اللطيف متشيِّعا مسرفاً .

وكذلك تجد فى أهل السنة أنفسهم من هو قاصد فى تأييد عقيدته بتفسيره كأولئك الذين ترجمناهم وترجمنا تفاسيرهم من قبل ، عند الكلام على أشهر كتب التفسير بالرأى المحمود .

ومن أهل السنة من استبسل فى الدفاع عن عقيدتهم فى تفسيره . وعلى رأس هؤلاء الإمام فخر الدين الرازى ، الذى شنَّها حرباً شعواء فى كل مناسبة ، على أهل الزيغ

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو .

والانحراف فى العقيدة . وقد سلك فى تفسيره « مفاتيح الغيب » المشهور بتفسير الفخر ، مسلكَ الحكماء الإلٰهيين . فصاغ أدلته فى مباحث الإلٰهيات على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة. وكذلك تعرَّض لشبههم بالنقض والتفنيد فى كثير من المواضع .

كما أنه سلك طريقة الطبيعيين فى الكونيات فتكلَّم فى الأفلاك والأبراج ، وفى السماء والأرض ، وفى الحيوان والنبات، وفى أجزاء الإنسان ، وغير ذلك مما جرَّ إليه الاستدلال على وجود الله جلَّ جلاله . غفر الله له وشكر صنيعه « وَٱللَّهُ خَيْرُ الشَّاكِرِينَ »

خ — مزج العلوم الأدبية والكونية

وغيرها بالتفسير ؛ وسبب ذلك ، وأثره

القرآن كتاب هداية وإعجاز، وهدايته وإعجازه يصوِّرهما المفسِّر ويشرحهما فى تفسيره، على قدر ما فيه من استعداد ومقدرة، وعلى قدر ما عند الناس من علوم ومعارف وأفكار.

ولقد مرَّت على القرآن الكريم منذ نزوله إلى الآن عصور وقرون ، وأمم وأجيال والقرآن ـ كما كان وكما سيبقى ـ كتابٌ ينشر نور الهداية ويرفع لواء الإعجاز. وكان الذين شُوفِهوا به لأول مرة ، عرباً اكتملت فيهم خصائص العروبة، وإن كانوا مع ذلك أُمِّيِّين لا إلمام لهم بالقراءة والكتابة ، ولا شأن لهم بعلوم تدرس ، ولا بكتب تقرأ .

لهذا وذاك كان فهمهم لهداية هذا الكتاب وإعجازه، وتصويرهم لهما بالتفسير والبيان ، من الأمور الهينة السهلة، الجارية على الفطرة والبساطة، لا يحتاجون فى ذلك إلى اصطلاحات فنية ، ولا إلى قواعد نحوية وبلاغية ، ولا إلى نظريات علميَّة .

أما إعجازه فكان معروفاً لهم بمحض السليقة العربية السليمة، والذوق البلاغى الرقيق. وأما هدايته فكانوا يفهمونها كذلك بعقولهم الصافية، وذكائهم الموهوب ، ولغتهم العربية الفصحى التى نزل بها القرآن .

وإذا استعانوا فبالنظر فى كتاب الكون وآيات الله فى الآفاق ، وبما خلق الله فيهم وحولهم من عجائب السموات والأرض ، ثم بما يسمعون من بيان رسول الله ﷺ .

مضى الأمر على ذلك مدة . ثم جاء نصر الله والفتح ووطَّأت الأرضُ أكنافها للمسلمين، وأظلَّت راية الإسلام أمماً وشعوباً لم تكن تعرف العربية ، ولكنها كانت على ثقافة فى العلوم والفنون والفلسفة . وقد اختلطت هذه الأمم المفتوحة بتلك الأمم الفاتحة، فكان من نتائج هذا الاتصال مع امتداد الزمان أمران :

(أحدهما) أن فسدت اللغة العربية،وأصبح الجميع بحاجة إلى ضوابط تضبطها وتضمن سلامتها ، وتعصم الناس من الخطأ فى فهم الكتاب والسنة . فنشأت بسبب ذلك العلوم الأدبية أو علوم اللغة العربية .

(ثانيهما) أن تُرجمت علوم هذه الأمم الداخلة فى الإسلام وهُذِّبت ونقحت وذاعت ثقافتها بين المسلمين على اختلاف أجناسهم فكان من مقتضيات الحكمة التوفيق بينها وبين القرآن من ناحية ، وفهم القرآن فى ضوئها من ناحية أخرى. وإنما كان ذلك من مقتضيات الحكمة ، لأن الإسلام ليس عَدُوًّا للعلم كما يزعم الأفاكون ، بل هو صديق العلم وحليفه، إن لم نقل كأنه هو ! .

بهذه الأسباب بدأت العلوم الأدبية والعلوم الكونية تتدخل فى تفسير القرآن وتمتزج به على اعتبار أن هدايته وإعجازه لا يُفهمان فهماً صحيحاً كاملاً بالنسبة إليهم إلا عن طريق هذه العلوم والمعارف .

أما علوم اللغة والأدب ، فلأن بها يعرف ضبط الكلمات أبنيتها وهيئاتها وأواخرها، ومدلولات الألفاظ على اختلاف أنواعها ؛ والإحاطة بمعانى التراكيب ، والتمييز بين

العالى والنازل من الأساليب . ولا ريب أن إدراك معانى القرآن ، وذوق بلاغته وإعجازه، لايتأتى لغير العرب الخلص إلا عن هذا الطريق .

وأما العلوم الكونية ، فلأن الله تعالى دعا الناس كثيراً أن ينظروا فى هذا الكون، وحضهم بقوة أن يقرءوا صحيفة هذا الوجود ، ليصلوا من الكون إلى مكوِّنه ، وليستدلوا بالوجود على موجده ، ولينتفعوا أبلغ انتفاع بتلك القوى العظيمة التى خلقها لأجلهم ، وسخرها لنفعهم . قال تعالى فى سورة الجاثية : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

فلا عجب إذا فهموا تلك الألفاظ الكونية التى فى القرآن على النحو الذى هداهم إليه العلم ، والثقافة التى تثقفوها فى علوم الكون

ومعلومٌ أن المفسر لايفسر لنفسه ، إنما يفسر للناس ، فكان من الواجب أن يساير أفكارهم ، ويشرح ألفاظ القرآن فى الظواهر الطبيعية والعلمية ، وسنن الله الكونية ، وقوانين الاجتماع والسياسة ، وقواعد الاقتصاد والأخلاق ،وسائر التشريعات الشخصية والمدنية والجنائية والحربية ، نقول : يجب على المفسر أن يشرح ألفاظ القرآن فى ذلك كله وفيما يشبهه ، بالطريقة العلمية المألوفة لهم ، وبالأفكار الغالبة عليهم الملائمة لأذواقهم . وإلا فما بلغ رسالته ، ولا أدّى أمانته . وكيف يخاطب العالم بغير مايفهمون ، ويدخل إليهم من غير الباب الذى يدخلون ؟.

هذه هى الاسباب التى جعلت التفسير يمتزج بالعلوم الأدبية والكونية وغيرها ،وجعلت العلوم الأدبية والكونية تحتلُّ مكانها فى كتب التفسير ، وإن كان هذا الامتزاج يختلف

ضعفاً وقوة ، وقلة وكثرة ، وتوفيقاً وخذلاناً ، باختلاف مواهب المفسرين واستعداد الجمهور ، وتقدُّم الزمان وتأخره في هذه العلوم .

فتفاسير الزجاج وأبي حيان وأضرابهما مليئة بالمباحث النحوية ، وتفاسير الزمخشري وأبي السعود وأشباههما مليئة بالمباحث البلاغية ؛ وتفسير الخازن ومن لفَّ لفَّه مليء بالأخبار والقصص وتفسير الجواهر للعلامة المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري مليء بالعلوم الكونية ، وهو تفسير حديث يشتمل — كما قال صاحبه — على عجائب بدائع المكوّنات ، وغرائب الآيات الباهرات . يقع في خمسة وعشرين مجلداً ، وقد تمّ طبعه بمصر عام ١٣٥٢ اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، رحم الله مؤلفه وجزاه خيراً .

آثار هذا الامتزاج

أما آثار امتزاج العلوم الأدبية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

(١) بيان معاني القرآن وهداياته .

(٢) إظهار فصاحة القرآن وبلاغته .

(٣) الدلالة على وجوه إعجاز القرآن ، من ناحية الأسلوب والبيان .

وأما آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يلي :

(١) مسايرة أفكار الناس ومعارفهم ، وتفسير القرآن لهم تفسيراً يشبع حاجتهم من الثقافة الكونية .

(٢) إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية مايحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والاجتماع .

(٣) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين .

(٤) استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه في هذه الأيام .

(٥) الحثُّ على الانتفاع بقوى الكون ومواهبه .

(٦) امتلاء النفس إيماناً بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان فى تفسير كلام الله على خواصِّ الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ما تصوِّرها علوم الكون .

هذا – وإن لامتزاج العلوم الكونية والأدبية بالتفسير آثاراً أخرى مشتركة بينهما نجملها فيما يأتى :

(١) زيادة الثقة بالقرآن وعروبته ومعارفه وإعجازه .

(٢) والإيمان بأنه كتابٌ غنىٌّ بكل ما يحتاج إليه البشر من ألوان السعادة .

(٣) والإيمان بأنه كتاب الساعة ، ودستور الناس إلى يوم القيامة ، يصلح لكل زمان ومكان . ولا يستغنى عن كنوزه وذخائره إنسان .

شروط لا بدَّ منها

تلك الآثار الجليلة التى ألمعنا إليها ، لا تتحقق جلالتها إلا إذا روعيت فيها الأمور الآتية :

(١) ألا تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول من القرآن ، وهو الهداية والإعجاز . أما إن أسرف المفسر واشتغل بتفريعات العلوم الأدبية ، ونظريات الفنون الكونية ، فقد انعكست الآية ، ولم يعد التفسير تفسيراً . بل يكون أشبه بكتب العلوم والفنون منه بكتب التفسير . كما قال بعض العلماء الظرفاء يصف تفسيراً مشهوراً بالاستطراد والتطويل والضرب فى كثير من العلوم . قال : « لقد حوى هذا التفسير كلَّ شىء إلا التفسير » .

(٢) أن يلاحظ فى امتزاج التفسير بتلك العلوم ، ما يلائم العصر ، ويوائم الوسط ،

لأن تلك الأبحاث الكونية والأدبية ، قد تكون ضرورية ومفيدة أيما فائدة إذا شرح بها القرآن فى عصر من عصور الثقافة ، أو لجمهور من المفتونين بالمادة وعلوم الكون ، أو لطائفة من المتأدبين المشغوفين بفنون البلاغة فى القول . بينما تكون هذه الأبحاث نفسها نكبة وفتنة ، إذا شُرح بها القرآن فى عصر من عصور الجهالة ، أو لفئة أخرى من فئات الناس . « وما من أحد يخاطب قوماً بغير ما تسعه عقولهم إلا كان فتنةً عليهم » .

(٣) أن تذكر تلك الأبحاث على وجهٍ يدفع المسلمين إلى النهضة ، ويلفتهم إلى جلال القرآن ، ويحرِّكهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذى سخره الله لنا ، انتفاعاً يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها .

وهاك نموذجاً على سبيل التمثيل ، وإن أسرف فى هذا السبيل ، إسرافاً أنساه نفس التفسير والتأويل .

قال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه « القرآن والعلوم العصرية » ما نصه :

قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » عبر الله تعالى بكاف الخطاب ست مرات ، فجعل الماء لنا ، وتسخير الشمس والقمر لنا ، وتسخير الليل والنهار لنا . وقد آتانا من كل ما سألناه فى ضمائرنا ، وما تمنته نفوسنا .

فهل هذا الخطاب استثنى منه المسلمون ؟ فهل جعل الله الثمرات فى الأرض خاصة بغير المسلمين ؟ أم الخطاب عام ؟ . وهل الفلك التى تجرى فى البحر ما بين آسيا وافريقية وأوربة فى المحيط الهندى والهادى والبحر الأحمر وبحر الظلمات بين أوربة وأمريكا . هل هذه

السفن خاصة بالإفرنج ؟ وكيف نام المسلمون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدى غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صِفر اليدين ؟ . فالسفن التى تمخُر عُباب الأنهار والبحار فى سائر أنحاء كرتنا الأرضية بيد الفرنجة ، وهم هم الذين يدرسون علوم المعادن والكهرباء والبخار و « التلغراف » البرق الذى له سلك ، والبرق الذى بلا سلك . أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا ٣٥٠ مليوناً [1] ولا سفن لكم فى البحار كما لغيركم ، وقد خاطبكم الله تعالى فقال : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » على قواعد علمية بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها ، والخشب لتكميلها ، والبخارى لتسييرها ، والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها ، وقراء علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها فى طرق البحار ، ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها وما فيها من مسالك . حتى لا تضل السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك ما فيها . وبعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف ، حتى يلبس الرُّبَّان لكل حال لَبوسها ، وينهج النهج الذى ينجى السفينة . ثم قال : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ » . ولا جرم أن الأنهار تسقى الزروع ، ولها فى جريانها قوة تستخرج منها الكهرباء فتغنى عن الفحم والبترول . والمسلمون فى بقاع الأرض غافلون عن أنهارهم ، وتكاد تصبح بيد غيرهم . « وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » . والليل والشمس والقمر ؛ لها حساب دقيق لا يُهتدى إليه إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك ، فلا تطلع الشمس ولا تغرب ، ولا يشرق النجم ولا يغرب ، ولا يطلع سيَّار ولا يأفل ، إلا بمواعيد موقوتة لا تنقص ثانية ، بل كل ذلك بمقدار . ولو حرم البشر ذلك يوماً واحداً لاختلَّ أمر حياتهم . فها هى سفن البحار وقطرات اليابسة ؛ كلها تسير بحساب الشمس والكواكب . ولو أغفل الناس بعض ذلك لاختلَّت مواعيدهم ،

(١) جاء فى بعض المصادر الموثوق بها أن عدد المسلمين يزيد الآن كثيراً على أربعمائة مليون .

ولتصادمت قطراتهم ؛ ولمات كثير منهم . ويعرف ذلك كل من اطلع على طَرَف من علم الفلك فى هذه الأيام » انتهى ما أردنا نقله بقليل من التصرف .

كلمة ختامية

لاتحسبنّ أن ما نوّهنا به فى هذا المبحث قد أحاط بما كُتب من تفاسير القرآن ، ولا تحسبنّ أن ما كتب من جميع التفاسير قد أحاط بكل ما أودعه الله القرآنَ من أحكام وحِكَم ومعارف وأسرار . بل إن ماذكرناه هنا من التفاسير قُلٌّ من كُثْر ، ثم إن ماحوته تلك الموسوعات التفسيرية على كثرتها لم تأخذ من القرآن إلا كما يأخذ المخيط إذا أدخل البحر . ويروقنى ماقاله بعض الأعلام حين سئل : ماخير تفسير للقرآن ؟ فأجاب : الدهر . يعنى أن العلوم والمعارف والأفكار والحوادث والتجارب التى تجدُّ فى الزمن عوامل مهمةٌ فى شرح القرآن . وكل حقبة من سلسلة هذه الأزمان الطويلة ، تكشف عن بعض مخبوءات أسراره التى لم تكن معروفة من قبل .

وإن كنت فى شك فهاكَ دور الكتب ومكتبات العالم ، فإنها لا تزال — على كثرة ماضاع واندثر — زاخرةً بأمواج كالجبال من التفاسير ، مما لا يمكن أن يحيط به إلا العليم الخبير . وإنه لَيُعْيِيك استقصاء أسمائها ، فضلاً عن استقراء مسمَّياتها . وإنك لتجد فيها فنوناً وألواناً وشؤناً مما فتح الله على العلماء فى بيان كتابه : منها تفاسير بالمأثور وتفاسير بالرأى . ومنها تفاسير ظواهر العبارة وتفاسير غوامض الإشارة . ومنها تفاسير يغلب عليها صنعة الكلام ، وأخرى يغلب عليها صنعة البلاغة ، وثالثة يغلب عليها النحو والإعراب ، ورابعة يغلب عليها تفاريع الأحكام ، وخامسة يغلب عليها علوم الكون ، إلى غير ذلك . ومنها تفاسير كل القرآن وتفاسير جزء منه أو سورة أو آية .

ولقد اطَّلعتُ — وأنا قصير الباع قليل الاطلاع — على فهارس تفاسير خاصّة بكلِّ ممّا يأتى ، وقد يكون مع ذلك تنوّعُ التأليف وتعدد المؤلفين فى الشىء الواحد :

منها تفاسير لجزء عم ، ولجزء تبارك ، ولسورة الفاتحة ، ولسورة يوسف ، ولسورة الرعد ، ولسورة الكهف ، ولسورة النور ، ولسورة يس ، ولسورة الحجرات ، ولسورة الحديد ، ولسورة القدر ، ولسورة الفيل ، ولسورة التكاثر ، ولسورة الكوثر ، ولسورة الإخلاص وحدها ، ولسورة الإخلاص مع المعوذتين .

ومنها تفاسير للبسملة ؛ ولآية الكرسى ، ولأول سورة الأنبياء ، ولأول سورة الفتح ، ولحروف المعجم فى فواتح السور ، ولآية « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ » . ولآية « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ » ، ولآية « إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . ولآية « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ » ولآية « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » . ولآية « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ » . ولآية « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً » ولآية « لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً » . ولآية « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » . ولآية « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » . ولآية « وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ » ولآية « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ » . ولآية « إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً » . ولآية « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » . ولآية « مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللهُ لَهُ » ولآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » بغير ماقاله المفسرون من قبل . وهو تفسير للعلامة الجليل الشيخ يوسف الدجوى .

وإن تعجب فهناك رسالة فى معنى حرف الواو ، أو وجه ثبوت الواو فى قوله تعالى : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » من أواخر سورة الزُّمَر .

أرأيتَ ذلك وأضعاف ذلك ! إنه قَبَسٌ من نور القرآن ، وشُعاعٌ من شمس الحقيقة الكبرى ، وبصيص من تجلِّيات هدايات الله لبعض عباده !.

أما النور كله ، والهدى كله ، فذلك سرٌّ من أسرار الربوبية ، وكنزٌ من كنوز الألوهية . وشتَّان ما بين علم الخالق وعلم الخلق ، وأين كمالُ السيد من نقص العبد ؟ ! .

نهـاية القول

ونهاية القول أن هذا فنٌّ جديد أيضاً من فنون إعجاز القرآن ، حيث أقام الله كتابه آياتٍ بيِّنات للناس فى معارفه ومعانيه ، كما أقامه آياتٍ بيِّناتٍ لهم فى ألفاظه ومبانيه! .

« قُلْ : فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ » .

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »

اللهم أتمم علينا نعمتك ولا تحرمنا هدَايتك ، واسلكنا بالقرآن فى سلك المهديِّين الهادين ، وارفعنا به إلى أعلى عليين ، آمين آمين .

وَ « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَ ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ » ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق ومبعوث الحق سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه .

شكر ورجاء

أما بعد شكرا لله تعالى وحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فإنى أتوجه بأجزل الشكر إلى كل من عاوننى فى هذا الكتاب برأيه ،أو بسعيه، أو بقراءته والإقبال عليه ،أو بتقديره وتشجيعى على المضى فيه .

وأرجو كل من يطلع عليه أن يلتمس لى العذر إن كنتُ قصرت ، وأن يرشدنى إلى شاكلة الصواب إن كنت أخطأت ، وأن يصحح نسخته على ما جاء فى هذه الطبعة ، وأن يعلم أننى حاولت جهد طاقتى حسن الإخراج وجودة الطبع ، ولكن الظروف أبت إلا أن تقف بى عند هذا الحد .ولعلِّى سدَّدْتُ أوقاربتُ ، وعلى كل حال فالعودُ أحمدُ إن شاء الله .

وأستغفر الله من كل خطيئة وزلل ، وأسأله أن يقابل بالقبول ماوفقنا إليه من نافع العلم وصالح العمل ، وأن يُصلح منا جميعاً الحال والمآل ، وأن يحقق للإسلام والمسلمين جميع الآمال . والحمد لله الذى بنعمته تتمُّ الصالحات . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان فى البدايات والنهايات ، آمين . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟